الشوارع الخلفية

عبد الرحمن الشرقاوي

لكل منا شيء يحتفظ به، ويكتمه عن الآخرين، ولا يحب أن يعرفه أحد غيره.. شيء ما خاص جدا.. ربما كان سره أو حقيقته.

ونحن نمضي في حياتنا حريصين في الغالب على أن نكون صادقين، فلا نخدع على الإطلاق، ونطلب الشيء نفسه من الذين يتعاملون معنا...

ثم.. حين يخيل إلينا أننا أصبحنا واضحين، وأن كل ما أمامنا مستقيم ومبين ومفهوم، إذ بنا ندرك بغتة أن في الأعماق منا أشياء غامضة عديدة: حكايا لم ينفذ إليها شعاع، ولم تضئ بعد.. شوارع خلفية في نفوسنا هي عالم بأسره غريب عنا، يعيش فيه حلم صغير جامح لم يتحقق.. نزوة ارتكبناها في وقت ما.. أحقاد مبهمة.. أطماع.. انفعالات مكبوتة أو أي شيء آخر لا نتبينه نحن، ولكنه يحكم كثيرا من عواطفنا وتصرفاتنا، دون أن ندري!

والذي يحسب منا أنه يقرأ صاحبه كأنما هو كتاب مفتوح، يكتشف فجأة – من خلال كلمة أو ضحكة أو ربما دمعة – أن في صاحبه أشياء لا تزال مجهولة، تعيش وتنمو خفية.. وهذا يحدث حتى بين الأزواج الذين تختلط منهم العواطف والتنهدات والأبدان والأنفاس وحبات العرق لسنوات طوال.. ويحدث أيضا مع أطفالنا.. أبنائنا وإخواننا الصغار.. وطالما انتبهنا فإذا نحن أمام حقائق مذهلة تتفجر بها الأجساد الغضة التي عرفناها وشهدنا تدرجها في العمر يوما بعد يوم...

ذلك أننا لا نصنع من نفوسنا في الواقع غير الشكل الذي نختاره ونحبه ونحرص على أن نظهره، ويظل منا بعد ذلك ما لا حيلة فيه.. ولا خيار!

وفي حياتنا، حتى في حياة كل يوم، تنتشر الظلال لبعض الوقت وعندما تسود الظلال في حياتنا، تضطرب الأشياء الثابتة وتتميع الحدود.. ولا حدود في الظلال!

إذ ذاك يختلط الأبطال بالمزيفين، ويتوجس الذين يملكون الكلمة الصادقة قبل أن ينطقوا بها، لأن صدى كلمتهم يخلع كثيرا من القلوب.. ويرتفع كلام له رنين خادع، وينحني بعض الناس احتراما للخليعات – فالليل يستر مباذلهن – بينما

يرجمون فتاة شريفة طاهرة بعد أول خطيئـة.. ذلـك أنهـا ارتكبتها في النهار فعرفوا خطيئتها!.. ومثل هذا يحدث أيضا مع الرجال!..

وفي مثل هذه اللحظات تستخفي الحقائق وتشوه البسـالة وتصبح الفضيلة عـاجزة بلهـاء، تـنطمس هممتهـا فـي الضحكات العابثة، ويمَّحي الخـط الفاصـل بـين الحماقـة والكبرياء، بين الحب والرغبة، بـين الشـعوذة والجسـارة، وتتسلل العواطف المحتدمة التناقض لتحجب الطريـق أمـام بعض العيون، ويتخبط كثيرون في الطريق إلى المجهـول.. ويبقى بعض الناس – على الرغم من كـل ذلـك – مـدركا لمسئولية الكلمة التي يحملها، محتفظا بالشجاعة الكافية لكـي يلقي بكلمته في وجه الخطر نفسه مهما تكن النتيجة..

يظل بعض الناس قادرًا على التمييز ومعرفة الاتجاه وسط الزحام المتموج فترتفع من بين تـراب الانهيـار، مواقـف مضيئة... كأنما هي المنارات الراسخة تصفع بنورها وجـه العواصف والظلمات، وتبعث أمل الخلاص في قلوب الـذين يكابدون صراع الخفاء..!

عبد الرحمن الشرقاوي

الشوارع الخلفية

(١)

"شكري عبد العال" هو أحد هؤلاء الناس الذين لم يفقدوا الثقة يوما، ولم تغب الابتسام أبدا عن وجهه النحيل الأسمر المليء بالغضون منذ قال كلمته ذات مرة في وجه رئيسه الضابط الإنجليزي، وتحرك، فضربه بالكرسي... من يومها – إلى هذا اليوم من أكتوبر سنة ١٩٣٥ – وهو على المعاش... جمدت به الحياة عند رتبة اليوزباشي فأقام في بيته بشارع عزيز، مهيبا صامدا، يحتفظ بارتفاع قامته الطويلة المديدة، وبالضوء الخارق المنبعث من عينيه الواسعتين، وبرأس لا ينحني، وبصوت مازال واضح النبرات، قويا عريضا خشنا.

"وشكري عبد العال" هو صاحب أول بيت في شارع "عزيز" يشعر منذ بنى بيته أنه مسئول عن كل الذين جاءوا إلى الشارع من بعد وبنوا فيه... والحقيقة أن كل من جاءوا إلى الشارع لقوا من مساعدته ما لم يتوقعوا... وهو يقدم

خدماته للآخرين، كأنما هو ينهض بمسئولية حبيبة يجد لـذة خفية رائعة في النهوض بها.

على أنه لم يكن يريد أن يعيش في هذا الركن المنـزوي من بركة الفيل...

وكان يحلم من قبل، أن يبني بيتا بحديقة صـغيرة، فـي الحلمية الجديدة أو الروضة أو العباسية كما صـنع ضـباط آخرون.. ولكن والد زوجته الباشـكاتب بـدائرة "البـرنس عزيز"، اكتشف من بين أملاك البرنس قطعة أرض واسـعة مليئة بالرمل والنخل وراء الطريق الرئيسي الذي يصل بـين السيدة زينب والحلمية الجديدة، فأقنع المسئولين في الـدائرة بإحياء هذه الأرض، وبدأت الدائرة تضع أساس عمارة على شقتين في أول الأرض من ناحية الشارع الرئيسي الموصـل بين السيدة والحلمية... وراق المكان للباشكاتب فاشترى قطعة أرض بجوار عمارة الدائرة وأهداها لابنته الوحيـدة زوجـة "شكري"، وقبل أن تفرغ الدائرة من بناء عمارتهـا، خلـص "شكري" من بناء بيت بطابقين، وهيأ حوله حديقـة صـغيرة وغرس أشجار اللبلاب والياسمين والفل حول سورها، ولكن امرأته رأت زواحف في الحديقة فرفضت أن تسكن الطـابق

الأول، وأخافتها وحشة الليل في المكان، وحلا في عينها الطابق الثاني، وحلا في عين "شكري" أيضا فسكن فيه وأجر الطابق الأول...

وعندما مات الباشكاتب صهر "شكري عبد العال" عرف هو من الباشكاتب الجديد أن بقية ثمن الأرض لم تدفع بعد، ورفض عرضا بالتنازل قدمه الباشكاتب الجديد، وبنى من مال زوجته دورا ثالثا تسكنه الآن "سعادة هانم".. وهي أرملة موظف كبير جاءت يوما بابنها وبنتها تبحث في الشارع الجديد عن مسكن معقول.

وجاء موظفون من الدائرة يعاينون الأرض، وطاب لهم سعرها، فاشترى "داود أفندي" الكاتب بالدائرة، بالاشتراك مع حماته قطعة كبيرة تواجه عمارة الدائرة، ولكنه لم يستطع أن يبنيها كلها، فأقام بيتا صغيرا من طابق واحد سكن فيه هو وزوجته وأولاده وحماته وترك بقية الأرض حتى يأتي الفرج، وعرض عليه زميله "أمين أفندي" الكتاب بالدائرة أن يشتري جزءا منها فرفض، ورفض كثيرا من العروض بعد ذلك، لأنه لم يتفق هو وحماته أبدا على أي سعر يعرض...

وأخيرا أقسم ألا يبيع الأرض، وأن ينتظر التساهيل ليبني عليها عمارة أحسن من عمارة الدائرة...

وعاد أمين أفندي بعد سنوات بزوجة صغيرة حسناء ليبحث عن أرض في الشارع، فلم يجد غير قطعة أرض صغيرة في آخر المنطقة من ناحية حارة ضيقة توصل إلى درب الجماميز، فاشتراها أمين أفندي، وفرحت بها زوجته التي لفتت الأنظار بجمالها وصغر سنها.. وزحف على المساحة المقررة لعرض الشارع وبنى أمام بيت "شكري عبد العال" تماما بيتا على شقتين كعمارة الدائرة، ولم يستطع أن يرتفع بالبناء غير طابقين اثنين سكن هو في شقة من الطابق الثاني وأجر الشقق الثلاث الأخرى..

وكان "شكري" كلما فتح شباكه، ووجد رأسه يكاد يطل على غرفة نوم المالك الجديد، همس لنفسه:

– الله يلعنك يا أمين ويلعن طمعك.. والله خسارة فيك مراتك ميمي... دي لسه صغيرة واللي قدها بيلعبوا النطة في الشارع... حايعلمها الطمع وفراغة العين!

على أن البيوت لم تكد تقوم حتى ثارت مشكلة اسم الشارع الجديد... وفكرت الدائرة أن تسميه حارة "إبراهيم

باشا الكبير" على اسم الدرب المجاور الـذي يوصـل بـين المكان الجديد ودرب الجماميز... وشاع الاسم فعـلا بعـض الشيء...

وصرخت "ميمي" زوجة "أمين أفندي" في وجهـه عنـدما انتهى من بناء البيت:

- هو أنا وش حواري؟!... ما كله من طمعك... أنت ضيقت الشارع وخليته زي الزقاق.. والنبي ما أقعد هنا أبدًا.. دا أنا بيت بابا المِلْك في أحسنها شـارع في المنصورة... جاي تبني لي في حارة؟!

وبكت زوجة "داود أفندي" الكاتب بدائرة "البرنس عزيـز" وذهبت إلى قريبها الباشكاتب الجديد تشكو إليـه مـن حكـم الدائرة عليها – هي التركية حفيدة الباشوات – أن يكون بيتها في حارة!

ولكن "شكري عبد العال" أحضر لوحتين مـن الصـفيح الأزرق، وكلف أحد الخطاطين أن يكتب عليهما اسم شـارع "عزيز"، وعلق واحدة منهما على أول بيت في الشارع مـن ناحية الطريق الرئيسي وهو بيت "داود أفنـدي"، والأخـرى على بيت "أمين" الذي يقع في أول الشـارع مـن الناحيـة

الأخرى... ومضى أهل الشارع يدعون له بالهيبة والستر، وأخذ هو يروح ويجيء حتى ترك للشارع اسمه: كما هو: شارع عزيز!..

ولم يكد اسم الشارع يستقر، وأقدام "شكري عبد العال" ترسخ فيه حتى أحيل على الاستيداع...

***

وهو الآن، ومنذ عشرة أعوام يعيش على معاشه وعلى أجرة الطابقين الأول والثالث..

وحكاية خروجه من الجيش يعرفها أهل الشارع جميعًا، هو نفسه حكاها مرات بلا تفاصيل... حكاها في كل مناسبة تتطلب تضحية... ولكن كل واحد في الشارع يرويها بطريقته الخاصة.

بعض طلبة الشارع حين يقفون على الناصية بعد العصر، يذكرونها كلما مرت "درية" بنت "شكري عبد العال" عائدة من المدرسة السنية الثانوية بنفس خطوات أبيها الثابتة، وبنفس القامة الشامخة والوجه المستطيل الأسمر الصافي الرائق الابتسامة... وطلبة الشارع يذكرون هذه الحكاية بصفة

خاصة في هذه الأيام من أواخر سبتمبر سنة ١٩٣٥، وكأنها تحرك صمت حياتهم.

وهم يحكون الحكاية بتفاصيل متغايرة في كل مرة، ولكن بإكبار وفرح متجدد وإعجاب لا يفقد حرارته، وإحساس فخور بالمقدرة على أن يواجه رجال آخرون من مصر كل إنجليز الدنيا..!

وطلبة الشارع يذكرون فيما بينهم دائما ما يصنعه العم "شكري أفندي" حين يرى واحدا منهم يسير منحنيا أو يتكلم بصوت واطئ. إذ يزمجر فيه والبريق يسطع من عينيه المبتسمتين:

- شد نفسك وافتح صدرك.. ارفع رأسك كده واتكلم برجولة. البلد عاوزة رءوسكم مرتفعة وأصواتكم عالية...

وكان الطلبة كلما رأوا عربة فاخرة تدخل الشارع برجل فخيم ضخم يزور "شكري عبد العال"، همس واحد منهم لأخيه وهو يداري وجهه من التراب الذي تثيره العربة في العيون:

- والله كان عم شكري يقدر يكون زيه وأعلى منه كمان، ولكنه رفض الذل... ده بعض زملائه بقوا لواءات وخدوا الباشوية.

وفي الحق أن "شكري عبد العال" كان يحس في أغوار نفسه بأنه أقوى من كل أصدقائه المتناثرين في الوظائف العالية... كانوا يرتقون في مناصبهم عاما بعد عام طوال السنوات العشر التي يقضيها هو في المعاش، ولكنهم كانوا يعانون أمامه – خصوصا بعد كل ترقية – نوعا غريبا من الخجل المبهم، ويحبون أن يحتفظوا باحترامه وحسن ظنه فيهم، ويحرصون على زيارته في بيته ويقضون له ما يطلبه لأهل شارعه.

و "شكري أفندي" ينفق معظم وقته منذ أحيل إلى المعاش مشغولا بخدمة أهل شارعه... فهو الذي حصل على معاش للست "سعاد" بعد أن مات زوجها الموظف الكبير وترك لها ولدا وبنتا، وداخت سنتين وراء المعاش، تدافع الطمع فيها حتى من عيون بعض زملاء زوجها، ثم خفض لها – بعد ذلك – أجرة الشقة التي تسكنها في بيته وصبر على الأجرة حتى حصلت على المعاش..

أهل الشارع يعرفون أنه عمل هـذا الله حـين قصـدته الأرملة الطيبة، فحمى الشابة الحلوة من عثرات الزمان..

و "شكري أفندي" هو الذي ساعد "أمين أفنـدي" صـاحب البيت المقابل لبيته عندما تحرش به التنظيم لأنه دخل بالبناء في المساحة المخصصة للشارع، فأمرتـه الـدائرة أن يهـد ما بناه ويعيد البناء من جديد... وكان "أمين" وقتهـا يسـتعد لبناء الدور الثاني... واستنجد بشكري فتوسط عند باشـكاتب الدائرة وعند موظف كبير في التنظيم حتى سوي الموضـوع وضمن شكري للدائرة أن يدفع أمين – عندما يتيسر الحال – ثمن الأرض التي جار عليها بغير حق..

"شكري" هو الذي قدم هذه الخدمة الكبيرة لأمين.. ولو أن أمين أفندي هذا لا يعجبه، فهو يترك زوجته "البنت ميمـي" تقف في الشرفة بقميص يكشـف عـن ذراعيهـا ونحرهـا ولا تختشي.. "والحمار" يقف جنبها أحيانا وحولـه جيـران. طلبة عزاب يكلمهم ويترك "ميمي" تتدخل في الكلام!.. جحش حقيقي أمين أفندي هذا!.. "ميمي"؟! هذا الاسم لا يصـح أن ينطق به أحد غير زوجها.. هو اسم لغرفة النوم فقط.. ومع ذلك فكل سكان شارع "عزيز" لا يعرفون غيره، ومنهم مـن

ينطقه بلا خجل ولا كلفه!! "ميمي"؟!؟.. ما اسمها الحقيقـي؟! أهي أمينة؟! يمكن أن تكون "ميرفت" فهي بيضـاء ممتلئـة عريضة الجبهة واسعة العينين عالية الأنف، دسمة الشـفتين في وجهها طابع الحسن.. شكل التركيات! ولكن ربما كـان اسمها منيرة أو نعيمة فشعرها أسود فاحم وعيناها سـوداوان وقامتها فارعة، عالية الصدر والعجز كبنات العرب.. علـى كل حال مهما يكن اسمها وأصلها وفصلها فليس هـذا هـو المهم.. المهم أن "شكري" لا يكاد يفتح شباكه أو يقـف فـي الشرفة حتى يجد عينه عليها وهي في داخل مسكنها.. لعنـة الله على "أمين" الذي أعماه الطمع في أرض الشارع! لـو أن "شكري" مد يده من الشرفة لسلم على من يمد يده من شـرفة بيت "أمين"، ومع ذلك فشبابيك أمين دائما مفتوحة وامرأتـه "ميمي" تروح وتجئ داخل البيت في أيام الصيف بملابسـها الداخلية..!! على كل حال الناس أحرار في بيوتهم، ولكـن.. للوقوف في الشرفة أصول.. فالشـرفة كالشـارع تمامـا.. "ميمي" هي المسئولة عن وقفتها في الشرفة فـي عصـاري الصيف ونحرها الأبيض مكشوف حتـى الصـدر الفـاتن، وذراعاها المستديرتان عاريتان تماما.. هـذا شـيء يغـيظ

"شكري" دائما.. لو أنها كانت زوجته – أو ابنته – لكسر رأسها ما دام زوجها "أمين أفندي" هذا لا يفهم ولا يشم ولا يعرف العيب ولا الأصول.. هذا الحال المائل هو الذي جعل "شكري" لا يدخل بيت "أمين" بعد زيارة الترحيب التقليدية التي قام بها منذ سنوات، ولكن مشاكل الزوجين كانت تفرض نفسها عليه، فيعجب "للولد أمين" هذا الذي يقتني كتكوتة صغيرة تزوجها وهي قطة مغمضة لا تتجاوز الرابعة عشرة، وهي الآن تبلغ العشرين بالكاد، جميلة، طيعة، بعمره.. ومع ذلك فلا يعرف كيف "يحشمها" مع أنه أكبر منها بعشرين عاما على الأقل، طويل عريض فحل!..

على كل حال يا "شكري".. لله في خلقه شئون!..

ولكن "ميمي" طرقت بابه ذات صباح بعد أن ذهبت ابنته "درية" التلميذة بالسنية الثانوية إلى مدرستها، ولم يكن في البيت غيره هو وابنته الكبرى "سميرة". مصيبة!.. أتراها تزور "سميرة".. إنهما في سن متقاربة.. ولكن.. أتقوم "سميرة" بزيارات من وراء ظهره؟!.. "سميرة" البنت الهادئة التي ورثت أمها في كل شيء: الوداعة والطاعة المستسلمة،

ووجهها البديع، وصوتها الذي لا يرتفع، ونظرتها المنكسرة، ومسئولياتها العديدة!!.. أتقوم "سميرة" بما يغضبه؟!

ولكن "سميرة" دخلت عليه وأخبرته وهي لا تخفي اشمئزازها، أن حرم الجار الذي يسمى "أمين أفندي" جاءت وعلى وجهها أقة بودرة وأحمر على الصباح، وأنها لم تجئ لتعزي في الذكرى للمرحومة كما تصورت "سميرة" ولكنها جاءت تريد "عمها شكري بيه"!!

واختلج "شكري" وهو يسمع كلام ابنته.. هو أيضا لم يتنبه بعد، إلى أن اليوم هو الذكرى الخامسة لوفاة زوجته.. وهو منذ ماتت زوجته يكتفي بزيارة قبرها في الأعياد ويتجنب أن يقيم مأتما جديدا يوم الذكرى كي لا يجدد أحزان ابنته.. ولكن "سميرة" تذكر حدادها دائما.. تماما كما كانت أمها المرحومة! وهي لم تخلع بعد ثوب الحداد الذي ارتدته منذ خمسة أعوام وهي في أول شبابها..

ونظر إليها بعمق، وتنهد..

وقام يسأل عن الزائرة أين هي – كأنما ينتزع "سميرة" من ذكرياتها – واستمرت "سميرة" تقول بنفس لهجتها المثقلة بالحزن والسخط المكتوم:

- أهي في أودة الجلوس.. اتفضل لها حضرتك أنت.. أنا مش داخله لها..

ومن خلال لهجة "سميرة"، أدرك "شكري" أن ابنته لا علاقة لها بميمي فأحس باطمئنان داخلي..

ودخل غرفة الجلوس المزدحمة بمقاعد ذات مساند عالية من الخشب الغامق المخطط تكسوها القطيفة الحمراء الناسلة، فوجد "ميمي" منغرسة على كنبة وعيناها في الصور المعلقة على الجدران: صور له هو وأصدقائه منذ أكثر من عشرة أعوام.. ثم قرار إحالته إلى المعاش في إطار مذهب.. وعلى جدار آخر تنفرد صورة وحيدة تحددها خطوط سوداء لفتى في الرابعة عشرة يتهدل عليها شريط أسود أطفأ التراب لمعانه..

وحين رأته "ميمي" أمامها في الغرفة وقفت وهي تسترد نظرتها التي كانت تتعلق – في إعجاب – بصورة فوتوغرافية ملونة قديمة له بالبدلة العسكرية والسيف على جانبه وهو يبتسم بثقة...

ووضع يده في يدها مرحبا وضغط بقوة فتركت يدها الطرية في يده، وطابت له نعومتها الدافئة الرخصة كأنها بلا

عظم، ولكنه سحب يده بسرعة وعصبية، وأشار إليها فقعدت هي كما كانت على الكنبة، وقعد هو على الكرسي المقابل في أقصى الغرفة يحاول أن يغض نظراته، متضايقا لأنها تحط رجلا على رجل وهي قاعدة أمامه.. كان الفستان الحريري المشجر القصير يلف جسدها المكسم، ويبرز تقاطيعه ويحدد نهديها، وما فوق الركبة بقليل ببطن فخذها مكشوف أمام عينيه، ملفوف.. دسم أبيض.. ووجهها الممتلئ الشفاف بغمازات الصدغين، وانسدال الفستان من تحت خصرها الممشوق، وعيناها الواسعتان السوداوان، وصدرها المكور الذي يبدو راسخا متماسكًا.. كان كل ذلك يقطع الطريق على عيني "شكري" وهو يحاول جاهدا أن يلم نظراته تحت جفنيه... إيه!... بطنها ضامرة بطريقة لافتة... لا يمكن أن تكون هذه هي بطن امرأة حملت وولدت ثلاث مرات!... وطافت برأسه ذكرى عابرة من زوجته المرحومة! وتنهد... ثم رفع رأسه أخيرا وهزها في حيرة وضيق وهو يسأل "ميمي" في عجلة عما جاء بها.. كأنما يريد أن يخلص...!

وشكت له "ميمي" من سوء الحال... واضطربت بعض الشيء وهي تقول له إنهم فصلوا زوجها "أمين" من دائرة

"البرنس عزيز".. ومضت ترجوه بصوت هادئ خاشع أن يتوسط لإعادة زوجها الذي فصله "أدهم بيه" الباشكاتب الجديد المتصابي واتهمه بالاختلاس من أموال الدائرة.. وذلك كله لأنها هي صدته مرات عندما غمز لها بعينيه.. وقطع الخجل كلماتها فتوقفت تبلع ريقها.. ثم تهدج صوتها وهي تندب بختها، وتؤكد أن زوجها شريف وحنبلي وخائب خيبة لا توصف، وآخرتها أن يرمى به في الشارع هو والعيال.. وكان صوتها يتكسر بمرارة وتفلت منه نبرة حادة ولكنه لم يفقد حلاوته أبدا ولا قدرته على النفاذ إلى الأعماق!

واهتز "شكري أفندي" وتأثر.. وبسط نفسه لها، إنها تناديه "عم شكري بيه".. وتكرر هذا النداء.. لا أحد في الشارع يقول له شكري بك.. لا أحد في الشارع يتكلم هكذا بكل هذا الأدب والفهم والذكاء وصفاء الطبع.. وتعجب أن تكون هذه البنت التي تختلج أمامه الآن وديعة طيبة كقطة رومية مبتلة الشعر، هي نفس المرأة التي ترج البيت وتهد الدنيا على زوجها الولد "أمين"؟!

وعندما نكست "ميمي" رأسها وهي تكتم نشيجها في فزع من المصير، أحس "شكري" كأن شيئا رهيبًا يمتص دمه،

وارتعش هو نفسه وفي أذنيه شيء يبعث الأسى كرجع نواح قديم، وقام وانحنى على "ميمي" مهدئا ويده على كتفها مقسما لها أنه سيسعى بكل جهده ليعين "أمين" في وظيفة جديدة أحسن من وظيفة الدائرة وبمرتب أعلى، ما دامت الدائرة متوحشة ترمي موظفيها هكذا في الشارع بلا رحمة!

وعندما خرجت "ميمي" كان "شكري" يفكر في حال "أمين" المطرود من الشغل وأولاده الثلاثة الصغار بلا حيلة، بينما كانت ابنته "سميرة" ترفع يديها وتلوح بهما وتلوي شفتيها وتهز كتفها وهي تغلق الباب وراء "ميمي" في سخرية تختلط بالإشفاق والغيظ!

وعاد "شكري" ينظر إلى ابنته "سميرة" في ثوبها الأسود.. وارتدى ملابسه وخرج مسرعا إلى المقابر يزور قبر زوجته وابنه، وحيدا كما تعود في أيام الذكرى!..

ولكنه لم ينس "أمين".. وبدأ السعي ليلحقه بوظيفة فور العودة من زيارة المقابر.. وأخذ وعدا بتعيينه..

وبعد أيام نجح في إلحاقه بوظيفة في وزارة الأوقاف بذات المرتب الذي كان يتقاضاه في دائرة البرنس عزيز..

وزاره "أمين" ليشكره بعد ذلك معتذرا لأن امرأته "ميمي" هي التي بدأت الزيارة وحدها، أما هو فكان مترددا خجــلان من أن يكلف "شكري أفندي" بالتوسط في تعيينــه.. لــولا أن "ميمي" تعتبر عمها "شكري بك" أبا لها!.. وتضايق "شكري" من كلام "أمين" ورأى في سلوك "ميمي" شيئًا متفوقــا علــى زوجها وعلى كل من في الشارع!.. إنها هي وحــدها فــي شارع عزيز تضع بعد اسمه لقب "بك" بنت حسنة التربيــة.. تعرف الأصول!! من الذي رمى هذا المرأة الأنيقة المفعمــة المتدفقة بالبغل "أمين".. من لمها عليه!.. من قال لك يا بنــي إنني مثل أبوها؟! أنا مع ذلك لست أكبر منك بأكثر من عشرة أعوام.. يا حمار!

ولكن من يصدق أن "ميمي" هذه الهادئة المستكينة الباكية تقذف أحيانا في وجه زوجها بأي شيء تلقاه، وتظل تصخب بكلمات غليظة قبيحة!؟.. ومع ذلك فلا أحد في الشــارع لــه مثل ذوقها ورقتها، ولكن أمين الذي يكبرها بأعوام لم يكــن يستحقها.. أخذها صغيرة لا تعرف الدنيا، تضطرب ويحمــر وجهها إن كلمها رجل غريب، فعلمهــا الغبــي أن تكشــف نحرها، وطير عنها برقع الحياء، وجرأها الحيوان علــى أن

تشتمه وعلى أن تقف في الشرفة بقميص النوم وتتحدث مع جيران شبان فحول.. طلبة فلاحين!!

لا أحد يشبه "ميمي" هذه في رقتها وذوقها وجمالها، لا في الشارع ولا خارج الشارع.. لا يذكر "شكري" أنه عرف امرأة بهذا الصفاء والفتنة والعنفوان أيضا، إلا امرأة إنجليزية في السودان.. لها ذات الرقة والحس المرهف والإقبال على الحياة، وذات الجرأة على زوجها الضابط الإنجليزي.. يا سبحان الله!! حتى عيونها وخفة حركتها وهلة وجهها بطابع الحسن.. تماما تماما مثل "ميمي"! ولكن الضابط الإنجليزي كان معروفا بشذوذه!.. صحيح لا شيء جميل فيكم يا إنجليز غير تلك المرأة.. وعلى رأي المثل: العين ما رأت من الغرب أي شيء يسر القلب.. إلا امرأة ذلك الضابط! إيه!! ياما كان الإخوان الضباط المصريون يفعلون مع الإنجليزيات في السودان!! بعضهم اعتبرها مهمة وطنية.. حتى اكتشف أن رفيقته الإنجليزية.. جاسوسة!!

أيام.. "ميمي" على كل حال يا "شكري بك" هي أكثر من عرفت جمالا ورقة وفي دمها يجري سحر آخر، وهي أعذبهن صوتا.. وأشرف!

على أن "ميمي" فوجئت من عمها "شكري بك" بما جعلها لا تفكر بعد في زيارته!.. كان ذلك منذ أسبوع واحد.. والصباح يمس بحرارة شمسه كل شيء.. ورآها من شباكه ترتدي ملابسها وشباكها مفتوح بلا حرج، ثم تابعتها نظراته دون أن يشعر، وهي تخرج من شقتها، ورآها تعبر الشارع بسرعة إلى بيته، وبدنها يتأود بخفة والفستان يكاد يأكل منه، وكأنما اكتشف فجأة أنه بدن رائع، أروع من كل ما عرف وما تخيل.. ولمح نهديها يوشكان أن يخترقا الفستان وهي مفتوحة الصدر للحياة، فتية متدفقة..

وكان وحده في البيت، فابنته "درية" في المدرسة، و "سميرة" طلعت إلى الدور الثالث تزور "سعاد هانم" الأرملة التي بعثت تطلبها...

وقدر "شكري" أن "ميمي" ربما كانت رائحة تزور "سعاد هانم" فهي مريضة!.. ولكنه فوجئ بدقات خافتة على باب شقته..

وأدركت "ميمي" منذ فتح لها "شكري" أنه غير عادي..

وحين قعدت رأت نظراته قلقة حائرة، وكأنه يحاول أن يهرب بعينيه إلى الصورة المعلقة وراءها على الحائط،

وأحست بنظراته تنتقل مسرعة مضطربة بين الصور وبين وجهها وصدرها وكل بدنها.. وشعرت بخجل وهي تقتنص نظراته المشرعة على بدنها، فاهتزت تصلح الفستان الأزرق المكسم من على منبت نهديها ووضعت كفها تتجسس مفرق نهديها بلا شعور كأنها تداري ما زاغت عليه عين "شكري بك"..

ثم طلبت منه أن يوصي على زوجها، فأحد رؤسائه في وزارة الأوقاف يضايقه، أو.. فيتكرم بالسعي لنقله إلى وزارة الحربية ليكون تحت رعاية أصدقاء "شكري بك".

صوتها ذو البحة النفاذة! وصدرها الشهي! وهذا الفستان الأزرق القصير الضيق المحكم الذي يقدم كل ما خفي من كنوز جسدها بشكل زاعق! وهذه النظرة المذعنة المليئة بالقلق والطلب كأنما تستفز رجولته ليحميها بكل طاقته وكل ذراعيه وكل قوة جسده!

واختلجت عيناه حين وقعت نظراته آخر الأمر في عينيها الواسعتين السوداوين، وفتحة أنفها الجميل ترتعش!

وابتسمت "ميمي" وانفرجت شفتاها بلا مناسبة ورنت منها ضحكة...

وفجأة صاح "شكري" كأنما يحاول أن يغمر شيئا ما من نفسه في ضجيج صوته المرتفع:

- الله؟!.. ما جوزك بيشتغل في أمان الله بقى له مدة!.. الله! الولد ده ما يعتمد على نفسه بقى.. الله.!! غريبة!. وأنا أعمل لكم إيه يعني؟؟ مش خلاص بيشتغل ويقبض وفاتح بيته.. حربية إيه اللي أشغله فيها!

وازداد صوته ارتفاعا وهو يغمض عينيه:

- ثم أنا مش فاضي كل يوم والتاني تنطي لي هنا بالشكل ده كمان.. أنا ما أقدرش أعمل حاجة لجوزك خلاص.. اللي عليه عملته! مش كل شوية ألاقيكي ساحبة لي مين وجاية.. والا.. جاية لوحدك؟!. دا.. ده عيب!.. عيب كده! كفاية كده!!. كفاية خالص.

ثم التفت إلى الباب المفتوح ووجهه محتقن، وفي خياله تضطرب صور لابنته "سميرة"، و "درية" والمرحومة زوجته التي أصبحت الآن ترابا تحت تراب!!

ولم تغضب "ميمي" من لهجته ومن صراخه، ومن تحركه العصبي في كرسيه كأنه يصرفها، ولم تغضب من إشارته لها ألا تزوره بعد ذلك لا هي ولا زوجها.. وإنما خرجت متعجبة تخفي ابتسامتها وهي تراه خلفها كطفل وحيد يصرخ في الظلام..!

إنه خائف!..

خائف منها وهي التي تكون في سن ابنته "سميرة"!..

إنه خائف.. هذا الرجل الذي لم يلتفت إلى امرأة في الشارع منذ ماتت عنه زوجته والذي يخافه كل أهل الشارع حتى النساء في البيوت، وحتى التلاميذ الذين يقفون على الناصية يتهامسون عليها ويتعرضون لها بالسخرية ويتحدونها ولا يخافون من أحد ويهتفون بسقوط النظام ورؤساء الحكومات وملك انجلترا!

عم "شكري بيه" خائف!.. هو الذي ضرب رئيسه الإنجليزي بالكرسي.. إنه خائف منها هي! وهي تشعر تماما بما كان يضطرم في أعماقه، وما زالت تشعر بلهب نظراته التي كانت تعريها وتسري بكل النار على خطوط بدنها.. ونهديها! لو أنه كان غازلها الآن بالذات لما صدته، ولتركت

نفسها له على الرغم من أنها لم تشعر بمثل هذا مع أحد من قبل بل ظلت تصد كل الرجال، ولكنه هو بالذات يملك شيئا يختلف عن الآخرين، شيئا يروي ويشبع على الرغم من أنه في الخمسين، والشعرات البيضاء تملأ شاربه القصير.. ولكنه خائف منها هي التي رهبته دائما منذ جاءت إلى الشارع زوجة في السادسة عشرة، وعاشت ترهبه وتحترمه، ولم تجرؤ على دخول بيته إلا منذ حين، عندما ساءت الحال بعد فصل زوجها.. وحتى بعد أن تعددت زياراتها له لم تفقد أمامه إحساسها بالوجل.. كانت كلماته التي ينطقها بعناية، وصوته الخشن الذي تشيع في مظهره الجاف رقة وحرارة، وشكله الطويل المهيب، ونظراته الساطعة الوضيئة التي صعب عليها أن تواجهها أول الأمر، ووجهه الأسمر بشفتيه الغليظتين في صرامة، وأنفه الكبير الشامخ، وحرصه على ألا يغازلها كما تعودت من الرجال.. كان هذا كله يثبت هيبته في قلبها.

وعندما زارته مع زوجها بعد التعيين ليشكراه، شعرت بتهيب زوجها أيضا منه هو!.. ولكنه هو خائف منها.. هي!

وعلى كل حال فهي لم تعد تفكر في أن تزوره..

وهو كلما تذكر آخر زيارة لها يزفر من السخط، ويعجب كيف واتتها الجرأة على الدخول إلى شقته بفستان كالذي جاءت به وهي تعلم أنه وحيد.. قال لها إنه وحده في الشقة عندما فتح لها الباب، ومع ذلك فلم تتردد في الدخول وكأنها لم تسمعه.. وهذا لم يكن يليق بسمعتها ولا بسمعته.. ماذا يقول الناس في الشارع لو عرفوا أنها كانت عنده وحيدين في مسكنه؟!

إن "شكري عبد العال" لا يفعل أبدا ما يثير شك أحد، وهو منذ ماتت زوجته، مقتصر، في حاله.. لم يعرف عنه في الشارع أن عينه زاغت إلى امرأة، وهو حتى في المرات القليلة التي يعود فيها متأخرا بعد سهرة مع أصدقائه كان يحتاط لكل احتمال.. فيدخل الشارع في صمت الليل ويتفرس الطريق جيدا بعينيه بعد أن يملأ فمه بحبات النعناع ليخفي رائحة الخمر.. لا أحد في الشارع شم منه رائحة الخمر، ولا أحد يعرف أنه أحيانا يشرب مع أصدقائه، وينجلي وهو يسمع الأغاني القديمة ويطرب للرقص..

وهو دائما مهيب ثابت الخطوات: العصا في اليد، وأحيانا منشة من ذيل فرس أبيض بمقبض عاجي أنيق فيه وجه

إخناتون، والكرافتة السوداء أبدا نظيفة يسند عقدتها بمشبك ذهبي للياقة، وفي خنصر يده اليسرى خاتم فضي بفص من الجعران الأخضر منقوش عليه بالهيروغليفية، وفي اليد الأخرى خاتم من مكة بفص بلوري أزرق يتأمل منه صور الكعبة ويعرضها مزهوا على من يريد..

وهو أنيق على الرغم من كل شيء، في الشتاء يلبس بدلة غامقة من طراز قديم تلمع من كثرة الكي ولكنها نظيفة، ولبسه في الصيف أبيض في أبيض حتى الحذاء.. وعلى الرغم من أنه في الخمسين فوجهه منبسط بلا تجاعيد، وشعر رأسه الحليق لا تبين منه شعرة بيضاء، ولا شيء فيه يحمل علامة السن غير شاربه القصير.

وهو لم يفعل طوال حياته شيئا يندم عليه.. هكذا كان يقول دائما.. وهو على حق.. ولكم قدم من تضحيات!!

ففي سنة ١٩١٩ رفض أن يضرب المظاهرات وكان في رتبة الصاغ فعاقبوه وخفضوه إلى رتبة اليوزباشي ونقلوه إلى السودان، وفاتوه بعد ذلك في كل ترقية وسبقه زملاؤه، ولقي نفسه بعد عودته من السودان – في سنة ١٩٢٥ – ما يزال في رتبة اليوزباشي يسبقه كل زملائه برتبتين على الأقل

ويرأسه ضباط كانوا في المدارس الابتدائية عندما كان هو ضابطا في الجيش.. واشتعلت المظاهرات في كل المدن الكبرى إذ ذاك، فطلبوا منه أن يقود حملة لسحق المتظاهرين.. ولكنه رفض!

***

إنه لا ينسى أبدا ذلك اليوم من ربيع سنة ١٩٢٥، كان سادس يوم لوفاة ابنه الذي استشهد في مظاهرة المدرسة الخديوية قبل أن يكمل أعوامه الأربعة عشر وهو يقرع طريق الحياة بأقدام نشطة فرحة، والرجولة المبكرة تتسلل إلى كيانه المتحفز المنطلق.. واستدعي "شكري عبد العال" إلى وزارة الحربية فانتزع نفسه من دموعه وذهب، وقابله هناك ضابط مصري يعمل مديرا لمكتب ضابط إنجليزي كبير، ويحمل على كتفه رتبة أعلى من رتبة "شكري" وإن كان مرعوسا له منذ سنوات.. وواساه الضابط المصري بسرعة وبطريقة آلية ثم طلب منه أن يقود حملة تسافر على الفور إلى طنطا للقضاء على إضراباتها التي أوشكت أن تتحول إلى ثورة كاملة..

كان "شكري" إذ ذاك يتهاوى في أعمـــاق نفســـه وتكـــاد ضلوعه تتزايل تحت فداحة كارثته.. ولكنه مع ذلك كان يبدو متماسكا: الرأس مرفوع كعادته، وقامتـــه مشـــدودة.. وهـــو ما زال يستطيع أن يتكلم، ويرى، ويسمع، ويفكر، وينفعـــل، ويتنفس!

وعندما عرضت عليه مهمة السفر إلى طنطـــا حـــاول أن يعتذر، ولكن الضابط المصري أكد لـــه الأهميـــة الخاصـــة للعملية العسكرية ونصحه أن يقبلها، وسيجد عزاء في السفر وتغيير الجو والبعد عن مهمة كهذه، لأن اعتـــذاره ســـيئول بشكل خاص وسيؤذيه في مستقبله، وكفى ما ناله فيما سبق!!

ساعتها وقف "شكري عبد العال" يصرخ في وجه الضابط المصري كأنما هو يطلق احتجاجا فاجعا في وجه مأساته:

- افهموا يا ناس.. أنا عمري ما ضربت مظـــاهرات وعمري ما حاضرب مظـــاهرات.. أنـــا عمـــري ما قتلت مصري! هو يعني الواحد منكم لازم يموت له ابن في مظـــاهرة علشـــان يفهـــم يعنـــي إيـــه ما يضربشي المظاهرات بالرصاص!؟..

ثم سقط منهارا على الكرسي وأجهش بالبكاء وهو يقول في صوت كالنواح:

- ومع ذلك ابني أنا مات في مظاهرة.. أنا اللي عمري ما قتلت حد.. ابني الوحيد!! واللي بيدبحوا أولاد الناس بيعيش لهم أولادهم ويكبروا ويفرحوا بيهم!.. ليه يا ناس؟. ليه بس؟. ليه بس يا رب؟! اللهم لا اعتراض يا رب! بقى كده يا رب!؟

وساد الصمت إذ ذاك في مكتب الضابط المصري.. صمت رهيب تقطعه شهقات ذبيحة من عويل مكظوم.

واهتز بدن "شكري" لحظة ودموعه تسيل.. وبعد قليل شرب جرعة من كوب ماء..

ثم جاء من يدعو اليوزباشي "شكري عبد العال" لمقابلة الضابط الإنجليزي..

ولم يكد "شكري" يدخل حتى ارتفعت الأصوات واختلطت في الداخل.. واجتمع ضباط مصريون وموظفون وراء باب حجرة الضابط الإنجليزي وزحموا حجرة مدير مكتبه، تتلاقى أبصارهم على الدهشة من زئير "شكري" الذي يغمر صراخ الضابط الإنجليزي واستغاثاته، وحين اقتحموا الباب لقوا

الرجل الإنجليزي يحاول أن يفلت ويداه تدفعان الهواء، محاصرا في ركن الغرفة، يعوي، والدم يسيل من جبهته، و "شكري" يمسك كرسيا يضرب به رأس الرجل، وقدمه ترفسه في بطنه..

لم يشعر "شكري" بالراحة طوال سنوات عمله بالجيش كما شعر وهو يرى الضابط الإنجليزي يهوي في ركن الغرفة وهم يحملونه ويتصايحون على بعضهم البعض في طلب الطبيب، والنذير بخراب البيوت بعد أن ضرب الضابط الإنجليزي!!

وتنهد "شكري" بارتياح.. كأنما غمرت نفسه – لأول مرة منذ مات ابنه – نسمة عزاء!

وعندما صدر قرار إبعاده من الخدمة بعد ساعة واحدة من الحادث، هز كتفيه، وابتسم، وتسلم القرار وجعله في إطار مذهب ووضعه في أبرز مكان من حجرة الجلوس في بيته، وتعود أن يسمي هذا القرار "وسام البطولة والشرف"..

وشعر أيامها بفضل امرأته.. هونت عليه الحياة، ولم تعد تبكي أمامه مصرع ولدها الوحيد، وطوت نفسها على الثكل الذي هدها، وحاولت أن تكلم شكري عن المستقبل بعد إحالته

على الاستيداع.. وعلى الرغم من أنه كــان يســمع صــدى النواح في كلماتها المشجعة عن المستقبل، ويــرى انعكــاس اللهب في البريق المواسي من عينيها، فإنه لم يســتطع هــو الآخر أن يبكي أمامها.. وعندما حدثته عــن أســرة عامــل جاءت تطلب استئجار الدور الأول، وأبدت ارتياحها لزوجــة العامل وحكت له عن تفتح قلبها لطيبة هــذه المــرأة التــي لا تنجب، وهي بعد ذلك قادرة على الابتسام، وفي قلبها مكان للضحك.. عندما وافق "شكري" على أن يؤجر الشــقة لهــذه الأسرة ما دامت امرأته تجد الراحة في هذا الجــوار، وكــتم ضيقة ونفوره من أن يؤجر شقة في بيته لعامل!.. لم يكن هذا يليق في رأيه.. ولكن ما دامت امرأته تحب، فهو لا يستطيع الآن أن يرفض لها أية رغبة مهما تراءت له حمقاء!..

وهكذا سكن الأسطى "عبد المعبود" في الدور الأرضــي، وأطل عليه "شكري" فرآه منذ أول ساعة استقر فيها يستروح الفل والياسمين ويمسك خرطوم الماء فيسقي أشجار الحديقــة الصغيرة بعناية ولذة.. وحكى "عبد المعبود" له عن كل شيء ليكون الرجل على بينة.. فاعترف له بأنه مطــارد.. كــان عاملا في المطبعة الأميرية واشترك فــي مظــاهرات ســنة

١٩٣٠ وقاد إضرابا خطيرا، ففصل من المطبعـة وحـبس احتياطيا.. ثم خرج من السجن فأنشأ مطبعة صغيرة في درب الجماميز أطلق عليها "مطبعة الحرية والاسـتقلال" وعـاش يعمل فيها وحده، ويكسب منها ما يكفل حياة من الستر له هو وزوجته التي حار فيها الأطباء ولم تنجب!.

وراقت صراحة "عبد المعبود" وبساطته لشكري، وأعجبه أنه هو الآخر رفع رأسه في وجه الإنجليز ذات يوم ولم يبال بعد بما يكون.. ووجد "شكري" نفسه يحكي لعبد المعبود عن تاريخه مع الإنجليز، ويناقشه في السياسة باحترام لآرائه..

وبدأ "عبد المعبود" عهده في البيت بأن قدم إلى "شـكري أفندي" هدية من المطبعة. علبة صغيرة من الكرتون بها مائة بطاقة زيارة كتب عليها بخط بارز لامع "الضـابط شـكري عبد العال – شارع عزيز – بركة الفيل"، وتعود من حين إلى آخر أن يقدم هدايا من دفاتر ورق الكتابة على رأسـها اسـم "شكري عبد العال" يكتبه خطاطون يختارهم "عبد المعبـود" بعناية، ويتفننون في أنواع الخط..

ولزمت امرأته شقة "شكري عبد العال" تواسـي زوجتـه وتسليها عن مصابها وتحكي عن مصائب أخـرى احتملتهـا

أمهات من قبل وعشن بعد ذلك وبردت قلوبهن وأعطين الصبر.. وحرص "عبد المعبود" على أن يزور "شكري" كل يوم يسأله إن كان يستطيع أن يؤدي عنه أي عمل أو يقوم له بأية خدمة..

ويوما بعد يوم أحس شكري في أغوار قلبه بحب يتزايد للساكن الجديد الذي تلتمع في عينيه دائما نظرات واثقة مشفقة، ويشيع في صوته الخفيض الصلب حنان أخوي.. وشعر أن "عبد المعبود" هذا العامل القديم، صاحب المطبعة الصغيرة التي يعمل فيها وحده يمكن أن يكون صديقه، وأدرك أنه ظلمه ذات يوم وتعالى عليه بغير حق عندما هجس في ذهنه خاطر بأنه ليس من اللائق أن يؤجر له..!

وبالاندفاع الذي يؤججه الندم، بدأ يزور "عبد المعبود" في شقته بالطابق الأرضي، ويراقب بإعجاب رعايته لأشجار الفل، ويشرب من يده، ويقيم عنده ساعات، والطمأنينة الصافية تغمر قلبه.. وأعجبته "أنيسة" امرأة "عبد المعبود" بهدوئها وحشمتها، على الرغم من جمالها الملحوظ وحيائها الشديد وطاقة الأمومة التي تتفجر منها، حتى لكأنه هو بكل سنه، طفل يتمنى لو يستدفئ في حضنها.. وأعجبته بساطتها

وصراحتها وعدم إحساسها بجمالها، وطريقة اندفاعها البسيط في الكلام ببقايا لهجة ريفية، وحكمة ربما لم تكن هي نفسها تدرك عمقها.. وذات مرة شعر بوخز شديد لأن نظراته ارتمت على بدنها الفتي المتفجر، تفحصه كبدن أنثى تستكن فيه طاقة خارقة من الفتوة والمتاع!.. فخطف بصره عنها متحرجا، واضطرب.. ومضى يستعيذ من همزات الشياطين، ويحدث عبد المعبود عن أنيسة كنعمة اختصه بها الله!!

ومضت الأيام تؤلف بين "عبد المعبود" و"شكري" حتى لم يعد "شكري" يجد حرجا في أن يحدث "عبد المعبود" عن أشياء كثيرة من حياته الخاصة!.. وكلمه عن لهفته الشديدة إلى الولد، رغم تحذير الأطباء لزوجته من الحمل بعد أن سقطت!! ولقي "عبد المعبود" نفسه هو الآخر يعترف لـ "شكري" برغبته في الخلف ثم اعتياده الحياة بلا ولد، وحرصه على ألا يذل زوجته بضرة، وربما كانت هي بلا ذنب!..

وشارع "عزيز" يزدحم بالبيوت الجديدة، وبركة الفيل تعمر، و "شكري أفندي" يتعرف إلى الملاك والسكان الجدد ولكنه لا يجد بينهم أبدا رجلا مثل "عبد المعبود"، ناضجا

واثقا بالحياة، لا يعذبه قلقه، ويستطيع دائمًا أن يتصرف بحرية – أمام قدره – على الرغم من كل شيء..

وفي لحظات الأزمة والضيق، لم تسترح نفس "شكري" إلى رجل واحد في الشارع مثلما استراحت إلى هذا العامل المتوسط الطول، الممتلئ، العريض الصدر، ذي الأقدام الراسخة في الأرض، والخطوات القوية السريعة، والوجه المستدير الطيب بعينيه الضيقتين اللامعتين في ذكاء، وفمه الواسع المنفرج الشفتين، وأنفه المكور، والجبين المرتفع بحاجبين مرفوعين كأنما يرسمان دهشة خفية من الدنيا.. وجه بريء هادئ متعب، يبدو التعب دائما على غضونه رغم إشراقه.. ويوحى بأن صاحبه عاش في الدنيا أكثر من أعوامه الخمسة والأربعين!

وعندما فجع "شكري" في زوجته بعد قتل ولده بسنوات، لم يجد غير "عبد المعبود" يحتضنه ويلقي رأسه على منكبه العريض ويبكي.. يبكي بلا انقطاع وفي ضعف وانهيار ووحدة.. أشد من وحدة بنت صغيرة غريبة فقدت أمها فجأة في مدينة كبيرة مروعة!!

وعاش الرجل بعد هذا.. عاش "شكري عبد العال" بجرح هائل يشق صدره، وضلوع تلتئم – في بطء معذب – على فراغ.. كلما مر يوم أحس بآلام جديدة.

ولكنه عاش! وظل يتنفس الهواء ويملك العين التي تنظر والأذن التي تسمع والقلب الذي ينبض، ويحس بالجوع فيأكل العيش أياما أخرى.

وبقيت "سميرة" في البيت وهي في نحو الرابعة عشرة ولبست السواد منذ ذلك الحين.. ودرجت حتى أصبحت ست بيت حقا، يمتص اليتم نضارتها، وترعى حاجات أبيها ومطالبه، وتقوم على أختها الصغيرة "درية" التي أصبحت الآن في السابعة عشرة. وتعودت سميرة أن تنهض قبل أختها في الصباح فتعد طعام الفطور، وترتب لها فراشها وملابسها.. وترقبها وهي تذاكر دروسها وتسهر معها تمدها بالشاي أو القهوة في ليالي الاستعداد للامتحان، وتقلق معها في انتظار النتيجة، وتغضب على نفسها فتضحكها حين تشرد، وتسمع منها حكايات طويلة عن المدرسين والمدرسات، وتحفظ أسماء مدرسيها، وتعرف سخريات البنات ببعضهن البعض، وتذكر نوادر مدرس الرياضة

المعروف بين بنات المدرسة باسم "شخلع أفندي" وتستطيع أن تقلد الناظرة وتسترسل معها في التعليقات الهامسة على "سعد" ابن "داود أفندي" التلميذ بالمدرسة الخديوية – وهي تسبقه بسنة دراسية – حين يجيء ليطلب كتابًا فيمسح أنفه منذ يخرج من بيته حتى يدق باب الشقة، ويقف على الباب متلعثما محمر الوجه يعبث بحب الشباب في صدغه، ويبحث في صوته عن نبرة غليظة ذات رنين.. كالممثلين!

"سميرة" الآن تعرف أسماء كل المدرسات والمدرسين الذين تعاقبوا على "درية"، وأسماء بعض تلاميذ المدرسة الإسماعيلية الذين يطاردونها أحيانا وهي رائحة أو عائدة من المدرسة، وهي تقول على المدرسة الإسماعيلية – كأختها – "إسماعيلية جراج" وتعرف إعجابها بخفة دم "عبد العزيز خليفة" طالب كلية الطب الذي يسكن أمامهم في بيت "ميمي"، ويتردد على أبيها أحيانا ويستلطف أبوها قعدته، وتشارك "درية" دائما في ضحكها مع "عبده" خادم "عبد العزيز" الذي يجاهد ليتعلم القراءة والكتابة ويظن أن الزمن رماه في الشارع ونسيه ويتمنى أن يعود إلى بلده يزرع ويريح نفسه من وجع الدماغ في المدينة التي يبيعون فيها كل شيء.. حتى

الماء والنور، والقراءة والكتابة! و "سميرة" تعــرف تـــاريخ نابليون لكثرة ما سمعت أختها تقرأ عنه ولكثرة ما كلمتها عن حياته ومأساته!.. وهي مع ذلك تقوم على شئون أبيها بدقـــة كبيرة وتتلقى دعواته كل صــباح ومســاء، وتــتقن طــبخ الأصناف الريفية التي تعلمتها من "أنيسة" امرأة "عبد المعبود" التي لا تفارقها منذ ماتت أمها، والأصــناف التركيــة التــي عرفتها من الأرملة "سعاد هانم" التي تعودت أن تقف معهــا في المطبخ..

وخلال هذه الأعوام الخمسة التي عاشتها "ســميرة" ســت بيت بعد أمها، لم يفكر أبوها في أن يجيء للبيت بسيدة جديدة بعد المرحومة!.. ولم تفكر هي أبدا في أن أباهــا يمكــن أن يتزوج.. وفي الحق إنها ما كانت تســتطيع أن تتصــور أن امرأة أخرى يمكن أن تأخذ مكانها هي في البيت، وترقد فــي نفس الغرفة التي رأت أمها تحمل منها في خشــب ملفــوف أصم على أعناق رجال غرباء تعلو العمائم المتسخة وجوههم الجامدة المتحجرة بينما أبوها يتشبث بــالنعش فــي صــراخ ممزق!! أيمكن أن تأتي امرأة غريبة في هذا البيت؟!.. مــرة سألت "درية" أختها "سميرة" ألا يمكــن أن يتــزوج أبوهمــا

وتجيء امرأة أب تمشي حيث ملأت أمهما البيت بـدموعها وطيبتها وضحكاتها الخافتة.. فصرخت "سميرة" فـي وجـه أختها برعب، ثم دمعت عيناها.. وأجهشت "درية"، وارتمـت على صدر أختها، وتعانقت الأختان وارتفع بكاؤهما.. ونزلت "سعاد هانم" مسرعة لتسكتهما.. فلم تفلـح وتعـالى نشـيج اليتيمتين، وطلعت امرأة "عبد المعبود" مسـرعة.. وظلـت تعانق البنتين وتبكي هي أيضا.. ثم انتزعتهما مـن بعضـها البعض في حزم مفاجئ، وأخذت كل واحدة منهما من يـدها وغسلت لها وجهها وهي تلعن نفسها لأنها انشغلت في بيتهـا بعمل وصفة للحمل وتركت البنتين وحدهما، مع أنهـا رأت أباهما ينزل من البيت بعد العصر.. وقالت لهما بتأكيد قاطع: إن أباهما لا يفكر في الزواج ولا في النساء.. ولو كانت لديه فكرة كهذه لعرف "عبد المعبود".. وطلبت منهمـا ألا يظلمـا الرجل ويجلبا الحزن لنفسيهما فالحزن يقتل الشـباب.. ثـم أضافت وهي تتحسس جسد "سميرة" محاولة إضـحاكها، أن البكاء يذبلها وهي الآن في عز شبابها لا ينقصها إلا بعـض السمنة فيجري وراءها أولاد الملوك والوزراء ليخطبوها هي وأختها "درية" أيضا.. وأقسمت أن تعد لهما هدية منها "حلـة

مفتقة" تأكلان خيرها على الريق.. واحمـر وجـه سـميرة وابتسمت وهي تتنهد، وضحكت "درية"، ولم تضحك "سـعاد هانم" واضطربت بعض الشيء، وبعد قليل خرجت إلى شقتها بلا كلمة فشعرت البنتان بانقباض مبهم!

على أن وجود امرأة أب شيء غير محتمل.. فشكري لـم يفكر أبدا في هذا كما قالت امرأة "عبـد المعبـود".. ولـيس الزواج هو الذي يشغله.. لا أمس ولا اليوم بعد خمس سنوات من ترمله!.. إن حالته المالية هي التي تشغله بحـق.. كـل ما يفكر فيه هو أن يجعل لبنتيه مظهر بنات زملائـه الـذين ما زالوا في وظائفهم يقبضون المرتبات العالية، ومنهم مـن أصبح في رتبة اللواء يحمل الباشوية!! أمـا هـو "شـكري أفندي" اليوزباشي المتقاعد بمعاشه الضئيل، فمن ذا يلتفت إليه ليطلب مصاهرته..؟!

كبرت البنتان الآن.. وهما تميزان اللبس الجيد من القماش الرخيص وربما كانت الحسرة تسعى إلى قلب كـل واحـدة منهما في صمت لأن مظهرها ليس كما تحب.. و "سـميرة" تكبر والسهرات تمضي، وهي ليست تلميذة تشغلها مدرستها والامتحانات!.. "سميرة" وحيدة تفكر دائما في أحزانها، وفي

أمها وأخيها ولطالما وقفت تبكي تحت صورة أخيها مع أنهــا كانت طفلة عندما مات.. فإن لم تتزوج فسيغيض شــبابها.. إنها في العشرين والبنات في مثل سنها، أمهات.. تزوجن من زمن وخلفن مرة وخلفتين وثلاثا.. ولكن من هو الذي يتقــدم ليصاهر يوزباشي في المعاش لا يملك إلا بيتا فــي شــارع خلفي ببركة الفيل؟ من يمكن أن يتقــدم الآن إلــى "ســميرة" الهادئة الطيبة الخلق؟ بالكثير رجل مثل "أمين أفندي"!! "أمين أفندي"؟!.. خسارة فيه زوجته "ميمي".. قمر تزوجــت مــن غراب؟!.. لو كان أبوها في وظيفة كبيرة لتزوجها ابن وزير أو شاب وطني ناجح.. ولكن مقصوفة الرقبة انغرست فــي شارع "عزيز"..!

على أن "شكري" مشغول القلب في هذه الســاعة بالــذات بهذه الورقة التي جاءته.. وهو منذ تسلمها يعاني قلقا غامضا غريبا وتختلط في نفسه الانفعالات.. إنهم يســتدعونه إلــى وزارة الحربية... والاستدعاء سري وعاجل جــدا... وهــذه ثاني مرة يستدعونه منذ أحيل إلى التقاعد.. في المرة السابقة كانوا يريدونه في وزارة الداخلية عندما اشتدت مظــاهرات سنة ١٩٣٠ وأوشكت أن تجتثهم مــن جــذورهم وشــتمهم

واستنكر أن يدعى لأمر كهـذا.. وكـرر أنـه لـن يطلـق الرصاص على صدور المصريين.. ولكنهم يسـتدعونه الآن في وزارة الحربية.. يا ترى ماذا يريدون منـه اليـوم فـي وزارة الحربية؟.. لا مظاهرات الآن.. الجو مشحون حقا في هذه الأيام من أواخر سبتمبر، ومتوتر.. ولكن لا مظـاهرات بعد، فالجامعة لم تفتح، والمدارس الثانوية لا تستطيع أن تبدأ المظاهرات!.. وحتى إن كانت هناك مظاهرات فهم يعرفون مبدأه.

آه.. ربما كانوا يعلنون التعبئة، فالحرب دائرة بين إيطاليا والحبشة والقوات الإيطالية المعتدية تتقدم في جبال الحبشـة "والرأس كاسا" يسلم لهـم مفـاتيح بـلاده ويعـدهم بـرأس الإمبراطور. ولكن هل يدخل الجـيش المصـري ليسـاعد الحبشة؟.. الجيرة لهـا حقـوق والمتطوعـون المصـريون يتقدمون بالمئات لإنقاذ الحبشـة. ولكـن إذا دخـل الجـيش المصري هذه الحرب، فهو لا يفعل ذلك لأن حكومة وطنيـة فهمت هذه الضرورة، بل لأن حكومة إنجلتـرا هـي التـي تريد.. الحرب في هذه الأدغال شيء يعرفه "شكري" وهـو يعرف كيف يمـوت الرجـال هنـاك معـذبين فـي فـزع

وبلا عزاء.. إذا كانت إنجلترا تريد أن تساعد الحبشة فلماذا لا تتصرف هي بشجاعة، وترسل عساكر إنجلترا!؟.. لماذا تضع مصر في مأزق، وتجعلها تشك فيما تحب؟!

ليست حرية الحبشة هي ما يؤرق الإنجليز، وإلا لما سرقوا حرية السودان وظلوا على رقاب البشر هناك على الرغم من الوعود، ودماء الشهداء!! المسألة يا شكري كلها خوف من إيطاليا.. ولهذا يثيرون عليها عصبة الأمم، لو طالت إنجلترا الحبشة لما سكتت! كلهم لصوص يتشاجرون على الغنائم.. علينا نحن! ونحن عندهم غنائم وأسلاب!! ولكن كم من رجالنا المسئولين يفهمون؟.. هؤلاء الرجال معظمهم ربي في أحضان الإنجليز.. والذين يكرهون الإنجليز منهم يظنون – لغفلتهم – أن إيطاليا هي المنقذ.. أن الدوتشي موسوليني هو المخلص! إنه هو أيضا يشهر السيف ويركب الفرس، ويسمى نفسه حامي الإسلام!.. أيريد أن يكون سيف الله المسلول؟.. فليتعظوا بما يحدث في الحبشة وليبيا.. ليذكروا "عمر المختار" الزعيم الليبي الذي انتزع من أهله، وألقي به من الطائرة!.. متوحشون!!.. كلهم متوحشون.

يا أكتوبر سنة ١٩٣٥ أنت تزحف بخطاك علينا فماذا وراءك؟!.. ما الحكاية يا شكري؟!.. لماذا يستدعونك هكذا إلى الوزارة بطلب سري عاجل جدا.. أهي الثورة في فلسطين؟!.. ولكن أيبلغ الفجر بالإنجليز إلى هذا الحد؟ يجندون جيشا مصريا ويستدعون الضابط المتقاعدين ليضربوا عرب فلسطين بعرب من مصر؟!.. لا لا.. مستحيل.. الإنجليز أكثر دهاء وخبثا من أن يصنعوا شيئا كهذا.. فهم يعملون أنه حين يلتقي الجيشان فسيقفان في صف واحد لتسديد رصاصهم إلى الإنجليز؟!.. لا!! ولكن لم لا؟! إنهم ضربوا ثورة مصر في سنة ١٩١٩ بجيش هندي، وقلب كل مصري يخفق بالمودة حين يرى وجها من الهند!.. ومع ذلك فالأمر يختلف عن عرب فلسطين بشكل ما.. هناك شيء ما، ربما كان هو اختلاف اللسان، لا يجعل تدفق العواطف يتخذ مجراه.. أو ربما كان هناك شيء آخر.. على أية حال فالمسألة ليست واحدة!.. ومع ذلك فالإنجليز ندموا لأنهم ضربوا ثورة مصر بجيش من الهند.. فالثورة ضدهم اشتعلت هناك أيضا ورفع السلاح عليهم رجال خدعوا من قبل وتحركوا تحت العلم البريطاني ليضربوا إخوة لهم من ثوار

مصر.. ولكن الإنجليز لا يتعلمون! والله إنها هي التعبئة ضد فلسطين!؟.. إذا كان الإنجليز يعبئون رجالا من مصر ضد مصر، فلماذا لا يعبئون جيش مصر ضد ثورة فلسطين؟.. كل بشاعة في العالم يمكن أن يقترفها هؤلاء الإنجليز، وما داموا هم الذين ما زالوا يحكمون، فكل جنون.. ممكن!!.. ربما كانت هي التعبئة ضد مصر. ربما كانوا يستعدون لاستئناف الدراسة في الجامعة، فأكتوبر يقبل مسرعا!!

ماذا؟! لا داعي للذهاب.. أتذهب يا شكري إلى وزارة الحربية وتتعب قلبك وتعود كما رحت ولا تكسب غير وجع الدماغ وربما أمسكت بخناق من يعرض عليك مهمة كهذه؟!..

ولكن مهما تكن الفوضى التي تسود حياتنا يا شكري فلا يمكن أن تكون المهمة هي حشد جيش مصر لضرب الثائرين في فلسطين، ولا أظنهم يستدعونك لمواجهة المظاهرات المحتملة فكلهم يعرفون رأيك.. حتى سكرتير الوزارة الذي استدعاك، هو الآخر يعرف، وأظنه شهد موقفك القديم مع الضابط الإنجليزي الذي ضربته!!

ما هي الحكاية إذن؟! وكيل الوزارة صديق قديم وإن كنت لا تراه إلا قليلا، وهو رجل نظيف مستقيم فاذهب إليـــه الآن في بيته في الروضة واسأله عن الحكاية فهو يعــرف ســبب الاستدعاء بلا شك.. ولكن!.. كم الساعة الآن؟! ياه.. العاشرة والثلث!! والنور ما زال في حجرة البنـــات؟!.. فلننتظـــر.. ولنذهب في الصباح.. غدا نعرف كل شيء من سكرتير عام الوزارة الذي وقع الاستدعاء.. ضابط رباه الإنجليز وجعلوه ينط على أكتاف الكل!! الصباح رباح.. وسنرى إن عشنا.

وطلب شكري ابنته سميرة وهو يتثاءب وطلب منها قبــل أن تنام أن تلمع نجوم البدلة العسكرية الشتوية وزرائرها، ثم قام لينام، وقبلته سميرة وأطفأت نور حجرته.. وذهبت تلمــع الزراير بعناية، وقلبت "درية" كتاب تاريخ غيــر مدرســي، وتركته مفتوحا على صورة نابليون التي كانت تنظر إليها في إعجاب وهي تقرأ قصة حياته وفتوحاته مستثارة القلب مثقلة بمشاعر غامضة حزينة مضطربة..

وقفزت إلى جوار أختها "سميرة" تسألها بلهفة:

- إيه إيه الحكاية؟!. بابا من ساعة ما رجع من بــره واستلم الجواب اللي جابه العسكري، وهو قاعد في

أودته سرحان كده ليه؟.. إيه اللي خــلاه عــاوزك تلمعي النجوم وزراير البدلة دي؟! دا طول عمرهم ما اتلمعوش.. إيه والنبي يا سميرة؟ هيه!

وأجابتها "سميرة" دون أن ترفع رأسها عــن بدلــة أبيهــا وقطعة من القماش في يدها تحك بها الزراير:

- أنا عارفة!.. نامي.. نامي أنت..

وعادت "درية" تحاول أن تتــابع القــراءة عــن بطلهــا نابليون.. ولكنها أغلقت الكتاب وقعدت على حافــة الســرير تنظر إلى أختها بينما عكفت "سميرة" على عملها باســتغراق كبير وجد واهتمام وهي تتذكر شغفها القديم عندما كانت طفلة بالنظر إلى المرحومة أمها وهي تلمع زراير "بدلة" أبيها!..

وظلت سميرة تدعك النحاس وتتأمل التماعه علــى بدلــة أبيها، ورأسها يزخر بالأحلام..!

(٢)

جاء الشتاء قبل الأوان.. الغيوم تتجمع في السماء، والضباب يكسو القباب والمآذن وأسطح البيوت، ويستلقي معلقا في الفضاء على مقربة من أرض الشوارع، ولا أثر بعد للشمس في هذا الصباح من أوائل أكتوبر، مع أن الساعة جاوزت السابعة.. ستمطر اليوم أيضا بلا شك، وعندما تمطر يصبح شارع عزيز مجموعة من البرك الصغيرة والأوحال.

وتحرك شكري من كرسيه الذي يقعد عليه منذ أوى إلى حجرته بعد أن تناول طعام فطوره مع ابنتيه "سميرة" و "درية".. ولم يعد يرقب السماء.

وألقى نظرة متصفحة في الجريدة الملقاة على حجر جلبابه الكستور العريض الخطوط وقرأ بعض العناوين بسرعة ودقق نظره في صفحة الوفيات ثم رمى الجريدة، وشد الطاقية البيضاء العالية فأحكمها على رأسه. ودخلت "درية" بثوبها المدرسي الكحلي فقبلت يده، ودعا لها بالستر والنجاح، وأخرج حافظة نقوده من جيب جلبابه ببطء ودس في يد

"درية" قطعة فضية بقرشين هي مصروفها اليـومي، وقـال مبتسما ونظرته تضيء:

– من أول الشهر الجديـد حاتخـدي عـلاوة.. حـايبقى مصروفك جنيه في الشهر.. جنيه كامل.. ياللا انبسـطي يـا قطقوطة!

وخرجت "درية" مبتسمة، فعاد يلـتقط جريدتـه، وينظـر فيها!.. ما زالت الحرب تشتد في الحبشة، والطليان يتقدمون، وعصبة الأمم لا تفعل شيئا كافيا لتمنع حملات الإبادة هناك.. بلد بحالها تسقط في قبضة الاحتلال الأجنبي و "موسـوليني" يهدد العالم ويصرخ في وجهه، إن كلمة السلام ترن كالعملة الزائفة، والإنجليز والفرنسيون يشتمونه ولكنهم يصنعون مثله في بلاد أخرى استقرت أقدامهم على أنفاسها.. ماذا أيضا؟!.. الحرب الأهلية في الصين تشـتد واليابـان تتـربص علـى الأبواب!.. وفي "فلسطين" ثورة كاملة، والجنـود الإنجليـز يقتلون الأطفال والنساء، ويحمون التجار اليهود والمغـامرين الذين جاءوا يغتصبون البساتين والحقول من أهلها العـرب، وفي كل يوم يقهر عربي فلسطيني على بيع جزء من أرض الوطن.

وزفر "شكري عبد العال" وهو يقلب الجريدة، وينهض من كرسيه واتجه إلى نافذته، ومن وراء زجاجها لاحت له "ميمي" تروح وتجيء في بيتها بقميص خفيف مكشوف! ألا تشعر الملعونة بالبرد؟! قامت تجري من الصبح كالمهرة!!

وكانت ابنته "سميرة" وقتها تقف في الصالة تدير مفتاح الراديو بضيق وقلة حيلة، وهي تتسمع جاهدة لصوت ينبعث بالقرآن حزينا جليلا خافتا من خلال خشخشة لم تفلح في علاجها، لا هي ولا "سعاد هانم" التي تركت الراديو يائسة منه، وانشغلت بتلميع تاج نحاس على البدلة العسكرية، ورأسها مائل باهتمام لتلقط الصوت الغائب وراء الخشخشة.

وارتفع صوت "سميرة":

- الراديو ما بقاش نافع خالص يا بابا.. مش عارفين نسمع الشيخ رفعت!

ورد عليها أبوها وهو في حجرته:

- نغيره.. حاضر يا بنتي! ونجيب راديو جديد على أول الشهر إن شاء الله.

وتمتمت "سعاد هانم" في تنهد خفيف وعيناها على "سميرة":

- هوه يا بنتي باباكي كان لحق يقبض مرتب الوظيفة الجديدة؟.. دا يا دوبك مستلم بقى له كام يوم!..

ولم تسترح "سميرة" لكلمات "سعاد هانم".. ورمقتها بنظرة سريعة كأنها تقول لها: "وما لك أنت"!

وفي الحق أن "سميرة" منذ أعيد أبوها إلى الجيش ردت إليه رتبة الصاغ، لم تعد تستريح لزيارات "سعاد هانم".. كانت قديما تشعر بلذة وحب وهي تتلقى مساعدات "سعاد هانم" ولكن "سميرة" الآن تضيق بكثرة زيارات "سعاد هانم" وبحرصها على هذه الزيارة عندما يكون أبوها في البيت...

و "سميرة" في هذه الأيام الأخيرة ترى في كثير من تصرفات "سعاد هانم" تدخلا فيما لا يعنيها.. مالها هي ولبدلة أبيها الآن تلمع لها الزراير كل صباح؟!.. إن أحدا لم يفعل هذا إلا أمها المرحومة! الزوجة وحدها هي التي تصنع مثل هذه الأشياء للرجل!!

وحين فرغت سعاد هانم من تلميع الزارير والتاجين أعطت الجاكتة لسميرة بعناية، فأخذتها "سميرة" منها بسرعة كأنما تخطفها ونظرة تضرر تلوح من عينيها!

ودخلت سميرة بالجاكتة على أبيها فوجدته أمام مرآة الدولاب يربط الكرافتة وهو بالقميص والبنطلون الكاكي، والجلباب ملقى على السرير، وألبسته الجاكتة ووقفت تمسح ظهره بالفرشاة وهو يلقى نظرات رضا مزهوة على التاجين اللامعين ويشد أطراف الجاكتة بإحكام.. وترك المرآة، وعاد يبحث في جلبابه المرمي على الفراش وأخذ ينقل ما في جيب الجلباب إلى جيوب الجاكتة وسميرة تساعده وهو يهمهم لنفسه متنهدا وكأنه لا يشعر بوجود سميرة:

- فرحان بالتاج؟ ما انت لبسته مرة من أكتر من خمستاشر سنة.. التاج ده كان حقه مقص يزينه والا أقله نجمتين تلاتة يسندوه دا أقل واحد من دفعتك بقى قائمقام يا سي شكري وانت فرحان لي برتبة صاغ؟.. لكن يا سيدي أهم وعدوك تتساوى بزملائك.. يعني بالميت توصل قائمقام بلاش طمع

في أميرالاي والا لواء.. يا سلام عليك لما تبقى لواء يا شكري باشا عبد العال.. اللواء شكري.

وقاطعته سميرة بفرح وأمل:

- بكره تبقى لوا يا بابا وتاخد الباشوية.

وبوغت "شكري" ثم نظر إليها بحنان بالغ، بينما انسحبت هي في خجل حين أدركت أن أباها كان يناجي نفسه وهو لا يعرف أنها ما زالت في الحجرة..

وعندما خرجت سميرة لم تجد "سعاد هانم" في الصالة... بقيت وحدها لحظة تحاول أن تسمع صوت الشيخ "رفعت" وأنفاسها تتردد في أنفها الدقيق، وفي أعماقها شعور ممض بأن أحدا لا يرغب في وجودها هنا الآن.. الرجل يكلم ابنته ويحلم معها.. ثم.. لماذا تخطف منها "سميرة" حاجة أبيها بهذه الطريقة المهينة؟ لماذا هذه النظرات الغريبة؟ كأن شيئا منها يقف في حلق "سميرة"!..

وتحت وطأة الزراية والوحدة المفاجئة والشعور بأنها زائدة في المكان انطلقت إلى شقتها مسرعة تكاد تجري وفيض من الدموع ينفجر من أعماقها ويزحف حتى ليملأ منها الصدر، فتكاد تختنق به..

وعندما خرج "شكري" من غرفته، والعصا القصيرة تحت ذراعه، التفت يبحث عن "سعاد هانم" في الصالة، فلم يجدها.. وقبل ابنته "سميرة" وهو يفتح الباب.. ثم توقف يسألها:

- الله؟! هيه سعاد هانم فين أمال؟ مش كانت تنتظر معاكي شوية؟ مش عوايدها يعني أنها تسيبك وتطلع قبل أنا ما أنزل!

واستمر قبل أن تجيبه سميرة:

- والله كتر خيرها.. سايبه بيتها وجاية تساعدك.. الله يكون في عونها!.. لازم طلعت لأن أولادها لسه ما نزلوش للمدارس.

وهم بالخروج من باب الشقة ولكن "سميرة" فاجأته بصوت مشحون ارتفع أكثر من اللازم:

- لا يا بابا وانت الصادق يا بابا... هيه نزلت ولادها بدري! من يوم حضرتك ما رجعت الشغل وهي بتنزل ولادها بدري وتيجي هنا على طول... من يوم أنت ما رجعت الشغل..

ولم تكمل.. واحتبس صوتها في حلقها!

ودهش "شكري" من لهجة ابنته... لم يسمعها من قبل تكلمه بهذه الطريقة التي تخفي بها وراء الانكسار، مرارة غريبة، وخوفا يخالجه نوع من التحدي... والتفت إليها وهو يقف في الباب المفتوح متضايقا من لهجتها:

- عجيبة!.. أنت أمرك غريب قوي! جرى إيه يا بنتي؟! بتتكلمي كده ليه؟! ومال صوتك عالي كده؟ أنت زعلانة لأني رجعت الشغل والا إيه؟

ولم تجب "سميرة" وخيل إليها أن أباها – الواقف مشدوها – لا يفهم ما تريد، ولم تشأ أن تضايقه وهو وخارج إلى عمله، وتذكرت أن المرحومة أمها كانت تبتسم دائما في الصباح قبل خروجه، ولا ترفع صوتها أبدا طول الوقت ما دام هو في البيت، حتى عندما مات ابنها الوحيد كانت تمسك عن النواح قبل أن يدخل بمجرد أن تشعر بأقدامه على السلم!

وتقدمت "سميرة" إلى أبيها تسلم عليه مرة أخرى، وهي تغتصب ابتسامة وتبلع ريقها:

- أنا يا بابا؟!!. إزاي يا بابا؟!... ربنا يمتعك بوظيفتك وتعوض اللي فاتك، وتسبق اللي سبقوك، ربنا يريح بالك ويطول عمرك وينولك مقصودك!

نفس طريقة أمها في الكلام: الصوت المذعن الحنون المفعم، والكلمات الطيبة المبشرة التي يتفتح لها القلب وتغمر النفس بالثقة!

وخرج مشدودا تلمع الزراير في بدلته ببريق خاطف، والتاج يتألق على كل من كتفيه العريضتين.

***

ومضى يطرق بخطواته الثابتة أرض شارع "عزيز" متجها إلى مكتبه الجديد في وزارة الحربية كما تعود منذ أيام...

وكما تعود منذ أيام، عاد سؤال معذب يلح عليه وهو يحاول أن يطرده، ولكن السؤال وقف أمامه كحائط يسد عليه الطريق: أمخطئ هو أم مصيب في قبول العودة إلى الجيش؟!! لماذا تحدثه ابنته عن العودة إلى الشغل بمثل هذه الطريقة؟!.. أتراها تكابد نوعا من خيبة الأمل في أبيها!؟..

وهز "شكري" رأسه مستنكرا وتنهد في بطء! واكفر وجهه فجأة... وفكر أن يعود إلى البيت ليستل من أعماق ابنته كل ما تفكر فيه... ولكنه لم يكد يتوقف، حتى امتلأت أذناه بصوت أجش منغم غليظ، يردد بيتا من الشعر بطريقة حزينة، وتلذذ:

ترخيما احذف آخر المنادى   كيا سُعا فيمن دعا سعادا

والتفت وراءه.. ورجع خطوات.. ووقف أمام بيته يتأمل مصدر الصوت.

ما هذا؟ من هذا؟.. إنه ساكن إحدى شقتي الدور الأرضي في بيت أمين أفندي!.. هو "الشيخ عبد الحي" يقعد، ومرفقه على حافة الشباك، ورأسه يخفق بين الورق والشارع، وعيناه تتطلعان إلى الطابق الثالث من بيت شكري حيث تسكن سعاد هانم!... ونبرات صوته تتعالى وهو يتلمظ بالكلمات:

- ترخيما احذف آخر المنادى يا سيدي.. ترخيما احذف إيه؟! احذف آخر المنادى.. كيا سعا فيمن دعا.. مين يا سيدي؟! فيمن دعا سعادا... كيا سعا فيمن دعا سعادا... سعادا يا سيدي... كيا سعا فيمن دعا سعادا..!

ورفع "شكري" عينيه إلى بيته من ورائه بحركة سـريعة لا يعرف سببها، فوجد "سعاد هانم" تقف في شرفتها بثوبهـا الأسود المحتشم الذي يلف جسدها النحيل، وهي تنكس وجهها المستدير ذا الأنف الدقيق والشـفتين الـرقيقتين، وعيناهـا الواسعتان السوداوان تنظران في الفضاء، وهي تتنهد كأنمـا فرغت لتوها من البكاء!!.. ما وقفتها في الشرفة فـي هـذا البرد؟! لماذا تقف هكذا والشيخ "عبد الحي" يغني باسمها!؟.

وسعل "شكري" بغيظ، وألقى السلام علـى عبـد الحـي، فهرول إلى الشباك يرد السلام ويدعو "شـكري أفنـدي" أن يتفضل بشرب الشاي عنده، ولكن "شكري" لم يجبه، ومشـى في طريقه بخطوات متباطئة، فأغلق "عبـد الحـي" شـباكه، وسكت حسه... و "سعاد" ما زالت واقفة في شرفتها، تائهـة النظرات في الصباح المغلف بالغيوم!

وفجأة... انفجرت من أعماق "شكري" ضحكة كتمها بـين شفتيه. الله يلعنك يا شيخ "عبد الحـي"! تغـازل بـالنحوي! وبالشعر الأزهري؟! تغازل بألفية ابن مالك؟! ولكن العيـب ليس منك! العيب من الذي جاء بك إلى هنـا وأسـكنك فـي الشارع في وسط العائلات، وأنت طالب عازب يعيش وحده!

العيب من الذي أجر لك! خيبة الله عليك يا "أمين"! تبني بيتا وأنت لا تعرف أصول البيوت، وتتزوج فتاة صغيرة تحب الجري واللعب وأنت تعود من الشغل فتنحط في البيت بلا حركة وتنام كالبغل، ثم تخرج تهز كرشك وتتركها وحدها..! وبعدها تؤجر بيتك للعزاب، وحين تقع على عائلة توحد الله في بيتك، نكتشف فيما بعد أنها عائلة تعيش على عرق بنت تغني وترقص وتميل وتفعل مالا يعلمه إلا الله! عائلة "رجاء صدقي" لا أحد يستحق السلام في بيتك كله يا "أمين" غير أولاد "الحاج خليفة"... أولاد مؤدبون، أبوهم رجل صالح، عمدة بلد من الغربية، أدبهم ورباهم على احترام الجيران ورعاية حرمة الجيرة، وعلمهم وصية النبي بسابع جار! ولكن كلهم عزاب.. ستفسدهم يا "أمين"..! شرفتك إلى جوار شرفتهم تماما، فإذا وقفوا في شرفتهم لا تتركهم في حالهم وإنما تحلو لك ساعتها شرفتك فتدخل أنت تسحبك "ميمي" وتبادرهم بالكلام، وبصفة خاصة إذا وقف "عبد العزيز" طالب الطب... وكلمة من هنا وكلمة من هناك، فإذا ميمي هي الأخرى تتكلم وتضحك معهم، ويهتز صدرها الرجراج البديع تحت القميص الحريري المكشوف! كله من الحمار

"أمين".!! وحتى أسرار حجرة النوم! الله يلعنك ألــف لعنــة يا "أمين"؟.. الشباك الداخلي لحجرة نومك يطل على منــور يطل عليه شباك مقابل من شقة أولاد الحاج خليفة... يا أمين اقفل شباكك واستر نفسك في الصيف، فأنت تلقي بأســرارك مع امرأتك على الأولاد من هذا الشباك!... مصــيبة والله... إنهم يرونها أحيانا في فراش الزوجية؟

لو أن والدهم "الشيخ خليفة" عمدة بلــده الطيــب الوقــور عرف الحكاية أو لمح امرأتك مرة وهي راقــدة، فســيجعل عيش أولاده كالقطران!... مصيبتك ثقيلــة يــا "أمــين"!!.. ومصيبة "ميمي" بك يا ولد هي أثقل المصائب!

ولكن المصيبة الكبرى حقا هي في هذا "الشيخ عبد الحي" الذي يدخل في البدلة كأنها جبة وقفطان ويكبس الطربــوش على رأسه كأنه عمامة، مع أنه تلميذ بــدار العلــوم تــرك الأزهر منذ أعوام.. أينتظر هذا "الشيخ عبد الحي" في بيتــه كل يوم حتى يخرج رجال الشارع، فيقعد هكذا يعاكس نساء البيوت الفاضلات بالشعر والنحو، وربما بالآيــات القرآنيــة أيضا؟ الشارع لملم..!.. أشياء كثيرة فيه يجب أن تصــلح..

كان من الأفضل أن أبني في الحلمية الجديدة، ولكن... القصد.. رحم الله من كان السبب!!

على كل حال عندما ترجع من الوزارة يا "شكري" ستعرف كيف تربي هؤلاء الفجر.. يجب أن يفهم "أمين" كيف يختار السكان. ستزور "أمين" في بيته، ولو أن رؤية "ميمي" ليست بالشيء المريح... "ميمي" والله إن زوجها لا يستحقها ولا يصلح خادما لها.. كنت مبالغا يا شكري حين طردتها من بيتك قديما.. أنت طردتها فعلا فلم تقل لك كلمة تضايقك..!.

***

وخرج شكري من شارع "عزيز" وعلى حذائه الملمع تراب وطين.. فما زال في أرض الشارع بلل من مطر قليل سقط أول أمس.

وفكر "شكري" في أن هذا الشارع يجب أن يرصف أو تغطى أرضه على الأقل بقطع الحجارة الصغيرة. حجارة! لا. إنه ليس حارة بل شارع... وإن كان طمع دائرة البرنس في أن تبيع كل متر من الأرض لم يسمح للشارع بأن يتسع، ولكن ألعن ما في الشارع هي هذه الأرض الفضاء إلى جوار منزل "دواد أفندي"، يرمي فيها الكل فضلات بيته، ويستعملها

الصغار والكلاب، وتهب منها في ظهر الصيف رائحة تخنق.. كثيرون يريدون أن يشتروا هذه القطعة من الأرض ليقوم عليها بيت، ولكن "داود أفندي" في طوع حماته التي تشاركه ملكيتها، وهي مازالت ترفض البيع، وتحلم بأن تقيم عليها عمارة تستغلها، و "داود أفندي" لا حيلة له مع حماته!

العجيب حقا أن يكون لرجل مثل "داود" هذا ولد مثل "سعد"، نابه ذكي عاقل قوي الشخصية!

لا يمكن أن يتصور أحد أن يترك ابنه يكمل تعليمه، وعندما حصل الولد على شهادة الابتدائية بتفوق كبير، رفض "داود" أن يدخله المدرسة الثانوية واقتنع بأن يلحقه بوظيفة معه في الدائرة.. مسكين "داود أفندي" هذا، قليل الحيلة دائما.. نصحه بعض جيرانه في الشارع وأحد زملائه في الدائرة أن يوفر على نفسه عناء الصرف على ابنه، ويلحقه بوظيفة أو يدخله مدرسة متوسطة ليختصر الطريق، فراقت له الفكرة، واستكثر أن يعلم ابنه وهو نفسه لم يحصل على الابتدائية، حتى ضرب الولد حين بكى وتشبث بدخول المدرسة الثانوية وهاج في حماته وزوجته "عديلة هانم"..

لولاك يا "شكري" لما دخل "سعد" المدرسة الخديوية...صعب عليك حال الولد، وهزتك دموع "عديلة هانم" التي جاءتك تستنجد بك على زوجها وتقسم أن تبيع الجلد والسقط لتعلم ابنها وتدفع له مصاريف المدرسة! ولكن الثمانين في المائة التي حصل عليها "سعد" ضمنت له المجانية.. أخذته أنت من يده دون أن يعلم أبوه ودرت به على أصحابك وعلى ناظر المدرسة الخديوية حتى حصل لك صديقك وكيل وزارة "الحربية" على أمر من وزارة "المعارف" بإدخاله المدرسة الخديوية مجانا... وعندها فقط أشرق وجه "داود أفندي" بالفرحة، وطابت له المفاجأة.

ولكن الولد مطرود من المدرسة منذ يومين... طلب منه الناظر ألا يعود إلى المدرسة إلا مع ولي أمره.. وأبوه يزعق فيه أنه لن ينفع، ويمسك شاربه الأشيب ويقسم لعديلة هانم أن يحلقه إن أفلح ابنها "سعد".. وعلى كل حال فالرجل لم يحصل على إذن من الباشكاتب أن يتخلف ساعتين أو ثلاثا عن عمله ليذهب إلى مدرسة ابنه، وهو لا يحب أن يرجو "أدهم بك" الباشكاتب الجديد المتعجرف، وإن كان قريبا لعديلة هانم،

فداود ما يزال كلما جاءت سيرة "أدهم بـك" يتحسـر علـى الباشكاتب القديم المرحوم صهر "شكري"..

ولكن الناظر مصمم على ألا يعود "سعد" إلـى المدرسـة إلا مع أبيه... هذا الناظر تربية إنجليز. كان الأول في دفعـة المعلمين العليا سنة ١٩٢٠، وأخذه الإنجليـز إلـى بلادهـم ووضعوا له "بيبة" في فمه وزوجة إنجليزية في ذراعه، وعاد بعد أربعة أعوام يلوي لسانه ويرطن ويعيش مـع الإنجليـز ويقفز في الدرجات حتى أصبح ناظر أكبر مدرسة ثانوية في مصر، متخطيا زملاءه وربما مدرسيه بعشرين عامـا علـى الأقل.. والإنجليز يكتبون عنه دائما في الجرائـد المصـرية التابعة لهم ويركبونه على الأكتاف ويدفعون به إلى الإذاعـة ليلقي الأحاديث عن التربية، ويصفونه دائما بالعبقرية!! أهـو عبقري؟! بردعة الإنجليز!!.

***

ولكن لماذا لم تجئ "عديلة هانم" بعد لتستنجد بك يا شكري بعد طرد ابنها كما حدث من قبـل حـين أرادت أن تدخلـه المدرسة الثانوية؟ لماذا لم يحدثك "سعد" بنفسه؟ لـم تعـرف

الحكاية إلا من "عبده". خادم أولاد الحاج خليفة!. لكأن طلبة الشارع لا ينظرون إليك كما كانوا من قبل!.

ماذا حدث لشكري عبد العال.. لم يعد سعد مثلا يتقدم منه مرحبا منحينا كلما رآه، فيشد "شكري" على يده بقوة كأنما يمتحن فتوته فإذا لم يتألم "سعد" من فرك يده ابتسم له "شكري" وطلب منه أن يكون قويا بطلا، ويعمل حسابه على دخول المدرسة الحربية، ولا يسمح لأحد أن يهيئه!

لم يعد شيء من هذا يحدث على الإطلاق، ولم يعد طلبة الشارع يقبلون عليه بالمرة!.

أيكون هؤلاء الطلبة الذين لم يعرفوا ضرورة الحياة بعد، غاضبين منه لأنه قبل العودة إلى الجيش؟ أكانت حالته القديمة التي تحمل لهم فكرة التضحية هي وحدها التي تثير فيهم الإعجاب، وتملأ قلوبهم باحترامه، وتجعل منه في خيالهم شيئا رائعا خرافيا كالأسطورة! أكانوا يحبونه لأن فيه معنى من قوة الشهيد؟ وهم يرونه الآن ضعيفا لا يحتمل لمجرد أن عاد إلى الجيش! ولكن ماذا يعرفون هم من الحياة؟! غدا عندما يتساوى بزملائه ويرقى إلى رتبة الأميرالاي أو اللواء سيظفر باحترام آخر لم يعرفه من قبل!

إن أبوابا كثيرة لم تكن لتفتح أمـــام "شـــكري عبـــد العـــال" اليوزباشي بالمعاش، ســتفتح غــدا للأميــرالاي "شــكري عبد العال" وينحني له الذين يقعدون – في غطرستهم – خلف هذه الأبواب. ولكن أتراه عاد إلى الجيش تحت سلطان هــذا الحلم!؟ من أجل هذا الزهو عاد إلى الجيش أم هو التعب من حالته؟ طلبة الشارع معذورون إذن ومن حقهم أن يحتقــروه، وأن يبصقوا عليه إذا شاءوا؟

لا!! مستحيل.. لم يضعف هو أبدا ولم تكن تراوده هــذه الأفكار عندما كان يناقش صديقه وكيل وزارة الحربية فــي أمر عودته... كان صديقه يؤكد له أن الجميع يعرفونه، وأنهم لم يفكروا في إعادته شفقة عليه، ولكن خطأ قــديم يريــدون إصلاحه لأنهم لن يجدوا رجلا في الجيش كله في مثل أمانته واستقامته وفهمه للواجب العسكري!

هذا صحيح.. هذه هي المسألة تماما! الذين فصلوه نــدموا بعد ذلك، وعلى أية حال فالحالــة تتغيــر. تغيــرت خــلال السنوات العشر التي قضاها متقاعدا، لم يعد الإنجليز وحدهم أصحاب السلطة، ليسوا هم كل شيء في حكومــة مصــر، والشهداء لم يموتوا إذن بلا طائــل!! ابنــه لــم يمــت بــلا

جدوى!!... و.. ولكن أتراك تعزي نفسك يا "شـكري" بهـذا الكلام لأنك قبلت العودة إلى الجيش تحت ضـغط الحاجـة المالية؟ عجبا.! من قال إنك عدت تحـت هـذا الضـغط؟! لا تخدع نفسك!. كنت تعاني من مظهر ابنتك، وتعاني مـن عجزك عن أن تشتري لنفسك القماش الذي تحبه، وكنت تفكر دائما في مستقبل البنتين، وكنت تهمس لنفسك كأنما تؤنبهـا: "من يمكن أن يخطب ابنة يوزباشي في المعاش؟ لـيس هـو نفس النوع الذي يتقدم لابنة أميرالاي أو لواء في الخدمـة"! وكانت تعذبك أحيانا فكرة أن ابنتك "سـميرة" تخطـو إلـى العشرين، ولم يخطبها أحد رغم أنها جميلـة، وسـت بيـت ممتازة! لا تخدع نفسك يا "شكري" فأنت فكرت في أن تتزوج أحيانا، ولكن الذي جعلك تعدل ليس هو خوفك على شـعور ابنتك فقط – فهذا يمكن أن يسـوى – ولكـن خوفـك مـن مصاريف جديدة لا يحتملها إيرادك. ألم يطف بك شيء مـن هذا وأنت تصغي في صمت إلـى صـديقك وكيـل وزارة الحربية، وتستعيده التأكيدات أنهم لن يطالبوك بضـرب أيـة مظاهرة تقوم، ثم تستعيده مرات، كأنما تحرس فـي أعمـاق نفسك احتجاجك على ترحيبك الخفي، وتسترضي كبرياءك؟!!

لا!!

فلماذا إذن تعذب نفسك كل هذا العذاب؟! أنت بالفعل كنت تريد أن تستوثق أنك تعود إلى الجيش على أساس احترام آرائك وأسلوبك في العمل، وكنت غليظا مع سكرتير الوزارة، تدفع المناقشة معه إلى طريق شائكة، وإلى قطع الأمل في العودة.. ولكن الرجل صبر عليك وعاملك كزميل قديم يسبقه في التخرج، وأقسم لك إنهم يقدرونك ويحترمون موقفك ويعرفون مبادئك وأنك لن تكلف بأي عمل لا ترضاه، وأنك تعود اليوم بكل عزتك لتعمل كما تشاء، ولن تجد متاعب بعد!!

أنت لم تتهاون في شيء.. وليست هي أحلامك التي جعلتك تقبل، ولا الحاجة المالية، وأنت مستعد دائما للجوع!!.. أنت قوي يا "شكري" لأنك تستطيع أن تجوع، ولأنك بلا أطماع، ولأنك لا تهادن، ولأنك لا تحمل في قلبك حقدا على أحد.. حتى برادع الإنجليز كنت في غضبك منهم تحمل لهم مع الاحتقار نوعا من الرثاء، وتتجه بكل سخطك إلى الذين أفسدوهم وجعلوا منهم خرقا مرقعة!!.. ومع ذلك فلم يكن هناك شيء يضطرك لأن تقبل، فأنت لم تجع، ولم

تشك بنتاك من نقص الغطاء في ليالي الشتاء، ولم تتمزق ملابس إحداهما! كان المعاش وإيراد البيت يكفيان دائما.. وحتى لو حدث شيء من هذا، لما هادنت!!.

لا تعذب نفسك هكذا يا "شكري".. فرجل يحمل على كتفيه كارثة ثكل الابن الوحيد، وفقد الزوجة، لا يستطيع قلبه أن يحتمل بعد مثل هذه الأزمات!!.. الناس تموت بالسكتة القلبية في هذه الأيام لأقل من هذا فادع الله أن يحييك لابنتيك!!.

وتحسس "شكري" صدره، وأنفاسه تضيق، وظل يسير وسط زحام مضطرب من ضجة الترام والعربات، وتخطى في سيره ميدان السيدة زينب وهو لا يشعر!..

ورفع رأسه، وتماسك حتى لا تفر من عينه دمعة تألقت فيها بغتة!

وعندما وصل إلى مكتبه في الوزارة، وقعد يشرب قهوة الصباح دخل عليه العسكري الواقف على بابه، فحياه وقال وهو ينزل يده عن جبينه، ويقف مستقيما:

- فيه واحد أفندي منتظر سعادتك بره!

ورفع شكري رأسه عن المكتب متسائلا بعصبية:

- مين ده؟! اسمه إيه؟ مش تعرف اسمه الأول.

فرد العسكري ووجهه مرفوع في جد بالغ:

- هو صغار كده وحليوه.. و.. ولابس بدله!

ونظر شكري طويلا إلى العسكري الواقف أمامه قائلا بصرامة:

- روح اسأله الأول اسمه إيه! وإيه سبب المقابلة. هنا مكتب مش قهوة!

وهمهم لنفسه والعسكري يخرج:

- في كل جيوش العالم العساكر متعلمين. إلا عندنا.. نظام إنجليزي! واحد حليوه وصغار ولابس بدلة قال؟ كلام زي كلام العساكر اللي بيطلعوهم في تياترات روض الفرج!

وعاد العسكري بعد قليل فعظم بالسلام، ثم تقدم إلى المكتب ومعه بطاقة زيارة.

وأمسك "شكري" بالبطاقة.. وهو يقرأ ببطء:

- سعد داود طالب بالخديوية الثانوية.

ووضع البطاقة على المكتب قائلا ووجهه ينبسط:

- قل له يتفضل!

ثم أكمل لنفسه:

- دا الأسطى عبد المعبود مغرق الشارع بـــالكروت... حتى الأولاد!

ودخل "سعد داود" مترددا متهيبا فاستقبله "شكري" بترحاب كبير، وقال للعسكري:

- روح البوفيه هات بنفسك فنجان شاي باللبن.

ثم التفت إلى "سعد" بحنان، والطمأنينة تزحف إلى صوته:

- والا تشرب كاكاو يا ابني..

وعاد ينظر إلى العسكري قائلا بنشاط:

- لا لا.. هات له واحد سحلب.. روح هاته بنفسك.

ورفع "سعد" رأسه واختلجت نظرة حياء تحـــت رموشـــه الطويلة، واحمر وجهه الأبيض، وتحسس بطرف إصبعه حب الشباب في صدغه.. ثم قال بصوت خفيض وهو يتنحنح:

- مرسي قوي يا عمي.. بس أنا كنت جاي..

وجلجل صوت "شكري" وهو يبتسم:

- ارفع صوتك كده يا سعد وارفع رأسك.. أنا عاوزك تبقى بطل.. قوامك الجميل الطويل ده قوام فارس يا ابني.

وضحك "سعد" وأشرق وجهه، وسطعت في عينيه نظرات ثابتة.

وبدأ سعد يقول:

- أصل أنا اتخانقت مع المستر فيرنس مدرس الإنجليزي، والناظر قال لي هات ولي أمرك وتعال..

فاعترضه "شكري":

- عارف.. أنا عارف!

وصمت قليلا ثم اتخذ صوته نبرة خطيرة، وكل انتباهه يتركز في نظرة على وجه "سعد":

- لكن أنت ليه ساكت لحد النهارده؟ أنت ليه يا ابني تتجنبني! إزاي أعرف الحكاية دي من غيرك؟ أنت مش بقى لك يومين على الأقل مطرود من المدرسة؟

واضطرب "سعد"، ولم يستطع أن يقول شيئا، وانحنى رأسه وكتفاه قليلا.

ولاحظ شكري اضطراب "سعد"، وأخذ يتأمل حيرته، ثم سأله كأنه يساعده على اجتياز الموقف:

- لكن إيه السبب يا ابني؟ مال خوجة الإنجليزي ومالك؟ دا انتو ما بقالكوش أسبوع داخلين المدارس.

وانطلق "سعد" يقول:

- ما فيش حاجة والله يا عمي. هو راجل متغطرس ومضطهدني من السنة اللي فاتت والتلامذة بيضحكوا عليه، احتك بتلميذ عندنا اسمه "عطا الله" عامل زعيم وقال له: يا ولد، يعني قال له يا Boy "بوي".. "عطا الله" قال له انت اللي بوي وستين بوي كمان.. الفصل كله ضحك.. طلع في دماغ المستر فيرنس إني أنا اللي حرضت التلامذة عليه! وشه احمر، وقعد يبحلق في الفصل ويلف فيه، لقاني قدامه أطول واحد في الفصل والحقيقة اني كنت باضحك ساعة ما لقيته قدامي بمنظره الغريب.. قام موقفني وقعد يشتمني، وجه عاوز يضربني بالمؤشر. أول ما رفع المؤشر أنا مسكته وكسرته في وشه.. طلع جري ع الناظر.. فالناظر طردني وصمم اني ما ادخلش المدرسة إلا إذا

جبت ولي أمري، وخصم من الفصل كله خمس درجات من السلوك!

وعندما انتهى "سعد"، هز "شكري أفندي" رأسه رضا، وقال:

- أنا مبسوط منك جدا. كده كده! أنت ولد تمام!.. أيوه خليك بطل! أيوه.. وبورك في الشباب الطامحين على رأي المرحوم شوقي بيه أمير الشعراء.

- ثم رفع سماعة التليفون وأدار القرص، وارتفع صوته:

- مين؟ حضرة الباشكاتب؟ صباح الخير يا أدهم بيه... الصاغ شكري عبد العال بيصبح. الله يحفظك.. يا سيدي أنا لي رجاء عندك. عاوزك تسمح لداود أفندي بإجازة ساعتين تلاتة يروح المدرسة الخديوية علشان ابنه.. الولد مطرود من يومين تلاتة.. بكره!؟ متشكر. قل له انت يا أدهم بيه أحسن هوه مكسوف يطلب منك.. السلام عليكم!.

والتفت "شكري أفندي" إلى "سعد" فوجده مأخوذا بعض الشيء متضايقا.

وأدرك "شكري" أن كلمة الولد، ربما كانت هي التي ضايقته فقال له متبسطا:

- خلاص يا "سعد أفندي" بكره يا ابني أبوك راح ياخدك ويقابل الناظر قبل ما يروح الدايره.

ووقف "سعد" يسلم على "شكري أفندي" بقوة. وخرج يفتح صدره.

وبقي "الصاغ شكري" على مكتبه يتنفس براحة وطمأنينة، ورضي عن نفسه، وتذكر فجأة أن "سعد" لم ينتظر حتى يجيء السحلب، فناداه ولكن سعد كان ينطلق مسرعا إلى باب الوزارة!!

وهمس شكري لنفسه مبتسما: إيه!.. شباب..!

(٣)

استدعى "شكري عبد العال" العسكري الواقف على الباب فدخل يضرب الأرض بقدمه ويقرع أحد حذاءيه بالآخر ويخطف سلام التعظيم العسكري..

وناوله شكري أوراقا مطوية قائلا:

- الورق ده تسلمه بنفسك لمكتب سعادة وكيل الوزارة وترجع حالا. لك عشر دقائق. الساعة دلوقت تسعة وربع. تسعة ونص إلا خمسة تكون رجعت.. تمام؟!

وأخذ العسكري الورقة قائلا:

- تمام يا أفندم..

الأمور تجري بأسرع مما تصورت يا "شكري".. كلها أيام وتسوى حالتك وتصبح الأميرالاي "شكري عبد العال بك"... استعد يا "أسطى عبد المعبود" لطبع كارت جديد!... كانت المسألة بسيطة جدا. ثلاثة طلبات لمعالي الوزير: كل رتبة بطلب! لم تكن التماسات بل كانت طلبات. مجرد طلبات لرد

حق مسلوب.. فأنا لا ألتمس.. كان يجب أن أكتفي بطلب واحد، ولكن وكيل الوزارة استطاع أن يقنعني بأهمية كتابة ثلاثة طلبات مستقلة لتسهيل الإجراءات، في كل طلب تفصيل المدة التي كان ينبغي أن أمنح فيها الرتبة. لو انتهت المسألة بالحصول على رتبة القائمقام فلا بأس! كله خير فليبدءوا هذه الأيام برتبة البكباشي!! وعلى كل حال فأنا لم أذهب بنفسي لأقدم الطلبات، ولا تسمح لي كبريائي أن أقف بباب وكيل الوزارة، ولو أنه صديق! أنا الآن في الخدمة، وهو وكيل وزارة، ولئن طلبت مقابلته فيجب أن أنتظر دوري. ومكاني في الدور بحكم الرتبة التي أحملها متأخر جدا. إيه يا "شكري"! ماذا تريد إذا كان مدير مكتب الوكيل ضابطا في رتبة البكباشي!! حسنا فعلت!!

وعاد العسكري بعد قليل يقف أمام "شكري عبد العال":

- جناب البكباشي مدير مكتب سعادة الوكيل استلم الورق بنفسه يا أفندم وبيصبح على سعادتك!!.. و... وال..

- وقاطعه "شكري" مبتسما وهو ينظر إلى ساعته:

- برافو عليك عسكري نشيط. أديت المهمة في أقل من الوقت المقرر. عسكري تمام.

واستمر العسكري متشجعا:

- والأفندي اللي جه إمبارح عاوز يقابل سعادتك يا أفندم.. الشاب اللي اسمه "سعد" أفندي.

وهمهم "شكري" وهو ينظر إلى العسكري مداعبا:

- "سعد"؟! الشاب الحليوة اللي لابس بدلة!.

وابتسم العسكري بطيبة...

وأحس "شكري" بفرح خفي لأن "سعد" جاء إليه مرة أخرى... لم تكن زيارة الأمس مصادفة! إنه إذن لم يفقد شيئا في قلوب طلبة الشارع، مازالوا كما كانوا يلوذون به، وحتى لو عرفوا أنه قدم التماسات لتسوية حالته، فإن مكانته في أعماقهم أن تمس:

وقال "شكري" للعسكري:

- خليه يتفضل وهات له شاي باللبن.

ودخل "سعد" فاستقبله "شكري" واقفا.

كان "سعد" مضطربا مصفر الوجه ونظراته تحملق مستغيثة في وجه "شكري" وسأله:

- مالك يا ابني؟! خيرا.. مش أبوك راح معاك المدرسة؟

فقاطعه "سعد" وصوته يتهدج.. صوت تختلط بخشونته الجديدة بقايا نعومة الصبا، ويرعشه الذعر:

- الحقني يا عم شكري أفندي. كرامتي! أنا حانتحر! أنا سأنتحر!.. الناظر عاوز أبويا يضربني علقة قدام التلامذة كلهم، وإلا ما أدخلشي المدرسة! كرامتي يا عم شكري أفندي! إزاي يمدوني في الطابور الصبح وأنضرب أنا؟ إيه الإذلال الفظيع ده؟ أنا أنتحر أحسن!..

واستغرق في بكاء لم يستطع أبدا أن يقاومه.

وابتسم "شكري" وهو ينظر إلى "سعد" بإشفاق يخالطه الإعجاب. وقام يطبطب على كتفه، وطلب له كوب ماء وهو يقول متبسطًا:

- بس يا "سعد" بس يا ابني! تنتحر إزاي؟... يا سعد أنت عبيط؟ تبقى هي الدنيا أظلمت خلاص قدام شاب

زيك سنه لسه خمستاشر والا ستاشر لا لا.. أنا ما أحبش أسمع منك كلام زي ده! أنت دلوقت رجل.. اشرب اشرب يا ابني.. وروح أنت على بيتك واتركني أنا أتصرف... أنا حاعرف شغلي مع الناظر بتاعكم ده، ومع أبوك... الناظر القديم بتاعكم كان زي السكرة ورجل عظيم لكن بقى الناظر اللي جالكم السنة دي... ده مصيبة...

ورفع بيده رأس "سعد"، وأعطاه كوب الماء، بينما عاد هو يقعد إلى مكتبه مصفقا بيديه في عجب وهو يقول:

- لكن المهم هو أبوك... أبوك ده أمره غريب جدا! إزاي يوافق على حاجة زي كده؟ تنضرب في طابور دخول المدرسة؟! طب مدرس الإنجليزي مش عاوزك ترفع راسك وده طبيعي، وناظركم من برادع الإنجليز وأمره معروف. ولكن أبوك؟ إزاي يعمل كده؟ طيب روح البيت أنت واوعى تتكلم معاه! أصل أبوك ده...

وتوقف "شكري أفندي" قليلا كأنه يمنع كلمة على طرف لسانه، ويبحث بدلا منها عن كلمة أخرى.. ثم أكمل:

- أصل أبوك ده... أنا عارفه.. رجل مغفل!

ورفع "سعد" رأسه، وارتسمت على وجهه دهشة خفيفة يخالجها نوع من الارتياح الخبيث، وشاعت الابتسامة في وجهه المبلل بالدموع.. ومسح دموعه بمنديل حريري ناصع البياض فاح منه عطر خفيف، وأخذ يشرب الشاي.

والتفت إليه "شكري" قائلا:

- اسمع يا ابني.... الريحة اللي في المنديل ريحة نسائية... بلاش تخلي الست والدتك تحط لك ريحه في المنديل... الرجل لا يتعطر!

وبوغت "سعد" بعض الشيء!! وشعر بالخجل!... نعم أمه هي التي اشترت له هذا المنديل، ووضعت فيه نقطة من عطرها هذا الصباح!..

وعندما وقف سعد لينصرف قال له "شكري" كأنه يتذكر شيئًا:

- اسمع يا ابني. أقول لك؟ أنا رايح معاك دلوقت.. يا للا بنا على خيرة الله. يا ريتك قلت لي قبل ما تروح المدرسة أنت ووالدك؟

وخرج "شكري" ممسكا بيد "سعد"، وهو يتلقى عددا من التحيات العسكرية من أول باب مكتبه حتى الباب الخارجي للوزارة.

وانطلق إلى الشارع المؤدي إلى السيدة زينب نشط الحركة صارم الوجه، وإلى جواره سعد يمشي في صمت: طويلا تكاد كتفه تمس كتف "شكري"، أكثر طولا مما تحتمل سنواته الخمس عشرة.. وأخذ سعد يتخلف قليلا أثناء السير كأنه خجل من السير جنبا إلى جنب مع العم "شكري عبد العال".

كانت الشمس ترسل أشعتها الفاترة في الصباح، وزرقة السماء تختفي وراء تموجات السحاب الأبيض، ثم تبين، وشكري يدخل في زحام ميدان السيدة زينب وعصاه الصغيرة تحت كتفه، وبعض نظرات تستلقي على بدلته العسكرية الأنيقة. نظرات من بعض الرجال، والنساء أيضا.. فيهن مثل "سعاد هانم". آه يا "شكري" ماذا يذكرك بها الآن؟ وهل هذا وقته؟ ماذا يظن الولد الذي يمشي بجانبك الساعة، ممتلئا بك، مضطربا لأن كتفه تمس كتفك أحيانًا؟ لو أن "سعد" عرف أنك الآن تفكر في "سعاد هانم" وترى أمامك

طيفا من هذه الأرملة الحلوة الطيبة الوحيدة الشهية؟! الله يجازيها خيرا هذه المسكينة التي نذرت شبابها لابنتها وابنها ورفضت الزواج من ناس أكابر كثيرين وصانت سمعتها ونفسها من أولاد الحرام. إنها تتعب نفسها في مساعدة "سميرة" وهي التي كوت بنفسها هذه البدلة لك..؟

وتحسس "شكري" صدر جاكتته بسرعة، وشد أطرافها، وأمامه صورة "سعاد هانم" بعينيها الواسعتين الحزينتين وبدنها الرقيق وصوتها الذي يستثير دائما شفقته. لكم تضحي من أجل ابنتها وابنها هذه المسكينة الحسناء الشابة، مثلك تماما يا "شكري": تقاوم الطبيعة والغريزة وكل شيء لكي لا تكسر خاطر الأولاد... وآخرتها يأتي فحل كالشيخ "عبد الحي" ويقول لها: "كيا سعا فيمن دعا سعادا" ولكن ليس الشيخ "عبد الحي" هو ما يخيفك، فهذا الكلام هو آخر ما عنده... ليس الخوف منك يا "عبد الحي" وإنما من... لا لا... "عبد العزيز" ابن الحاج خليفة ولد طيب وهو لا يفعل شيئا بشعا كهذا. وهو وإن كان يتردد على "سعاد هانم" حين تمرض ليفحصها فإنما يفعل ذلك كطبيب، وكلها شهر والتاني ويتخرج من كلية الطب ويصبح طبيبا بحق وحقيق. لا لا..

"عبد العزيز" لا يمكن أن يستمتع بجسد لم يكن ليراه إلا ليفحصه كطبيب! هو نفسه قال لك هذا يا شكري، وهو صادق. لا لا.. ربما كان "عبد العزيز" مشغولا بالست "ميمي". والله إنها لا تستحق زوجها.. ولكن الحقيقة أن "عبد العزيز" يحب الضحك لا أكثر، وهو يعرف حرمة الجار، وأبوه "الحاج خليفة" عمدة بلده، عادل مستقيم يخاف الله ويحبه الناس هناك. ومن أحبه الله أحبه الناس يا "شكري" وأولاده هنا نقلوا عنه صلاحه وتقاه. إنهم أولاد مؤدبون فيهم حياء ولا يشربون القهوة أمام أبيهم. لا يمكن أن يصنع أحد أولاد الحاج "خليفة" شيئا كهذا مع أهل شارعه.. أنا أعرف الرجل وأعرف أولاده كلهم منذ زمن.. وكلهم أنضج من سنهم.. عندهم أخلاق، ولهم حدود لا يتجاوزونها مهما يضحكوا.. أنا أعرفهم منذ أرسلهم أبوهم إلى القاهرة يتعلمون فيها ويقيمون مع أخيهم الأكبر "أحمد" المهندس المتزوج... كانوا هم أول من يستأجر الطابق الأرضي الذي يسكنه الآن الأسطى "عبد المعبود" وكانوا أحسن الجيران.. ولكن أخاهم المهندس أراد أن يسكن قريبا من محل عمله لأنه يتردد على المكتب في الصباح وبعد الظهر، فذهبوا يسكنون في

الناصرية قريبا من وزارة الأشغال، وزارهم أبوهم ذات ليلة فوجدهم متجمعين في شباك يبصون على رجال ونساء كانوا يضحكون ويشربون، وامرأة تغني وترقص عارية البطن والفخذين وتتخلع وهي تغني. "بعد العشا يحلى الهزار والفرفشة".. فهاج "الحاج خليفة" في ابنه المهندس وزوجته وضرب أولاده الصغار، وخرج غاضبا وأقسم ألا يدخل لهم بيتا حتى يتركوا هذا الحي كله.. وبات في فندق بالعتبة الخضراء وهو يلعنهم لأنهم تركوا شارع "عزيز" بجيرانه المحتشمين وراحوا يجاورون الفواحش! وكبر هذا كله على الأولاد فباتوا متنكدين، وقاموا من الفجر يبحثون عن شقة في شارع "عزيز" استرضاء لأبيهم الذي أحب الشارع. وكان حظهم طيبا.. فوجدوا الطابق الثالث مبنيا، واستأجروا الشقة التي تسكنها الآن "سعاد هانم" ولكنهم لم يقيموا طويلا إذ نقل أخوهم المهندس إلى الصعيد فسافر هو وزوجته وبقي إخوته وحدهم... وفهم الأولاد أن "شكري عبد العال" لا يؤجر إلا لعائلة... وبحثوا في الشارع نفسه، ولكن بلا جدوى فانتقلوا إلى شارع آخر في بركة الفيل.. ولكن والدهم ألح عليهم أن يعودوا إلى شارع "عزيز"، فهو مطمئن يا "شكري"

إلى أنك ترعى أولاده ما داموا تحت عينك، حتى ولـو لـم يسكنوا عندك!... و "الحاج خليفة" قال لـك مـرة إن الأولاد يستحون من أصدقاء آبائهم كما يستحون من آبائهم تمامـا... وهكذا عادوا إلى الشارع مرة ثالثة وسكنوا شقتهم هذه فـي بيت "أمين" و "ميمي".. على أن "الحاج خليفة" لم يكن منقطعا عن زيارة الشارع عندما تركه أولاده، بل كان كلما جاء يطل على أولاده الذين يتعلمون في القاهرة، حضر لزيـارة أهـل الشارع مصطحبا معه "عبد العزيز"... هيه...! الأيام تجري يا "شكري".. كان "عبد العزيز" أول ما جاءوا إلى الشـارع، ولدا صغيرا يلبس البنطلون القصير ويلعب مع ابنك.. وهـو الآن دكتور.. أهل الشارع يسمونه الدكتور "عبـد العزيـز". وهو الآن صديقك، تحبه كأنما هو أخ صغير أو ابنك، وليس أعز علينا من صديق رأينا شعاع الطفولة في عينيه ذات مرة وشاهدناه ينمو أمامنا يوما بعد يوم!..

وفي "عبد العزيز" شيء غريب، فعلـى الـرغم مـن أن "عبد المعبود" هو أقرب أهل الشارع إليك إلا أنك يا "شكري" لا تسمح لنفسك أن تبدو أمام واحد من أهل الشارع كما تبدو أمام "عبد العزيز"، حتى "عبد المعبود"! فمع كل ارتباطك بعبد

المعبود فهناك أشياء في نفسك لا تحب أن يعرفها هو ولا تمسها أنت أبدا... ولكن "عبد العزيز" شيء آخر.. كأنه صديق قديم في مثل سنك، من هذا النوع الذي عشت معه شبابك الأول...

أنت تحدثه بصراحة وتقول له أي كلام يجيء في ذهنك وتكلمه عن النساء والفحولة، وكم حكيت له عن ذكرياتك في السودان مع الإنجليزيات، ولم تجد حرجا في ذلك.. كانت امرأتك لا تعرف، وكان حسبها أن تعود إليها آخر الأمر سليما في أمان الله، فتسكن إلى بيتك وأولادك!.. "عبد العزيز" وحده يعرف منك كل مغامراتك قبل الزواج في مقاهي الأزبكية ومخابئ الحريم في بعض البيوت القديمة بالحلمية الجديدة والمنيرة... يعرف حتى الأسماء، وأسرار كثير من البيوت الكبيرة في مصر. وهو الرجل الوحيد – بين كل أصدقائك – الذي يعرف تقديرك لسعاد وإعجابك بها وبحشمتها وتحفظها، هي الشابة الوحيدة العطشى في الخامسة والثلاثين!... وهو الوحيد الذي حدثته مرة عن "ميمي"، ورأيك في أن زوجها لا يمكن أن يملأ عينها.. لكم تحب أنت في عبد العزيز دهشته الحلوة الصافية حين يسمع منك..

تتبعه الشغوف لحكاياتك، وصوته المرتفع الضاحك وهو يعلق على أي شيء.. كل شيء يمكن أن يحوله إلى ضحك! ما ألطفه وهو يحتد أحيانًا، عندما لا يكون الأمر محتاجا إلى الحدة، ثم يقول أي كلام ويضحك.. مرة كان يتحدث عن أحلامه في أن يحصل على دكتوراه في الجراحة من الخارج ويصبح جراحا كبيرا مثل علي إبراهيم، فتدخل أخوه الذي يصغره "عبد اللطيف" الطالب بكلية الحقوق – وأخذ يناقشه وأوشك أن يقنعه بأن من الخير له أن يتخصص في الأمراض الباطنية، فصرخ فيه "عبد العزيز": "اسكت يا أخي.. أمراض باطنية إيه.. وجع بطنك" كلما رأيت "عبد اللطيف" يا شكري تذكرت هذا وضحكت!.. ومع ذلك فعندما يكون الموضوع جدا، يتخذ عبد العزيز سمتا آخر ويكد ذهنه ويقول كلاما صائبا في الغالب.. إنه حكيم على نضارة سنه، خفيف، طيب الروح.. لا يمكن أن تظفر "درية" أو "سميرة" بزوج أحسن من "عبد العزيز".. لو أن الولد عاش لك يا شكري لكان في سن "عبد العزيز"، ولتخرج معه بعد شهرين في كلية الطب، ولكان طويلا ضاحكا ذكيا مهذبا متأنقا مثل "عبد العزيز" تماما. لو أنه عاش لتعاملت معه

بطريقة أخرى غير التي يتعامل بها الآباء.. نعم يا شكري.. ولحمل لك شعورا آخر غير الخوف، ربما حمل نفس شعور عبد العزيز لك: الحب والاحترام والثقة.

لو أنه كان الآن بجانبي لسند ظهري، وكان عزوتـــي!.. آه.. يا "شكري"!!.. ولقلت له كل أسراري وتركته يستشيرني هو أيضا في كل شيء – كما يفعل معـــي عبـــد العزيـــز – ولفتحت صدري لأحلامه كما أصنع مع "عبد العزيز"! ولفهم الولد كثيرا من الأشياء التي تعذبني.. الرجل وحده هو الذي يستطيع أن يدرك ألم الرجل ووحدته، وكآبة الفراش البـــارد! كان يمكن أن يعرض هو من تلقـــاء نفســـه فكـــرة الـــزواج ولا يرى في ذلك إهدارا لذكرى المرحومة أمه، بـــدلا مـــن العيشة النكدة راهبا في شباب العمر!.. نعم أنا في الخمسين، ولكنني لم أشعر بهذه السن أبدا، وما زلت أكابد من حيويـــة شبابي.. البنت لا تفهم هذا كما يفهمه الولد، ولا يجوز أيضا أن تفكر فيه!

ليس غير الرجل كما تقول يا "شكري" هو الذي يســـتطيع أن يقدر مشاعر الرجل وضعفه، وهذا الفـــراغ فـــي نفســـه، والشوق إلى امرأة تشاركه النهار والليل!.

أما البنت فتقلب الأمر إلى مأتم جديد على الأم الراحلة، يتجدد، كلما رأت امرأة أخرى في فراش الأم.. أنا أعرف لماذا بدأت "سميرة" تضايق "سعاد هانم".. إنه الخوف!.. مسكينة!.. لو أنها تزوجت لعرفت، فأصبح الأمر أهون!

***

وزفر "شكري" فجأة.. والتفت إليه "سعد" الذي كان يمشي صامتا هو الآخر، يتأمل وجه "شكري".. هذا الوجه هو نفس الوجه الذي تحمله "درية".. في وجهها صفاء غريب وشيء آخر فاتن يختلط بالهيبة التي ورثتها عن وجه أبيها.. حتى الأنف، له نفس الشموخ..!

وفوجئ "سعد" عندما أمسك "شكري" بيده مترفقا وكأنما خشي أن يكون "شكري أفندي" لاحظ نظراته إليه، وأفكاره وأحس بحياء وندم.. ولكن "شكري" قال له متبسطا وهو يشد على ذراعه بحنان:

- إيه يا بطل؟ بتفكر في المدرسة والا إيه؟!.. إن شاء الله حا تدخل بكرامتك.

كانت المدرسة الخديوية بأسوارها العالية تلوح لهما وهما يسيران في درب الجماميز.

وسمع "سعد" رنين جرس المدرسة يدق مؤذنـا بانتهـاء حصة واختلج قليلا.. انتهـى الـدرس الثالـث الآن: درس التاريخ! فرغ "ميخائيل أفندي" الآن من سيرة "جـان دارك"، لكم هو مؤلم أن أحرم من دروسه.. همتك وبركاتك يا "عـم شكري أفندي"!!

واقتحم "شكري" باب المدرسة فحياه البواب باحترام كبير. وحين اعترض على "سعد" أشار له "شكري" أن يتركه، وتقدم يتبعه "سعد" إلى غرفة الناظر.

لم يفارق "شكري" أبدا شعوره المرهق بالانقباض والحزن والرغبة في الثأر كلما دخل المدرسة الخديوية، وعلى الرغم من أنه دخلها مرات بعد وفاة ابنه ليقدم فيها أوراق سعد، فما زالت مشاعره تضطرم وهو يقترب من المدرسة، ومن فوقه الغيوم تحجب شعاع الشمس وزرقة السماء.

ونكس رأسه قليلا وتنهد ولكنه سرعان ما اسـتعاد نفسـه وهو يطلع السلالم إلى غرفة الناظر في الدور الثـاني يكـاد يقفز الدرجات في نشاط.. جهد "سعد" ليلاحقه.

وظهر الضيق على وجه "شكري عبد العـال" والسـاعي الواقف أمام حجرة الناظر يعود إليه قائلا:

- دقيقة واحدة، بس لما يرد على التليفون.

ومشى بعصبية في الردهة الواسعة أمام باب الناظر، ووقف "سعد" ينظر إلى الممر المؤدي إلى الفصول، ورأى "ميخائيل أفندي" مدرس التاريخ يقبل مسرعا فأسرع إليه "سعد" يحييه، وعرفه "شكري عبد العال" وفتح "ميخائيل أفندي" باب حجرة الناظر بلا استئذان والساعي يحاول أن يعترض في تحرج.

ولوح ميخائيل بيده مبتسما وهو ينظر إلى سعد:

- شد حيلك... إحنا كلنا بنساعدك، الشيخ علي مدرس العربي وأنا وغيرنا كثير.

واختفى ميخائيل في حجرة الناظر و "شكري" يشيعه بنظرة إكبار مهمهما:

- دا باين عليه شاب وطني؟ آهو كده يجب أن يكون كل المدرسين! العلم لازم يعلم الوطنية.

ثم رمق باب الناظر المغلق، وبان الشر في عينيه، ولكن الجرس دق، ودخل الساعي وعاد يقول لـ "شكري عبد العال":

- اتفضل.

واعترض بيده على "سعد" وهو يحاول أن يتبعه.

وتقدم "شكري أفندي" ليدخل متباطئا وهو يهمهم ساخطًا:

- خلاص يا سيدي.. جبت لنا الإذن بالمثول!!.. اشمعنى الناظر اللي فات ما كانشي عنده البروتوكول ده كله؟!..

ولكنه لم يكد يقترب من الباب والساعي يقف ممسكا بمصراعه المفتوح حتى سمع صوتا مألوفا ينادي من آخر الردهة:

- الله!. عم شكري؟! طب استنى استنى.

وتحرك "شكري" مستغربا، والتفت وراءه، فوجد "عبد العزيز" وترك باب الناظر المفتوح يرتد ويغلق وذهب إلى "عبد العزيز" مرحبا:

- إيه اللي جابك هنا يا دكتور؟

فقال "عبد العزيز" بضيق:

- سي زفت.. سي شوقي أخويا.. الناظر باعت جواب عاوز ولي أمره. أعمل إيه؟ أجرجر له أبوه من البلد؟!.

وابتسم "شكري" قائلا:

- ماله شوقي؟ انطرد كمان؟ يا أخي كنت ابعت أخـوك عبد اللطيف أحسن.. اسمه قانوني، ورجـل ناضـج والا دي حكاية أمراض باطنية رخرة؟ حـاتقول لـي وجع بطنه!

وتدخل "سعد":

- لا.. كل تلامذة الفصل الناظر طلب أولياء أمورهم.. بعد ما خصم خمس درجات في السلوك من كل واحد.

بينما اتجه "عبد العزيز" إلى "شكري أفندي" يرد عليه:

- ابعت عبد اللطيف للناظر عشان يقعد يتناقش معاه في السياسية؟؟ إذا كان لسه في سنة ثانية حقوق وعامـل لي محامي وكل ما يسمع حضرتك تقول عليه ناضج تكبر في دماغه وهات يا فلسفة عليه.

ورنت ضحكة "شكري".. ووقف "سعد" حائرا متخوفا من ارتفاع صوت "عبد العزيز"!! فالناظر لا يحـب أن يرتفـع صوت أمام بابه.. والضحك أيضًا؟ سيعتبر هذا كلـه إهانـة له.. يا دكتور "عبد العزيز" ليس هذا وقته، وأنت "يـا عـم شكري" أنت لم تقل لي كلمة طول الطريق، ولـم أرك أبـدا

تضحك بهذه الطريقة، لماذا لا يحلو لك الضحك إلا أمام باب حجرة الناظر؟

وعاد الساعي يتلمس مكانا بين "شكري" و "عبد العزيز"، ويطلب من "شكري" أن يتفضل فحضرة الناظر ينتظره من عدة دقائق ووقته ضيق.

ولم يتحرك "شكري".

وقال "عبد العزيز" للساعي:

- ابقى قل لحضرة الناظر إن ولي أمر التلميذ شوقي خليفة واقف بره.
- فقال له الساعي:
- حضرتك؟ والده؟

وأجاب "عبد العزيز":

- بقى انت بنظرك كده تشوف إن أنا الحق أخلف شحط زي ده يا عم أبو سريع؟ أنت مش عارف شوقي خليفة؟ دا أطول مني انت نسيتني؟ مش فاكرني؟ أنا عبد العزيز خليفة. طبعا نسيتني؟ أنت زي ما أنت

ما تغيرشي فيك حاجة أبدا. كنت وأنا تلميذ هنا كل ما آجي أطلب مقابلة الناظر تقول لي اسمك إيه؟

وتدخل "سعد":

- الدكتور عبد العزيز خليفة ولي أمر شوقي خليفة يا عم أبو سريع.. أخوه.

وقال الساعي وهو يحاول أن يتذكر "عبد العزيز" مدققا في وجهه:

- أصل حضرة الناظر محتم انه يقابل أبهات التلامذة بس. وعلى كل حال أنا أكلمه لك. آه إزيك يا سي عبد العزيز: أيوه! افتكرت أنت بقيت دكتور بقى! ياما بيفوت علينا.

وأسرع يجيب جرس الناظر، ويفتح الباب لشكري عبد العال ودفع "سعد" بيده ليمنعه من الدخول وراءه.

وتقدم "شكري" إلى الباب وهو يقول للدكتور عبد العزيز ضاحكا كأنه يتعمد أن يترك الناظر ينتظر دخوله مدة أطول:

- لكن أنت لسه بتنهج كده ليه يا دكتور من طلوع السلم؟ يا خسارة على الشباب!

ورد عبد العزيز مبتسما:

- طب بس اتفضل ادخل.. ما هو زمانكم كانوا..

ولم يكمل "عبد العزيز"، إذ دخل "شكري" وعاد الساعي يقول لسعد وهو يشير له بيده أن يصبر:

- أنا منعتك لكن دي الأوامر! دلوقت حضرة الناظر يطلبك أقوم أدخلك على طول. ما تزعلش. دي أصول. كل شيء بالأصول والأصيل ما يزعلش من الأصول.

ووقف سعد يتطلع في اضطراب ملحوظ إلى الباب المغلق على الناظر وشكري.. وسأل في قلق:

- مين جوه تاني؟

فأجابه أبو سريع:

- مافيش. الشيخ علي قاعد من الصبح، وميخائيل أفندي داخل قدامك.

والتفت "عبد العزيز" إلى سعد قائلا بخفة:

- لكن يا واد "يا سعد" أبوك فين؟ ما لقتش غير عمك شكري أفندي يتفاوض لك على رجوعك. دلوقت يضرب لك الناظر بالكرسي.

وتهيب "سعد" من ارتفاع صوت "عبد العزيز" بكلام مثل هذا.

ثم دق جرس حجرة الناظر مرة أخرى فدخل الساعي وعاد يقول للفراش وهو يقف بعيدا:

- ابعت اتنين قهوة مضبوط لسعادة البيه الناظر...

وأخذ "سعد" من يده قائلا:

- اتفضل ادخل.. سعادة البيه الناظر غزالته رايقه النهارده!

وتحرك "سعد" وأصلح رباط رقبته، ووقف يمسح أنفه ووجهه بمنديله أمام الباب، تنحنح، ودخل.

فاعترضه الساعي.

- زرر الجاكتة يا أفندي.

وعندما أغلق الباب وراءه قال "عبد العزيز" للساعي:

- يا عم أبو سريع أنا مش فاضي.. قلت لحضرة الناظر؟!

فأشار له "أبو سريع" بيده مهدئا وهو يبتعد به:

- الحلم سيد الأخلاق. ساعة اللي جوه ما يطلع أنت تدخل. أنا ما أقدرش أدخل ولي أمر على ولي أمر ولا تلميذ على تلميذ. لكن قل لي.. أنت بقى يعني بقى يعني بقيت دكتور: دكتور إيه بقى؟

فقال "عبد العزيز" ضاحكا:

- دكتور أمراض باطنية؟ يعجبك! والا دكتور جراحة أحسن؟؟

وارتفع صوت مفاجئ من داخل غرفة الناظر، فقال الساعي متوجسًا:

- الله!؟ البيه الناظر بيزعق! الله! يا اخوانا ده كانت غزالته رايقه لسه من دقيقة.. ما كنا مفرفشين!

ثم تبين "عبد العزيز" صوت "شكري عبد العال" يرتفع فهمهم لنفسه وهو يفكر بجد:

- ربنا يستر!

وابتعد...

وبعد قليل اندفع "شكري" من الحجرة غاضبا.

إنه لم يكد يقعد في حجرة الناظر!. ما هي الحكاية؟

وسحب شكري يد "عبد العزيز" وخرج به مسرعا، ومن ورائهما "سعد" وهو يقول في غضب:

- تعال يا عبد العزيز.. الرجل ده لا يستحق أنك تقابله!

واندفع في صمت وهو يجر عبد العزيز من يده..

***

وفي شارع درب الجماميز.. اختفى سعد، وتابع شكري الصامت، وحاول "عبد العزيز" أن يعرف شيئا من شكري ولكنه لم يستطع... لم يكن مستعدا لأية همسة!

وحاول عبد العزيز أن يقول كلاما يضحكان منه.. وسأل شكري كان الناظر يستحق الضرب بالكرسي، مثل الضابط الإنجليزي ولكن شكري كان يغلق فمه ويطبق شفتيه وعلى وجهه صرامة وعيناه تبرقان.

وقال عبد العزيز لشكري أخيرا:

- طيب أرجع أنا أشوف حكاية شوقي أخويا.. أشوف بس الناظر عاوز إيه.

فأجابه شكري بضيق:

- لا. ده راجل مش تمام... لا يستحق أن تروح له يا أخي! الله!..

وهمس "عبد العزيز":

- طب بلاش النهارده... أروح الكلية بقى.

وظل يمشي صامتا...

ومر الاثنان على مطبعة الأسطى "عبد المعبود" في نهاية شارع درب الجماميز من ناحية السيدة زينب، فلم ينتبه لها شكري، وقال "عبد العزيز" محاولا أن يغير حالة "شكري":

- تيجي نشرب شاي عند عبد المعبود؟

ولكن شكري اعتذر بطقطقة من شفته... ولم يتكلم.. وظلت أنفاسه تتردد في منخريه وعضلات وجهه تتقلص، وهو يضغط على شفته كأنه يكتم صارخا يوشك أن ينفجر.. وهمهم:

- بقى ده كلام يقوله لي الناظر؟!.. أنا يقال لي إني باضرب الطلبة الوطنيين.. أنا يقال لي ما تعملشي بطل!!

ثم التفت إلى "عبد العزيز" ونظر طويلا في عينيه قبل أن يقول:

- اسمع يا عبد العزيز... أنا عايزك تقول لي بصراحة.. قل لي رأيك بكل صراحة.. أنا باستحلفك بعزة الله يا ابني انك تكون صريح معايا.

وتوقف شكري وهو يبلع ريقه..

وبوغت "عبد العزيز" من لهجته ورقة صوته وشكله وهو يتكلم، فقال بحذر ورعاية:

- إيه؟! حصل إيه بس؟ حضرتك تعرف طبعا إني صريح جدا معاك؟ إيه؟! خيرا! إيه الموضوع!

وأخذ شكري نفسا عميقا وزفر ببطء كأنه يزيح عن صدره أشياء تحبس تحتها الكلمات..

وبدأ يقول بصوت متقطع تتزايد رهبته:

- هل أنا غلطت يا ابني لما قبلت الرجوع إلى الجيش؟! جاوبني بصراحة.. بكل صراحة! سيبنا من كلام الناظر! أنا عارف انه بردعة من برادع الإنجليز، لكن هل أنا غلطت في رجوعي؟ أنا لم أساوم. أنا لم أقبل أي شرط للرجوع، بل بالعكس أنا اشترطت أن يكون رجوعي غير مربوط باستعداد لضرب أي مظاهرات يمكن أن تقوم. كلهم في الجيش عارفين اني أنا لا يمكن أن أضرب أي شاب مصري بيهتف بالاستقلال والحرية، وكلهم عارفين مواقفي وعارفين أني رفضت أن أرجع سنة ٣٠ رغم الأزمة وسوء الحال وإغراء المرتب. أنا رجعت صحيح دلوقتي ولكن مش لأني فقير.. أو لأني ندمت على ما فاتني.. أو.. لأني خايف على مستقبل أولادي!.. أنا حقيقة مش فاهم هم أرجعوني ليه، لكن.. أنا متأكد اني لم أتنازل عن مبادئي أبدا أبدا. يمكن أدركوا خطأهم بعد مرور العشر سنين دول... وعلى كل حال.. فيه غيري من إخواننا المتقاعدين رجع زيي!.. أنا.. مش

مستريح.. وحاسس ان فيه ناس بتنظر بريبة لمسألة رجوعي للجيش... مش كده!؟ إيه يا عبد العزيز؟!

***

وبهت "عبد العزيز" وهو يسمع هذه الكلمات التي رنت في أعماقه رنينا حزينا ولم يشعر بأنهما توقفا على محطة الأتوبيس ولا بأن الأتوبيس جاء يتدافع إليه المتزاحمون.. ولم يعد يحس بضجيج ميدان السيدة زينب من حوله، وأخذ ينظر إلى الرجل الواقف أمامه ولفح النار على وجهه، ومن فوقه سماء تتلبد بغيوم خابية الضوء داكنة كأنها مأساة! وقال "عبد العزيز" في حيرة وتأثر وتحرج ورعاية:

- إيه بس مناسبة ده كله يا عم شكري بيه؟! هو الناظر قال لك إيه؟!.. أنا مش فاهم إيه الحكاية. مين ده اللي ينظر لك بريبة. بالعكس، كل الناس بتقدرك وتحترمك وعارفه مواقفك وبتشوف إنك واحد من ضحايا الإنجليز رد إليه جزء من حقوقه..

وقاطعه "شكري":

- أنا شايف كل الموظفين اللي فصلوا في سنة ١٩ وما بعدها كلهم يا عبد العزيز رجعوا لوظائفهم في

السنوات اللي فاتت.. ما فيش غير عدد قليل جدا وأنا كنت من العدد القليل.. يقوم بيجي واحد صنيعة من صنائع الإنجليز زي الناظر ده يعرض بي ويقول لي ما تعملش بطل علينا.. ويقول لي.. تصور.. إنه كان طالب وطني سنة ١٩ أنا كنت ضابط في جيش بيضرب الطلبة!!

وظل صوته يحاول أن يرتفع فتخنقه النبرات الحزينة..

وضج "عبد العزيز":

- ده كلام فارغ، ده كلام يضحك!.. ده تشويه رخيص يا شكري بيه! تشويه لا يقدر عليه إلا نوع من.. من.. من الرجال البغايا.. وأنت كمان ما فيش داعي تعذب نفسك بأوهام زي دي.. طيب لو كانت المسألة زي ما أنت متصور ما كنت رجعت سنة ٣٠ والا سنة ٣٣.. لا... بقى أنت يا شكري بيه أنت بجلالة قدرك يهزك كلام زي ده!؟.. طبعا أنت بطل عليه وعلى أسلافه كما!

وانبسطت أسارير شكري وهو يقول: لا.. ما أنا سلخته.

وفضحته!

واستمر عبد العزيز يقول متشجعا وهو يرى وجه شكري يعود إلى حالته العادية:

- طب أنا حاقول لك خبر سار: بقى تعرف ان الأسطى عبد المعبود كان عاوز يفاجئك بزفة يوم ما لبست بدلة صاغ؟ وكان عاوز يحط زينات على البيت؟ والمطبعة. و.. ولكن أنا قلت له يستنى لما تصلح حالتك كويس وتأخد كل حقوقك.. يعني اعمل حسابك يوم ما حتاخد قائمقام والا أميرالاي.. حاتخش الشارع بالطبل الكبير.. بزفة زي العرسان!

وابتسم شكري وعبد العزيز يستمر:

- يا سلام! والله حقنا نزفك بقه وأنت عريس!

وضحك شكري.. وملأ صدره بهواء الضحى النظيف وانتعش وأدار كل وجهه وهو يقول:

- عبد المعبود ده.. ده رجل تمام.. فاهم الدنيا كويس يا عبد العزيز وعايش سلطان زمانه.. نفسه يعيش في أفراح على طول... ربنا يديه ويفرحه يا سيدي!..

وابتسم الاثنان.

وألقى عبد العزيز نظرة سريعة على ساعة يده، وصفر وهو يتحرك إلى الأتوبيس عارضا على شكري الركوب قبله:

- اتفضل!... أنا رايح الكلية بقى... ولما أرجع أبقى أفوت على المدرسة قبل ما تطلع أشوف الناظر عاوز إيه كمان من سي شوقي.

وهز شكري رأسه مبتسما قائلا لعبد العزيز:

- بتركب من السيدة زينب للقصر العيني؟ بتركب المسافة دي طب دا أنا يا للي أخلفك وقدك مرتين باروح مشاوير لحد الروضة ماشي؟ المشي صحة يا عبد العزيز! يا خسارة على شباب الزمن ده!

وضحك، وعبد العزيز يحشر نفسه على سلم الأتوبيس ملوحا له:

- طيب حكاية الشباب نشوفها بعدين يا عم شكري بيه!..

وانطلق الأتوبيس وشكري يتابع مسيره إلى وزارة الحربية.. طيب النفس بكلمات عبد العزيز.. إنه هو الآخر

يقول عم "شكري بك.." لأول مرة يقول له "شـــكري بـــك"..

أتكون ميمي هي التي علمته!!؟

(٤)

يوم آخر يا "سعد" تقعده في البيت، ولا فائدة... لا أمل لك أن ترجع إلى المدرسة إلا إذا ضربك أبوك في الطابور أمام كل المدرسة! الساعة الآن العاشرة، وهم في حصة الإنشاء بلا ريب.. "الشيخ علي" يشرح الآن عناصر الموضوع.. لا بد أنه آسف لغيابك يتلمس كلمات معينة بالذات ردا على أسئلتك، ولا أحد يسعفه بها غيرك!!.. في موضوع الإنشاء السابق أعطاك تسع درجات من عشر، ولكنه هددك بالصفر إن كتبت كما يكتب "طه حسين" (.. "الشيخ علي" لا يعترف بهذه الطريقة في الكتابة.. وهو يشبك يديه ويهز جسمه الطويل منفعلا وهو يقول: اكتب يا ولدي كما يكتب الجاحظ أو عبد الحميد الكاتب أو ابن العميد لا كما يكتب طه حسين، وإذا شئت أن تحتذي بواحد من المعاصرين فعليك بالمنفلوطي أو بالرافعي أو الزيات! كله إلا طه حسين!

ولكنك يا "سعد" لن تكف عن التشبه بطه حسين، فلا كلمات تهز نفسك مثلما كلمات هذا الرجل الذي وقف مرة في

وجه صدقي وحكومته، وكتب "أوديب" و "الأيام" و "في الشعر الجاهلي". كتاب "في الشعر الجاهلي" مازال يغضب الشيوخ! صبحك الله بالخير يا "شيخ علي". أنت دائما تجدني أقلد أحدا! كنت تزعق في وأنا في السنة الأولى، وتقول: "لا تقلد فاطمة رشدي يا ولدي! يا فطيمة رشدي".. لكن رنين صوتها في الشعر يا "شيخ علي" لا مثيل له! كلما حاولنا أن نقرأ شعر شوقي في رواياته يا "شيخ علي" زحف إلينا رنين بديع من صوت "فاطمة رشدي" على كل حال لم يعد صوتي الآن بعد أن خشن يستطيع أن يحمل أية نبرة من إلقاء فاطمة رشدي.. كنت أستطيع هذا بسهولة منذ عامين، وكان جورج أبيض مدرب التمثيل وقتها يعجب لتشابه صوتينا!.. آه لو أستطيع الآن أن أمثل مشهدا من "أوديب" بنفس الطريقة التي أبكانا بها جورج أبيض وأبكي ميخائيل أفندي مراقب الفرقة (.. ذلك المشهد الذي ينوح فيه أوديب حين يكتشف أنه تزوج أمه واستولدها البنين والبنات!.. ما أروع أن يكون الإنسان ممثلا)..!

ولكن باب المدرسة مغلق في وجهي! ومازال مغلقا على الرغم من شفاعة "الشيخ علي" و "ميخائيل أفندي"..

شكرا يا "شيخ علي". فأنت و "ميخائيل أفنـــدي" تشـــفعتما طويلا لدى الناظر.. شهدتما لي خير شهادة عنده، وأوشـــك الناظر أن يقتنع، وأخذ يشتمني في ثورة تتزايد لتهــدأ بعــد ذلك، ويصفح... نحن نعرفه... ونعرف ثورته ونـــرى فيهـــا بادرة خير: فهو يثور ويشتم حين يقرر أن يصــفح. ولكـــن ما يخيفنا فيه هو هدوءه. فهو ينزل أشد العقاب بالتلاميذ وهو هادئ!..

غير أن العم "شكري" لم يفهم هذا. سكت قلـــيلا والنـــاظر يشتمني وهو يتأمل إذعاني أمامه ثم نطق هو عني. ويا ليتـــه ما نطق! اعتبر شتيمة الناظر لي أمامه إهانة له هو، وصرخ في وجه الناظر ولوح بيده متسائلا كيف يسمح ضمير المربي بإهانة تلميذ مجتهد وإذلاله لمجرد أن مدرسا إنجليزيـــا أراد هذا؟!. وزاد الطين بلة، وثالثة الأثافي كما يقول "الشيخ علي" مدرس العربي – ولكن ما الأثافي هذه؟! – المهـــم أن العـــم "شكري" طينها وقال للناظر في وجهه: إنه ينصر "الخواجـــة" الإنجليزي على التلاميذ المصريين، لأن الإنجليز هم أخـــوال أولاده، وهو يتكلم الإنجليزية في بيتـــه، ويعبـــر بهـــا عـــن

عواطفه، وهي لغته حتى في الفراش.. وهو من برادع الإنجليز!!

إذ ذاك ساد صمت متوتر ودق قلبك يا "سعد" وخجلت مما تسمع، واحمر وجه الناظر واصفر، وارتعشت نظارته فوق أنفه المقوس ونزع "البيب" من فمه ورماها على مكتبه، ووضع طربوشه على رأسه المفروق الشعر، ثم وقف معلنا انتهاء المقابلة، ونظر إلى العم "شكري عبد العال" مؤكدا له أنه وطني أكثر منه، وأنه لا يساوم في وطنيته مثل "شكري" نفسه، وأنه اشترك في ثورة سنة ١٩١٩ عندما كان طالبا في المعلمين العليا، بينما كان "شكري" هذا وأمثاله من الضباط يضربون الطلبة بالرصاص! وقبل أن يسمع ردا أقسم أنه لن يقبل عودة "سعد داود" إلى المدرسة إلا إذا جاء أبوه المدعو "داود أفندي" بنفسه إلى المدرسة، وضرب الولد أمام التلاميذ!!..

وخرج "شكري عبد العال" واجما كالمأخوذ، وبقي "ميخائيل أفندي" يقلب كفيه متعجبا و "الشيخ علي" يزيح عمامته ويحك منبت الشعر في رأسه!! وعدت يا "سعد" إلى

البيت كما خرجت منه وقال عنك الناظر: "الولد".. وكأننا لا رحنا ولا جينا..!

كذا يا "عم شكري"! تمام كما قال الدكتور عبد العزيز، كان يمكن أن تضرب الناظر بالكرسي!.. ولكنه أسكتك، ورأيت أنا وجهك يغيض وهو يقول لك: إنه لا يساوم في وطنيته مثلك!! يا عم "شكري" ما أضنى فؤادك؟! إذا كانت الدنيا كلها برادع وصنائع إنجليز، فما ذنبي أنا؟! لماذا تحرمني من المدرسة؟! لماذا لا تتشطر على نفسك يا عم!؟ لماذا قبلت أنت أن تعود إلى الجيش؟!... أنت تحرمني من أحلى ساعات النهار: دروس "الشيخ علي" و "ميخائيل أفندي".. اجتماع جمعية الخطابة في فسحة الغداء، وفرقة التمثيل بعد انتهاء اليوم الدراسي!.. البروفات تجري الآن بنشاط.. وبهذه الطريقة لن أمثل! الله يسامحك يا عم "شكري أفندي".

ها نحن نرجع إلى البيت ونقعد فيه كالبنت البائرة؟. آه.. باب البيت مفتوح!.. ادخل على مهل يا "سعد".. كل شيء هنا على رجل!... الحمد لله يا "سعد" أن أمك لم تشعر بعودتك خائبا من المدرسة، فهي مشغولة بتنظيف البيت. فاليوم هو

اليوم الذي خصصته أمك من بين أيام الأسبوع لتتلقى الزيارات.. هو اليوم الذي تسميه أمك يوم المقابلة.. والصالة كلها مقلوبة.. ما هذا؟. البنت "ألطاف" في الممر الداخلي أمام غرفة نوم أبيك منحنية على الأرض في قميص نوم قديم مكشوف، من قمصان أمك، تلبسه البنت على اللحم، ويداها وقدماها في الماء تمسح البلاط.. كيف تحتمل هذا الماء؟!.. الجو بارد جدا في هذا الصباح من أكتوبر.. ومع ذلك فهي تضع يديها في الجردل، ويسيح الماء تحت قدميها العاريتين، ولحمها يبين من تحت القميص الذي تحدد شفافيته كل جزء من بدنها.

ألا تشعر المسكينة بالبرد؟!..

اقعد هنا يا "سعد" في الصالة على الكنبة الإستانبولي، ولا داعي لأن تدخل الآن لأمك وجدتك، وتخوض في الممر الداخلي الممتلئ بماء المسح، وتتنقل بحذائك في الغرف المنظمة وتستفز ثورة أمك!.. اقعد هنا في الصالة، فأمك متحفزة، ولا لزوم لمشاجرة جديدة على الصبح!... يكفي ما حدث مع أبيك قبل أن تخرج اليوم! إن هذا كله سخيف، ولكنه يحدث دائما بين أبيك وأمك في صباح كل يوم

مقابلة... أبوك لا يحب يوم المقابلة، هذا، ولكنه لا يصنع شيئا لتغيير ما يكره!. إنه يستطيع أن يأمر أمك بإلغاء هذا التقليد ما دام هو يضيق به، بدلا من المشاجرات التي تستفتح يوم المقابلة!...

***

وفي أيام المقابلة هذه، تعود سعد أن يسمع أباه وأمه يتبادلان الشتائم، ويتصايحان حول التكاليف ويتشاجران على عشرين قرشا وعشرة قروش. وخيل إليه في الأوقات أنهما سينفصلان إلى الأبد ولكنه كان يراهما – على الرغم من كل شيء – ينامان دائما في حجرة واحدة، ثم يصبحان فتقول عنه "الأفندي" ويقول عنها "الست".

***

ولكن أمه الآن تزعق في الداخل وهي تتكلم عن رجل، وتسميه "المغفل"!.. من الرجل؟! ياه.! إنها تعني أباه.

لكم يحز هذا في نفس "سعد" ويملأ أعماقه بكراهية مبهمة لكل شيء.. ولكنك أنت المسئول يا "سعد"!.. ما كان يصح أن تعيد كلمة "شكري عبد العال" عن أبيك في شماتة خفية. ما كان يجوز لك أن تشعر بفرح ماكر خبيث، حيث يقول

عن والدك: إنه مغفل!.. إنه مهما يكن، فهو والدك! صحيح أنه لا يعرف مكانتك في المدرسة... واحترام الطلبة لك، وهو لا يقدر فداحة أن يضربك أمام الناظر... ولكنه أبوك يا سعد، وإن كان يغلظ لك أحيانا، ويراك أمامه طفلا، وينذرك بالخيبة وضياع المستقبل، ويملأ نفسك باليأس! إنه أبوك الذي يجب أن تحترمه، وإنه كان ما يكاد يراك تذاكر، حتى ينظر في كتابك ويقول باستخفاف: إنهم على أيامهم كانوا في المدرسة الابتدائية يدرسون أكثر من هذا وباللغة الإنجليزية نفسها.

***

وقديما كان سعد يحسب أباه أعظم رجل في مصر.. ويتصور أنه يملك ما لا نهاية له من المال، وكل شارع عزيز، ويستطيع أن يفعل أي شيء في الدنيا.. وحين كان أبوه يأخذه من يده إلى مكتبه بدائرة البرنس عزيز، كان سعد يرى السعاة في ملابسهم الرسمية – كالعسكر – يقومون لأبيه ويسمعون كلامه، والدنيا كلها تقوم له وتقعد، وهو يتحرك ويروح ويجيء بخفة ويقرأ دوسيهات ضخمة.. وكان "سعد" يظن أن والده هو الذي يملك هذه الدائرة، ولكنه أدرك يوما

بعد يوم أن داود أفندي ليس إلا كاتبا صغيرا تـزوج بنـت رئيس له في الدائرة من عائلة تركية قديمة حكم أفراد منهـا في بعض الوقت، ولم يعد الآخرون يملكـون غيـر الزهـو بالاسم القديم، وأدرك "سعد" أيضا أن كل أقاربه الذين يراهم في البيت هم أقارب أمه، وأن أقـارب أبيـه لا يـزورونهم إلا في النادر.. وحتى بعد زيارتهم النادرة كانت أمه تصرخ في وجه أبيه: أن البيت اتسخ وامتلأ بالحشرات من رائحـة الفلاحين.. وهي على كل حال لم تكن تستقبلهم أبدا في حجرة الجلوس، ذات الكراسي الوثيرة المذهبة، والسجادة الزرقـاء السخية الوبر، واللوحات وقطع التحـف الفـاخرة – التـي يتهامس الشارع بأنها كلها من ممتلكات الدائرة.. كانت حجرة الجلوس حرما مقدسا، تدافع عنها أمه وتحتفظ هي بمفتاحهـا ولا تفتحها أبدا إلا يوم المقابلة، أو لبعض أقاربها هي.

لكم يتمنى "سعد" لو كان مثل "شوقي خليفة" زميلـه فـي الخديوية وجاره في الشارع.. لو كان له أخوه مثلـه يعـيش معهم، كما يعيش شوقي مع أخويه "عبد اللطيف خليفة" طالب الحقوق، والدكتور "عبد العزيز" طالب الطب: هؤلاء الـذين تسميهم بعض نساء الشارع "التلامذة الفلاحين".. ومع ذلـك

فحين تأتي سيرتهم في أيام المقابلة يبرق في عيون بعض النساء – حتى أمه – إعجاب بهم جميعا وبصفة خاصة "بالدكتور عبد العزيز"، وتقارن النسوة أحيانا بين الإخوة الثلاثة. أيهم أجمل، وأيهم أخف دما!

لكم يتمنى هو أن يكون واحدا من أولاد الحاج خليفة، عمدة بلده، الطويل العريض المهيب المحترم، الذي يرج الدنيا عندما يزور أولاده في الشارع، ويدخل البيت فلا يرتفع صوت حتى من الشقق المجاورة!

إن "شوقي" صديقه، أقرب الأصدقاء إلى نفسه، ولا أحد مثله يعرف عنه كل شيء.. على أنه لم يستطع أن يرفع رأسه في الأسبوع الماضي في وجه شوقي، عندما كان شوقي يغمز له على بعض تلاميذ في المدرسة بيض الوجوه يعتزلون وحدهم في ملعب التنس وقت الغداء يأكلون الساندوتشات والشيكولاتة من البوفيه، ويرفضون دخول المطعم مع غيرهم من طلبة المدرسة!!.. إن "شوقي" يسميهم أولاد جواري الخديوي وخونة عرابي! وشوقي لا يعرف أن أم سعد تفخر دائما بأن جدتها كانت جارية في قصر الخديوي قبل أن تتزوج!..، وما زالت أمه وجدته تفخران بأن لهما

إيرادا من وقف الجواري!!.. و "شوقي" لا يعرف أن أم سعد تمدح الناس بأنهم بيض! كل مزايا الرجال والنساء عندها أنهم بيض. وهي لا تشتم أخته الكبرى "ميرفت" إلا بأنها زرقاء اللون، كالفلاحين!.

لكم تمني "سعد" أن يتباهى هو الآخر بأصله الفلاحي مثل "شوقي خليفة" أو بأصله العربي كتلاميذ آخرين!!. ما أسعد شوقي خليفة!! إنه يتحدث دائما باحترام كبير عن أمه وأبيه، وبثقة رائعة في أن أمه قديسة بطلة، وأن أباه موفور المكانة، رجلا في بيته وبلده. وهذه الثقة تعطيه الحق دائما في أن يعرض بالتركيات، كأنه لا يعرفون أن أم "سعد" تستعلي دائما على الأخريات بأن أصلها تركي!!.

ولكن سعد نفسه يعرف أشياء كثيرة. وهو ما زال يذكر في أحد أيام المقابلة حديثا غريبا دار بين صديقات أمه تبادلن فيه بعض كلمات تركية، فهم "سعد" أنهن يخفين بها كلاما فاحشا.. لأنهن كن يتحدثن عن الفرق بين الزوج المصري والتركي..!!

كان سعد وقتها صغيرا في العاشرة، وأصغر من أن يفهم مثل هذا الكلام، ولكنه مع ذلك أوشك أن يبكي، لأنه سمع أمه

تعرض بأبيه وتقول عنه: إنه رجل كامل ولكنه.. جلف، لا يعرف كيف يعامل الست!.. منذ سمع هذا وأيام المقابلة تثير في أغواره شعورا غريبا!

ولكنه اليوم يتجاوز الخامسة عشرة، وما زالت أيام المقابلة تثير فيه نفس الشعور الغريب القديم، وإن كانت تلهب رغبته في اقتحام مغامرات مجهولة غامضة..

إنه في كل ليلة مقابلة، يعاني اختلاط شيء كالاشمئزاز بخفقات غريبة تكاد تفتح قلبه لاستقبال بهجة الحياة!..

وفي أيام المقابلة هذه ألف رؤية قريبته "شويكار هانم" التي سمعها مرة تشكو من المصري والتركي، وتعلن استخفافها بكل الرجال.. وهي امرأة تسكن في بيت أنيق بحديقة كبيرة في الحلمية الجديدة، صغيرة السن رائقة الوجه حلوة جذابة، لها أنف طويل جميل، واسع الفتحتين يعطي وجهها شخصية متميزة.. وفي عينيها لهب!..

و "شويكار هانم" هذه تواظب على كل مقابلة، وأمه تفرح بها فهي من الفرع الغني في أسرتها، وجدته تتحدث بإشفاق عنها هي الصغيرة، بنت الخامسة والثلاثين التي لم تر راحة البال أبدا، رغم أنها جربت حظها في الزواج مرتين،

وما زالت تعاني البخت المائل مع زوج كبير المكانـة فـي الستين، زائغ العينين!!.. على أن "سعد" كان يعجب من قدرة هذه السيدة شويكار قريبة أمه على الكلام في أي شيء.. وهو أحيانا يشعر لرؤيتها بسخونة مفاجئة تسري في كل أوصاله، حين تقف في دلال وغندرة لتقيس طولها إلى طوله بكل بدنها الفارع الملفوف البض، والصدر الممتلئ، والنظرات الوضيئة في عينيها، والفم الذي يلمع الأحمر عليه دائمـا، والرعشـة الخفيفة على فتحتي أنفها البديع!.. إنها تمسك بيده، وتتحسس خده وشعره أمام أمه، وتداعبه كما كانت تفعل معـه وهـو طفل، وتقول له إنها ستختاره زوجا، ثم تقبله أمام الجميـع، كأن السنوات الخمس عشرة التي غيرت صوته، وجعلته الآن أطول منها لم تصنع في الداخل من جسمه شيئا!.. وعنـدما تهيب منها مرة، قالت له ضاحكة وهي تشتمه: إنـه أصـغر بعامين من ابنها البكر، الذي أخذه أبوه إلى إستانبول بعـد أن طلقها، ولم تعد تراه..

كان هذا أحيانا يملؤه بالحيرة والحزن، ويلقي على سخونة بدنه ترابا باردا من الندم.

أتجيء "شويكار هانم" في مقابلة الليلة!؟.. طبعا!.. مهما يكن أصغر من ابنها فهو يرتعد عندما يحس بملمس شفتيها على خده، وبملمس صدرها المترع بالمتاع على كتفيه!! ولكنها.. عيب عليك!..

***

وها هي البنت "ألطاف" تزحف على قدميها ورجليها لتمسح الصالة.. يا بنت داري صدرك المفتوح، وأنت منحنية.. كل شيء يبين حتى البطن!.. ولكن هذا لا يصح منك يا "سعد"!.. أغمض عينيك يا أخي أو قم إلى حجرتك.. إيه!.. المهم هي مقابلة الليلة.. المهم في مقابلة الليلة أن تجيء "ميمي هانم".. آه لو كان "أمين أفندي" رآها وهي ترقص وضحكاتها ترن!.. ومع ذلك.. فأين هي من "رجاء صدقي".. ربما كانت "ميمي هانم" أجمل مائة مرة، ولكن لا شيء مثل صوت "رجاء صدقي" وهي تمثل.. هذه البنت التي تسكن مع أهلها في الطابق الأرضي من بيت "ميمي" تواجه شقتها شقة الشيخ "عبد الحي".. لا شيء في كل الشارع يمكن أن يثير فيك من الانفعالات يا "سعد" مثل ما يثيره صوت "رجاء" وهي تمثل أو تغني على أنغام

البيانو!.. في إحدى المقابلات السابقة قعدت أختك تعزف على البيانو و "ميمي" ترقص، ثم قامت "شويكار" تعزف دورا قديما وغنت "رجاء".. إن شيئا من صوتها ينسكب في العروق عندما تغني. ولكنها تحلم بأن تمثل.. وفي مقابلة الأسبوع الماضي، رقصت طويلا.. ثم راق لها أن تمثل مشهدا من مجنون ليلى.. ووقفت ببدنها الرشيق الصغير، وأطبقت عينيها الواسعتين، كأنها تخرج من جو الحجرة وشارع عزيز، إلى تيه الصحراء.. وكتمت سعالها الذي يفاجئها أحيانا، وبدأت تمثل مشهد اللقاء بين ليلى وقيس، بعد زواج ليلى، وكانت تقلد "فاطمة رشدي".. عندما أمسكت رجاء بيدك يا "سعد" ارتعشت أنت فجأة، وأمك تنظر إليك بإعجاب، وخيل إليك أن النظرات المشرعة من عيون النساء حولك تكاد تخترق لحمك.. وعندما صرخت "رجاء صدقي" بكلمات ليلى: "نحن الحرائر إن مال الزمان بنا، لم نشك إلا إلى الرحمن بلونا!"، لم تكن هي وقتها تقلد أحدا.. هي نفسها التي تصرخ بكل بدنها وحيرتها ولهفتها!!.. ورأيت تألق الدموع في عينيها، وصفرة ذليلة منكسرة تغمر كل وجهها الأسمر البديع المنكس تحت أضواء النجفة الفاخرة!..

وعندما انتهى المشهد قبلتك أمك.. وقبلتك "شويكار هانم"، وقعدت "رجاء" في مقعدها منزوية صفراء، تلهث، وعيناها الواسعتان بشكل غير مألوف تلقيان نظرات خابية كأنها تنظر في أعماقها!.. أتراها تجيء الليلة؟!.. امسحي البلاط جيدا يا "ألطاف" فلا بد أن تجيء "رجاء" الليلة.. الليلة سنمثل هذا المشهد من جديد، وسأنطلق أنا في آخره مقلدا أحمد علام في دور قيس. وهو ينفجر: "دعيني، بلاد الله واسعة، غدا أبدل أحبابا وأوطانا!..".

ومع ذلك فهذا كله ليس هو المهم الآن.. المهم يا شيخ هو أن تعود إلى المدرسة، إلى الفصل الذي فقدته، إلى فرقة التمثيل، إلى جمعية الخطابة.. إلى اللحظات الحالمة الخارقة في فناء المدرسة أمام شجرة عتيقة تتأمل المبنى القديم الذي شهد منذ مائة عام عهدا بأسره من الدسائس والدماء، عندما كانت المدرسة قصرا لأحد أعوان الوالي!.. سيعود أبوك يا "سعد" عند الظهر، ويعرف حكاية "شكري عبد العال" مع الناظر، وآخر قرار للناظر!..

ولكن.. كله إلا هذا!!

كله إلا أن يمسكه الفراشون، ويمدوه، ويضربه أبوه أمام كل المدرسة!!.. لن يسمح بهذا أبدا..

ولئن حدث هذا.. إن الموت لأهون من أن يواجه بعدها أحدا من الطلبة!..

ولكنه لن يسمح بأن يحدث هذا، حتى لو حكمت أن يخرج من المدرسة الخديوية ويذاكر في البيت، أو يدخل مدرسة أهلية.. أمه تنفع هنا حقا.. فمنذ عام واحد، في الصيف الماضي بالتحديد، عندما بدأ صوته يخشن وشبت قامته حتى أصبح أطول من أبيه، رفع صوته على أمه، فجاء أبوه غاضبا وضربه بالكف على صدغه، ولكن أمه رفعت أباه عنه بعنف متسائلة إن كان "داود" نفسه يستحمل ضربة كهذه.. وتشاجر أبوه وأمه، وتدخلت جدته من أجله، وأحس من خلال غضب أمه وخوفها عليه أنها مستعدة لأن تهرس أباه من أجله!.. ثم جدته! إنها ما زالت تحتضنه كلما أساء إليه أبوه، أو أمه، وتصرخ "ما حدش له دعوة بيه.. دا الحيلة.. دا ديك البرابر، حتة ولد واحد على أربع بنات تقوموا تذلوه كده؟!"..

أمك الآن مشغولة بتنظيف الحجرات الداخليــة.. ولكنهــا قادمة إلى الصالة بلا شك، فأرض الصـــالة تهتــز قلــيلا.. صوتها يسبقها من الداخل، موجهــة كلامهــا إلـــى الخـــادم "ألطاف" التي ما زالت تمسح بلاط الصالة:

- انتي لسه في الصالة.. أنا فاكراكي خــدتيها دوريـــن تلاته.. امسحي كمان دور.. دوسي قوي يـــا بنـــت.. ارجعي من الأول تاني.. خدي تحت الكنبة كــويس.. تقلي إيدك.. إيه يا ختي ده!.. اخلصي وتعــالي لنـــا هنا!..

وردت عليها "ألطاف" وهي منحنية:

- مش يا ستي على ما خدت الطرقة والحمام والمطبخ.. دا أنا لسه داخلة الصالة.. لسه حتى ما كملــتش أول دور..

ولم تدخل أمه إلى الصالة.. عادت تخبط وترقع في حجرة داخلية.. وفتح "سعد" عينيه على "ألطاف" التي كانت تنحنـــي أمامه بالقميص الشفاف الأخضر، ونهداها يتهدلان، منكشــفة الفخذين، وقدماها في الماء! أهو قاعد هكذا منذ مـــدة، ولـــم

يشعر بوجودها؟.. عجبا!.. هذا البدن المنكفئ أمامه بكل دسامته وسمرته الساخنة!!..

ولمحته "ألطاف" – ورأسها بين فخذيها – يلقي على جسدها نظرات ثابتة، ويتأمل بطن فخذيها، ونهديها المتدليين، وفمه مفتوح ووجهه كله محتقن بالدم، وملامحه تجيش..

وابتسمت "ألطاف" خفية، واستدارت وهي تمسح البلاط ببطء شديد، حتى أصبحت أمام الكنبة، ثم رفعت رأسها، واستندت إلى ركبتيها، ويدها على فتحة القميص تداري انكشاف نهديها ويدها الأخرى تحرك الممسحة.. وقالت بوجه جاد وهي تغضي عينيها:

- تسمح يا سيدي؟ عاوزه آخد تحت الكنبة..

ووقعت عيناه مرة أخرى على لحمها تحت القميص الشفاف.. وأحس بها على مرمى يده.. لو أنه يمد يده!.

وعادت هي تزحف تحت قدميه أمام الكنبة، تمسح ببطء، وعيناه على ظهرها وعجزها وفخذيها، وكل بدنه يرتعد باللهيب، وأنفاسه تتابع.. أكان هو منذ عامين أو ثلاثة ينام في حضن "ألطاف" حين كانت أمه تخرج في الليل؟ لماذا لم

يكتشف إذ ذاك كل ما في حضنها!؟.. لماذا لا يحدث هذا الآن؟؟.. ليته يحدث!.

واضطربت في رأسه الأفكار، وتراءت أمامه صورة "شويكار" بكتفيها العاريتين وشفتيها.. وكل أناقتها، وأنفها المرتعش الفتحتين، وملمس نهديها، مختلطة بصدر "ميمي" العامر، وعيني "سعاد هانم" العميقتين، وقوام "درية" الفارع، وهذا اللحم الأسمر العاري.. لحم "ألطاف"!..

وقام إلى حجرته على الفور، وصور عارية لأجساد أنثوية بنهودها وأفخاذها وأردافها، تضطرب أمام عينيه متشابكة بأطياف وجوه نساء يعرفهن!.. ولهث بشدة، وفي أذنه تدوي من الخفاء أصوات نسائية مختلفة.. وأغلق الباب على نفسه بالمفتاح دفعة واحدة، وتتابعت لهثاته وارتفعت دقات قلبه بنبض كالطبول.

***

وبعد قليل سمع "سعد" صوت أمه تتحدث مع سيدة في الصالة، تقرأ لها خطوط الفنجان وهما تضحكان، بينما استلقى هو على سريره منقبض الصدر، وندم رهيب يضغط على نفسه.

وسمع همسات من "ألطاف" ثم زعيق أمه:

- طيب مش تقولي ان سيدك سعد هنا؟!.. الله؟! جه من إمتى؟.. هو شكري بيه ما عرفش يرجعه المدرسة والا إيه؟..

صحيح!.. لماذا لم تقولي لأمي أيتها اللعينة "ألطاف"؟ ولماذا تركتني أحملق فيك، وبدنك يتلوى أمامي بأكثر إثارة من البدن العاري!.. الملعونة!..

وارتفع صوت أمه:..

- تعال يا "سوسو"..

وضايقته كلمة "سوسو" كما لم تضايقه من قبل.. وقام من فوق السرير، واتجه إلى الباب وأدار مفتاحه في صمت، مصمما على أن يصرخ في وجه أمه أن تكف إلى الأبد عن هذا النداء، فهو ليس أحد الأولاد البيض من سلالة الجواري وخونة عرابي، الذين يشمئز منهم هو نفسه!. وتذكر ساعتها مغامرات حكاها له "شوقي" مع بنات في بلده.. وأحس بغتة باشمئزاز من نفسه وبالهوان، وبأنه وحيد، أقل درجة من "شوقي" ومن تلاميذ آخرين قاموا بمغامراتهم مع النساء في دروب الأزبكية.. حيث لم يجرؤ هو بعد!

وعندما فتح الباب، شعر بسأم يمسك غضبه، وبشيء كالانهيار!

وتقدم فاترا إلى الصالة، وهو لا يزال ببدلته، فوجد "سعاد هانم" تجلس مع جدته وأمه على الكنبة الإسطانبولي، و "ألطاف" تلم كنكة القهوة والفناجين ووابور السبرتو وتضعها على الصينية وتنصرف. ولم يجرؤ على أن يرفع رأسه في وجه أحد، وبصفة خاصة "ألطاف"!

ودهمه الخجل وهو يتقدم ليسلم على "سعاد هانم".

واضطرب قليلا وأحنى رأسه، ومال بصدره، ووخزات غريبة تلسعه، ونادته جدته مشجعة مزهوة وهو يتقدم مترددا إلى "سعاد هانم" بينما كانت أمه تقول في استخفاف:

- دلوقت أبوه ييجي يعمل لنا غارة! صبحنا بغارة على المقابلة، وحانتمسى بغارة على بسلامته!! والنبي يا أختي ده شكري بيه ده راجل بيفهم الناس صحيح.. صدق فيما قال.. مسمي داود أفندي المغفل!..

وقامت "سعاد هانم" تسلم على "سعد" وكلمات أمه تزلزله، بينما كانت جدته تقول لها بتأنيب:

- عيب يا عديلة! عيب تقولي كده على الأفندي بتاعك.. سيدك وتاج راسك..

وانفجرت عديلة تقول، وسعد يقعد على الكرسي:

- دهده يانينة!؟.. يعني أفندينا!؟ أصله بسلامته صاحب حماته؟ عاملين حزب عليه هيه وهو والمغفل الصغير.. وأنا والبنات حزب لوحدينا!

فقالت سعاد هانم ضاحكة:

- يعني سعد وباباه وتيزه سعديين، وانتي والبنات عدليين؟.. لو كنت سميتيه عدلي كنتي ضمنتيه معاك يا عديلة هانم.

وضحكت عديلة هانم وهي تقول:

- هو أبوه رضي.. دا فضح الدنيا علشان يسميه "سعد" وكان عاوز يسميه سعد زغلول كمان.. لا رضي باسم عدلي ولا باسم شوكت أهم بقى هم حزب الفلاحين.. واحنا حزب الأتراك والباشوات.. تنيه راحت مع الفلاحين! يا أختي على أقل شيء يعملوا غلبه! قطيعة! دلوقتي تشوفي ياما حايعمل لفندي لما بيجي يلاقي "سعد" ما رجعش المدرسة!!

وكتمت ضحكاتها لتكمل.

- والنبي ده على رأي أدهم بيه قريبنا: عمر ما اسم لبس واحد زي اسم المغفل ما هو لابس بسلامته داود!

ولم يضحك "سعد" طوال هذا الحديث.. وأحس بالكلام ثقيلا رخيصًا.

وظل صامتا يسمع وهو يعاني ألما سخيفا مهينا، كأن يدا أقوى منه تمسك به من خناقه، وتغرس رأسه في طين منتن وتلوي له أنفه..

ولكنه انفجر بغتة وهو يضرب الكرسي في الأرض:

- اسمعي.. أنا لا أسمح لك انك تقولي على أبويا أو عليه كلام زي ده! يعني إيه مغفل!.. إيه اللي مغفل.. مغفل؟؟!. يعني إيه الكلام ده؟!.. هو انتي بتستغفليه؟.. كنتي استغفلتيه حضرتك؟

وبهت الجميع..

وشهقت أمه عديلة هانم وحملقت بذهول.. ولم تقدر على الكلام.. وحاولت أن تسترجع نفسها شيئا فشيئا، وأنفاسها

تتردد في أنفها الدقيق وفمها محكم الإغلاق، وكــل أعماقهــا تختلج.

ووقفت وتقدمت خطوة فوجدت "ســعد" أمامهــا يــرفس الكرسي برجله، مفتوح الصدر، أطول منها، ويده تــرتعش، وفي وجهه صفرة الموتى كأنما فارقه كل دمه!..

وساد الصمت، وسعاد هانم تقف إلى جوار عديلة هــانم، وتنظر إلى سعد بطوله وعرضه في غيظ يخالطه الإكبــار.. إن رأسها لا يكاد يبلغ كتفه، وهو حاسم قــوي!.. يجــب أن يكون الرجل هكذا.. ولكن.. أيمكن أن يتجرأ ابنها بعد عامين أو ثلاثة، حين يصبح في سن "سعد" فيكلمها بهذه الطريقــة، ويقف أمامها بمثل هذا التحدي يرمقها بعين لا تطرف!!.. إنه ليس "سوسو" هذا الذي يقف الآن ويزعق بل رجــل آخــر، رجل كامل يمكن أن يرفع الكرسي ويضرب به أي إنسان.. حتى أمه!!..

وظلت عديلة هانم واقفة تنتفض، وفي صدرها يضــطرم الحنق والخوف والخجل.. ماذا يعني "سعد" بقوله إنها تستغفل أباه!؟ لو أنها وقفت هكذا صامتة أمام الولد، فمن الممكــن أن يتقدم هو فيضربها!..

وانفجرت فيه وهي تندفع إليه بكل يأس امرأة تقاوم وحدها زحف تيار مخيف:

- أنت بتقول إيه يا ولد؟!

بينما حاولت جدته أن تقف قائلة بصوت مضطرب متوجس:

- جرى إيه يا "سوسو"؟!. اقعد، يا حبيبي، اقعد واخزي الشيطان.

ولكنه تقدم إلى أمه أكثر فأكثر، وهو يفقد السيطرة على نفسه كلما تقدم وصوته يرعد في رنة ذبيحة يائسة:

- اوعي تقولي لي يا "ولد" اوعي حد تاني يقول يا "سوسو" أنا اسمي سعد.. سعد! اوعي تقربي ناحيتي!. اوعي تمدي إيدك علي أنا بقول لك أهه!.

ورنت كفها على صدغه فجأة.. وارتمت عليه بكل ثقلها تمسكه من شعره الطويل وتضربه على وجهه وكتفه وتصرخ، وهو واقف أمامها متهدل اليدين، وعيناه مغمضتان، وهو يضغط على أسنانه بعنف، وشعور بالمهانة والزراية يكاد يسحقه!.

وعندما أفلحت سعاد هانم و "ألطاف" وجدته في إبعاد أمه عنه، ظل هو واقفا لا يعرف ماذا يفعل..!

وضرب الباب وراءه بشدة، وصراخ أمه وبكاؤها يمــلأ أذنيه..

وحين استقبل هواء الطريق البارد، لعب لسانه فــي فمــه المغلق، وبلع ريقه، وهز رأسه وتنهد!..

ومشى.. وظل يمشي إلى غير غاية، وهو يتماسك لكــي لا يبكي والأفكار المضطربة تدوي في رأسه!..

لا مقام في هذا البيت!.. إلى أين؟..

بلاد الله واسعة!!

(٥)

أقسم "داود أفندي" إنه لن يتدخل في أي شأن من شـــئون "سعد" ولن يهتم إن راح أو جاء، إن أفلح أو خاب! وما دامت أمه هي التي تحكمه وتدللـــه، فهي حرة!

وكان داود أفندي محقا، لأن ابنه خرج بعد أن ضـــربته أمه منذ الصباح ولم يعد إلا بعد العصر.. وحـــاول هـــو أن يضربه عندما عاد، ولكن "عديلة هانم" هددت بأن تترك البيت ينهد على من فيه إن مد "داود" يده على سعد!..

وفي الصباح التالي لم يكلم "داود" ابنه، وخـــرج دون أن يعطيه مصروفه اليومي، وأقسم إن أعطتـــه أمـــه أو جدتـــه مصروفا أن يترك لهم البيت هو الآخر ولا يعود أبدا!..

ومع أن "عديلة هانم" حمت "سعد" من ضرب أبيه، إلا أنها لم تستطع أن تكلمه، وعندما حاول أن يكلمها هو، ثارت في وجهه وطردته من حجرتها قائلة:

- أنا ما عنديش ولاد يرفعوا صوتهم في وشي ويقلوا أدبهم عليه.. أنت لا أنت ابني ولا أنا أعرفك!..

وأغلظت "عديلة هانم" لابنتها "ميرفت" حين توسطت لسعد وتركتها تخرج باكية إلى مدرستها "سان فان سان دي بول".

أمك تصنع معك هذا في صباح اليوم، مع أنها ليلة الأمس – اليوم الذي ضربتك فيه، وبكت وأوشكت أن تخنقك – ليلة الأمس، بالذات كانت تضحك مع صديقاتها.. قالت إنها ستلغي المقابلة، وأرسلت "ألطاف" بالفعل إلى "سعاد هانم" و "ميمي" و "ورجاء صدقي" الممثلة، ولكن قريبتها شويكار جاءت فقعدت معها تتكلم ببساطة وقامت إلى البيانو، ورنت ضحكاتها ونسيت عذابك، ونسيت الضربة التي سحقت بها كبرياءك!

كنت مخطئا لأنك حاولت أن تعتذر إليها هذا الصباح. كما أنك أخطأت لأنك حاولت أن تعتذر بالأمس.. ولكنها جدتك هي التي ضغطت عليك الآن! على كل حال.. لن أقعد هنا هذا الصباح.. نعم بلاد الله واسعة!

وعلى طول الطريق ثقل عليه الإحساس بأن كرامته أهينت. إنهم في البيت لا يعرفون من هو، ومازالوا يعاملونه

كما لو كان طفلا صغيرا أبوه يشتمه أحيانا، وأمــه تصــفعه أمام ألطاف وأمام سعاد هانم!

وشعر باشمئزاز بالغ وهو يفكر في طريقة الحيــاة التــي تعيش بها أمه وأبوه، وأمام عينيه تتخايل صور مخيفة رهيبة يلتقط منها ابتسامة أمه ونظرة عينيها إلى أقــارب يجيئــون البيت.. نظرات وابتسامات لم يشاهد أمه تمنحها لأبيه أبدا.. لكم تبدو أمه صغيرة خفيفة وهي تتحدث مع قريبها "أدهم بك" باشكاتب الدائرة المصبوغ الشعر، الزائغ النظرات!.. "أدهــم بك"!.. إنها تستحق القتل هــذه المــرأة!!.. ولكنهــا أمــك يا سعد"!..

وأبوك مغفل حقيقي!

لا.. لا.. الرجل مسكين، لا يرتاح لوجــود" أدهــم بــك" ويزجر أمك أحيانا، كأنه يطردها من أمامه.. ومع ذلك فأبوك ضعيف هزيل ما بيده حيلة!.. كان يجب ألا توجد يا سعد!.. كان يجب أن يكون لنا خيار في الأب الــذي نحمــل أســمه ودمه، والأم التي نعيش ونموت ونحن لا نملك لها غير الحب والاحترام!.. كل هذا مخيف.. وزري.

كان يجب ألا توجد يـا "سـعد"!.. وخلاصـك الآن: أن تنتحر!

لماذا عدت إلى البيت بالأمس.. ضربتك أمك في الصباح، وانقضت عليك في وحشية، وكان يمكن أن تقتلك، ودفعـت جدتك – وهي أمها – بلا مبالاة حـين حاولـت أن تحميـك منها.. ولكنها مع ذلك ما هانت عليك، وظللت طول النهـار تفكر فيها وتبكي، وحين قررت ألا تعود بالأمس إلى البيـت رن في أعماقك صدى فاجع من بكائها وتزلزلـت وتـذكرت جدتك وأخواتك وأباك.. وطافت بك صورهم جميعـا وهـم يبكون!.. وسالت في أعماقك الدموع.. وقادك إلـى البيـت رجع البكاء يئن في صدرك!.. ومع ذلك فلم تقدر أمك هـذا!! لم تلتفت إليك.. حتى.. لم تنادك لتسلم على "شـويكار" كمـا تعودت.. ومنعت أخواتك من أن يكلموك.. وشتمت "ميرفت" أختك الكبرى، وبقيت وحدك طوال الليل.. وفـي الصـباح خرج الصغار إلى المدرسـة دون أن يمسـك أحـد بكلمـة أو ابتسامة.. كأنك الوباء.. معزول وحيد محاصر في بيـت بارد، كالشيء الكريه!!.

ولقي نفسه يستلقي على مقعد بجوار قصر النيل، وعيناه تنظران في النهر العميق، والماء يجري ولا يكاد يجري، داكنا، كالحياة!.

وحجب عنه منظر الماء مرور فتاة في ذراع فتى..

ولمح ظهرها.. إنها في مريلة مدرسية.. الكارثة!.. إنها في مريلة "سان فان سان دي بول"، ولها نفس الشعر والمشية والقامة.. أهي أخته الكبرى (ميرفت) أتكون هي ميرفت أخته!. ومن هذا؟. أهو الدكتور عبد العزيز.. لو أنها كانت أخته فلا بد من قتلها هي والذي معها، حتى لو كان هو عبد العزيز.. المسألة هينة جدا.. تخنقها حتى تموت في يدك، وترمي به هو إلى الماء، فيغطس، ولا يطفو أبدا!

ولحق بهما مسرعا حتى حاذاهما فوقف أمامهما يحملق في وجهيهما برعب!..

وعاد يمشي ببطء، متزايلا..

أخته الآن في المدرسة، وهي لا تفعل أشياء كهذه.. لماذا يظلمها، ويظن بها السوء؟!

إنها ليست كأمها! إنها ليست كأمه!..

ولكن ما لها أمها؟..

وارتمى على مقعد آخر، ولم يستطع أن يقاوم الدموع!.. هذه النظرات التي توجهها أمه إلى بعض أقاربها من الرجال!.. لا. لا!.. لا يجب أن يفكر في هذا.. ومع ذلك فأمه حين تخلو إلى جدته كلما انصرف "أدهم بك"، تطلق ضحكاتها وهي تتشمم العطر الذي خلفه، وتتغامز ساخرة على آثار البودرة في ذقنه، والصبغة الزاعقة في رأسه وشاربه المنمق! وهذا كله يؤكد أنها تحمل له عكس ما يتصور!..

لا.. لا يجب أن يفكر في أمه على هذا النحو، ويعيش باتهام غامض مسلط عليها أبدا! إنه لا يريد أن يفكر في هذا.. ولكن شيئا واحدا فقط يعذبه، ويكاد يملأ فكره بأن كل شيء كاذب وحقير!..

حدث هذا منذ ثلاث سنوات، و "أدهم بك" ذلك الرجل الذي فرضت عليه أمه أن يناديه "عمي" موجود في البيت.. كان ذلك في مهبط المغرب من يوم الجمعة، وكانت أمه تلبس فستانا جديدا يكشف نحرها كله، وتتحدث برشاقة وتتحايل على أبيه ليشتري صالونا جديدا يليق بهما.. وكانت تضحك وتكاد تقفز ويدها تمس حرير الفستان على ردفها وتصعد إلى

الخصر والصدر، وهي تميل برأسها وتسحب أنفاسها من أنفها الدقيق الصغير وتزم شفتيها بتأنق! وأخذ أبوه يتأمل نحرها المكشوف ويراقب خفية نظرات "أدهم بك" إليها، ولم يناقشها في شراء صالون، وإنما فاجأها بترديد موعظة سمعها في خطبة الجمعة عن تبرج النساء وإبداء زينتهن لغير بعولتهن، ثم طالبها أن تضع شالا على كتفيها لتداري لحمها عن العيون.. وألا تلبس هذا الفستان مرة أخرى على أية حال!.. ولكنها سخرت منه قائلة:

- ما تبقاش فلاح وفقي!..

ثم ضربته على كتفه ضاحكة، فضحك "أدهم بك" وحده، ثم ضحكت هي وأخذت تتثنى برأسها وجسدها، وكل نظراتها على أدهم بك!.. لكم تمنى سعد إذ ذاك أن يقوم أبوه فيصفع الرجل ويطرده ويمزق فستان أمه ويغلق عليها إلى الأبد!!

ولكن الذي حدث هو أنه تركها تخرج مع "أدهم بك" في عربته الجديدة لزيارة قريبة مريضة!!.. صحيح أن جدته خرجت معهما ولكن سعد لا ينسى أبدا شعوره الخانق بالهزيمة والهوان في تلك اللحظة.

وبعد أيام من تلك الحكاية، جاء رجال إلى بيتهم يحملون "طاقم" الصالون الفاخر بسجادته وتحفه ونجفته.. وبدأت الهمسات تملأ الشارع: أن داود أفندي حمل لبيته صالونا من صالونات البرنس بمساعدة "أدهم بك" الباشكاتب قريب امرأته!!..

لماذا كانت هذه هي أمه، وهذا هو أبوه؟!

ما أسعدك يا "شوقي خليفة" بأبيك وأمك وبإحساسك المتعبد نحوهما!.. عندما كنتما معا تشاهدان رواية "بيومي أفندي" خرجت أنت يا "سعد" ممزق القلب مختنقا بلوعة مبهمة كئيبة، أما شوقي خليفة فانفجر ساخرا بعد صمت طويل: "يا أخي يوسف وهبي ده بيخلي كل واحد يشك في أمه!. بعد رواية زي دي كل واحد لازم يشك في أمه!".. صحيح.. أنت يا سعد تقارن بين بيومي أفندي وبين أبيك..! كانت زوجته هي الأخرى تسميه المغفل! وأبوك أسوأ.. فهو هزيل نحيل خفيض الصوت، لا يهتم بملبسه، يبدو دائما بجوار زوجته كشيء ثانوي!!

كيف يمكن أن يعيش الإنسان أياما أخرى في مثل هذا العالم؟!.

ووضع سعد رأسه في يديه وهو جالس في مقعده على النيل.. وفجأة شعر بيد تهزه بعنف، وصوت ساخر يقول:

- هيه الحتة ادتك ميعاد وما جاتش! طيب يا ابني ما تعيطشي.. قم ذاكر أحسن لك بدل ما تيجي آخر السنة وتنتحر!

ونظر إلى محدثه، فوجده ينصرف مناديا:

- تروق دمك بشوية ترمس!... اللذيذ!

بينما ارتفع النفير من ثكنات قصر النيل، والتفت "سعد" إلى العلم الإنجليزي يرفرف على الثكنات، والجنود الإنجليز يروحون ويجيئون في الداخل وبعضهم يسرع من شاطئ النيل مودعا الفتاة التي يصحبها ويركض إلى الثكنات...

فتيات مصريات مع إنجليز؟! فتيات كالورد!.. والله إنك لبطل صحيح يا عم "شكري"... المسألة وصلت إلى نسائنا أيضا لعنة الله على النساء جميعا!...

كل شيء هنا إنجليزي!... العلم على الثكنات، والأسد فوق الكوبري!...

ووقف سعد وهو يقاوم إحساسه بأن ينــزل إلــى النيــل، ويركب قاربا صغيرا، ويترك نفســه مــع الأمــواج إلــى ما لا نهاية..

ولكنه انتزع قدميه، ومشى خطوات في طريق العودة...

إلى أين يعود الآن؟...

واستدار فجأة وانطلق إلى النيل، وألصق نفسه بالحــاجز الحجري ومال يتأمل النهر، ينساب من تحــت عينيــه فــي موجات صغيرة وعلى صفحته عشــرات الــزوارق ينــادي أصحابها على من يريد التنزه.. ومن بعيد تجري على الموج أشرعة بيضاء بشبان مثله وفتيات، والشمس الفــاترة يبــدد شعاعها السحابات المتناثرة، والسماء زرقاء عميقة، تــنعكس كل ألوانها على صفحة النهر... والماء يدفع بعضه بعضا في خفه واتساق وينساب في انطلاق لا يفنى.. لا! لم يكن ساكنا هذا الماء أبدا، ولم يكن داكنا أسود كما رآه منذ ســاعة.. لا! في لونه خضرة يختلط صفاؤها بالزرقة! ما أجمل هذا اللون لعيني فتاة! ولكن لا أحد يتمتع بهذا النيل مثل الذين يســكنون في الثكنات!...

وبحث في جيبه عن نقود ليستأجر زورقا، ولكنه لم يجد معه شيئا.. أنت لم تأخذ مصروفا اليوم!.. أنسيت!

وتنهد، وأخذ يملأ صدره بالهواء الرطيب، وكأنه يعتصر كل ما في الفضاء الشاسع، ويسكبه في الأعماق من صدره.. ولاحت له الأشجار من بعيد فارعة تنتصب في كبرياء، وتخيل الجزيرة على الشاطئ الآخر، كأنما هو مساند خضراء، يستلقي عليها الأفق في استرخاء وطمأنينة.. وبدأت الحسرة التي انعقدت على قلبه تتزايل شيئا، فشيئا، ونظراته تتعلق بالأفق الريان والماء والشجر، والطيور البيضاء عبر النيل تملأ السكينة من حوله بالرفيف والشدو الخافت!.. ولم يعد يفكر في شيء..

ودهمه شوق مفاجئ إلى أصحابه في المدرسة.. آه... بقيت حصة واحدة ويخرجون.. وبعدها تبدأ فرقة التمثيل عملها... ترى ماذا صنعت جماعة الخطابة في فسحة الغداء!؟

وانطلق سعد مسرعا.. إلى المدرسة!

سينتظر هناك، فربما أفلح في دخول المدرسة بعد نهاية الحصة الأخيرة.. ربما غفل عنه البواب، واستطاع أن يفلت.. إلى المسرح!

ولكن شيئا غامضا عاد يزحف إلى صدره ويكاد يخنقه... كيف يواجه الطلبة الذين سيخرجون الآن؟؟ كيف يواجه شوقي خليفة، وصديقه عبد الرافع رئيس جماعة الخطابة؟! بأي وجه!؟.. بهذا الوجه الذي خبطته عليه أمه بالكف صباح الأمس؟!..

مازال كل شيء في وجهه يصيح بأنه مهان مهان!!.. ضرب على صدغه ومع ذلك عاد إلى البيت، وفي البيت لم يجد أحدا يهتم به غير جدته.. لكم يقطع في قلبه أن أخته "ميرفت" ترددت في أن تكلمه أول الأمر! لكم تصعب عليه نظرات أخواته البنات الصغيرات إليه باستنكار وتخوف.

لا... لا...

لن أذهب إلى المدرسة!!... كيف أقابل الذين يحترمونني ويتصورون أن مكانتي أعلى من صفعة أم... أنا لا أريد أن أرى أحدا.. حتى ضوء النهار!..

الطريق إلى شـــارع درب الجمـــاميز مشـــحون بالـــذين يعرفونني.. هناك أولا عبد المعبود الذي يجلس فـــي مـــدخل مطبعته، ويرى في الغالب كل من يمر...

وفي مواجهة المدرسة يجلس الشيخ "حمزة دبوس" تـــاجر الكتب القديمة يقرأ من داخل دكانه في كتب صفراء، ويتأمل المارين... وسيناديك يا "سعد" لو أنه لمحك!!...

فلتبعد عن هذا المكان كله تماما، وعن ميدان السيدة أيضا، فبعد قليل تخرج المدرسة السنية، وربما رأتك دريـــة بنـــت شكري عبد العال لا بد أنها تعرف مـــا حـــدث بـــالأمس.. الشارع كله يعرف بلا شك.. من يدري!؟ "ألطاف" لا تمسك لسانها في فمها!..

مع ذلك، فأنت بلا غداء، وما في جيبـــك شـــيء يكفـــي الطعام.. لا.. لن أعود إلى البيت لآكل!..

أنت بالأمس قضيت النهار كله خارج البيت، ولـــم تعـــد إلا بعد العصر ولكن أمك حين رأتك تدخل من الباب، كتمت قلقها الذي لاحظته، وتظاهرت بأنها غير مهتمة، وتجاهلـــت دخولك، كأنها تثأر منك على اللهفة التي عانتها إلى عودتك.. ليتك ما عدت أمس!!.. هي حرة.. لن أعود لها اليوم!..

أأعود الآن إلى عم "شكري عبد العال" أشكو له من كل ما حدث!؟.. ولكن ماذا يستطيع هو أن يفعل!؟.. لماذا تحترم أمك رأي شكري عبد العال، أكثر مما تحترم رأي زوجها داود؟! أنت اسمك سعد داود، لا سعد شكري عبد العال، على كل حال أنا لا أريد أن أرى الشارع.. سأمضي بعيدا.. بعيدا إلى المقطم.. إلى جبل المقطم أتسلق الصخور التي لم تطأها قدم، وأرى القاهرة كلها تحت قدمي، وأمشي في المتاهات التي ضل فيها الحاكم بأمر الله ذات يوم وهو على حماره!!..

وهناك قريبا من قلعة صلاح الدين، حيث وقفت مصر تحمي أرض العرب من أطماع الصليبيين!!.. ليس أنبض بالروعة من هذه الأسوار المطلة من قلعة صلاح الدين!.

وابتسم "سعد" وخفق قلبه وهو يتذكر هذا التاريخ...، وتذكر مسرحية شاهدها لفرقة جورج أبيض تصور مأساة الحاكم بأمر الله.. ومسرحية أخرى عن صلاح الدين!.. لم يكن للتاريخ أبدا مثل هذا الرنين الفاجع!

لا أحد غير ميخائيل استطاع أن يعطي التاريخ رهبته الخاصة!! لا أحد قبلك يا "ميخائيل أفندي" جعل الأحلام تنبثق منا ونحن نسمع دروس التاريخ!... يا ترى ماذا تصنع الآن

يا ميخائيل أفندي!؟... أظنك في هذه الأيام تدرس ثورة كروميل!.

ووجد سعد نفسه يجتاز جامع طولون والخضيري متجهاً إلى المقطم... هنا، في هذه الشوارع بالذات، رفع المصريون ذات مرة راية الحرية في وجه الغزاة الفرنسيين، وسحقوا أحلام نابليون بونابرت!... رجال عاديون – مثل والدك – يا "سعد"، عاشوا ذات يوم وراء هذه الجدران العتيقة بأبوابها الخشبية، وطردوا الترك والفرنسيين والإنجليز وأقاموا إرادة الشعب!.

ما أشد حنينك إلى المدرسة!!..

العصر يملأ الدنيا بالشحوب، ولئن ذهبت إلى المقطم إن الليل سيدهمك هناك.. هناك حمى الليل عشرات المغامرات الكبرى والدسائس الهائلة عبر التاريخ، ولكنه اليوم يحمي اللصوص والخطافين!... كان يجب أن تبدأ رحلة المقطم بالنهار كما تعودت أن تفعل مع شوقي خليفة في صباح بعض أيام الجمع من العام الماضي!..

لا... لا.. فلأعد إلى وسط البلد، فلأخض في الزحام المضيء النابض بالنساء الجميلات والرجال!

إلى عماد الدين عن طريق الناصرية.. مازال في الناصرية ريح عربية تهب من القدم، تحمل التراب الذي ملأه المماليك ذات يوم بالدماء والخطر...

وتنتهي البيوت القديمة في شارع الناصرية وتبدأ حياة جديدة أخرى في شارع عماد الدين، حياة حافلة بذكريات الفنانين العظام والصعاليك، وخفقات أحلام ضائعة، وأمجاد صنعتها تيجان الورق والسيوف الخشبية والقدرة على امتلاك عواطف المتفرجين!.. هناك في مقهى صغير عزيز عيد بلحيته الطويلة وهيبته، يتحرك بعصبية، ويفتش بعيني صقر عن موهبة جديدة.. حلم رجاء صدقي أن يعثر عليها عزيز عيد!.. ولكن الرجل لم يعد يملك فرقته.. كل شيء يتحول وينهار في شارع عماد الدين، وبدلا من جلال المسارح الذي يملأ القلب بالوجل ونبالة الحياة، تزحف الصالات والسينما والفرق الاستعراضية!!.. مسرح برنتانيا كالمعبد الخرب، ومسرح رمسيس انتهى، ولم يعد له هناك وجود.. حتى المسرح الصغير الذي عمل عليه جورج أبيض وبكيت أنت يا "سعد" فيه مع ماكبث والملك لير وعطيل وأوديب والحاكم بأمر الله، واشتغلت عليه مع شوقي خليفة وبعض أعضاء

فرقة التمثيل في أدوار القواد والجنود وعرفت عليه الرعدة الحلوة الخصبة.. حتى هذا المسرح أصبح دارا للسينما..!

وهم يقولون إن الفرقة القومية تتكون الآن لتحل مكان هذه الفرق جميعا.. حسنا.. لن يعود أبطال المسرح، فيتسكعوا على المقاهي... لن تفجع مرة أخرى لمنظر ممثل دور هاملت وهو يقترض ثمن علبة سجائر أو ساندوتش الطعمية، وممثلة دور "دوناسول" في مسرحية "هرناني" تدخن النرجيلة وتضحك بخلاعة آه يا سعد!.. في شارع عماد الدين هذا رأيت الكثير أنت وشوقي خليفة، عندما كنتما تجيئان في العام الماضي وتدخلان مع كبار الممثلين من نفس الباب الخلفي لمسرح جورج أبيض... وتشاركانه على المسرح، وتحملان الحراب!! كان هذا يعطيكما إحساسا بالامتياز على غيركما من أعضاء فرقة التمثيل! وفي هذا المكان تعرفتما ببعض أعضاء فرقة التمثيل بالمدرسة السعيدية والتوفيقية والمدارس الأخرى التي يدرس لها جورج أبيض.

أين شوقي خليفة الآن!.. خرجت المدرسة منذ مدة، وحتى التمثيل لا بد أنها فرغت من البروفات، فالمغرب يهبط..

وظل سعد يدور في شارع عماد الدين وحمرة الأصيل تختفي وراء البيوت العالية وتنعكس على زجاج نوافذ الأدوار العليا بوهج أحمر خاطف!.. وغمزت له امرأة في الشارع فارتجف، ووثبت ذهنه إلى "ألطاف" وهي تمسح، البلاط بالأمس، ولهثاته خلف الباب المغلق.. ولكن من تكون هذه المرأة.. أهي محترفة أم راقصة؟.. لا.. إنها ممثلة صغيرة كان يمكن أن تلمع في فرقة جورج أبيض!. كانت تطمع في أن تمثل في مسرحية هملت دور حبيبته أوفيليا البريئة الرقية كالندى..!.. يا سلام!.. كيف تعيش هي الآن!.

وتابع سيره محمر الوجه في نفس الطريق الذي جاء منه إلى الناصرية، والمصابيح تضاء.. وفي زحام "شارع الناصرية" الذي يتدفق بعشرات النساء والرجال إلى قلب المدينة، لمح فتاة نحيلة في فستان صوفي أحمر تتأود مسرعة، متجهة إلى شارع عماد الدين، ورآها تلقي عليه نظرات ثابتة..

كان هو على الرصيف الآخر يسير في اتجاه عكسي ولم يستطع أن يتبينها في ظلال المغرب على شعاع الضوء الباهت المنبعث من فوانيس الشارع.. ووجدها تخترق

الشارع إليه. وحين واجهها، توقف مبتسما.. مهمهما: "رجاء صدقي"!

وانطلقت أساريره وهو يستقبلها متسائلا:

- على فين يا رجاء؟

وأجابته بسرعة وخفة:

- على فين؟.. انت اللي فين؟ الشارع كله مقلوب عليك.. مامتك أغمى عليها مرات وفاكراك انتحرت!.. دول بلغوا عنك الإسعاف وأقسام البوليس.. روح اجري جاتك نيلة!

ودهش سعد، وشرد قليلا، وعاد يسألها كأنه لم يسمعها:

- انت رايحة فين دلوقتي؟

فقالت بضيق:

- فرقة علي الكسار! أنا اشتغلت في فرقة الكسار.. أنا ما أحبش اشتغل كوميدي، لكن إذا كانوا في الفرقة الحكومية الجديدة مش راضيين ياخدوني حتى ولا كمبارس!؟؟

وقال سعد دون أن يفلح في إخفاء دهشته:

- الكسار؟!..

ولاحظت عليه الاستنكار في وجهه ونبرة صوته.. فارتفع صوتها متحديا. كأنها تنتشل نفسها من متاعبها:

- أيوه الكسار!! وماله؟.. أنا برضه ممثلة يا أخي.. مش عاجبك؟!. ما بقى لي خمسة أيام باشتغل عند الكسار.. جري إيه يعني؟ اسمع يا "سعد" لما أقول لك.. ما كلهم طلعوا من تحت إيد الكسار والريحاني..!.. حاجة حقيرة قوي اني اشتغل عند الكسار.. أنا برضه ممثلة مش رقاصة! إذا كنت أروح لمدير الفرقة الحكومية اشتكي له يقوم يديني نصائح في الصبر والتضحية ونكران الذات.. طب شغلني بقى بالنصائح دي!!..

ودهش "سعد" من حدتها.. وتحرج والناس يمرون به، وبعضهم ينظر في دهشة، فقال لينهي حديثه:

- مبروك يا ستي. الكسار الكسار.. إن شاء الله تبقي بريمادونا.

وحاول أن يتحرك ولكنها اعترضته ولوت وجهها ويديها:

- اسمع بقى لما أقولك.. ابقى قل للست والدتك بلاش الحاجات اللي بتعملها دي.. كلنا ولاد تسعة! والا إحنا مش قد المقام!؟ أنا!! أبقى بريمادونه أسياد البلد حايجروا ورايا ويفتحوا لي سراياتهم، وأنا اللي أقول لأ.. أنا باقول لك يعني! أنا أحسن من أي ست في الشارع وبكره حابقى أحسن وأحسن! بكره تشوف رجاء صدقي دي حاتبقى إيه، واللي بيتكبروا عليها دلوقت حايشرفهم انهم كانوا يعرفوها!.. أنا باقولك أهه.. فهم الست والدتك يعني.. أنا يعني فاهمة كويس.

ولم يفهم منها "سعد" وحملق فيها مستغربا.. فاستمرت تقول:

- إيه؟ مانتش فاهم!؟.. هيه والدتك بتعمل الحاجات دي على مين!!.. قال إيه لغت المقابلة.. إمبارح تبعت لي تقول كده، وبعدين وأنا نازلة التياترو ألاقي الصالون بتاعكم مزهزه والبيانو شغال والضحك بيرن والمقابلة على الآخر.. أنا سامعه ضحك شويكار بودني.

فقاطعها سعد باعتذار صادق:

- لا.. لا.. دي هي لغت المقابلة صحيح.. أصل اللـــي حصل.. أصل الحكاية.. شوفي.. حقيقي هـــي لغــت المقابلة بجد. لكن شويكار هانم جت برضه.. ماكنشي فيه حد غيرها!.. أصل.

ولكن رجاء لم تسمعه واستمرت تقول بنفس الحدة:

- لا أصل ولا فصل يا سي سعد.. إذا كانت هي مـــش عاوزاني أدخل البيت أنا برضه مش عايزة.. أنا مـــن نفسي ما كنتش جايه.. فاهم؟!.. بلغها كده.. أوروفوار بقى! هيه طالعة فيها على إيه؟.. أنا ممثلة عند الكسار لكن أحسن من كل الستات اللي بيدخلوا عندها وأحسن من شويكار هانم دي ميت مرة.. علشان ما اجـــوزت لها مرة واحد باشا غني. أهو رماها وخد منها ابنها.. وآهي متجوزة دلوقتي لكـــن هيـــه عارفـــة تصـــون جوزها؟! تفتكر يعني؟ أنا يعني مش عاوزة أتكلم.. أنا أشرف منها ألف مرة.. أنا عارفاها كويس وفيه واحدة صاحبتي بتسهر عندها ساعات.. قال ترمينا وتـــدعي شويكار قال!.. أوروفوار بقى وبلاش نقول!.. خلـــي

الناس مستورة يا سي سعد!. آهي أيام بنقضيها في الدنيا..

ولم تترك له فرصة للرد، وإنما انصرفت في لهوجة وغابت في زحام شارع الناصرية..

وشعر "سعد" بضيق من الطريقة التي تتكلم بها عن أمه، وعن "شويكار"!.. ماله هو وكل هذا؟!.

ولكن.. ماذا تقول رجاء؟!.. أمه أغمي عليها؟!.. ومع ذلك فرجاء لم ترحمها!.

لماذا يغمى عليها؟.. لماذا يقف الشارع كله على رجل يبحث عنه. إنه حاول ليلة الأمس وهذا الصباح أن يعتذر لأمه فصدته وكأنما وجدتها فرصة للتنكيل به، فلماذا تقلب عليه الدنيا الآن.. ما الذي جعلها تخاف عليه الانتحار!؟.. كيف شعرت أنه كان يفكر في هذا نفسه، اليوم أمام النيل!.. مع ذلك فهي لا تعرف هذا الإحساس بالخراب والضياع والوحدة الذي ظل يعانيه بالأمس وطوال اليوم، متجولا في القاهرة بلا مليم، ولا طعام، ولا أمل، ولا حل!..

واندفع "سعد" والجوع يقرصه في معدته، وقدمه تثقل من التعب.

لو قابلته أمه بغلظة وإهمال كما فعلت بالأمس فسيخرج من بيته على الفور ولن يعود أبدا.. لا بد أن جدته تبكي الآن، وأخته "ميرفت". وأبوه، هو أيضا يتعذب بلا شك، والصغار!..

ودخل شارع عزيز من ناحية درب الجماميز، وظلال المغرب تغمر كل شيء، والصغار يلمون أنفسهم ويعودون إلى بيوتهم، وفي الشرفات والشبابيك تطل رءوس كثيرة على الرغم من برودة الجو.. وحنق قلب "سعد".. ولم يكد يهل على الشارع حتى اندفع "شوقي" زاعقا كأنه عثر على شيء شائع.

- أهه!! إيه ده يا سعد؟ جرى إيه يا أخي؟ كنت فين!؟

وفاضت نفسه وهو يسلم على "شوقي"، و "شوقي" يمسك به ويتأمله، كأنه يريد أن يتأكد أنه سليم لم يصبه سوء على الإطلاق!..

وتطلعت عينا سعد مشرقتين بالدموع إلى النوافذ والشرفات ووجد فيها رءوسا لم يتبينها، ولكنه تبين على مقربة منه منظر "عبد العزيز" يقف في شرفته إلى جوار أخيه "عبد اللطيف"، وفي الشرفة المجاورة يقف" أمين أفندي"

وإلى جواره "ميمي" في فستان من الصوف الغامق لا يبدو لونه في عتمة المغرب، وعلى الناحية المقابلة وقف "شكري عبد العال" في شباك بيته ووقفت "سعاد هانم" في شرفتها.

وتضاربت أصوات شكري وعبد العزيز تنهر "سعد" في اضطراب:

- إيه ده ياواد يا سعد؟! إيه الغياب ده كله؟ إحنا فاضيين لك نسيب شغلنا ونقعد ندور عليك في الإسعاف وأقسام البوليس.. إيه الدلع الفارغ ده!؟..

وانطلق صوت "ميمي هانم" حادا بين الأصوات:

- إيه ده يا واد أنت؟.. إيه يا أخي الخيبة دي.. إيه اللي مامته تضربه ياخذ بعضه ويجري من البيت ويسيبها على نارها ولا يقول هو رايح فين!؟.. قطيعة تقطع خلف الصبيان.. والنبي انت لو ابني لأربطك في عمود السرير واقعد أضربك بالشبشب لحد ما تعرف ان الله حق!.. ما تنطق.. كنت فين؟.. الغرابة يا أختي عليه نقرة في التلامة!!.. يو.. جاتك نيلة!

وفوجئ سعد بهذا كله واغتاظ..

لماذا يقف الشارع كله على رجل هكذا، وكل واحد يتشطر عليه ليشتمه!؟.. كلهم يقولون له "ولد"!.

وما لها "ميمي هانم".. مالها تتقصع هكذا وتشتمه وتستجوبه وتنظر رده، وتعامله كأنه طفل صغير!.. لا! لا أحد له الحق في أن يعامله هكذا حتى أمه..!

لمي لسانك يا ميمي ولا تتقصعى على حسابي أمام عبد العزيز وعبد اللطيف!..

ووقف سعد يحدق في "ميمي" وينقل نظراته بينها وبين عبد العزيز.. وارتفع من ورائه صوت "شكري" ثابتا حاسما من الشباك:

- روح يا ابني بقى.. قلقتنا كلنا.. كفاية الشحططه اللي شفناها.. ده لسه عبد المعبود والشيخ عبد الحي ومعاهم الواد عبده بيلفوا عليك! ناقص يدوروا عليك دلالين!..

ورفع سعد رأسه إلى شكري الواقف في شباكه ولم يجب، وظل واقفا في الشارع بلا حراك كأنه لا يستطيع أن ينقل رجله، وقلبه يغوص في أعماقه..

وزعق عبد العزيز بلهجة مطمئنة:

- ما تروح يا واد انت بقى على بيتكلم.. انت عاوزهم ينزلوا يبوسوا راسك في الشارع؟!. جـره يـا واد يـا شـوقي جـره.. ده مـين اللـي جـاي ده؟.. عبد المعبود؟.. جره غضـب عنـه يـا أسـطى عبد المعبود.

ووجد سعد ذراعـا قويـة تمسـكه بحنـان، والأسـطى "عبد المعبود" يقول بصوت مشحون:

- ليه تعمل فينا كده بس يا سـعد يـا ابنـي؟! يـاللا يا ابني ياللا.. الله يهديك.. كده يا سـعد؟. دا احنـا كلنا بنقول عليك عاقل تقوم تعمل كده؟ دا أبوك مش قادر ينطق، زي ما يكون نزل عليه سهم الله مـن قلقه عليك! حد يعمل كده في أهله؟! ياللا يا ابنـي بوس رأس الست والدتك وصالحها.. والله دا لـولا الدكتور عبد العزيز الله يستره لحقها بحقنة، كانت.. القصد!

ومشى "سعد" منكس الرأس ومعه "الأسطى عبد المعبـود" بمسك بذراعه، وتنحى شوقي قليلا، وانطلقت زغرودة مـن "ألطاف" و "عبده" يدخل الشارع زائطا:

- استريح بقى يا شيخ عبد الحي! أهو الحيلة رجع! أهو بسلامته شرف!.. ديك البرابر!!

وصاح فيه "شوقي" متحرجا بغيظ:

- بس يا واد يا عبده! اخرس! اوعى تقول كلام زي ده تاني! إلا الحيلة دي!

وأخذ يقفز درجات السلم، ومن ورائه "عبده"، والليل يستلقي بصمته على شارع عزيز، بينما كانت ميرفت تنزل إلى الشارع في لهفة، وترتمي على أخيها أمام عتبة البيت متهدجة:

- كده يا سعد؟! اخص عليك..

واختلطت دموعه بدموع أخته، وهما يتعانقان، وهي تقوده من يده وتتأمل كل وجهه..

و "عبد المعبود" ينسحب.. وطرف إصبعه يمسح دمعة انبثقت من القلب!

(٦)

صحا "عبد العزيز خليفة" من نومه بعد الغـداء منزعجـا على أصوات نسائية تصل إليه مـن وراء زجـاج شـرفته المحكم الإغلاق.. وهز رأسه وحاول أن يقاوم رغبته في أن يفتح الشرفة ليستطلع الأمر، فقعد على سريره يـدبر عمـل الليلة: يجب أن يفرغ الليلة من مراجعـة ثلاثـين صـفحة.. امتحان دور ديسمبر على الأبواب ولم يبق إلا خمسون يوما! ولكن الأصوات المتشابكة ألحت عليه.. ولاحظ هبوب تيـار بارد على سهم من الضوء يتسرب من الشرفة التـي أحكـم إغلاقها قبل أن ينام.. وقام متأففا فوجد باب الشرفة مردودا.. من فتح الباب علي وأنا نائم؟!..

ودخل إلى الشرفة، فوجد "عبد اللطيف" يقف ضاحكا ومن ورائه "عبده"، بينما "ميمي هانم" في شرفتها تتكلم بلا كلفة مع "سعاد هانم" التي وقفت فوق سطح بيتها هي و "أنيسة" زوجة "عبد المعبود"..

وزمجر "عبد العزيز" وهو يتلفت إلى جارته "ميمي" ويدير رأسه إلى سطح بيت "شكري" حيث تقف سعاد وأنيسة.

ثم همس لعبد اللطيف مؤنبا:

- ايه ده؟! تفتح عليا الشرفة وأنا نايم؟!. أنا صحيت من الدوشة دي.. إيه ده يا عبد اللطيف؟ وانت إيه اللي وقفك هنا يا واد يا عبده.. انجر اعمل لي شاي.

فرد عليه عبد اللطيف بصوت خافت دون أن يلتفت:

- اسمع اسمع.. اسمع بس..

وارتفع صوت أنيسة:

- والنبي الغسيل ما هو ناشف في يومه!. كل ما اطلع ألمه ألاقيه زي ما هو.. يا أختي ده من امبارح الصبح!.. أصلها مطرت شوية بالليل!..

ونظر "عبد العزيز" إلى أخيه "عبد اللطيف" بضيق وبغيظ وانسحب من الشرفة متثائبا وهو يقول:

- دي بقى الأحاديث الشيقة اللي خلتك تفتح على الشرفة وأنا نايم!

ولم يجبه "عبد اللطيف".. وبقي مكانه في الشرفة متظاهرا بأنه لا يتسمع بل يتابع لعب بعض الأولاد بكرة القدم في الشارع.. بينما دخل "عبد العزيز" وراء "عبده".

وارتفع صوت "ميمي":

- غسيل إيه يا أنيسة؟ ما تسمعي بقى خلينا نعرف نتكلم.. قطيعة.. انت ماسكة لنا الغسيل من الصبح..! لازم تفكرينا بهباب البيت.. باقول والنبي يا سعاد انها خلاص ما حدش طايق يكلمها.. اللي طالع في دماغها ان احنا ما يصحش نروح المقابلة بتاعتها.. طيب المقابلة بتاعة الأسبوع اللي فات قلنا كانت ضاربة ابنها سعد ومش رايقة لها وأهي شويكار جت من غير ما تدرى.. لكن تقولي إيه في مقابلة الأسبوع ده!؟.. أنا فايته عليهم وسامعه الضحك والصالون ملعلع والبيانو شغال على الآخر.. دا أنا من يومها لحد النهارده فات عليه أهه يومين تلاتة، وأنا مش طايقة.. كأنها ضربتني بالقلم! والنبي أنا قلت أروح أوريها مقامها، لكن سكت. طالعة فيها على ايه يعني ست.. عديلة دي؟!. أنا أحسن منها.. هو كل من خطف له حاجة من عفش الدايرة واللا كل من اشترى له حتة خرابة، ما حدش يعرف يكلمه..؟!

وقبل أن ترد "سعاد هانم" قالت "أنيسة" محاولة إسكات "ميمي":

- يا أختي بلاش مجايب في سيرة الناس! هو انتي يا ميمي ماعندكيش كلام غير سيرة الناس؟.. والنبي لالم الغسيل وانشره في الجنينة.. يا أختي الرجالة سامعينك..! مش كفاية أهو بيتك سد الشمس على الجنينة وحوجنا لطلعة السطوح؟ دا لو بيتك طلع كمان دور راح يسد الشمس على السطوح ده كما ومانلاقيش منشر.. يا اختي اسكتي بقى يا ميمي هو انتي بقك ما بيتعبشي من كتر الكلام.. الرجالة سامعينك يا شيخة! الرجالة سامعين كلامنا!!

وشعر "عبد اللطيف" بحرج من تعريض "أنيسة" المستمر بوقوفه في الشرفة، فانسحب، بينما اضطربت "ميمي" في شرفتها وتلعثمت من غيظها وهي تحاول أن ترد على "أنيسة" بكلمات يشعر بها ويسمعها "عبد اللطيف" قبل أن يغلق باب الشرفة.. وارتفع صوتها أكثر من قبل:

- الله؟ وانتي مالك انت؟.. انتي؟.. انتى اش دخلك في الكلام ده؟!.

انت لا لكي في المقابلة ولا بتروحي ولا بتيجـــي!..الله!.. وكمان يعني انت مالك ومال اللي بيبني واللي بيهد.. ان كنا جرنا على الشارع والا ما جرناش؟!.. هو احنا جرنا علـــى ملكك؟! أهو بتاع الدايرة.. وآهو الفندي طول عمره خادمها.. الله.. انتي حاتمسكيها لنا ذلة!.. شيء بارد. انتي حاتطلعينـــا من الشارع علشان الغسيل بتاعــك!؟.. لكــن الحــق مــش عليكي.. الحق على اللي اختار الشارع ده وبنى فيه.. واحنا كنا وش شوارع زي دي.. اللي يقطمنا واللي تستكبر علينا!! دا أنا شبشبي أحسن من أحسنها واحدة في الشارع!.. بلغـــي عديلة هانم كده يا ست سعاد!..

وتردد صوت "أنيسة" خافتا هاربا:

- طيــب. طيــب.. دا أنتـــي اللـــي ينشـــبك فيكـــي ما يخلصشي.

وخفت حديث النساء و "سعاد هانم" تقول منسحبة من فوق السطوح:

- يا اختي مالوش لزوم ده كله.. هي كل حاجة تقلبيها نقار يا "ميمي" يا أختي!؟.. اللي بيود يـــود بكيفـــه. وهيه الناس حاتستكبر على بعض علـــى إيـــه!؟..

عيب يا ميمي تلخبطي كده!.. سعيدة يا اختي. أنا نازلة أنكن في وسط عيالي.. أصلك انتي دايما تخلقي حاجات كده وتعملي منها حكاية!..

ولم يعد أحد يسمع من الشارع إلا أولادا يزيطون وهم يلعبون الكرة..

وقال "عبد اللطيف" وهو يدخل من حجرة "عبد العزيز" إلى الصالة:

- حقا لو أبوك طب مرة فجأة وسمع خناقة زي دي، وشاف ميمي بتقصع كده!.. وآه لو يطب وهي لابسه صيفي!..

ولم يرد عليه "عبد العزيز" وظل قاعدا على كرسي في الصالة يرشف كوب الشاي على مهل..

وجاء "عبده" من المطبخ يقول لعبد العزيز:

- ما تنساش يا حضرة الدكتور تفوت دلوقت على الشيخ حمزة تجيب الكتاب اللي انسرق من سي شوقي.

فتمتم عبد العزيز لنفسه:

- بيه؟.. أنا لسه حانزل. ده الواحد لما بينزل بيقطع حالة المذاكرة. وادي عطلة عالفاضي.. أنا عارف "شوقي" ما بيفوتشي هو ليه؟!.. ما حق عبد اللطيف يفوت هو.

فرد "عبده" متلعثما باندفاع شديد:

- هو الشيخ حمزة الضلالي ده حايقر لسي شوقي انه اشترى كتبه المسروقة.. والله دا عمره ما حيقر لحد غيرك!..

ثم زعق دون أن يوجه الحديث لأحد بالذات:

- بقى المخفي ده قارئ في الأزهر، ويدور يشتري كتب مسروقة؟! دا فاتح دكانه قدام الخديوية بالعنية علشان كده.. بقى "حمزة" دهه ينسى خدمتي له.. طب كان بلاش في كتب سي "شوقي" كرامة ليه أنا!. بقى نسي لما كان متلقح تحت مع الشيخ "عبد الحي"؟.. الشيخ "عبد الحي" تمرانه فيه الخدمة.. أقله بيعلمني القراية والكتابة.. لكن كله الا النجس ده.. والنبي كان له حق الشيخ "عبد الحي" يضج من شركته في السكن ويرمي له

عفشه في الشارع.. ما دام إيده طويلة.. ما كان جايز يسرق كتب الشيخ "عبد الحي" ويبيعها؟.. بقى يشتري الكتب اللي ولاد الحرام سرقوها من سي "شوقي"؟ بقى هيه كانت ضاقت على الكتاب ده؟ ما فيش خواطر خلاص؟..

وقال "عبد اللطيف" بضيق:

- جرى إيه يا واد يا "عبده".. انت حاتقول لنا محاضرة.. ادخل على المطبخ أجري..

ودخل "عبده" المطبخ متلكئا وهو ما زال يزعق دون أن يوجه كلامه إلى أحد بالذات، وصوته يتقطع والكلمات تتعثر من فمه:

- وحياة النبي لو يحكموني عليك يا شيخ حمزة يا دبوس لأ.. أ.. أ.. لـ.. لأعمل لك إيه بس يا اخواتي؟! القصد.. داهية تهزل مقامك.. قال قاري كتاب الله قال!.. ده غلب الفقها بتوع بلدنا.. قوم له يا سي الدكتور.. قم له.. وحياة النبي هو ما بيخاف من حد قدك.. وأيمان المسلمين ما هو بازز بالكتب لحد غيرك!.. يا إما تقوم تروح له

يا إما تشتري كتب تانية لسي شوقي من أيها مكتبة.. إديني الفلوس وورقة فيها اسم الكتاب وأنا أروح للشيخ "حمزة" أهد الدكان عليه.

وظل عبد العزيز وعبد اللطيف يسمعان وهما يبتسمان.. وقام "عبد العزيز" إلى حجرته وهو يضحك قائلا:

– طيب يا سي "عبده".. أمرك.. بس تعالى خد كباية الشاي دي من هنا..

***

انطلق "عبد العزيز" مسرعا إلى شارع درب الجماميز، ووجد نفسه أمام سور المدرسة الخديوية حيث يقع دكان "الشيخ حمزة" على الرصيف المقابل لسور المدرسة.. وكان سعد داود ساعتها يقف على مقربة من دكان "الشيخ حمزة" يروح ويجيء أمام سور المدرسة.. ينتظر خروج التلاميذ، وعلى الباب تقف بعض عربات..، وباعة الجرائد المسائية وحملة إعلانات السينما والملاهي يتجمعون في انتظار الجرس الذي يوشك أن يدق..

وكان الشيخ حمزة دبوس صاحب دكان الكتب القديمة مستغرقا في قراءة كتاب أصفر، وهو يرفع رأسه من لحظة لأخرى ليهزه متلذذا بما يقرؤه:

- يا سلام عليك يا سيدنا حسان.. ما فيش أشعر منك لا في الجاهلية ولا في الإسلام.. والله كده.. الله.. كده يا سيدنا حسان يا بن ثابت.. صدق رسول الله حين قال فيك..

وحك شعرات ذقنه وهو يحاول أن يتذكر.. ثم أكمل وهو ينظر أمامه إلى وجه "سعد" الذي وقف مستندا إلى باب الدكان وعيناه على باب المدرسة:

- أيوه صدق رسول الله حين قال.. قال إيه يا سيدي؟.. أو كما قال.. اسمع يا سي سعد.. تشتري ديوان سيدنا حسان تنال به ثواب الدنيا والآخرة، ويقوي أسلوبك في العربي.. أنا حاخد فيه منك سبعة صاغ بس.. اسمع كده القصيدة دي: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول.

ولم يكد الشيخ "حمزة" يمضي في قراءة أول كلماته، وينطق اسم "سعاد" حتى وجد "عبد العزيز" أمامه:

- برضه سعاد؟.. هم المشايخ ما عندهمش شغلانه غير سعاد.. واحد مستلمها بياسعا فيمن دعا سعادا!. وأنت قاعد هنا تشعر لي في سعاد.. فاحتد الشيخ "حمزة" مقاطعا:
- كلام ايه ده.... الله! ده شعر سيدنا حسان بن ثابت يا جدع..

وعاد يقرأ وهو يهز رأسه: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول..

فصاح عبد العزيز: جاك وجع في قلبك. وكمان دا شعر كعب بن زهير مش كلام حسان بن ثابت..

فصرخ حمزة: اخرس!

ثم استدرك ووجهه ينفرج بابتسامة:

- الله!!! هو انت؟.. الله يجازيك يا دكتور عبد العزيز..

وقام يسلم عليه مرحبا وهو يضحك:

- دا أنا افتكرت سعد هو اللي بيتكلم.. سلامات يا دكتور.. طيبون.. سلامات. طيبون. كل سنة

وانت طيب.. ازيك كده! دي خطوة عزيزة.. دا احنا زارنا النبي.. والله جيت في وقتك.. دانا وقعت النهارده شوية كتب طب لكن..

فأسكته "عبد العزيز" بصرامة وهو يستند بمرفقه على منضدة في مدخل الدكان ونظراته تفحص الكتب القديمة المرصوصة على الرفوف في الداخل:

- بس.. بس.. انت وصلت لكتب الطب؟!

والتفت "عبد العزيز" إلى سعد:

- ازيك يا سعد.. بص معاي كده على كتاب تاريخ العصور الوسطى.. الجزء الأول والثاني والثالث.

وقال الشيخ حمزة مرحبا:

- عاوز كتاب تاريخ العصور الوسطى الأجزاء الثلاثة عندي؟ حاضر.. المكتبة كلها تحت أمرك.

ولكن "عبد العزيز" قطب وجهه قائلا بحزم:

- اسمع يا واد انت بقى يا شيخ حمزة.. هات كتاب شوقي أخويا وما تستعبطش عليا.. وقول لي دغري مين اللي سرقه لك، وإلا والله العظيم أقابل الناظر

حالا وأبلغه ضدك وأجيب البوليس يهاجم لك الدكانة دي.. عاملين لي مشايخ بس وواحد قاعد يقرأ لي في ألفية ابن مالك علشان لقى فيها اسم واحدة من الجيران.. والثاني عايش لي على شرا الكتب المسروقة من التلامذة المساكين! طلع الكتاب حالا أحسن أعمل لك مصيبة زي مصيبة "غريب".. فاكر؟!

واضطرب "الشيخ حمزة" وأخذ ينقل نظراته متحرجا بين "عبد العزيز" و "سعد" والشارع، وأمسك لحيته الطويلة السوداء وهو مطرق، ثم أخذ يدفع الهواء بيده مستنكرا وهو يطقطق، ولم يكد "عبد العزيز" ينتهي حتى انفجر الشيخ "حمزة" في غضب متحرز وهو يلقي بمسبحته على المنضدة:

- تجيب لي البليس؟ كلام ايه دي؟! الكلام الغليض ده يا دكتور.. دهدي؟.. انت جاي تهيني كده ليه يا أخي؟ والذين يرمون الناس بالباطل! الله!.. بليس إيه و "غريب" إيه؟.. بقى تقارنني أنا بغريب؟! طب ده راجل ضلالي وبطال و.. وأخلاقه فسدانة وأمله متلوف! وكان بيعمل في التلامذة حاجات وحشة.

وفضلا عن ذلك.. يعني.. إيه يا أخي الكلام ده.. ثم إني.. ثم إني يعني كده. الله.! أنا رجل محترم. ثم إني. أنا لا تلهيني تجارة ولا بيع عن ذكر الله..

فاحتد "عبد العزيز" مقاطعا:

- تلهيك؟ يا شيخ اتلهى! لما انت فالح كده ما كملتش في الأزهر ليه؟ ما تشوف زميلك اللي كنت ساكن معاه في شقة واحدة بقى ايه دلوقت وانت ايه! ما الشيخ عبد الحي أهه قرب يتخرج من دار العلوم وانت متلقح هنا تشتري كتب مسروقة!..

واسترد "الشيخ" حمزة مسبحته وأخذ يعبث بها قائلا بانكسار:

- دهدي؟!.. انت حاتعترض؟.. دا حكم ربنا.. هو سبحانه وتعالى عاوز كده!!.. حكمته كده.. أما ملكش حق أبدا في الكلام ده يا دكتور.

وسكت قليلا ثم انفجر بضيق:

- طب والقرآن المجيد يا شيخ الواحد كل يوم يفكر انه يرجع البلد يتفيأ ظلال التوت ويشرب من ألبان البقر.. أحسن من الغلب ده..

فقال "عبد العزيز" وهو يتأمل في وجه الشيخ "حمزة" الشاحب المرتجف بعمامته الكبيرة المتسخة الشال:

- اسمع يا شيخ "حمزة". أنا مش فاضي لظلال التوت وألبان البقر. أنا نازل لك مخصوص. هات الكتاب خليني أرجع. أنا ما عنديش وقت للوقفة دي.

وكأنما تذكر "سعد" أنه فقد كتابا قبل أن يطرد من المدرسة، فصاح:

- الله؟ طيب وكتاب "الجغرافيا الإقليمية" الجزء الثالث بتاعي مش عندك كمان؟! ما هو ضاع مع كتاب "شوقي" قبل ما اتخانق مع المستر فيرنس بيوم واحد.

وكأنما تنبه "عبد العزيز" لوجود سعد بجواره خارج المدرسة والطلبة ما زالوا في الداخل.. فقال بصوته المرتفع دائما وهو ينظر إلى باب المدرسة المغلق:

- الله!.. على فكرة. إيه أخبارك مع الناظر؟

فأجابه سعد مبتسما متشجعا:

- لسه.. لا جديد تحت الشمس.

ولوح له "عبد العزيز" بيده.

- يا أخي هو يعني عمك شكري كان لازم يحبكها مع الناظر!؟ أنا لما رحت تاني يوم قعد يشتم لي في فصلكم وأخذ مني تعهد ان شوقي لا يتعرض لمدرس الإنجليزي.. وخلصنا. وخد نفس التعهد على كل أولياء الأمور. لكن شكري أفندي بقى لازم يدخلها في السياسة! دا كان ناقص يضرب الناظر بالكرسي.. الله! لكن دا انت بقى لك مدة مطرود من المدرسة يا وله.. دي السنة حاتروح عليك..

وتدخل الشيخ "حمزة" متلطفا وهو يرى انصراف "عبد العزيز" إلى موضوع آخر غير سرقة الكتب:

- أيوه.. ده شكري أفندي عمل حتة دور! قعد يقول للناظر انت من برادع الإنجليز وحريمك انجليز.

وأكمل هامسا:

- حاكم جماعة الناظر انجليزية.. ما هو "أبو سريع" حاكي لي ع الدور كله.. دا الساعي الخصوصي بتاعه وبيروح له البيت وبينكشف ع الجماعة..

فنظر اليه "عبد العزيز" وهو يهز رأسه:

- هو "أبو سريع" بقى اللي بيبيع لك الكتب المسروقة؟.. فصاح "الشيخ حمزة":

- لا والله يا شيخ!.. حرام عليك.. حرام قطعا.. قسما بالذات العلية ما هو "أبو سريع"!.. يا خبر!.. ثم يعني ايه قولك الكتب المسروقة؟!.. دي مش مسروقة.. بقى أنا أشتري حاجة مسروقة؟.. وكمان تظلم في الشغلة دي راجل طيب وصاحب عيال زي "أبو سريع" يا شيخ حرام.. إن بعض الظن إثم.. طب وشرف المصطفى يا شيخ ان اللي باع لي كتاب أخوك وكتاب سعد دهه.. انه تلميذ معاهم وابن راجل طيب.. وباع لي الكتابين في يوم واحد كمان.. هه!.. وأبوه راجل عارف ربنا وحامل كتاب الله المنزل.. بس اقسموا على كتاب الله ما تجيبوا سيرة لحد!.. يا سيدي الواد شوكت ابن "الشيخ عبد الرحيم المغربي" كاتب المحكمة الشرعية العليا هو اللي باع لي الكتابين.. هه!.. بس غيرشي ربنا أمر بالستر!.. وآدي الكتابين أهم.. ادفعوا فيهم ريال والله يبارك لكم..

وأخرج الكتابين من درج أمامه:

وبهت سعد..

شوكت عبد الرحيم المغربي!.. إنه دائما في ملعب التنس مع أولاد الذوات، وهو فوق هذا صاحبنا..!!

وقال "عبد العزيز" وهو يتناول الكتابين ويفحصهما:

- عاوز ريال كمان يا ضلالي يا قليل الدين؟ تلاقيك موقعهم الاتنين بشلن... أنا ما حقيش أدفع فيهم ولا مليم... هاتهم من سكات وخلاص.. كفاية اني حاسكت عليك!..

فاحتد "الشيخ حمزة":

- الله!.. طيب وأنا مالي.. بقى ده جزاتي.. طب ما أنا دافع فيهم فلوس.. قسما بالذات العلية أنا دافع فيهم ريال. عشرين قرش بالمليم، عاوز تاخد الكتابين وتمشي كده من سكات؟ ده شغل ما يرضيش ربنا.. ده حرام!.. طب وكتاب الله المجيد أنا دافع فيهم خمستاشر قرش!

- فضحك "عبد العزيز" وأعطاه قطعة نقدية قائلا:

- ما كنت بتقول عشرين قرش! طيب.. أنا أدفع لــك عشرة صاغ في الكتابين!.. آه يا ضـــلالي تلاقيــك برضه كسبان فيهم!..

وضحك "الشيخ حمزة".. وتكسرت ضحكته حتـــى بانــت أسنانه المتراكبة الصفراء المهشمة واهتزت لحيته.. ودعــك أنفه الطويل وحك رأسه القصير الشعر ثــم وضـــع عليــه عمامته الكبيرة وهو يقول:

- طيب يا سيدي والله ما يمشي إلا كلامك انــت.. ان شاالله حتى يمشي على رقبتي.. عشرة صاغ عشرة صاغ.. بس ايه بقى.. عاوزك كده يا دكتور كرامة للنبي عليه الصلاة والسلام وحبا في أهــل البيــت الكرام تشوف لي كده دواء ناجع لوجع الســوة.. دا أنا طول الليل وأنـــا عمـــال أنـــازع مـــن ســـوتي يا دكتور.. هات ايدك كده شوف. هنا..!

وأمسك الشيخ "حمزة" بيد "عبد العزيز" وحاول أن يضعها على جنبه ولكن "عبد العزيز" سحب يده ضاحكا وهو يقول:

- يا أخي جاك خابط في سوتك.. هو فيه حاجة فـــي الطب اسمها سوة..

- طب وأنا مالي ومال اسمها في الطب بقى!؟.. انت عاوزني أرطن لك بالإنجليزي زي الدكاترة.. أنا عاوز الدوا وخلاص..

ورد عليه "عبد العزيز":

- ابقى فوت عليه بكره.. لا. بعد بكره في العيادة الخارجية في القصر العيني الجديد.. عارفه؟.. بعد بكره الساعة عشرة الصبح. بس اوعى تاخد الدوا تبيعه.

وضحك الشيخ "حمزة" طويلا وهو يقول:

- بقى أنا ضلالي خالص كده حابيع الدوا بتاع الحكومة كمان!؟..

وأمسك الشيخ "حمزة" القطعة ذات العشرة قروش التي أخذها من "عبد العزيز" وفحصها خفية.. وأخذ "سعد" يقلب كتابه ويفتحه ويقفله فرحا وهو يهمهم:

- بس ليه تقطعوا الورقة اللي عليها اسم الواحد وترموا جلدة الكتاب وتحطوا الجلدة الوحشة دي..

ثم أكمل ملتفتا لعبد العزيز بحرج:

- لما أروح حابعت لك الخمسة صاغ ثمـــن الكتـــاب يا دكتور عبد العزيز..

فأمسك "عبد العزيز" بذراعه وهزه قائلا:

- عيب!.. خمسة صاغ إيه يا وله؟ ما انت و "شوقي" واحد.. المهم يا مغفــل انــت نــاوي تعمــل إيــه دلوقت!؟.. حاتصوع في الشوارع على طول كده؟!

وتدخل الشيخ "حمزة" في الحديث بحكمة وتؤدة:

- ما تشوف له واحد يا دكتور يعمل انه أخوه والـــلا قريبه واللا شيء من هذا القبيل ويـــروح للنـــاظر يستسمحه ويقول له إن والده عيان ويضربه قلمـــين في غرفة الناظر على سبيل المجاملة للناظر.. وأهو ربنا سبحانه وتعالى ينجح المقاصد.. واللا نســيت أيام ما كنت في الخديوية يا داكتور!؟.. الله يرحمه ويحسن إليه الناظر اللي كان على أيامكم!.. كـــان يقوم بنفسه يحوش ويستكفي باللي جـــرى قدامـــه! فاكر؟!.. والله أنا فاكر مرة دخلت مع صـــاحبك ده اللي كان اسمه كمال الصفطاوي.. لبست كاكولـــه حلوة كده ومعتبرة.. واستلفت عباية صوف وشـــال

كشمير.. أول ما هليت على الناظر الله يرحمه قــام واقف لي.. يقول لي أهلا سيدنا الشيخ.. قمت لـــك نازل على "كمال الصــفطاوي" ضــرب.. فــاكر؟ يا دوبك لهفته قلمين.. قام الناظر يحــوش عنــه.. ودخله المدرسة.. بالك؟!. كمال يومها طلــع مــن المدرسة كان حايقتلني!! أصل الكفين طلعوا مكــن سوروا له ودانه!! ألا "كمــال الصــفطاوي" فــين دلوقت؟ ما بتشفوش. دا بقى ضــابط بــوليس قــد الدنيا.. وكل ما بيجي مصر يحود على هنا.. لســه من شهرين بايع له كتاب تاريخ الجبرتي.. كتــاب مش موجود زي ما انت عــارف، وبيعــه كمــان ممنوع.. قال إيه فيه سب في محمد علــي الكبيــر والأسرة المالكة!؟.. إيه رأيك بقــى فــي الشــورة دي!.. انت فاكر الحكاية والا نسيتها.. ما أنا كنــت أيامها ساكن في شارعكم مع الشيخ "عبــد الحــي" يا جدع!.. وانتم في البكالوريا.. دا احنا ياما شــدينا عليها المسخرة.. عاوزين لـــ "سعد" قلمين زي دول يسوروه لكن يرجعوه المدرسة!..

ولمعت عينا "عبد العزيز" وهو يقول:

- الله يخيبك يا شيخ" حمزة"!.. صحيح يا واد يا "سعد" ما تيجي نشوف لك واحد وجيه كده نعمله عمك والا خالك وتخش به على الناظر يلحسك قدامه قلمين، ويراضي بهم الناظر، وخلاص.

اسمع يا شيخ حمزة.. انت بتشوف كمال؟ ده واحشنى جدا.. خليه..

واعترض "سعد" مقاطعا باستنكار شديد وباستعلاء:

- لا لا.. أنا كرامتي لا تسمح بهذا.

ودفعه "عبد العزيز" في كتفه قائلا بصوته المرتفع دائما:

- كرامتك إيه بس!؟.. مش ترجع المدرسة أحسن من الدوارة في الشوارع!؟. دي المسألة بينك وبين الناظر بس.. الراجل ييجي ياخدك القلمين قدام الناظر ولا من شاف ولا من سمع، وتصبح تلاقي نفسك في المدرسة. والناظر بالتأكيد بعد كده حيتنازل عن حكاية ضربك في الطابور اللي وافق عليها أبوك المغفل..

وتوقف "عبد العزيز" قبل أن يكمل نطق كلمة المغفل، و "سعد" يحتج والدنيا تغيم في وجهه.

ثم قال "عبد العزيز" مستدركا:

- تعال تعال يا "سعد" ولو أني مش فاضي، نفوت على مطبعة الأسطى "عبد المعبود". يمكن ايده تطلع خفيفة عليك شوية. يا للا نلحق الناظر قبل ما يمشي، وخير البر عاجله، ما تخفش. مش حايضربك قوي زي ما "حمزة" ضرب "كمال الصفطاوي".

والتفت إلى "حمزة" قائلا:

- ضروري تخلي كمال يفوت علينا يا شيخ حمزة..

وجر "سعد" من يده ومشى به متعثرا في اتجاه المطبعة، و "سعد" يتلكأ:

- أنا لا أقبل حتى أن أبوي نفسه يضربني قدام الناظر. المسألة مسألة مبدأ يا دكتور. لا لا..

ولكن "عبد العزيز" نجح في أن يجره خطوات.. بينما كان طلبة المدرسة الخديوية يخرجون ويمرون من أمام "سعد" ويحيونه.

وقال "سعد":

- على كل حال المدرسة خرجت خلاص. والناظر دلوقتي روح.

فوقف "عبد العزيز" يقول لـ "سعد" بحزم:

- طيب أنا مروح.. واسمع بقى. فكر كويس ما تبقاش عبيط. دا مستقبلك.. ما تدخلشي كل حاجة في الكرامة. هي يعني كرامتك تقبل بس انك تترمي في الشارع أكثر من عشرة أيام دلوقت. افهم دي كويس.. ما فيش حاجة تعوض حضور الحصص أبدا.. ساعات الواحد وهو بيجاوب في الامتحان بينسى اللي قراه ويفتكر شرح المدرس في الحصة ويجاوب من شرح المدرس بس!. دي تجارب الواحد عارفها كويس.. حتى عندنا في كلية الطب الدنيا مش حاتخرب لما انت تنضرب قلمين. أنا مش عاوز أقول لك إن الغاية تبرر الواسطة. لكن فكر كويس في كل حاجة تعملها.. وفي المزايا والمضار. اسمع كلامي وفوت دلوقتي على الأسطى "عبد المعبود" اتفق معاه انه بكره يلبس كويس

ويروح معاك المدرسة ويقابل الناظر على انه خالك.. عمك.. أي حاجة.. وتخليه يقول لك شتمتين كويسين قدام الناظر ويلهفك القلمين.. ونخلص.. الطريقة دي حلت أزمات الدنيا لتلامذة كتير مع نظار أشد من ناظركم ده ألف مرة.. الشيخ "حمزة" فكرني.. حكاية "كمال الصفطاوي" كانت متعقدة أكتر من حكايتك ماحلهاش غير القلمين بتوع الشيخ "حمزة"!

وارتفع صوت احتجاج من وراء "عبد العزيز":

- لا لا.. غير معقول.. لا يمكن.. ده حل مهين!

والتفت "عبد العزيز" فوجد أخاه "شوقي" يقف وراءه ومعه طالب طويل أسمر حازم الوجه ثابت النظرات.. فزعق "عبد العزيز" في أخيه "شوقي":

- بس يا واد يا "شوقي" بلاش فلسفة.. أمال ما تنتصح كده على كتبك بدل ما تنسرق منك في المدرسة.. انت أصلك جحش.

وضحك "شوقي"، وقاطع أخاه متحرجا قبل أن يستمر في شتمه:

- ده إجماع الطلبة. اسأل كمان "الأستاذ عبد الرافع".. حضرته الأستاذ "عبد الرافع" رئيس جمعية الخطابة بالمدرسة.. وحضرته أخويا الدكتور "عبد العزيز خليفة" بكالوريوس الطب والجراحة!..

وتقدم "عبد العزيز" مسلما على "عبد الرافع" برعاية.. ثم قال مداعبا:

- أهلا وسهلا الأستاذ "عبد الرافع".. أنت زعيم المدرسة بقى واللا إيه؟!. تلاقيك بتفكر تخش الحقوق وتطلع تعمل وزير.

فرد "عبد الرافع" مبتسما:

- لا.. أبدا.. أنا ناوي أدخل الحربية.. وأطلع ضابط بس..

ثم أكمل متحرجا:

- أصل الحقوق مدتها طويلة، ومصاريفها كتير.. كويس الواحد يطلع ضابط.. وطني يعني..

فرنت ضحكة عبد العزيز تغمر حرج عبد الرافع من إشارته السريعة إلى فقره:

- يعني عاوز تدخل الحربية علشـــان تطلـــع ضـــابط وطني؟!.. يعني ناوي تضرب لك ضابط انجليـــزي بالكرسي؟.. يعني ان شاء الله توصل لحد يوزباشي وتركن على المعاش!..

وخلال الضحكات قال "شوقي خليفة":

- احنا امبارح أرسلنا عريضة للناظر مـــن جمعيـــة الخطابة وجمعية التمثيل وكل جمعيات المدرســـة.. عريضة وقعها رؤساء وسكرتيرو الجمعيات وبعض الطلبة المهمين، ووقعها معانـــا "ميخائيـــل أفنـــدي" والشيخ " علي" وطالبنا فيها بعودة "سعد داود أفندي" فورا وبأن يعتذر المستر فيرنس له أمـــام الطلبـــة وإلا..

وقاطعه "عبد العزيز" بقوله:

- وإلا؟! وإلا إيه يعني. حاتعملوا مظـــاهرة علشـــان عودة "سعد".. يعني عودة "سعد زغلول"؟! يا خراب بيتك يا داود أفندي! اسمع كلامي يا "سعد"! ما فيش حل غير قلمين من "عبد المعبود" قدام الناظر فـــي أودته، وانت ترجع فورا..

فصاح "سعد" بقوة:

- كلا.. وألف مرة كلا..

وهزة "عبد العزيز" وهو ينصرف:

- الله؟!.. أنت كمان بقيت زعيم؟. وحاتتكلم لي بكلا وألف كلا؟! ما تقول كمان تقطع يدي ولا أوقع هذه المعاهدة.. الله يخيبك!.

وانصرف "عبد العزيز" مسرعا..

ومشى "سعد" وذراعه في ذراع "شوقي" ويده الأخرى تمسك بذراع "عبد الرافع" وهو يشعر بدفء غريب في أعماقه، وبقوة لم يشعر بها من قبل.. وأطلق أول ضحكة في يومه.

زملاؤه رفعوا عريضة بالأمس.. ومع أن الناظر لم يرد اليوم.. فلا بد أن يرد غدا.. وإلا.. فمن يدري.. ربما كان هو الإضراب..

أخيرا.. سيضربون من أجلك يا سعد!.. إنك نفسك لم تجرؤ حتى على مجرد التفكير في شيء كهذا..

(٧)

بدأت مدارس البنات تخرج والطريق يزدحم بـالموظفين العائدين من أعمالهم، و "شوقي" و "سعد" و "عبـد الرافـع" يمشون في شـارع درب الجمـاميز يروحـون ويجيئـون ويتوقفون كل خطوتين أو ثلاث يحكون ويضحكون، ونبـرة ثقة وأمل تشيع في أصواتهم.. ووجدوا أنفسهم في ميدان "باب الخلق" وسط زحام الترام والعربـات والباعـة المتجـولين وصوتهم يكاد يضيع منهم.. وقال "عبد الرافع":

- ما تيجوا نحود على دار الكتب.

فأجابه "سعد داود":

- النهاردة الاتنين.. المكتبة قافلة.

بينما كان "شوقي خليفة" يجذب "سعد" بيده قائلا:

- تعال يا شيخ على القهوة دي نكمل كلام.. هو احنا كل يوم حـانطلع مـن المدرسـة نتصـعلك فـي الشوارع.. يا للا بنا على القهوة ياللا.

وتردد "عبد الرافع" قليلا.. ولكنهم دخلوا القهوة فوجدوا "شوكت عبد الرحيم المغربي" أمامهم يقعد على كرسي ويسند ذراعه على كرسي ويمد رجله على كرسي.. والقهوة الصغيرة مزدحمة تضج بخبط الطاولة وزعيق الجارسون على الطلبات..

وتردد "شوقي" وهو يقف في مدخل القهوة. أيسلم على "شوكت" أم يتجاهله، وشعر "سعد" بضيق من رؤية "شوكت"..إنه منذ سمع أول أمس أنه هو الذي سرق كتابه لم يستطع أن يفكر إلا في أن يبصق في وجهه إذا قابله.. ولكن "عبد الرافع" تقدم إليه فقام "شوكت" متثاقلا يسلم عليهم جميعًا..

ووقف "الجارسون" وراءهم يبحث عن كراسي، وأخذ يهيئ الكراسي الثلاثة التي كان "شوكت" يشغلها جميعا، وهو يقول معرضًا بـ "شوكت":

- الزبون اللي يقعد هنا يتلم على كرسي واحد مش يبعزق نفسه على تلات كراسي..

ثم يمشي "الجرسون" يفتش عن كرسي رابع وهو يكلم نفسه بصوت مرتفع:

- اقعد بأدبك يا زبون وإلا قوم روح.. بلاش فقـر!.. شاغل لنا تلات كراسي من الصبح على واحد شاي!

وضحك "شوقي" و "سعد"، بينما حاول "شوكت" أن يـتكلم مع "عبد الرافع" متجاهلا كلام "الجرسون":

- إيه يا "عبد الرافع"؟!. أنا ما قدرتش أروح المدرسة النهاردة! إيه أخبار العريضة.. مش خلاص "سعد" رجع...

وقال "عبد الرافع" معاتبا:

- كنت لازم تيجي.. النهارده كان أحرج يوم. يعنـي أول امبارح تقف تخطب زي ميرابـو.. وامبـارح تختفي، والنهارة تغيب؟!

..على كل حال الناظر قرر إرجاع "سعد". ولكنه حل كل الفرق ماعدا الفرق الرياضية والمجلة. يعني جمعية الخطابة وجمعية التمثيل وجماعة البحوث التاريخية وخلافهـا.. زي ما أشيع امبارح. وخصم نمرتين مـن السـلوك مـن كـل الموقعين على العريضة، وأعلن في طـابور الصـباح أنـه بيرجع "سعد داود" لا لأن العريضة قدمت.. ولكن لأن والده اعتذر للمستر فيرنس والمستر فيرنس اكتفى بهذا.. تصور!..

طبعا ده ما حصلشي. الناظر بيبرر تراجعه ومش عاوز يعني يظهر قدامنا انه خضع لمطالبنا..

وجاء "الجرسون" ووقف يسألهم عن الطلبات، وقعد "سعد" و "شوقي"، بينما ظل "شوكت" و "عبد الرافع" واقفين... وبعد قليل هز "شوكت" رأسه قائلا:

- على كل حال كويس! ما دام "سعد" رجع خلاص. طيب سلام عليكم..أنا امبارح وأنا في المدرسة برضه سمعت ان حضرة الناظر زعل من العريضة وناوي يعاقب اللي وقعوها ويحل فرقة الخطابة والتمثيل بالذات.. لأنهم تزعموا حملة التوقيعات.

وحين حاول "عبد الرافع" أن يستبقيه، تحرك مزهوا وهو ينظر في ساعة يده الذهبية بحركة رشيقة، هامسًا:

- يا.. ياه؟! دي مدرسة سان فانسان دي بول طالعة حالا!!. الشعب بتاعي مالوش صبر ينتظر!

وانصرف مسرعًا.. خفيف الحركة و "شوقي خليفة" يتبعه بنظرات محنقة.. مدرسة "سان فانسان دي بول"؟!. مالك انت ومالها؟!.. يا أخي رح بقوامك المتثنى هذا ولونك الأبيض، وانتظر لك فحلا من المدرسة الإسماعيلية!! يا ظبي!..

احترس يا "شوكت" يا بن الشيخ "عبد الرحيم المغربي" أن تتعرض لـ "ميرفت" أخت "سعد" وانت واقف تتمخطر كالغزال أمام مدرسة سان فانسان دي بول!.. فأنا "شوقي" ابن الحاج "خليفة"..

وعندما غاب "شوكت" في زحمة الميدان، التفت "شوقي" إلى "سعد". ولكن "سعد" كان شاردًا!.. مالك يا "سعد"؟. ألم تسمع ما يقوله "شوكت"؟! هو ذا ذاهب يتسكع ويتمايع أمام مدرسة أختك؟ هل جرحتك كلمات هذا الولد؟!.. مالك يا "سعد"؟! وقعد "عبد الرافع" يقول لشوقي معاتبا:

- يا "شوقي" دي مش طريقة تعامل بها "شوكت المغربي".. انت حتى مارضيتش تسلم عليه وهوه ماشي وقعدت تبص له بطريقة غريبة!..

فانفجر "شوقي":

- تسلم عليه ازاي؟! ده سرق كتبنا!! وهوه ده راجل الواحد يسلم عليه؟

فأجاب "عبد الرافع" محاولا السيطرة على غضبه، ولهجة صعيدية تنفلت من كلماته:

- يا سيدي ما كفايانا من الحكاية دي، ما دام ماشـــي معنا كويس؟! يمكن ندم على جريمته وعاوز يصلح نفسه! لازم ياخد فرصة يتحسن... ما تبقاش ماسخ يا "شوقي"! إيه يعني فايدة اننا نفضحه ونعقده منـــا وما دام هوه ما بيعملش حاجة ضدنا في المدرســـة، بل انه بالعكس ماشي مع التيار وسابقه كمـــان!! ده طول النهار امبارح كان مختفي في المدرسة كأنـــه مكسوف من نفسه.. يظهر أن الشيخ حمزة حكى له انكم خدتوا الكتب. وهوه حتى مـــش طـــايق يقعـــد معاكم. فانفجر شوقي خليفة:

- كلام ايه ده يا "عبد الرافع"؟!. هوه هوشك لما وقف أول امبارح في ملعب التنس يقول: يجب أن يعـــود سعد ولن نبرح أماكننا إلا علـــى أســـنة الرمـــاح؟. تقولشي ميرابو يعني!؟ جاته داهية في امه! ده لولا انه عمل كده، كنا فصصنا العيال البيض اللي حاشر نفسه فيهم على طول في حوش التـــنس!.. تلاقيـــه بيقول علينا: دول واحد صعيدي والتـــاني فـــلاح، يندحك عليهم!.

وضحك "عبد الرافع".. نعم إنه يذكر ما حدث أول البارحة.. كان عدد كبير من الطلبة حول "شوقي"، وهو يجمع توقيعات رؤساء الفرق على العريضة، ودخل ملعب التنس وحوله رئيس فرقة المصارعة ورئيس فرقة الملاكمة فوجد رئيس فرقة التنس وبعض "أولاد الذوات" ومعهم "شوكت عبد الرحيم المغربي".. وكان بعضهم يدخن.. وقدم "شوقي" لهم العريضة ليوقعوها، وحين وقف رئيس فرقة التنس ليقرأها بضيق، قال له "بجفاء":

– بتقرا ايه.. امضي وخلاص!..

وفجأة وجد "شوقي" العريضة على وجهه ورئيس فرقة التنس الذي قذفه بها يقف متحديا ويده في خصره واليد الأخرى تنفض سيجارة يقتحم دخانها عين "شوقي".. فهاج "شوقي" فيه قائلا:

– انت فاهم ايه يا قليل الادب.. هو احنا خدامين أبوك! فرد عليه رئيس فرقة التنس ببرود وهو يتقدم اليه بازدراء:

– انت؟! أنا ما ارضاش أشغلك خدام عندي لا انت ولا أبوك!.

وفي سرعة خارقة، انتزع "شوقي" حذاءه وقذف به رئيس فرقة التنس، فأصابه في كتفه.. وتحرج الموقـف لـولا أن انقض "شوكت المغربي" فوقف بين "شوقي" ورئـيس فرقـة التنس داعيا إلى وحدة الطلبة حول العريضة فقط.. ورئـيس فرقة المصارعة ورئيس فرقة الملاكمـة وبعـض الطلبـة الرباعين من مؤيدي "شوقي" يتهيئون سـاعتها للمعركـة.. والطلبة الآخرون من حول "شوقي" يتحرشون لضرب "شلة" ملعب التنس، ونظرات التحدي تطق من عيونهم بالشرر!!.. ولكن "شوكت" وقف يخطب.. كانت الحركة موفقة.. أنقذتهم كلهم ومعهم "شوكت" نفسه من أيدي طلبة أذرعتهم ملتهبة من الغيظ مستفزين من "شلة" ملعب التنس!

وقال "عبد الرافع" لـ "شوقي" مقاطعا:

- على كل حال هوه برضه قال كـلام كـويس أول امبارح.

فاحتد "شوقي":

- يا أخي بس افهم.. هم خـافوا.. والـواد "شـوكت" عرف يخلصهم منا.. الله.. دول واخدين عالمربيات والكمريرات يا "عبـد الرافـع". دا الواحـد مـنهم

بيرجف لما المربية الخوجاية بتاعته تكـش فيـه..
ايش حال بقى لو واحد جحمرش زي حالتنا مسـكه
رزعه كف؟! بقى دول لو ما كانوش خافوا كـانوا
سكتوا على أن واحد منهم ينضـرب بالجزمـة؟..
باقول لك خافوا.. وكانوا يسكتوا على ضرب البلغ
كمان!..

وضحك الأصدقاء من الطريقة التي يتكلم بهـا "شـوقي"، وكأن صوته وأداؤه وحركات يديه تنبعث من إحساس فـلاح متمرد على فساد مالك كبير..!

وانتزعت الضحكات فكر "سعد داود" من الشرود، فقـال ضاحكا:

- الله؟!. هو انت في بلدكم يا واد انت يا "شوقي"!؟..
آه يا فلح! هو انت فاكر نفسك فـين يـا واد انـت
يا واد؟.. دا انت عملت زي "عبده" بتاعكم.

وضج "شوقي" وهو مستغرق في الضحك هو الآخر، وقال متخايلا بلهجة قريته وطريقة التفكير فيها:

- صل ع النبي يا جدع! حاكم العيال البـيض بتـوع
مصر دول كلهم مايعين! ظباء! والنبي أنا ما يمـلا

عيني حد من أهل مصر دي كلها. لا حريم ولا رجاله.. مصر كلها حلاوة.. حلاوة بيضة!.. ده اللي بنى مصر كان في الأصل حلواني..!.. يا حلواني!!.

وخبط "عبد الرافع" كتف "شوقي" من خلال الضحكات، كأنما يريد أن يسكته حتى لا يغضب "سعد داود" القاهري، ويدخل معه في مناقشة طويلة حول القاهرة والريف!.

ولكن انطلاق الضحكات بكل قواتها من الصدور، اكتسحت من أعماق "سعد" إحساسه بالضيق من كلمات "شوقي" التي تعرض بالنساء والرجال في القاهرة، وبالأولاد البيض الذين يخافون من المربيات.. فإن لم توجد المربيات.. آه يا "سعد".. تضربهم الأمهات!!..

وارتفع صوت "شوقي" فجأة:

- لكن دبرونا دلوقت حانعمل ايه بعد حل فرقة التمثيل. طيب والرواية اللي في إيدنا دي؟!.. "ميخائيل أفندي" بيقول ما يهمكوش بكره الناظر يرجع في القرار، وإذا ما رجعشي فنأجر مسرح بره ونمثل بفلوس! كل الاشتراكات معاه وهو

متبرع بجنيه كمان والباقي يتلم من أعضاء الفرقة!..

فقال "عبد الرافع" بهدوء:

- يا أخي مش دي المشكلة. طب فرقة التمثيل تقدر تأجر مسرح بره، وفرقة الخطابة تعمل إيه؟ والفرق التانية؟ لازم نشوف طريقة نرجع بها الناظر عن قراره!..

وتساءل "شوقي" فجأة:

- أنا عاوز أعرف. اشمعنى جمعية المجلة لم تحل! علشان سي "شوكت" طمعان يبقى رئيس تحرير؟! أنا عاوز أفهم الحكاية دي.. يعني كل الفرق انحلت ما عدا الفرق الرياضية لأنه طبعا لا يستطيع أنه يحلها لأنها مرتبطة بمسابقات و..

فقاطعه "عبد الرافع":

- وأنا أؤكد لك أنه لا يستطيع الاستمرار في حل بقية الفرق! ده إجراء مؤقت لإرهابنا على رأي "ميخائيل أفندي" بكره يرجع الفرق كلها تاني غصب عنه! دي مدرسة مش إمبراطورية!

وقال "سعد" كأنه يفيق من حلم:

- بقى خلاص؟! أنا بكره راجع المدرسة! يا سلام!

ومر الوقت دون أن يشعروا.

وهبطت شمس العصر الفاترة الصفراء وراء البيوت القديمة في باب الخلق، وأخذ لون النهار ينطفئ منها والمغرب يزحف في بطء..

ونهض "عبد الرافع"..

وقام "سعد" و "شوقي"..

ومشى الثلاثة في صمت..

وقطب "عبد الرافع" جبينه وهو يتوقف قائلا في حسم:

- الحكاية بتاعة سرقة "شوكت" للكتب دي يا "شوقي" عاوزين نتكلم فيها جد مرة تانية.. بس خلوها سر.. كلمة شرف نخليها كلنا سر.. على رأي أخوك الدكتور "عبد العزيز" يا "شوقي" انت تعرفه وتحترس منه لكن ما تعاديهشي. دا برضه كان صاحبنا.. يعني كان عامل صاحبنا!

وقبل أن يرد "شوقي" ابتسم "عبد الرافع":

- على فكرة أخوك "عبد العزيز" ده لطيف جدا يا "شوقي".

ودخل "عبد الرافع" في اتجاه شارع الخليج المصري عائدا إلى بيته، و "شوقي" و "سعد" يتابعان سيرهما في شارب درب الجماميز، وفي داخل الدكاكين أضيئت المصابيح والكلوبات..

وزحف إحساس حزين على نفس "سعد" فجأة، فتقلصت ابتسامته، وصديقه "شوقي" يمشي صامتا بجواره.

الليل يهبط.. بل لم تزل في الأفق بقايا شاحبة من ضوء أحمر، وفي غير هذا الشارع الضيق، ربما كانت الشمس ما تزال تضيء!.. لماذا صنعت هذا يا "سعد"؟!.. لشد ما تشعر بالضيق وأنت عائد إلى بيتك؟!. أتواجههم بما فعلت.. قل لـ "شوقي" أولا.. ولكن لماذا تشعر الآن بالحزن، وأنت عندما صنعتها لم تكن حزينا؟!. كنت متهيبا بعض الشيء، وقلبك يدق، ولكنك في النهاية كنت سعيدًا!.. على كل حال أنت لم ترتكب شيئًا تخجل منه.. إنها ساعتك أنت، قدمت عندك ولم تعد منتظمة كما كانت منذ ثلاثة أعوام عندما اشترتها جدتك.. كان ثمنها إذ ذاك خمسة جنيهات،

ولكنك بعتها بستين قرشًا!!.. كان يجب أن يكون معك نقود، فهم الذين حرموك من مصروفك في البيت، حتـــى بعـــد أن صالحتك أمك.. وأنت مطالب بخمسة قروش اشتراط فرقـــة التمثيل، كان يجب أن تدفعها من أول الشهر، وعليـــك ديـــن للشيخ "حمزة" عشرة قروش أخرى.. مـــا الـــذي يعـــذبك؟!. الناس كلهم يبيعون أشياءهم القديمة!.. ولكن كيف تواجه أمك وأباك وجدتك بهذه الحكاية؟.. وأختك "ميرفـــت" وأخواتـــك الصغيرات!؟.. الذي يبيع أشياءه القديمة هو الســـكير الـــذي يشرب الخمر بثمنها ومدمن المخدرات، أو المقـــامر الـــذي يلعب الورق بأي شيء يمتلكه.. ولكن هذا ليس ضـــروريًا.. أمك أحيانا تبيع أشياء قديمة وتشتري بها الأطباق من بـــائع "السكسونيا" الذي يتردد كل شهر على شارع عزيز فيفـــرح أبوك!.. أنت لم تشتر شيئا، ولم تضع نفسك.. كل مـــا فـــي الأمر.. أنك اشتريت علبة سجاير صغيرة.. علبـــة ســـجاير مصرية فنحن لا نشتري البضـــائع الأجنبيـــة.. الطربـــوش والكرافتة والحذاء كلها من مصر.. وعلبة السجاير أيضـــا!.. ما أجمل أن يدخن الإنسان سيجارة في هذا الجـــو الشـــاحب المثقل بالأحزان والضياع.. سيفرح "شوقي خليفة" بالسيجارة

المصرية.. لندخن معا أول سيجارة، وكم من أشياء صنعناها لأول مرة، عبد الرافع لا يفهم هذا، وربما أخذ يعظ ويلـــوم.. إنه صعيدي جامد الدماغ.

ووضع "سعد" يده في جيبه وتحسس علبة السجاير التي لم يفتحها منذ اشتراها هذا الصباح، وبدأ يسحبها وهو يفحــص كل من يمر بنظراته.. ولكن ضحكة "شوقي خليفة" رنت بلا مناسبة.

وبوغت "سعد" وسحب يده من جيبه بسرعة وتوقف مبتعدا محمر الوجه وهو يتساءل بنظراته. أيعرف "شوقي" فيم كان هو يفكر الآن؟.

وظل "شوقي" يضحك، وتصاعدت مــن خــلال ضــحكة كلمات جاهد طويلا ليجعلها واضحة:

- أما يا واد يا "سعد" حصلت حتة حكاية النهارده في الفصل.. بين الشيخ "علي" والأستاذ "عطا الله".

واعترضه "سعد" بضيق:

- الأستاذ "عطا الله" مين؟..

فقال "شوقي":

- الله. انت نسيت المدرسة والا ايه.. بليه.. الزعيم عطا الله.. الأستاذ عطا الله اللي درجه جنب الباب!.

ثم استطرد:

- حكاية تهلك من الضحك.. احنا طلعنا على أول حصة بعد الناظر ما أعلن في الطابور حل الفرق ورجوعك للمدرسة وخصم درجات من سلوك اللي مضوا على العريضة.. وطبعا عرض شويه كده بـ "ميخائيل" أفندي والشيخ "علي".. ويظهر انه كان احتك بالشيخ "علي".. ما علينا.. المهم.. كان عندنا الشيخ علي أول حصة والشيخ جاي متعكر قوي.. وباب الفصل مفتوح طبعا حسب أوامر الناظر زي ما انت عارف.. والواد عطا الله قاعد جنب الباب. البرد اللي جاي من الصالة كان جامد.. الواد تعب من البرد، ميل كده وهو قاعد على درجة ووارب الباب شويه.. نقره الشيخ على وهو بيوارب الباب.. قام قال له (لا تغلق الباب يا أفندي بل اتركه مفتوحا، وابق استأذن قبل أن تحدث أي تغيير في نظام الفصل).. رد عليه بلية

بطريقته الزعامية إياها: (طيب اسمح لي أقفل الباب لأن فيه تيار برد شديد جاي من الصالة بيخبط فـــي جنبي).. وقام رد الباب ورجع وقعد بهدوء.. الشيخ علي جز على أسنانه وقال له: (اترك الباب مفتوحا كما كان يا ولد!).. عمك بليه وقف بالوقار المعهود وحبك الطربوش على رأسه بدرجة الميل إياها..

وقاطعه "سعد" مرة أخرى بضيق:

- بليه مين بس دي!؟..

وتأفف شوقي من المقاطعة:

- الله؟!. باقول لك الواد القصير اللي عامــل زعــيم لازم الواحد يقول له يا أستاذ عطا الله.. انت ناسي بلية!؟.. انت سرحان في إيه م الصبح؟!. انت جرى حاجة في عقلك.. ناسي "عطا الله"؟

فقال "سعد" مبتسما وهو يغالب شروده:

- آه!.. الزعيم!!..الأستاذ عطا الله.. عمل ايه!؟. بقى الواد بليه وقع مع الشيخ علي.. دا ما يجيش طــول ركبته..! دا يبقى قدام الشيخ على زي البلية فعلا.. عمل إيه قل لي..

واستعاد "شوقي" حالة الضحك التي تسيطر عليه واستمر:

- أيوه ما أنا باقول لك أهه.. المهم بلية تساهل في كلمة يا ولد، وفتح الباب.. وبعد شويه والشيخ "علي" محموق في شرح القواعد، بلية طلب الإذن بالكلام.. الشيخ "علي" صهين.. قام بلية وقف وطلب من الشيخ "علي" انه يغير مكانه أو يسمح له بقفل الباب لأنه مش قادر يستحمل هوا الصالة.. الشيخ "علي" برضه ماردش وشور له يقعد... وبعدين إيه... التفتنا لقينا الواد بلية قام على غفلة رزع الباب وقفله بالأكرة وقعد مكانه زي الأسد... الشيخ "علي" قطع الشرح وراح له بشويش كده وسأله: (ايه يا ولد ده).. بلية قعد مكانه يقول بكل هدوء: (أولا أنا مش ولد!.. أنا كل الناس حتى كبار السياسيين بيقولوا لي يا أستاذ، ثانيا إذا كنت أنت عامل حساب للناظر والأمر الصادر منه بفتح أبواب الفصول أثناء الدراسة فأنا أحب أقول لك اني تفاهمت مع حضرة الناظر شخصيًا.. أيوه احنا تفاهمنا خلاص، سيب الباب مقفول بقى ولا تبالي

واتفضل كمل الشرح).. التفتنا لقينا الشـيخ "علـي" اتنحنح النحنحة بتاعته اياها ساعة ما بينوي علـى شر، وبعدها لقينا حتة دين قلم نازل يرن على وش بلية!.. قام واقف بكل هدوء. وهز رأسه كده وقـال لـه. (الله! الله! الله.. أنـت بتصـفعني؟!.. يعنـي حضرتك بتصفعني على وجهي؟!.. أنا لا أقبلهـا.. والله لا أقبلها.. والله لا أقبلها!).. قام الشيخ "علـي" ساندة بقلم تاني.. رد بلية بكل وقار برضه: (الله!.. وتثني بقلم آخر؟).. قام الشيخ "علي" ضربه التالت من سكات. قعد بلية يهز رأسه ويقول له: (الله الله. وكمان تالت وكمان رابع وخامس إلى ما شاء الله!.. أنا لا أقبل!) الفصل هاص وهات يـا خـبط علـى الأدراج بالنغمة بقى: (وكمان رابع وكمان خـامس وكمان سادس).. شوية والناظر دخل وشه أحمـر زي الديك الرومي..

ولم يضحك "سعد" انفجرت شـفتاه ولـم يخـرج منهمـا صوت!.. ودخلا حارة ضيقة تفضي إلـى شـارع "عزيـز"

وظلال المغرب تستلقي على أرض الحارة التي تكاد بيوتها المتقابلة تلتقي أمام أعينهم على امتداد البصر..

واستغرب "شوقي" ورنين ضحكاته يرتفع منفردًا في الحارة المعتمة.. مالك يا "سعد"!؟.

صمت "سعد" جعله يقطع الحكاية ويشعر أنها سخيفة، وهي لم تكن كذلك أبدًا، فالجميع ظلوا يضحكون منها، وهو نفسه كان يكتم ضحكاتها كلما تذكرها في بقية الحصص... وسيضحك منها الليلة أخوه "عبد العزيز" و "عبد اللطيف" وحتى "عبده" حين يحكيها لهم على العشاء.. ولكن "سعد" لم يضحك ولم يتابعها كما ينبغي.. مالك يا "سعد"!؟.. أتكون تعرضت لـ "درية" بنت عم شكري وحاولت أن تكلمها فشتمتك وأنت الآن خجلان من نفسك خائف من مقابلة أبيها عم "شكري"!؟.. أضربتك اليوم أيضًا؟.. ولكنك كنت منذ قليل ونحن مع "عبد الرافع" منبسط النفس؟!. أتفكر يا "سعد" في عودتك إلى المدرسة؟! أنت عائد يا أخي. أعلنها الناظر، وثبت لك أنك لن تهان وفينا عرق ينبض، وأن الخديوية لا تستعبد!..

أم أن أمك تشاجرت مع أبيك وقال كل منهما للآخر كلاما لم يعجبك!؟.

مالك يا "سعد" كأنك لا تريد أن تدخل الشارع!... أعرفت شيئاً يشين عن أختك "ميرفت"!؟. أنت تغير لونك حين تكلم "شوكت" عن بنات مدرسة سان فانسان دي بول... ولكن يا أخي في كل مدرسة بنات طيبات وبنات فاسدات... لماذا تسيء الظن بأختك؟

وعاد الصديقان يتقاربان في صمت، ووضع "شوقي" ذراعه في ذراع "سعد" ومشيا بلا كلام..

وسحب "سعد" علبة السجاير وفتحها بلا كلمة وقدم منها لـ "شوقي"...

وقفز "شوقي" مبتعدا كالملسوع... ثم عاد يقترب من "سعد" مستنكرًا:

- إيه ده؟؟! سجاير..؟

ورد "سعد" بهدوء:

وفيها إيه؟.. فقال "شوقي" بصوت رهيب:

- لا. لا... يا "سعد"!.

وأمسك "شوقي" بعلبة السجاير وحاول أن يجد كلاما فظيعا يقوله لــ "سعد" ولكنه لم يستطع أن يقول كلمة...

وبانت الحيرة في عينيه... الحيرة والرجاء وشيء كالدعاء ألا يفعلها "سعد"!..

والتقت نظرات "سعد" بنظرات "شوقي"، وأوشكت الدموع أن تنهل من عيونهما....

وفي صمت تقطعه أنفاسهما أمسك "سعد" بعلبة السـجاير وهرسها بأصابع متشنجة وتركها تقع في الأرض..!

وتابعا سيرهما في صمت... وعلى مدخل شارع عزيـز قال سعد وهو يحني رأسه:

- إذا كنا حانعمل حفلة التمثيل بره فأنا مسـتعد أدفـع تلاتين قرش أو حتى أربعين.. أنا بعـت سـاعتي النهارده!.

وزعق "شوقي" في استنكار وهو يمسك بذراعه:

- بعت ساعتك؟!.. الله. الساعة الذهب؟! الله! جـرى لك إيه يا سعد؟.

فقال "سعد" ورأسه منكس وهو يحاول أن ينصرف.

- بس ما تزعقشي كده! وأنا يعني كنت أعمل إيه؟!.

وانصرف دون أن يجرؤ على رفع رأسه في وجه شوقي، متعثر الخطوات إلى بيته.. بينما وقف "شوقي" حائرا مستغربا.. وأخيرا بدأ يطلع السلالم إلى شقته متهيبا أن يسأله أحد أخويه عن غيابه الطويل.. والليل من ورائه يغمر شارع عزيز تماما!..

(٨)

دس "عبد العزيز" المفتاح في جيبه بعد أن فتح باب الشقة، لم يكد يدخل حتى سمع صوت وابور الجاز يملأ الشقة بالوش، وغناء "عبده" يرتفع ورائحة الطعام والدخان والجاز المحترق تملأ الصالة..

وتقدم "عبد العزيز" في صالة البيت متجها إلى المطبخ فامتلأت أذنه بغناء "عبده":

داويني وخد مالي

يابا يابا... ما داويني وخد مالي

وابتسم "عبد العزيز" وتمتم لنفسه

- والله الواحد حقه لما يفتح عيادة يحط يافطة مكتوب فيها "داويني وخد مالي".. أيوه "يا عبده".. ازعق كمان وقل داويني وخد مالي..

واستدار إلى غرفته دون أن يدخل المطبخ، مارا بغرفة أخويه "عبد اللطيف" و "شوقي"... فوجد كل شيء على

حاله... كل سرير كما تركه صاحبه: الغطاء متكوم، والبيجامة ملقاة على سرير "عبد اللطيف" والجلباب على سرير "شوقي" والشباك لم يفتح بعد ورائحة النوم ما زالت في الغرفة المهوشة المعتمة.

... أف! الله يلعنك يا "عبده"... لو كانت غرفتي أنا أيضا مازالت كما تركتها في الصباح فمصيبتك سوداء!...

وتوقف "عبد العزيز" على صوت "عبده" الذي ارتفع بشكل ملحوظ مباغت منسلخا من ضجة وابور الجاز يدفع كلمات ساخطة متلعثمة:

- كده يا ست "ميمي"؟.. بقى كده؟.. تلطشيني بالكف وتشتميني ع الصبح و... وتبهدليني وتخليني فرجة؟! قال أنا خدام عند عزاب وما يصحش أخش عندها!؟ طب يا ست "ميمي" ما انتي بتتمحكي في العزاب دول؟.. قال خدام قال؟!.. أنا خدام أنا؟!.. ناس ما عندهاش دم.. عالم ما بتشمش!. معلش!.. أنا وانت والزمن طويل يا شارع عزيز!.. لكن... لكن كله منك يا شيخ "عبد الحي"!.. بقى يا راجل.. بقى يا ست "ميمي".. يا نهار أسود!..

ولكنه وجد "عبد العزيز" فوق رأسه يزعق:

- جرى ايه يا واد يا "عبده"؟!.. ايه الكلام ده.. انت صوتك جايب لآخر الشارع.. انت اتخانقت مع الجيران يا وله؟.

فشد "عبده" قميصه المتسخ وأحكم وضع أطرافه في سرواله الطويل متصنعا ضحكة يداري بها اضطرابه من المفاجأة:

- الله.. يا ألف مرحب.. أهلا حضرة الدكتور.. انت يعني جيت بدري.. يعني حضرتك جيت بدري.
- فاضل قد إيه على الغدا؟..

وأمسك "عبده" بخرقة وتقدم إلى وابور الجاز وأزاح غطاء الطاسة وقلب ما فيها، والتفت إلى "عبد العزيز" مطمئنا:

- فيها ربع ساعة بالكتير. خلاص.. على ما تقلع..

وعاد "عبد العزيز" إلى غرفته زاهدا في سؤال "عبده" عما حدث بينه وبين "ميمي هانم" ففي كل يوم والثاني يجري شيء ما.. المهم أن يفرغ "عبده" من إعداد الطعام.. وسيحكي هو من نفسه كل ما حدث وهم يتناولون الغداء..

الله يلعنك يا "عبده".. لا تفلح إلا في شتم الناس والاهتمام بأمور النسوان في الشارع، وتتوهم دائما أشياء لا أصل لها، ولا ترضى عن أية فتاة هنا، ولا تعجبك علاقة أي رجل في الشارع بامرأته، فكل رجل في الشارع تراه نعجة وكل امرأة في رأيك زائغة العين!.. وأنت تجري وراء بائع الجرائد تسأله عن آخر أخبار الثورة في فلسطين وتحلم دائما بأن تذهب إلى هناك لتحارب الإنجليز وترمي بهم في البحر من بر الشام كله ومن بر النيل أيضًا، ولا تكاد ترى "عبد المعبود" حتى تلاحقه بالسؤال لتعرف منه آخر ما حدث في حرب الحبشة.. فإذا فرغت من كل هذا قعدت تتهجى في جريدة أو في صفحات الكتاب الذي يعلمك منه الشيخ "عبد الحي".. وبالطبع يا "عبده" لا يمكن أن يكون عندك وقت بعد هذا كله لشغل البيت.. وهناك "ألطاف".. أنت تخاف عليها من "سعد"، تراها خسارة في الخدمة وأحسن من كل نساء الشارع وأحسن من مخدومتها "عديلة هانم" نفسها، وأنت تغار عليها حتى من الباعة، فلا تتركها تساوم الباعة ولا تطيق أن تتلقى غمزة من عين أو يضاحكها رجل، إنما تقوم أنت عنها بشراء حاجات كل يوم.. وهكذا ندفع نحن

أجرتك، وأنت تخدم "عديلة هانم" من أجل عيون "ألطـــاف". ولا تكتفي بهذا.. بل تدور أيضا على "سعاد هانم" و "سميرة" بنت "شكري عبد العال" لتشتري لهما ما تريدان وتضـــحكهما بغنائك وتكلمهما عن ثورة فلسطين وحرب الحبشة!.. لعنـــة الله عليك يا شيخ.. الساعة الآن الواحدة والنصف وأنت لـــم تخلص من المطبخ، ولم تنظف إلا حجرتي أما بقيـــة الشـــقة فهي كما تركناها في الصباح.

***

وأغلق "عبد العزيز" خشب شرفة حجرته التي تواجه بيت "شكري عبد العال" بكل سكانه، وتكاد النظرة – غصبا عنه – تنغرس في حجرة "درية" و "سميرة" حيث قعدت "درية" الآن.

كم أنت شائقة يا "درية"!!.

وخلع ملابسه، ولبس البيجاما، وفتح الدولاب يضـــع فيـــه البدلة، وألقى نظرة على مجموعة الكرافتـــات التـــي يعنـــى باختيارها ثم زعق فجأة ينادي "عبده".. ولكن "عبـــده" كـــان يقف وراءه يحاول أن يتكلم ورأسه محمـــل بأســـئلة عديـــدة لا يعرف بأي واحد منها يبدأ.. ومن كل الأشياء التي تمـــلأ رأسه اختار أن يسأل "عبد العزيز":

- ألا النجاشي هو اللي أعفى ولا موسوليني؟ يعني مين فيهم اللي يغلب التاني؟.

ولكن "عبد العزيز" أمسكه من كتفه في حنق:

- فين يا واد يا عبده الكرافتة الجديدة؟.

فأجابه "عبده" بسرعة خاطفة ليعاود الحديث الذي بدأه:

- لبسها الأستاذ "عبد اللطيف".. لكن يعني.. "الرأس كاسا" ده هو والجيوش بتاعته يقدروا..

فصاح "عبد العزيز" في ضيق:

- "رأس كاسا" إيه جاك خابط في رأسك.. قولي لي وما توجعش دماغي بالنجاشي وموسوليني.. قل لي.. "عبد اللطيف" لبس الكرافته؟.. انت شفته لابسها.. انطق.

فرد "عبده" بنفس عدم الاكتراث ليعود إلى كلامه الذي لم يكمله:

- أيوه.. شفته.. لكن.. يعني.. اللي عاوز يتطوع في الحبشة يعمل إيه؟.... أنا اتطوعت في فلسطين لكن بيقولوا ان الحكومة قطعت السكة... الإنجليز خلوا

الحكومة تقطع السكة، داهية لما تقطعهم من البــر كله.. لكن آهي السكة سالكة ع الحبشــة.. وآهــم سايبين اللي عاوز يروح يروح...

وتلعثم قليلا، ثم انفجر متحمسا:

- دهدي يا دكتور.. ما أروح أنا وأخلص يعني نسيب الحبشة وحدانية كده قدام إيطاليا..

ونفخ "عبد العزيز" وهو غير ملتفت تماما لكلام "عبده":

- هو الواحد ما يعرفش يتهنا على كرافته والا علــى منديل في البيت ده؟!. الحاجة اللي تفلت من "شوقي" يلقطها "عبد اللطيف"!. الله يخيبكم!..

وفتح خشب الشرفة فتدفق شعاع هادئ من شمس نوفمبر، يغمر بدفئه البساط الذي يمتد على أرض الغرفــة بحمرتــه الداكنة المنقطة بالسواد.. ولمح "سعاد هانم" تقف في شرفتها تجاهه في فستان أسود قصير الأكمام وإلى جوارهــا ابنهــا الصغير يقضم رأس جزرة، وبنتها تجري على بلاط الشرفة، وهي تنظر في الأفق الرحيب المطعم بالشمس كأنها تستصفي ما فيه من دفء.. وتردد "عبد العزيز" قليلا قبــل أن يــدخل

شرفته.. ستدخل هي وتحرم نفسها من الشمس لو أنه دخل، فهي ليست كـ "ميمي".

ورفع عينيه.. وبان له القميص التحتي يخفق على ساقين بديعتين!.. وسحب "عبد العزيز" نظراته بسرعة، وأغمض عينيه متحرجا، ثم استدار إلى الداخل، واستلقى على سريره يتأمل الشعاع في الحجرة، ولم يعد يرى أمامه غير سماء صافية تغمر الشمس الدافئة زرقتها المشربة بالبياض.

لم يتصور أبدا أن لـ "سعاد هانم" هاتين الساقين الجميلتين.. لم ير ساقيها أبدا.. لا.. بل رآها أكثر من مرة.. رأى ساقيها وصدرها وكل بدنها عاريا تماما.. وأمسك بيده كل جزء في صدرها ووضع عليه سماعته الطبية.. لم يشعر وقتها بأنه بدن امرأة!!.. ولربما رآه غدا ولم يشعر أيضا بفتنته الأنثوية.. ولكنه الآن – على هذا البعد – يشعر بما في هذا الجسد من كنوز!..

ولكن.. لا!.. شرف المهنة يا دكتور!.. لا تستعد في خيالك صور أشياء لم تكن لتراها وتتحسسها بيدك لو لم تكن طبيبا!! مسكينة هذه السيدة المنكسرة التائهة النظرات.. ليت "شكري عبد العال" يتزوجها ويستريح فهي في صمتها تعيش

في تعبد دائم له.. أنا أعرف! وهي أيضًا تبدو زوجة طيعــة مريحة.. ولا أحد ينفع "شكري عبد العال" مثلها. إنها تقــف الآن في صمتها تنتظر هلة "شكري" على الشارع.. ولا شيء يمكن أن ينبعث منها غير أنفاس هادئة، ودقات قلب تزلــزل بدنها الدقيق النحيل.. ما أشد الشبه بينها وبين "درية" بنتــك يا "شكري".. هي أيضا لها نفس النظرات التائهــة العميقــة الحزينة، تخجل من كل شيء حتى ليخيل للإنسان أنها أحيانا وهي سائرة في الطريق تشعر بخجل من نهديها المتــرعين البارزين، وكأنها تنحني لتداريهما من العيون.. ولكن "درية" طويلة فارعة تعمر حياة بأسرها.. وفي "درية" شيء ما مــن "ميمي".. فيها نشاطها المتوفر المنطلــق كالأنهــار الجديــدة المتدفقة.. ولكن لا لا.. فلا أحد في كل بنات الشارع ونسائه له مثل حيوية "ميمي".. وجرأتها!.. الشعنونة الحلوة.. كــان الولد "عبده" وأنا داخل يقف في المطبخ هائجا يكلــم نفســه ويشتم "ميمي".. كان يشتم "ميمي" و "أمين أفندي".. والشــيخ "عبد الحي".. ما دخل الشيخ "عبد الحي".. ما أدخلــك أنــت يا "عبد الحي"؟!..

وتقلب "عبد العزيز" في فراشه ونادى:

اسمع يا عبده..

ورد عليه "عبده" من بعيد:

- لما اخلص من الأوده اللي في ايدي.. دقيقة واحدة.

ولم يلح "عبد العزيز".. "عبده" هذا كأبيه تماما يا عبد العزيز! أبوه في البلد يتكفل بالبهائم عند أبيك "الحاج خليفة" ويحسب نفسه واحدا من البيت، وهو لا يتقاضى هناك أجرا، وإنما يزرع من أرضكم نصف فدان لحسابه نظير عمله هو في البلد وعمل ابنه "عبده" في مصر.. و "عبده" فوق هذا يتقاضى منكم أجرا خمسين قرشا في الشهر.. لا يصرف منها شيئا!.. وهو لهذا مليء دائما، وأحيانا يقرض الشيخ "عبد الحي".. يا ترى ما الذي حصل اليوم من الشيخ "عبد الحي"؟..

وتحرك "عبد العزيز" من فراشه بعد قليل.. وعندما أخذت أصابع قدميه تتحسس مكان الشبشب تحت السرير، كان "عبده" يدس الشبشب في قدميه.. والكلمات على شفتي "عبده" تدحرجها ضحكاته المكتومة وهو قاعد على البساط:

- اسكت اسكت.. الشيخ "عبد الحي" بينقهر قوي لما أقول له يا شيخ "عبد الحي".. أنا عارف أقول له إيه أمال؟.. أقول له يا خواجه؟!

فأجابه "عبد العزيز" متسليا:

- قل له يا سيدي.

وهز "عبده" رأسه متحرجًا مضطربا في استكبار:

- حضرتك عارف اني ما بقولشي لحد أبدا كلمة يا سيدي دي.

وابتسم "عبد العزيز" وهو ينظر إلى "عبده" بعطف كبير ونوع من الاحترام.. مسترسلا في أفكاره.. "عبده" هذا تربى معهم.. جاءوا به من البلد وهو غلام منذ أكثر من عشرة أعوام.. وأوصاهم أبوهم أن يعاملوه كواحد منهم، وأنب "عبد اللطيف" يوما لأنه سمعه يناديه "يا ولد".. وأفهمهم أن "عبده" هذا قريبهم، وأنهم هم و "عبده" يلتقون عند أحد الجدود.. وحذرهم من إذلال الفقراء الذين يخدموننا فهذا شيء لا يليق بأولاد الناس الطيبين.. وذكرهم أبوهم إذ ذاك أنه يأكل أحيانا على صينية واحدة مع الرجال الذين يشتغلون له ويخدمونه.. وظل يروي لهم أحاديث عن النبي ووصايا

الإمام علي بن أبي طالب وسيرته مع الذين لم يوسع عليهم في الرزق..

وفي الحق أن "عبده" كان يتعامل مع "عبد العزيز" وإخوته كأنه واحد منهم، مسئول عنهم.. فهو يعرف ما في جيب "عبد العزيز" أكثر مما يعرف "عبد العزيز" نفسه.. وهو يقف معهم في ساعات الطعام يسمع أحاديثهم ويشترك معهم ويعلق على الموقف السياسي، "شوقي" هو الآخر يخرج معه أحيانا إلى السينما الأهلي في "السيدة زينب" ويحكي له كثيرا مما يحدث في المدرسة، و "شوقي" هو الذي اشترى له من مصروفه الخاص كتاب القراءة الرشيدة وأقنع "عبد الحي" بأن يعلمه.. وكثيرا ما يترك "شوقي" المذاكرة ليسمع إلى "عبده" وهو يقرأ ويصحح له قبل أن يذهب إلى درس "عبد الحي"..

وأخذ "عبد العزيز" يتأمل "عبده" القاعد أمامه على البساط، وفمه مفتوح على ضحكة لم تنقطع بعد وهو ما زال يردد:

- هي قولة الشيخ دي تزعل؟.. طب يا خواجه "عبد الحي".. يا مستر.. هه!

وتكسرت ضحكاته، ولمعت عيناه الضـيقتان العكرتـان، ومسح أنفه الأفطس بظهر يده، وهو يتأمل "عبـد العزيـز" يخطو في حجرته متجها إلى الشرفة متسائلا:

- فاضل معاك كام من مصروف البيت يا "عبده"؟

وقال "عبده":

- مستورة!.. لكن.. هي الحوالة بالفلوس ما وصلتش من البلد؟.. ما تشد تلغراف للبلد تستعجل الحوالة؟..

وأجاب "عبد العزيز":

- النهارده ما لحقتش أصرف الحوالة وبكره الجمعة.. على كل حال اعمل حسابك توضـب بكـره غـدا كويس.. أخوي أحمد جاي من أسيوط.. حا يسـتلم خلاص في دمنهور.

ونط "عبده" فرحا وهو يهتف:

- الله.. الباشمهندس جـاي؟!. يـا ألـف مرحـب.. ما تحملش هم، حانزل العصر اشـتري وزة مـن سوق السيدة زينب.. اسمع يا حضرة الدكتور.. أنا حاروح معاه دمنهور.. آه.. يشغلني موظـف فـي الهندزة عنده. أنا طهقت من الشارع ده. قال خـدام

عند عزاب قال.. لما انتي حرة كده قوي يا ست ميمي أمال ليه يعني "أدهم بيه" كان قاعد عند "عديلة هانم" امبارح في وسط الحرين زي جحش البنات والدحك يبرن وديل الدحكة بتاعتك انتي يا ست ميمي جايب من هنا لبلدنا؟ هه؟ والرقص والمغنى أشكال وألوان؟!.. جاتكو شوطة تلمكم يا نسوان مصر.. عاملين بتوع قوي..!

واستوقفه "عبد العزيز" وهو يكتم ضحكه ليبدو جادا.. وحاول أن ينهره ولكن "عبده" تحرك وراءه بضيق، ثم توقف.. وتعثرت الكلمات على شفتيه كأنه يريد أن ينفجر بشيء يضايقه:

- بقى الست "ميمي" دي لازم حضرتك.. يعني.. يصح كده تشوف لها حل.. أنا ما أقدرش أصبر على دي الحال.. أنا يعني خلقي ضاق.. الله.. بتضحك ليه يا حضرة الدكتور.. إيه يا أخويا ده.. دي ضربتني بالكف. وبتضحك كمان يا دكتور؟ بقى لو حد في البلد داس لابوي على طرف.. حضرة العمدة حايضحك ويأرا زي حضرتك

دلوقت!.. والنبي دا كان يوريه نجـوم الظهـر!.. ما هو يا إما تكلم جوزها يا إمـا بقـى أنـا مـش حاسكت لها!.. حاتقولوا ضرب ولية! طب وماله...

وظل "عبد العزيز" يضحك ولم يقل شيئًا و "عبده" مغـيظ يخبط كفا على كف.. وفمه مفتوح.. وعاد يكمل وعيناه فـي الفراغ:

- لك حق تدحك يا دكتور.. ما هو أنا خلاص بقيـت ملطشة للست "ميمي".. لكن أنا اللي سكت.. هو أنا أفندي من بتوع مصـر يـتلطش بـالكف ويقـول مرسيه!.. لكن كله منك يا شيخ "عبد الحي".. انـت اللي لازم تاخد بحقي.. كله بسببك.. دا أنا.. إيه ده؟ دا أنا مرسالك يا شـيخ عبـد الحـي.. دي كأنهـا ضربتك انت.. دا أنـا لسـه بـاقول لهـا الشـيخ "عبد الحي" بيسلم عليـك وبيقـول لـك.. قامـت مناولاني بالكف. ما تفهمه يـا حضـرة الـدكتور. أروح أنده له لاجل ما تفهمه!

وأجابه "عبد العزيز" وهو يتجه إلى الشرفة كاتما ضحكه:

- طب.. بعدين..

ووقف في شرفته تحت أشعة الشمس الدافئة.. "سعاد هانم" مازالت واقفة – لا تشعر بوجـوده – وعيناهـا علـى أول الطريق!.. بعد قليل يهل "شكري عبد العال".. يا سـاهية!.. هو أيضا يتلكم عنك بإعجاب، ولكنه لـيس متحفظـا معـي مثلك!.. لن يطول قلقك فالموظفون بدءوا يعودون.. نحن في أوائل الشهر.. وها هو ذا "داود أفندي".. إنه لا يعود بحزمة الفجل المعتادة فقط، وإنما يحمل معه أيضا في اليد الأخـرى كيسا كبيرا من البرتقال.. احترس يا "داود أفندي".. وقعـت منك برتقالة كبيرة!.. يا فرحتك يا "عديلة هانم" بزوجـك!.. لا تبصق على الأرض الآن يا "داود أفندي" فمـا حبكـت!.. وقعت برتقالة أخرى.. لا تمـل لالتقاطهـا والكـيس علـى صدرك.. انفرط البرتقال كله على الأرض!.. "سـعد" ابنـك عاد إلى المدرسة، ونجا من فضيحة ضربه أمام التلاميـذ.. لم أنت البرتقال لم.. أو ناد "ألطاف" تسـاعدك.. لا.. أنـت مرتبك.. انزل يا "عبده" أنت.. انزل بسرعة.. سـاعد "داود أفندي" واحمل عنه البرتقال، ولكن إياك أن تتماحـك هنـاك بألطاف، وتغيب.

ونزل "عبده" مسرعا.. و "عبد العزيز" واقف في الشـــرفة عيناه على مدخل شارع عزيز يرقب القـــادمين.. "شـــكري" يعود هو الآخر.. طويل عظيم مهيب أنت يا "شكري"!!. في جيبك الآن مرتب كبير، مرتب ضابط في الخدمة قبضته على شوق وحرقه!.. أنت الآخر في يدك كيس.. كيس تفاح بـــلا ريب.. أو موز على الأقل.. "سعاد" الآن ليست في الشـــرفة لتراك.. ربما التقطتك نظراتها الساهية من بعيد، فـــدخلت!.. عيناك تحملقان إلى أعلى.. بنتك "سميرة" تطل مـــن الشـــباك وإلى جوارها "درية".. ما ألطفك يا "درية"!! فرحـــة الحيـــاة تشرق في وجهك الصافي الحزين، وتتألق بها عيناك.

وانتبه "عبد العزيز" مضطربا على شـــباك تحتـــه يخـــبط الجدار بقوة أثناء فتحه.. تطل منه رأس كبيرة في طاقية من الصوف الأبيض:

- الله! "عبد الحي" الله يخيبك..

وأطلق عبد العزيز ضحكة عالية.

ولوى "عبد الحي" وجهه المكتنز في ضيق واضح بكـــلام "عبد العزيز" وضحكته.. وسعل قليلا كأنه يداري اضـــطرابه

والابتسامة تحاول أن تشق طريقها إلى وجهه المشمئز.. وتأمل "عبد العزيز" فيه:

- مالك!؟

وقطع "عبد الحي" سعاله قائلا بضيق:

- أصلى مستهوي شويه النهارده.. هو الواد "عبده" قال لك حاجة؟..

وضحك "عبد العزيز" وارتفع صوته:

- مستهوي؟.. هو أنت يحوق فيك هوا أو برد؟..

وابتسم "عبد الحي" متضررا..

وتابع "عبد العزيز" كلامه بصوت منخفض وهو ينحني من الشرفة:

- مستهوي والا قاعد تذاكر في المنادى وترخيم المنادى وسعا وسعادا والحاجات دي؟ لكن انت ايش حشرك في "ميمي".. طب دي ما وردتش في ألفية ابن مالك.. كنت بتقولها إيه.. ميم.. ما هي مترخمة خلقة..

وطقطق "عبد الحي" واحمر وجهه قائلا بضيق ملحوظ:

- يا أخي ما تبقاش هزلي على طول كده في كل حاجة!!. وبلاش نهزر في الحاجات دي.. دي حكاية طويلة.. ويعني.. وكانت حاتقلب بغم!

وفجأة وقعت نظرات "عبد العزيز" على أخيه "عبد اللطيف" مقبلا مع "أمين أفندي" من أول الشارع.. فقال لـ "عبد الحي":

- شوف.. "أمين أفندي" أهه جاي مع "عبد اللطيف".. مش فاهم "عبد اللطيف" نازل دش معاه في إيه؟! إيه بس الحديث اللي ممكن يجمعهم.. تلاقي "عبد اللطيف" بيخطب له في السياسة و "أمين" ولا هو هنا!.. والا يمكن بيصبره على أجرة الشقة المتأخرة.

وفتحت "ميمي" باب الشرفة، وتقدمت إلى الحاجز الحديدي، على كتفها جاكته من الصوف الأخضر الفاتح تمسك طرفيها بيديها، ونحرها الناصع يخطف البصر، والقميص الحرير ينسدل في نعومة على جسدها.. وعندما استقرت أمام حاجز الشرفة الحديدي التفتت إلى "عبد العزيز"

برقة شديدة وهي تضم شفتيها الدسمتين لتضيق فمها الواسع.. ونفضت شعرها بأناقة وفي عينيها ابتسامة:

- بونجور يا دكتر..

وابتسم "عبد العزيز" وحياها برأسه.. ثم مال من الشرفة قائلا لـ "عبد الحي" من تحته:

- ادخل انت يا "عبد الحي" واقفل الشباك كويس أحسن تستهوى أكتر.. وإلا الحكاية تقلب بغم صحيح!

ولم يجب "عبد الحي".. وزم شفتيه مهمهما:

- دهدي؟ انت حاتعملني مسخة والا ايه!.. مستهوي مستهوي .. أنا حر! أستهوى والا اتنيل بنيلة!

وتحركت "ميمي" في شرفتها وأدارت وجهها إلى "عبد العزيز" وهي تلم الجاكتة الصوف وتحكم إغلاقها بيد من على نحرها، ويدها الأخرى تلوح برشاقة فائقة، وأصابعها النحيلة الرائعة الرقيقة الأنامل تشير إلى "عبد العزيز" أن يقترب.. ثم همست:

- أنا يا دكتر عندي شكوى من الواد "عبده" الخدام بتاعكم والشيخ "عبد الحي" ده.. دا مفيش ذوق خالص.. أنا منتظرة بس لما يبجي لفندي بتاعي!

ولم يعلق "عبد العزيز"، ورأى "عبد الحي" يختفي من الشباك ويغلقه بضيق.. فضحك.. وأخوه "عبد اللطيف" يتقدم الشارع إلى جوار "أمين أفندي" وترددت نظراته بين "ميمي" بوجهها الجميل المتألق، وبين زوجها الذي ينقل خطاه البطيئة في الشارع مثل كيس القطن، إلى جوار "عبد اللطيف" الطويل الفارع!.. ولمح نظرة غريبة سريعة تفلت من عيني "ميمي" إلى عيني "عبد اللطيف"! الولد "عبد اللطيف" منظره وجيه في الكرافته الجديدة!! وهي في الحقيقة لائقة على بدلته.. وانت يا "أمين أفندي" بجواره مثل كاتب محام من الريف إلى جوار محام قاهري كبير أنيق!.. معذورة "ميمي هانم" لو زاغت عينها الآن إلى الولد "عبد اللطيف"!.. لماذا يا "أمين أفندي" لا تهتم بمظهرك، ومرتبك محترم؟! الكرافتة على صدرك مقلوبة مبرومة ناحلة، بفتائل، كحبل ناسل من النيل!

ويدك أيضا فارغة.. كل الرجال في الشارع عادوا إلى بيوتهم وأيديهم ملأى!.. نحن في أول ليلة جمعة في الشهر يا بغل!!.. "ميمي هانم" في أتم زينتها لك منذ الآن؟!..

غريبة!.. فيم تتكلم هكذا بحماسة يا "أمين" و "عبد اللطيف" يصغي إليك بإشارات أنيقة والكرافتة تضيء على صدره..!

واقترب "عبد اللطيف" و "أمين"، فزعق "عبد العزيز" ساخرا:

- أهلا وسهلا.. الكرافتة دي شيك خالص يا "عبد اللطيف"... جايبها منين.. دا أساتذتك مش لابسين زيها!!

ودوت ضحكة خشنة من الشرفة من وراء "عبد العزيز"، اختلطت بضحكة "ميمي" الناعمة الخافتة... والتفت "عبد العزيز" فوجد "شوقي" أخاه يقف إلى جانبه... دخل الشرفة دون أن يشعر هو... وقال "شوقي" ناظرا إلى أخيه "عبد العزيز" بعتاب:

- أنت حاتخلي الواحد منا يحرم يهوب ناحية دولابك.

وتطلع "عبد العزيز" من – حوله فوجد "ميمي" تدخل، وعاد إلى الصالة ينادي "عبده" ويطلب منه أن يسرع بإعداد الغداء.. ولم يجب "عبده" فصفق "عبد العزيز":

- الواد "عبده" راح يلم البرتقال بتاع "داود أفندي" لزق هناك جنب "ألطاف"... الله يخيبك يا عبده..

ورد "عبده" من المطبخ ضاحكًا:

- دهده.. طب وماله؟..

ثم استطرد عبده:

- أنا باغرف أهه... أتفضلوا اقعدوا بس... هو يعني سي "عبد اللطيف" جه؟..

وسحب "عبد العزيز" كرسيا من الصالة وقعد... وهو يزعق لـ "عبده":

- أهي الحكاية طبلت على دماغك أنت والشيخ "عبد الحي" بتاعك.. أهي "ميمي" اشتكت لي.. تقولشي أنا ولي أمر سي "عبد الحي" ده كمان؟

وأكمل لنفسه وهو يغالب الضحك:

- الحكاية قلبت بغم صحيح يا شيخ "عبد الحي".

وترك "عبده" المطبخ، وأقبل مسرعًا:

- طيب نعمل حق عرب والمحقوق منا يدفع خمسة جنيه وينضرب قدام الرجالة.. إذا كنت أنا محقوق أنا قابل الحق على رقبتي ومستعد للضرب بالمركوب كمان.. وإذا كانت الست "ميمي" محقوقة

خلي جوزها بقى يورينا المرجلة.. يقر بالحق ويدفع الخمسة جنيه ويضربها علقة الحق ويخليها تتحـق لي!.. قلت إيه بقـى؟... مـا تقـول يـا حضـرة الدكتور!..

وقام "عبد العزيز" يفتح باب الشقة لأخيه "عبـد اللطيـف" الذي وقف يدق الجرس بصبر نافد، ووضع يده على أكـرة الباب وهو ينهر "عبده":

- انجر يا واد حضر الغدا بلاش كلام فارغ... حـق عرب إيه يا أخويا!. جاك كسر حقك... هـو أنـت حاتعمل رأسك برأس "ميمي".

وانسحب "عبده" إلى المطبخ وهو يزم شـفتيه ويضـرب الأرض بقدمه في عصبية:

- وماله؟! وفيها إيه يعني؟!..

وانطلق "عبد اللطيف" إلى حجرته متأففا من تركه علـى الباب يقرع الجرس، ودخل مسـرعا إلـى حجرتـه فخلـع طربوشه وجاكتته وعاد يقعد فـي الصـالة وعينـه علـى "عبد العزيز":

هو أنت يا "عبد العزيز" يا أخي لازم تعمل لي هليلة في الشارع علشان لبست كرافتتك... لازم تجيبني بزفة وفضيحة من أول ما أحط رجلي في الشارع؟.

وابتسم "عبد العزيز" وهو يمد إليه يده باستعجال:

- طب بس اقلع الكرافتة اقلع... على كل حال الجماعة ما خدوش بالهم لا منك ولا من الكرافتة... "ميمي" دخلت قبل ماتشوف الكرافتة... حاسب وانت بتقلع الكرافتة... بقى دي ربطة دي؟... يا أخي اتعلموا تربطوا الكرافتات...

وابتسم "عبد اللطيف" من إشارة "عبد العزيز" إلى "ميمي" وسلمه الكرافتة قائلا وهو يكتم ابتسامته:

- بس يا "عبد العزيز" ما يصحش كده لما يكون الواحد ماشي يكلم في موضوع مهم مع الناس.

وقاطعه "عبد العزيز".

وهو يقوم إلى حجرته ممسكا الكرافتة بعناية:

- ناس؟... ناس مين؟ هو "أمين أفندي" دا ينقال عليه ناس!.. يعني كنت ماشي مع رئيس الحكومة يا أخي.. واللا أنا تعني ضيعت هيبة الزعامة؟...

ثم يعني لما أنت عاوز تعمل لي محتـــرم ووقـــور قوي كده في الشارع، إيه اللي يخليك تلطش منـــي الكرافتة قبل ما ألحق ألبسها غير لبسة واحـــدة؟!... إذا كنت أنا خايف ألبسها... طيب يا أخي سيبها لما ألبسها تلات أربع لبسات... وأنت يا واد يا "شوقي" حل عن الكرافتة اللي أنت لابسها دي بقى... أنـــت هريتها!

وضحك الجميع و "عبد اللطيف" يتمتم وهو يمشـــي وراء "عبد العزيز":

- ده "أمين أفندي" ده حمار بشكل!..

ثم أكمل ضاحكًا مكررًا إحدى الجمل الشائعة من روايـــة للريحاني وهو ينغم الحروف:

- ده فصيح بشكل... أنا مش فاهم واحدة مثقفة وبتقرا زي "ميمي" دي عايشه معاه ازاي... ده ما يعرفش حاجة أبدا غير الأكل والنوم!. ويوم ما يفكر قـــوي يفكر في المرتب بعد المعاش!

أطلق "عبد العزيز" ضحكة ذات مغزى خاص:

- لا.. دا هو يعرف في الأكل بس... ايش عرفك أنه بيعرف في النوم!

ورفع "عبد اللطيف" حاجبه غامزا:

- طيب نسأل "ميمي"؟

وخرج "عبد اللطيف" و "عبد العزيز" إلى الصالة، بينما كان "عبده" و "شوقي" يزحزحان المكتب القديم الملقى في ركن الصالة ليحولاه إلى مائدة طعام. وعندما توسط الصالة تماما رصت حوله الكراسي الخيزران وفرش "عبده" فوقه المشمع ووضع الطعام وهو يقول.

- المشمع ده داب خالص يا حضرة الدكتور... عاوزين مشمع جديد بقى.

وبدأ الإخوة الثلاثة يأكلون ورائحة المشمع تملأ أنوفهم مختلطة برائحة الأرز واللحم والخضر، ويد "عبد العزيز" تتحسس الأجزاء المكشوطة الناحلة من المشمع ونظراته شبه حالمة، وهمهم:

- لما أتخرج وأشتغل حاجيب أودة سفرة بحالها... ترابيزة بكراسي بمشمع بكله، ونحل عن مكتبك يا سي "شوقي"!...

وتدخل "عبده": والنبي يا حضرة الدكتور لما تشتغل تجيب مكتب جديد لسى "شوقي".. وتشوف لنا شقة جديدة كده في الحلمية والا في ميدان السيدة جنب الست الطاهرة.. شقة تبقى منها عيادة ومنها بيت وأنا أشتغل لك تمرجي!.. أي والله.. وربنا يتوب علينا من شارع عزيز ده!. طيب وأيمان المسلمين يوم ما نفتح عيادة بره لو حد هوب من الشارع ده ناحية العيادة.. القصد. لازم أدفعه أجرة الكشف. حاخد منه أنا بنفسي أجرة الكشف. وأتحكم كده على كيفي. أدخل اللي يعجبني و.. و.. أكرش اللي.

وارتفع صوت "عبد العزيز" يغمر كلمات "عبده" التي بدأت تتعثر:

- ألا قل لي يا "شوقي".. عملتوا إيه النهاردة في العرايض اللي قدمتوها علشان إعادة الفرق؟! انتوا مش حاتبطلوا عرايض بقى.. وألا استحليتوا العرايض من يوم ما نجحت العريضة اللي كتبتوها علشان "سعد".. تعرف.. والله الناظر بتاعكم ده ما عملشي حاجة أحسن من إلغاء فرقة التمثيل.. السنة اللي فاتت كنت حاتقع في الامتحان من

انشغالك في التمثيل.. والسنة دي ألعن!... داخل لي في التمثيل والخطابة والمجلة... وترجع من المدرسة المغرب!... وحتى يوم الخميس راجع لي الساعة اتنين... انتوا مش خارجين الساعة اتناشر؟...

وتدخل "عبد اللطيف" يرد عن أخيه الأصغر، كأنه مسئول دائما عن الدفاع عنه أمام "عبد العزيز":

- لأ يا عبد العزيز لأ.. دي مسألة مبدأ.. ما تقولش انهم غلطوا في العرايض يا راجل!!. الناظر متعنت في إلغاء الجمعيات دي طبعا!.. ثم إن "شوقي" يعني يقدر بشوية مجهود يوفق بين المذاكرة وبين نشاطه في الجمعيات دي، أنا رأيي ان "شوقي" يستمر في نشاطه المدرسي.. وأنا أؤكد لك ان الناظر حايرجع الفرق تحت ضغط الطلبة... شوف.. الجو مشحون دلوقتي واحنا على أبواب ١٣ نوفمبر عيد الجهاد الوطني... ومش من مصلحة الناظر انه يستفز الطلبة في الظروف دي!... سيب "شوقي" يا "عبد العزيز" ما دام بينجح.. دي كلها حاجات

تكون شخصيته... ثم يعني احنا واحنا قده ما كنا بنعمل كده واكتر.. انت وانت في الخديوية ما انطردت في مظاهرات سنة ١٩٣٠ وكنت في فرقة التمثيل وكنت حاتحترف!.. لا يا "عبد العزيز". لا. لازم. ما تضعفشي معنويته كده. ده..

ووقف "عبد العزيز" منتهيا من الطعام مشيرا إلى "عبد اللطيف" بيده:

- طيب كفاية.. كفاية.. حاسب حاسب.. هي مرافعة.. انت حاتعمل محامي علي يا وله!... تقول لي شرق وغرب.. انت أتكلمت في خمسين موضوع في وقت واحد...

وضحك "عبد اللطيف" وأخذ يأكل على مهل، وعيناه على "شوقي" الذي قعد يمضغ اللقيمات شارد الفكر.. ونفسه تجيش!

إن "شوقي" يشعر باضطراب أمام أخويه... لم يعجبه في "عبد العزيز" موافقته على أن يلغي الناظر الجمعيات المدرسية... حتى إن كان الاشتراك في بعض هذه الجمعيات يأخذ من وقت المذاكرة فليس هذا على أية حال هو ما جعل

الناظر يحلها... وليس من اللائق أن ترحب يا "عبد العزيز" بقرار كهذا.. "عبد اللطيف" وحده هو الذي يقدر الأمر.. أنت يا "عبد العزيز" تنسى بسرعة يوم كنت طالبا مثلنا في الخديوية.. كنت تحكي لأخيك الأكبر "أحمد" عما يحدث في المسرح، وكنت تحكي لأمك في البلد، ومازلت تتذكر يوم مثلت دور قائد روماني، وجاءوا لكم بطعام فاخر وكثير في مشهد المائدة، وكان ينبغي أن تأكل لقمة صغيرة وتقوم بعد أن يفاجئك قائد آخر بكلام خطير، ولكنك قعدت تأكل حتى أنهيت نصف دجاجة محمرة!.. كان لفرقة التمثيل بالخديوية صيت ومجد قديم.. وكان "عزيز عيد" يختار منها الوجوه الجديدة ويدفع بهم إلى أدوار البطولة، والخديوية هي التي قدمت شهيدًا رائعا إلى مسرح "فاطمة رشدي"!... كان جميلا فتيا باهر الطلعة.. عندما يظهر على المسرح يصفق كل الناس إعجابا بطلعته... غير أن الناظر يحل الآن هذه الفرقة وفرقتي الخطابة والموسيقى!!. وهو عنيد هذه المرة أكثر مما كان يوم طرد "سعد" من المدرسة! ولكن العريضة التي قدمها إليه الطلبة مطالبين بإعادة الفرق، هي في الحق أقوى من العريضة التي قدمت لإعادة "سعد".. وعلى العريضة الأخيرة

توقيع مدرسين غير أن المؤلم حقا أن الناظر اجتمع بالمدرسين الموقعين، فخرج أحدهم من عند الناظر نادما يشتم الطلبة لأنهم ورطوه في التوقيع على مثل هذه العريضة، وأعلن لهم أن الناظر سيرد على العريضة يوم الأحد!... لماذا يوم الأحد بالذات؟!. اليوم الخميس... فلماذا لا يرد الناظر يوم السبت!!...

أوشك "شوقي" أن يصرخ في أخويه "عبد العزيز" و "عبد اللطيف" بالسؤال الذي يعذبه: لماذا يختار الناظر يوم الأحد للرد عليهم... لماذا لا يرد يوم السبت؟! ...

ولكن "شوقي" ابتسم، وهو يمسك نفسه... فما يعرف أخواه هذه الحكاية.. هو لم يحكها بعد.. وهو يريد أن يتكلم في هذا الأمر.. إنه الآن مأخوذ بما حدث اليوم بعد نهاية الدرس.. من أجل هذا تأخر ساعتين بعد موعد انصراف المدرسة!.. لم يكد يدق جرس الانصراف حتى اتجه مندوبون عن الطلبة إلى مسرح المدرسة الذي أغلقه الناظر.. اندفعوا إلى الباب وحطموه وهم يهتفون للطالب الذي اندفع بكل ثقله يكسر الباب المغلق، ويرون فيه صورة أخرى من "ويصا واصف" الذي حطم السلاسل الحديدية يوم عطل "صدقي باشا" الحياة

الدستورية ووضع البوليس والجيش على أبواب البرلمان سنة ١٩٣٠ ووقف "سعد داود" داخل المسرح يندد بالمدرس الذي أعلن ندمه لأنه وقع.. ويتهمه بالضعف والتخاذل... وقف "عبد الرافع" يقسم أن الناظر حدد يوم الأحد للرد على العريضة لكي يعطي الفرصة في يوم السبت للمترددين الذين يريدون سحب توقيعاتهم.. آه و "ميخائيل أفندي" مدرس التاريخ أيضًا قال هذا عندما انتهى اجتماع الناظر مع المدرسين، وطالب باليقظة والإصرار.. ووقف "شوكت عبد الرحيم المغربي" يقترح الإضراب يوم السبت.. وتحمس كثيرون لهذا الاقتراح.. وخصوصا "بلية".. حتى "بلية" نفسه متحمس!.. "بلية"؟!.. لا لا.. في مثل هذا الموقف لا يجب يا "شوقي" أن تقول عنه" "بلية".. خطبته في المسرح كانت عظيمة والله.. يجب أن تناديه بالاسم الذي يفضله: "الأستاذ عطا الله"!.. كان رائعا جدا وهو يتكلم هذا الظهر في المسرح.. كان أروع من الخطباء.. من "سعد داود" و "شوكت المغربي"، وحتى من "عبد الرافع" نفسه.. وكنت تريد أن تخطب ولكنك بعد "عطا الله"، لم تجد الجرأة في قلبك لتقف يا شوقي! لم تجد كلاما تقوله!.. تحمس الطلبة بعد

خطابه وهتفوا له وهو يطالب بإعلان الإضراب يوم السبت.. ولكن "عبد الرافع" لم يوافق على الإضراب، لأن الإضراب الآن ربما أعطى سلاحا للناظر، وربما شجع دعاة الهدوء من المدرسين وحتى من الطلبة على سحب توقيعاتهم.. بل ربما دفعهم إلى استنكار الإضراب، والعريضة نفسها، فيفسد كل شيء!.. وهكذا قرر الطلبة انتظار رد الناظر يوم الأحد، وعلى أساس رد الناظر يجري ما يجري.. المهم ألا ينسحب أحد من الذين وقعوا خصوصا المدرس المتخاذل!.. لنكن يقظين..! إن مرور يوم السبت في هدوء كامل دون أن ينسحب أحد الموقعين، سيفسد خطة الناظر، ويوقعه في حيرة!.. إن "ميخائيل أفندي" يقول عن الناظر، إنه مناور خطر، وسياسي كالإنجليز تماما، وهو يحذر من تهديد الناظر بأن يسحب المجانية من الطلبة الحاصلين على مجانية التفوق!.. ميخائيل أفندي يقول إنه تهديد حقير والناظر لا يملك هذا الحرمان من المجانية لأنه حق حصل عليه الطالب بتفوقه!!.

***

وتنبه "شوقي" على أخيه "عبد العزيز" واقفا على الحوض يغسل يديه، ويناقش "عبد اللطيف" محتدا حول أشخاص المرشحين في انتخابات اتحاد طلبة الجامعة!..

لو كان في المدارس الثانوية اتحاد للطلبة، ينتخب له التلاميذ اثنين عن كل مدرسة كما يحدث في كليات الجامعة!!. لو أن هذا يحدث، لما جرؤ رجل كالناظر على أن يحل جمعية التمثيل والخطابة والموسيقى وجمعية الدراسات التاريخية والجغرافية!.. مستحيل!.. ولما جرؤ على أن يلوح دائما بسحب المجانية من المتمتعين بها!!

وناداه "عبده" الذي قعد بعدهم يأكل في صحن نظيف أعده له "عبد العزيز" وحطه إلى جنب قبل أن يبدءوا هم الأكل..! ولكن "شوقي" وقف يتابع مناقشة أخويه باهتمام ولم يرد على "عبده" فصاح "عبده" بخطورة:

- تعرف يا سي "شوقي".. لو جمدتم شوية.. الناظر بتاعكم حينخ ضروري.. لا بد عن أنه ينخ..

وضحك "عبد العزيز" وهو يجفف يديه:

- إياك ينخ عليك جمل..!.. انت عامل مستشار سياسي لـ "شوقي" والا إيه؟..

وتساءل "عبد اللطيف".. عندك مجلة الجامعة.. يا لّلا اقرأ لنا بقى قصة "محمود كامل" بتاعت الأسبوع ده..

وتدخل "عبده" مسرعا كأنه يخشى من ورطة مقبلة:

- أنا مش رايح أنا.. آه.. مجلة الجامعة عند الست "ميمي" من يوم التلات.. من ساعة ما اشتراها الدكتور.. خلي سي "شوقي" هو اللي يروح يجيب المجلة من عند الست "ميمي" آه.. أنا باقول لكو أهه.. مش راح أخبط عليها طول عمري بعد اللي حصل منها في حقي النهارده الصبح!..

وتساءل "عبد اللطيف" عما حصل.. بينما كان "شوقي" يعود من حوض الغسيل وقلبه يتفتح للجلسة المعتادة الحلوة بعد غداء كل خميس على سرير "عبد العزيز" يقرأ لهما قصة "محمود كامل" في جو مشحون بالصمت والتطلع.. دائما يوم الخميس.. وهو اليوم الذي خصصه أبوهم ليستريحوا فيه من المذاكرة، وأصبح هذا جزءا من تقاليدهم.. وبعد أن ينتهي "عبد العزيز" من قراءة القصة ويستريح كل واحد من الإخوة الثلاثة، يقوم فيلبس خير ما عنده ويخرج إلى فسحة الخميس المقدسة التي لا يلغيها أبدا غير هجوم الامتحان!!.. وفي

صباح الجمعة – وهم يتناولون الفطور – يحكي كل واحد منهم قصة الفيلم أو المسرحية أو سهرة الغناء التي شاهدها ليلة الأمس..!. إن قراءة قصة "محمود كامل" المحامي بعد غداء كل خميس هي أحد مراسم الخميس التي لا تتغير أبدا.. كان يجب أن تعيد "ميمي هانم" المجلة صباح اليوم، ولكن يظهر أنها نسيت بعد ما حدث بينها وبين "عبده".. على كل حال أنت مازلت تلبس البدلة "يا شوقي" وتستطيع أن تذهب أنت بنفسك وتطلب المجلة من "ميمي هانم".. ويا ليتها تفتح لك الباب هي بنفسها وتأخذك من يدك إلى الداخل وتناقشك في قصة هذا الأسبوع!!.. ولكن ربما فتح لك الباب زوجها "أمين أفندي" نفسه.. أعوذ بالله!

ولم يكد "شوقي" يفرغ من غسل يديه، حتى سمع دقات على الباب فأسرع ليفتح قبل أن يقوم "عبده" عن طعامه.. ووجد "أمين أفندي" أمامه في جلبابه المنزلي.

وحملق "أمين أفندي" لحظة في وجه "شوقي":

– الدكتور "عبد العزيز" موجود؟!. صاحي؟!. شوفه كده ونادي لنا الشيخ "عبد الحي" من تحت.

وأدخله "شوقي" حجرة صغيرة مجاورة للباب الخارجي، أعدت للاستقبال، تزحمها كنبة كبيرة وعدة مقاعد من القطيفة الكالحة، وعلى حائطها شريط ثبتت عليه صور كثيرة تعلوه صورة الحاج "خليفة" ثم صور مختلفة لـ "عبد العزيز" و "عبد اللطيف" و "شوقي" وأصدقائهم..

ودخل "عبد العزيز" متثاقلا يرحب بـ "أمين أفندي" وبعد قليل جاء "عبد الحي" مع "شوقي"...

والتفت "عبد العزيز" إلى "أمين" بعد صمت قليل... وحياه بيده... ثم قال له:

- خيرا يا "أمين أفندي"... انت باين عليك كنت عايزني في حاجة عاجلة... إيه اللي خلاك بعت "شوقي" أخويا ينادي "عبد الحي"؟!.. إيه خيرا؟.. اتفضل.. تحت أمرك!..

وتنحنح "أمين أفندي" وتجهم وجهه... وبدأت الكلمات تضطرب على شفتيه:

- خير إن شاء الله... خير... ما هو أصل الحكاية.. الحقيقة ان المسألة.. بقى صلوا بنا على النبي.. يعني احنا دايما جيران على الغالي من قديم الأزل.. يعني سي

"عبد الحي" وأنا وأنتم.. طول عمرنا بنراعي بعضنا...الحقيقة يعني ده كتير خالص... والشيخ "عبد الحي" راجل قاري في الأزهر ويعرف الحرمات... الحقيقة... بصراحة يعني... انت ما لكش حق أبدا يا شيخ "عبد الحي"... دي مش أصول أبدا...

وفجأة.. اقتحمت "ميمي هانم" باب الشقة المفتوح ودخلت الحجرة بلا استئذان يسبقها عطر قوي وهي تزعق:

- استنى انت يا "أمين"... انت مش عارف تتكلم... انت ملخوم ومدهول وحايلخمك الأزهري ده كمان!...

ووقف الجميع... وجاء "شوقي" و "عبد اللطيف" على صوتها وسلمت على "عبد العزيز" وحده، ثم تقدم "عبد اللطيف" مسلما... وتبعه "شوقي" في خجل خفيف.. وحطت هي نفسها على كرسي كبير فأحدث صوتا تحتها، فقامت من عليه بسرعة، وامتحنت كرسيا غيره ثم جلست عليه في مواجهة "عبد الحي" تماما ووضعت رجلا على رجل ويدها في خصرها واتسعت عيناها وارتعشت فتحة أنفها المتطاول وهي تحملق في "عبد الحي" مائلة بجذعها

قليلا إلى أمام وفتحة الفستان من على صدرها تكشف منبت نهديها، غير مبالية بالعيون المتطلعة...

وصرخت متحدية:

- هه يا شيخ "عبد الحي"؟.. حط عينك في عيني كده.

وأرخى "عبد الحي" عينيه، وفوجئ من لهجتها وأحمر وجهه وهمهم:

- أعوذ بالله.. أستغفر الله.

- بينما انفجرت "ميمي" تقول بلا حساب وهي تهز وسطها:

- بقى اسمع يا اسمك إيه أنت يا شيخ "عبد الحي" والا يا شيخ قرد والا نيلة!.. أنت ما تسوقشي عليه المشيخة هنا وتسبل لي عنيك وتعمل نفسك مكسوف!... أنا مش "سعاد هانم" تقعد طول النهار تهز لها رأسك وعامل انك بتبص في الكتاب وأنت عمال تدحلب لها عنيك من تحت لتحت وتبصبص لها وتتطلع لرجليها وهيه واقفة في شرفتها مش دارية باللي بيجرى، وفضيلتك مستشيخ قوي وعمال

تقول لها يا سعا فيمن دعا سعادا.. فيمن دعا... سعادا..

وانفجرت الضحكات تقطع على "ميمي" حدة انفعالها، وهي تطوح برأسها وبدنها كله مقلدة "عبد الحي"!.. وغاص "عبد الحي" في الكرسي وازداد وجهه احمرارا وهو يغمغم:

- الله!!. الله!!. إيه ده... الله!.

وبان له وقتها أن هذه السيدة "ميمي" يمكن أن تقول له أي شيء ولا تبالي!

ونظر "عبد العزيز" إلى أخيه الصغير "شوقي" ولمح له بعينيه أن ينصرف إلى الداخل، فما يصح أن يبقى في مجال كهذا وهو صغير ولكن "شوقي" تغابى عن إشارة أخيه... فصاح "عبد العزيز" في غمرة الضحك:

- قوم يا سي "شوقي" بسرعة نادي لنا عمك "شكري عبد العال".

وقاطعه "عبد الحي":

- لا لا... مافيش لزوم لده كله... اقعد يا "شوقي" أقعد... أو أصح تقوم!

وأمسك "عبد الحي" بيد "شوقي" وضغط عليه ليمنعه من الحركة بينما اندفعت "ميمي":

اجري يا "شوقي" نادي عمي "شكري بيه"... خليه يتفرج على فضايح سي الشيخ!...

وتشبث "عبد الحي" بيد "شوقي" وضغط على كتفه، واختلطت الأصوات، وارتفع وسطها صوت "عبد العزيز":

- ادخل جوه انت يا "شوقي" استعجل القهوة!.. انت يعني لازم تعمل لنا قعر مجلس.. والا حاتقعد انت كمان تعمل قاضي غرام للشيخ "عبد الحي".

واحتد "عبد الحي" موجها كل ضيقة إلى "عبد العزيز":

- اسمع يا دكتور "عبد العزيز"!.. حاكم انت راجل هزلي!! لا لا تخلط الهزل بالجد في كل المواقف... إيه اللي يعتدوا علينا ويسبقونا بالشكوى... على رأي المثل "ضربني وبكى وسبقني فاشتكى..." بقى أنا راجل مريض.. اعتكفت في البيت مضطرا، غصب عني، مكرها نظرا لمرضي المفاجئ... وبعثت لها الولد "عبده".

فوقفت "ميمي" شاهقة كأنها تلتقط من الهواء فجـأة شـيئا كانت تبحث عنه:

- بس... أهو وقع بنفسه... سامعين؟ بعت لي "عبده"!! سامع يا دكتر... اسمع يا شيخ "عبد الحي"... أنـا باشهد عليك الدكتور اللي يشرفك انـك تقعـد فـي مجلسه!... ازاي تبعت لي وانت راجـل عـازب وقاعد لوحدك!.. هـي حصـلت؟؟.. حتـى انـت كمان؟.. وازاي يا دكتور الواد "عبده" قليل الأدب ده بيجي يقول فلان والا علان بيقول لك!... يقول لي إيه يعني؟.. هو له إيه عندي علشان يقول لي!.. أنا لو كان جوزي راجل مشاكس والا شـراني شـوية كان قام عليك دلوقت يا شيخ "عبـد الحـي" انـت و "عبده" وضربكم بالجزمة!.. بالجزمة!... فاهم!..

ووقف "عبد الحي" محتجا يزعق لأن ميمـي جرحتـه!! واختلطت الأصوات.

ودخل "عبده" يحاول أن يشـرح المسـألة... وتشـابكت الكلمات في حلقة وهو يضرب الأرض بقدميه ويهز رأسـه بعصبية شديدة في حركة رفض، وأمسك بيد "أمين أفندي":

- بقى أنا.. أنا.. بقى.. ترضى انت. تفتكر. أنا مرسال بين واحد وواحدة!!..

وانفجرت الدموع من عيني "عبده".. وتهدج صوته من الغيظ وخنق نفسه بيديه وهو يشرح لأمين أنه يقبل القتل ولا يقبل أن يقوم بالدور الذي تخيلته فيه "ميمي"..

وفهم الجميع بعد جهد أن "عبد الحي" إنما أرسل "عبده" إلى الست "ميمي" لأنها كانت تدق بيد الهون لتصنع "كفتة" والدق كله يدوي على رأسه الموجع...

وقال "عبد العزيز" متلطفا والحديث يهدأ:

- على كل حال يا شيخ "عبد الحي" كان يصح تطلع أنت بنفسك تتفاهم مع الست "ميمي" بدل المسألة ما تقلب بغم!.. لكن بقى تبعت لها "عبده" بـ... يقول لها سي الشيخ بيسلم عليك وبيقول لك تسمحي. دي يعني على رأي الشعراء القدام فيها "إشارة له"... زي ما كانوا الشعراء القدام بيعملوا لما بييجوا يشحتوا من الملوك زمان!. يعني إشارة خبيثة... وإن كنت انت لم تقصد هذا يا سي الشيخ!..

- فوقف "عبد الحي" متأففا مستفزا و "ميمي" تبتسم من الطريقة التي ألقى بها "عبد العزيز: آخر جملة، محاولا السخرية بالشيخ "عبد الحي"!... ثم انقض "عبد الحي" على "عبد العزيز" قائلا بضيق:

- هو احنا في تياترو؟!.. انت بتتمقلس عليه والا إيه؟... إيه اللي إشارة له، ولم تقصد هذا يا سي الشيخ!... سي الشيخ إيه يا دكتور؟.. أنا أفندي زيك تمام؟.. شايفني باقرأ لك الراتب هنا كل يوم؟ ثم إني يعني ولو اني مظلوم في هذا الأمر... فانا فضلا عن أني أنا لم أكن أقصد أي اشارة طيبة أو خبيثة زي ما بتقول انت بهذرك المعهود يا داكتور عبد العزيز... فأنا.. أقصد..

وقطع كلامه وقعد ينظر إلى "أمين أفندي" مطمئن القلب بعض الشيء لأن "ميمي" تبتسم... وخفت صوته وهو يتجه إلى "أمين" قائلا:

- اسمع يا "أمين أفندي".. بقى يعني الحمد لله على كل حال... أنا والله يا "أمين أفندي" مع أني لم أقصد أي شيء لكني سعيد جدا وأهنئك بزوجتك اللي عندها

هذا الحفاظ كله على نفسها واللي تعرف كيف تحترم غيبتك.. وأنا متسامح على كل حال فيما نالني منها..

أما الكف اللي خده المسكين "عبده".. فـ.. يمسحه في أنا بقى!.

ووقف وشد الجاكته على جلبابه، وتحرك ليسلم، فسبقته "ميمي هانم" وزوجها إلى الباب وهما يسلمان على "عبد العزيز" و "عبد اللطيف"، ويطيبان خاطر "عبده".. وسلما عليه أيضا... وقالت "ميمي" وهي تسلم على عبد الحي":

- على كل حال حصل خير.. لكن تاني مرة لما تتعب من الدق على دماغك ابقى ابعت "عبده" يكلم الخدامة مش يكلمني أنا... والا اطلع انت بنفسك.. احنا برضه نقدر نسقيك فنجان قهوة!

فأحنى رقبته، ورفع كلتا يديه إلى جبينه، ورأسه مطاطئ قائلا:

- متشكرين قوي!!.. ربنا سبحانه وتعالي كده يديم المعروف.

وعندما خرجت "ميمي" وزوجها إلى بسطة السلم التي تفصل بين شقتها وشقة "عبد العزيز"، همس "عبد العزيز" في أذن "عبد الحي".

– بقى أنت مبسوط من حفاظ "ميمي هانم" على نفسها... تكونشي بعت لها الواد "عبده" علشان تمتحنها في الحفاظ بتاعها يا سي الشيخ؟!

وضاع احتجاج "عبد الحي" وسط انفجار ضحكات "عبد اللطيف" و "عبد العزيز" فاستغرق "عبد الحي" نفسه في الضحك، بينما ارتفعت من على بسطة السلم أصوات ترحيب عالية، وهرج، وأقبل "عبده" من ناحية الشرفة يقفز ويزيط:

– الباشمهندس جه!... الجماعة وصلوا...

واندفع على السلم إلى الشارع، ومن ورائه "شوقي"، وعلى درج السلم كانت بنت أخيه الصغيرة تسبق أباها وأمها، ولم تكد تراه حتى تعلقت به، في فرحة كبيرة... ولفت ذراعيها الصغيرتين حول عنقه وظلت تقبله... وهرول "عبد الحي" مسرعا ينزوي في ركن السلم وشد بيده على المهندس "أحمد" شقيق "عبد العزيز"، وخفض رأسه وتوقف وعينه تختلس نظرة إلى السيدة الجميلة زوجته.

واندفع "عبد العزيز" يعانق أخاه الأكبر "أحمد" على بسطة السلم... وزوجة أخيه تقبل "ميمي" ضاحكة:

- انتي احلويتي قوي كده ليه يا بنــت يــا "ميمــي".. يقطعك!.. كل يوم يزداد جمالك!

وتحسست بيدها نحر "ميمي" المكشوف، وغمزت بعينيهــا مشيرة إلى "عبد العزيز" و "عبد اللطيف" وهي تخبط "ميمي" على صدرها:

- يا اختي داري جمالك أحسن العيال ينشــغلوا عــن المذاكرة!.. ده حتى الواد "شوقي" راخــر كبــر!.. دانتي كده تخيبي أملهم!..

وضج المكان بالضحك وهم يدخلون في الشقة و "عبــده" على السلم مثقل بالحقائب ينهج ضاحكا:

داري جمالك لتصيبك عين

ولدي يا ولدي.... لتصيبك عين!!..

(٩)

النهار يشحب، وأشعة الشمس تصفر، وفي السماء تتراكم ألوان داكنة باهتة... وتتسلل الخيوط الحمــراء مــن خــلال السحاب المعتم.

في الجو شيء مقبض باهت حزين.. والمغــرب يزحــف بسرعة. لو أنك تبكي الآن يــا "شــوقي" لأزحــت الهمــوم الغامضة التي تملأ صدرك وتكاد تسد حلقــك كالغصـــة؟... لماذا تكتئب هكذا دائما في عصر كــل جمعــة!؟.. أخــوك "عبد العزيز" يعرف كيف يهرب من هذه الساعات الخاويــة العقيمة الشاحبة من عصر الجمعة، في الخريف. إنه يعــرف كيف يتسلى... وهو دائما يذهب إلى السينما في حفلة الساعة الثالثة!... فهو ما يكاد يخلص من الغداء حتى يســرع إلــى حجرته متحدثا عن الفيلم الذي يريد أن يراه... وأحياناً يحتج عليه "عبد اللطيف" ويطالبه ألا يذهب وأن يقاطع دور السينما الأجنبية ويضحي بالفرجة، ولكن "عبد العزيز" ينهي المناقشة

غالبا بالسخرية من "عبد اللطيف"، ويخـــرج متأنقـــا خـــالي البال!..

هو الذي علمكم يا "شوقي" مقاطعة السينما الأجنبية، ولكن لم يعد يفعل!.. ومع ذلك فهو الذي فعل أشياء تبهر القلب في السنوات القليلة الماضية!.. منذ أربعة أعوام جمع كثيرين من أهل الشارع في بيت "شكري عبد العال". وأخذ يحدثهم عـــن مشروع القرش ودور القرش الذي سيدفعه كل مواطن فـــي بناء الاقتصاد الوطني، ووضع شارة في "عـــروة الجاكتـــة"، ومضى يجمع القروش من أهل الشارع... وتطوع الأســـطى "عبد المعبود" للمشروع أيضا... وحتى عندما ذهبتم إلى البلد في إجازة العيد، مضى "عبد العزيز" يشرح المشروع لأبيـــك ولأمك، ولرجال آخرين في القرية، وخطب في الناس بعـــد صلاة العيد، وأرسل أبـــوك الخفـــراء يجمعـــون القـــروش ويوزعون الطوابع، وجمعت أنت و "عبد اللطيف" التبرعات، وبدأت بأمك وأبيك، كان "عبد اللطيف" وقتها في مدرسة بنبا قادن الثانوية، وكنت أنت يا "شوقي" ما تزال فـــي المدرســـة المحمدية الابتدائية... وقدمك "عبد اللطيف" لأصحابه مزهوا بك، ورأيت في عينيه شعاعا يسطع بالحب والرضي.. وذات

يوم أخذك إلى أرض المعرض لترى مهرجان القرش، وهناك رأيت "عبد العزيز" يخطب والطلبة الكبار يصفقون له، فامتلأت بالفخر، وشعرت بأنك ضخم هائل لأن لك مثل هذا الأخ الذي يصفق له الناس، وأوشكت أن تبكي من الفرح.. في تلك الأيام كان "عبد العزيز" يأخذك معه أحيانا إلى سينما رمسيس المطرية، ويشتري لك الحلوى من مطعم آمون المصري، تماما كما كان يشتري لك "البسبوسة" من دكان في الناصرية عندما كنت تجيء إلى مصر مع أمك لتزور إخوتك قبل أن تدخل المدارس! ومنذ عامين فقط شتمك "عبد العزيز" مرة لأنك أردت أن تشاهد فيلما في سينما "تريومف" التي تملكها شركة أجنبية! كان "عبد العزيز" أيامها يربط في عنقه شريطا أخضر من صنع مصر – بدلا من الكرافتة – ويبرزه بزهو واعتزاز.. ولكنه الآن يا "شوقي" لم يعد يصنع ذلك – لا هو ولا أصحابه.. وأصبح يسخر من الرجل الذي كان يحبه، والذي ألقى حبه في نفسك... هذا الرجل الذي يثير دائما ذكريات الإمبراطورية العربية والفرعونية ويطالب الشباب ألا يهدءوا حتى يروا العلم المصري يرفرف على سماء لندن!... "عبد العزيز" وصحابه يضحكون دائما منه

وهم يتذاكرون كلماته التي مازالت تهزك حتـــى الأعمـــاق، وتفتح أمامك آفاقا مسحورة بـــاهرة مـــن الفتـــوة والأحـــلام والسطوة!! و "عبد العزيز" وأصحابه يقولون إن هذا الرجـــل الذي يقاوم الإنجليز، إنما يفعل ذلك بتشجيع من إيطاليا، وإنه ليتخذ "موسوليني" مثلـــه الأعلـــى، ويثرثـــر مثلـــه بهـــوس الإمبراطوريات القديمة وهو على صـــلة أكيـــدة بالســـفارة الإيطالية في مصر بل إنه يتلقى منها المال!.. لكم يبدو هـــذا كله فظيعا وشائنا ومرعبا!!. ليس من حق أحد أن يلوث نبالة الأحلام بهذا الشكل! ولكن "عبد العزيـــز" يقـــول دائمـــا إن الانتصار الحقيقي هو أن تكون سماؤنا وأرضـــنا لنـــا بـــلا شريك. وأن نكون نحن المصريين والعرب أحـــرارا داخـــل بلادنا، بلا سلطان إنجليزي أو فرنسي أو أي نفوذ أجنبـــي... قال هذا هو وأصحابه، ثم بدءوا ينتقون "الكرافتات" الفـــاخرة ويقرءون الكتب والروايات الإنجليزية، ويلبسون البدل مـــن الصوف الإنجليزي، ويتفرجـــون فـــي دور الســـينما غيـــر المصرية!..

لكم تغير "عبد العزيز"!!.. حتى قراءة الشيخ "رفعت" التي تنساب رائعة هادئة تملأ النفس بجـــلال القـــرآن، لـــم يعـــد

"عبد العزيز" يطرب منها لغير رخامة صوت الشيخ "رفعت" وإعجازه ...أما القرآن نفسه!!.. مصيبة!!.. كان الراديو الجديد الذي اشتراه "شكري" يلعلع بصوت الشيخ "رفعت" وهو يقرأ سورة "يوسف"، "عبد العزيز" واقف يسمعه من الشرفة.. فنظر إلى "شكري عبد العال" الذي كان يقف في شباك بيته وقال ضاحكا:

- إيه رأيك في حكاية **﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ...﴾** حكاية برهان ربه دي مش داخلة المخ قوي يا عم شكري بيه... يعني لو برهان ربه دا اتأخر دقيقة... كان حايجرى إيه؟!

فضحك "شكري":

- الله يجازيك يا "عبد العزيز" ويجازي شيطانك!

حتى هذا يا "عبد العزيز" تضحك منه!... ولكنك يا "شوقي" عندما تسمع صوت الشيخ "رفعت" يتلو سورة "يوسف" تكاد تبكي!.. وتحس في خشوعك بطعم الدموع... آه. **﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴾**!!.. يوسف أصغر إخوته!..

ولكن "عبد العزيز" لن يخرج هذه العصـــرية.. فـــأخوك الأكبر "أحمد" يسافر اليوم مع زوجته وابنته الصـــغيرة فـــي قطار الساعة السابعة إلى دمنهور ليتسلم عملـــه الجديـــد!... وهو و "عبد العزيز" و "عبد اللطيـــف" يقعـــدون الآن مـــع الضيوف الذين جاءوا يودعونه.. البيت كله مقلوب بالضيوف من النساء والرجال، الأصوات تختلط والضـــحكات تتشـــابك وكلها تقرع في رأسك حيث تجلس على مكتبك في الصـــالة تحاول أن تذاكر!.. لا فائدة من أن تفهم كلمة واحـــدة ممـــا تقرؤه يا "شوقي"!.. اللوغاريتمات!؟.. ما فائدة هذا كلـــه!!.. أشعر بتبلد يجمد عقلي وأنا أقرأ هذا الكلام!! أنـــا لا أريـــده، مهما يحاول "عبد العزيز" أو "أحمد" أن يقنعني بفائدتـــه فـــي الحياة والمستقبل!... بماذا ينفعني هـــذا كلـــه فـــي دراســـة الآداب؟!... أنا داخل كلية الآداب غصبا عنكم كلكم.. أريـــد أن أعرف أعماق الحياة... أريد أن أطير على جناح الفلسفة إلى آفاق من الفن والمعرفة لا تدركونها!.. ليس هذا الكـــلام فارغا كما يقول "أحمد" و "عبد العزيز" و "عبـــد اللطيـــف".. أنا داخل القسم الأدبي يا دكتور "عبد العزيز".. لـــن أدخـــل القسم العلمي أبدا وأشوش رأسي بدراسة الكيمياء والطبيعـــة

وحساب المثلثات!!.. أنا لا أريد أن أدخل الهندسة مثل "أحمد" أو الطب مثلك يا أخي!.. لا تملأ رأس أبيك بالفكرة، فهو دائما يقتنع برأيك أنت، ويراني صغيرا لا أفهم مصلحتي ولا أعرف مستقبلي!... أنا أعرف نفسي أكثر منكم كلكم... يا "عبد العزيز"... لا تتحكم في مصيري!.. ضحكاتك تلعلع والنهار يروح... والضوء في داخل الشقة باهت ضعيف... لا نستطيع أن توقد نور الكهرباء، فالشمس مازالت بعد تستلقي على الحائط، ومع ذلك فالشعاع لا يضيء.. ولم يعد من الممكن تمييز حروف الكتاب بسهولة.. لا فائدة من المذاكرة الآن! كل شيء حولك ينطفئ، ويغيض... مريض، شاحب، معذب، دام، حزين!!.

لكم تشعر بالوحشة المخيفة الآن وأخوك "أحمد" يسافر!... الأيام التي قعدها في مصر مرت دون أن تشعر!... كانت جميلة نابضة مفعمة هذه الأيام القليلة!.. ولكنها راحت!.

لو قعدت هكذا دقيقة أخرى لنزلت الدموع من عينك يا "شوقي"!... ومع ذلك فهم حولك يضحكون: الرجال والنساء... إنهم هناك في قريتي البعيدة يتغنون بالعصر، وأنا هنا أوشك أن أبكي أمام زحفه الكئيب!..

وخرج "شوقي" إلى الشرفة... وفي أعماقه همهمة بموال من قريته:

م العصر للعصر باطلع على المراداه

ألقى جميع النساء من طيبين ورداه

شبه القطا في الخطا، والميه ماء ورداه!...

من هذه الشرفة تبدو أمامك بيوت شارع عزيز صامتة كأنها كلها تنطوي على مأساة غامضة... وفي الجو خواء رهيب، وفراغ، وضياع أيضا!... آه يا "شوقي".. والسماء الزرقاء تمتلئ بسحاب يجري بعضه خلف بعض متموجا زاخرا بألوان المساء وبقايا الأشعة الغاربة في ظلال بيوت شارع عزيز، ولكن الأولاد الصغار وحدهم يزيطون وهم يلعبون الكرة ويتصايحون ويتشاجرون... وولد منهم يثبت الكرة بقدمه على الأرض، ويندفع إليها يضربها بكل قوته فيصيب الهدف ويقع على ظهره والآخرون يهللون إعجابا به...هكذا تماما كان يصنع لاعب ذاعت شهرته وأنت في المدرسة الابتدائية، وكان دخوله الفصل أول مرة ليدرس اللغة الإنجليزية عيدا عندك وعند كل زملائك... كنتم تتأملون

قدمه، وترهبون تحذيره أن يضرب أحدكم برجله فيرميه إلى خارج المدرسة... كالكرة!

***

وانزاح عن صدر "شوقي" بعض ما يثقله.. ورفع قامته وابتسم على هذه الذكرى وملأ صدره بالهواء المنعش البارد!..

ووقعت عينه على شباك منزل "شكري عبد العال" فرأي ابنته "درية" تصفف شعرها في المرآة.. إنها لا تذاكر في مثل هذه الساعة هي الأخرى!.. لا أحد يستطيع أن يذاكر في مثل هذه الساعة من مهبط الليل أبدا..

وخفق قلبه فجأة، وتراجع بجسمه قليلا، ولكنه لم يغادر مكانه من الشرفة.

في وجه "درية" المستطيل الساكن، وفي شعرها الأسود المرسل وسمرتها الصافية، في هذا كله شيء ما ينفذ منه إلى الأعماق ويهزه حتى يكاد يلهث!.. آه وصدرها العريض البديع الواسع بنهديه المنتفضين!.. يكاد نهدها يشق قميصها وينفجر منه وهي واقفة أمام المرآة.. تماما كالدم الذي ينتفض في عروقك يا شوقي!!..

ولكنها لا تشعر بأن النظرات تتلصص عليهـــا... وهـــي واقفة في هدوئها ساجية العين تسكب قطرات مـــن زجاجـــة عطر على مفرق شعرها... ما اسم هذا العطر يا تـــرى؟؟.. أليست هذه التي تقف أمامك الآن يا "شـــوقي" هـــي نفســـها "ريري" بطلة قصة "محمود كامل" الأخيرة؟.. ولكن الأخرى تسكن في الروضة وهي تلميذة في "الميردي دييه".. لا يهم! والأخرى بنت ضابط كبير في المعاش. آه يا عم "شكري"...! وبطلة قصة "محمود كامل" طويلة سمراء مكحولة العينين في نهديها كبرياء وشموخ وبعينيها حزن جليل، كأميرة هنديـــة.. "درية" أيضا تملك نفس الأشياء... تملك من الجلال والفتنـــة والهدوء الحزين ما لا تملكه كل الأميرات الهنديات!!

وكما حدث في قصة "محمود كامل" بالضبط، يرتفـــع الآن صوت الراديو بموال من صالح عبد الحي:

فيك ناس يا ليل بتشكي لك مواجعهم

أمانة يا ليل ما تبقى تواجعهم...

ولكن "درية شكري" – ما أحلى الاســـم لبطلـــة قصـــة – لا تسمع وتشرد، كبطلة قصة "محمود كامل"... إن "دريـــة" مشغولة الآن بالفستان الجديد الذي اشتراه أبوهـــا مـــن أول

مرتب قبضه بعد عودته إلى الخدمة... كما يقول "عبد العزيز" ضاحكًا!!

آه يا "شوقي" لو كنت تعرف العزف على الماندولين كبطل القصة "العاشق الشاب" الذي يتجول بالماندولين بين جاردن سيتي والروضة كأنه "فارس من فرسان العصور الوسطى"!. ولكنك حاولت أن تتعلم الموسيقى وأنت تلميذ في المدرسة الابتدائية وانضمت بالفعل إلى فرقة الموسيقى، وجاء أبوك فقلت له الخبر سعيدا به وطلبت منه أن يشتري لك "عودا" صغير، فضربك بالكف وشتم إخوتك الكبار وزعق فيهم: "إزاي تهملوا الواد كده لحد ما هو عايز يطلع لي طبال. طب ما بدل وجع القلب في مصر ما أبعته بتعلم عند غوازي سنباط"!!.. آه.. يا أبي لو كنت تقرأ قصص "محمود كامل"، وتعرف العشق!... لو سمعت "ميمي هانم" أو "درية شكري" أو "ميرفت" أخت "سعد" وهي تعزف على البيانو!... لنا مدة طويلة لم يزرنا أبونا... ليته يجيء ومعه أمي! ليتني سافرت مع أخي "أحمد" وزوجته وابنته عندما سافروا في منتصف هذا الأسبوع وقضيت معهم ليلتين في البلد.. كنت أريد هذا، ولكن "عبد العزيز" رفض!... دائما تتحكم فينا

يا "عبد العزيز"!... آه، وضحكاتك الآن يا عبد العزيز" ترن من داخل البيت.. ألا تشعر يا "عبد العزيز" بوحشة لأمنا...

وظلال المغرب تطوي الخيوط الحمـــراء مـــن الســـماء، والظلام يزحف على شارع عزيز، وهمهمة المساء الحزينـــة تختلط بغناء الشحاذين من بعيد، و "درية" مع أختها "ســـميرة" تعبران الشارع بسرعة إلى بيتنا... "ســـميرة" متعثـــرة فـــي مشيتها بعض الشيء كأنها من طول قعدتها في البيـــت لـــم تتعود المشي في شارع، وأختها "درية" تسبقها بخفة كالغزال: الوجه مرفوع والنظرات مستقيمة، وصدرها ينحنـــي قلـــيلا مثقلا بنهديها! ...

خلال هذا الأسبوع يا شوقي" استطعت أن تكلم "درية" بلا حرج. وتبادلتما كلاما كثيرا عن المدرسين والدراسة، وسألتك هي عن هذا المستر "فيرنس" الذي تشاجر معه "ســـعد داود" وعن الناظر الذي حل الجمعيات... كل الأخبـــار عنـــدها... و "عبده" لا يبل في فمه فولة!..

كم كانت "درية" حلوة رائعة وهي ترفع حاجبيها بإكبـــار ودهشة، وعيناها تضيئان، وأنت تحكي عن المعركـــة التـــي

مازالت دائرة في المدرسة بينكم وبين الناظر حول حل الجمعيات..

وحكيت لها كيف أجل الناظر رده يوم الأحد الماضي إلى يوم الأحد القادم!!!

و "ميرفت داود" أخت "سعد" هي أيضا ترددت عليكم كثيرا مع أمها... و "سعاد هانم"، وحتى "رجاء صدقي"... كل النساء والفتيات في الشارع ملأن البيت أثناء إقامة زوجة أخيك، وعندما غابت مع زوجها يومين في زيارة أبيك سألتك عنها "سعاد هانم" مرة، واستوقفتك "ميمي" أربع مرات لتسألك عن زوجة أخيك متى تعود من البلد!..

إنهن جميعا في الداخل الآن... ترتفع ضحكاتهن... لا بد أن زوجة أخيك تتحدث مرة أخرى عن الزواج، وتخطب "درية" و "سميرة" و "ميرفت" في وقت واحد. ثم تواجههن جميعا بألا واحدة منهن تصلح لـ "عبد العزيز" أو لـ "عبد اللطيف".. وأنت يا "شوقي"... ألست في الحساب؟!.. ليس فيك مطمع لأحد... "عبد العزيز" يتخرج بعد شهور وأيام، و "عبد اللطيف" بعد عامين.. أما أنت.. فأمامك حتى تنتهي من الدراسة وقت طويل! وخلال هذه الأعوام إما أن تأتي

ما يدخلك النار وبئس المصير، وإما أن تصوم لتكسر حـدة شبابك كما يقول الشيخ "علي" مدرس العربي!. ألم يكن لـك شباب ذات يوم يا شيخ "علي"؟.. ولكن جيلك كان يتزوج في السادسة عشرة!.. هكذا تزوج أبوك يا "شوقي".. لو كنت هنا الآن يا "شيخ علي" تسمع ضحكات النساء فماذا كان يمكن أن تقول؟!... اطمئن على كل حال، فالرجال في حجرة والنساء في حجرة أخرى... ولكنهم يسـمعون ضـحكات بعضـهم البعض، وليس هذا حراما على ما أظن!.. ما ألطف ضحكت "سعاد هانم"!.. ما أحلى صوتك الدافئ أنت يا ست الكـل!.. وإن كان صوت "ميمي" هانم دائما يرتفـع ليخفـي صـوتك ويصبح وحده هو أعلى الأصوات!!.. كان يجب يـا شـيخ "عبد الحي" أن ترسل "عبده" إلى "سعاد هانم" لا إلى "ميمـي" التي فضحتك!.. تعال هنا الآن.. وادخل في قلـب صـالتنا واجل عينيك بمنظرها وهي قاعدة بلا كلفة بعـد أن رمـت شالها والفستان الأسود يأكل من بـدنها.. وهـو يـا "شـيخ عبد الحي" مكشوف عن نحرها الذي لم يره أحد أبـدا بعـد المرحوم زوجها!.. شيخ الحمى لا تضعف!.. ألم يقل "شوقي" أمير الشعراء هذا البيت في رواية مجنون ليلى!!.. لكم أتمنى

أن أمثل دور قيس أمام "رجاء صدقي" في دور "ليلى" كما فعل "سعد داود" في أحد أيام المقابلة... أمام أمه!.. لو رأتك أمك يا "شوقي" في مشهد كهذا، لفقدت النطق إلى الأبد!.

ضحكات النساء تتزايد، وتنفذ إلى الشارع وتمزق صمته الذي تغلفه الظلال!.. الساعة الآن تتجاوز الخامسة... ويجب أن أرتدي البدلة، فأخي أحمد سيتحرك بعد قليل ليلحق بقطار السابعة! ...

وحين استدار "شوقي" ليدخل إلى الشقة ارتفع وراءه في الشارع صفير بنداء يعرفه وصوت منغم:

- ويكا يا ويكا...

وأطل "شوقي" من الشرفة مدركا أن صديقه "سعد داود" هو الذي يناديه... ودقق النظر في شابين يقفان مع "سعد" ثم صاح كأنه فوجئ بهما:

- الله!.. الأستاذ "بلية"؟.. الأستاذ "عطا الله"؟!.. أهلا وسهلا.. و "عبد الرافع" كمان؟!.. أهلا اتفضلوا..
وارتفع صوته مسترضيا:

- اتفضل يا أستاذ "عطا الله"..

"ثم بانت الحيرة على "شوقي".. أيلح في دعوتهم إلى الطلوع عنده أم ينزل هو إليهم في الشارع.. لا مكان في البيت فالضيوف يملأونه: النساء في حجرة الجلوس، والرجال في حجرة "عبد العزيز" وحجرتك أنت و "عبد اللطيف" لا تصلح يا "شوقي" لاستقبال أحد.. فهي مزدحمة بمكتب "عبد اللطيف" وسريركما والدولاب الكبير.

وقال له "سعد":

- انت واقف كده ليه؟.. البس وانزل هوا!..

وعندما دخل "شوقي" يلبس، اتجه "عطا الله" إلى "سعد" في تؤده ونظر إليه باستنكار:

- ايه يا ويكا دي؟.. إيه اللي هوا، ويا ويكا!.. هو احنا بنلعب هنا. هل احنا هنا في موقف بتاع يا ويكا؟.. هو دا موقف لعب يا ولد انت؟.. دي كلمات صبية!!

وقبل أن يجيبه "سعد" أخذ يحكم طربوشه ويتحسس الكرافتة ثم استدار إلى "عبد الرافع" مشمئزا وهو يشير إلى "سعد" بلهجة تحمل من الترفع والوقار والتؤدة أكثر مما يبدو على عطا الله.

- الولد ده داير لي كده بالقميص والبنطلون ورأسه عريانه عمال يقول لي ويكا.. أنا قلت لك يا "عبد الرافع" مرة ان الولد ده مش بتاع مواقف سياسية هامة!.. إيه ده!.. هو يا أخي موقفه مع المستر "فيرنس" ده لا يبرر حشره في وسطنا كده على طول!.. هو يعني كان جاب راس كليب؟.. دا لولا احنا كان جه أبوه ضربه في المدرسة وخلاص!.. أنا لا أقبل المشي مع ولد زي ده..؟ مش كفاية انه بتهوره الصبياني كان أوشك يبوظ جهادنا من أجل إعادة جمعيات المدرسة.. أكثر من أسبوع واحنا بنجاهد وييجي حضرته أول امبارح في المدرسة ويستفز الطلبة ويحلف لهم ان اللي حايسحب توقيعه حاينضرب.. طب إيه رأيك ان "شوكت عبد الرحيم المغربي" وهو أقرب الناس الينا كان أوشك يسحب توقيعه أمام التهديد الصبياني ده.. إذا كان بيقول يا ويكا ما هو يقدر يعمل أي عمل صبياني بعد كده!.. متشبث ليه بالولد ده يا "عبد الرافع"؟.. ما هي العلاقة؟

وكان عبد الرافع يحاول أن يسكت "عطا الله" و "عطا الله" يعرض بـــ "سعد" ويلكز "عبد الرافع" بيده فـــي احتجـــاج.. و "سعد" صامت يضغط على نفسه.. ولكن "سعد" قـــال فـــي غيظ مكظوم حاول أن يخفيه في ابتسامة.

- زعلان ليه بس يا أستاذ؟!.. على كل حـــال مهمـــا قليت أدبك عليه انت برضه اســـمك ضـــيف فـــي حتتنا!..

واغتاظ "عطا الله"، وتقدم نحو "ســـعد".. ولكـــن عربـــة حنطور أقبلت فتنحوا لها، ووقفت العربـــة و "عبـــده" يقفـــز منها.. ولمحه "سعد"، فناداه ولكن "عبده" دخل إلـــى البيـــت بلهوجة:

- استنى بس يا سي "سعد" أحسن القطـــر حايفوتنـــا.. استنى لما الباشمهندس وجماعته يسافروا بالسلامة..

ولكن "سعد" أسرع وراءه متسائلا بصوت حاول أن يجعله خافتا:

- هيه ماما عندكم؟

وجاءه صوت "عبده" وهو يصعد السلالم:

- أيوه!.. أهم حريم الشارع كلهم بعصابة المعلم موجودين عندنا..

وعاد "سعد" ينضم لـ "عطا الله" و "عبد الرافع" وهو يهمس متحرجا:

- يظهر ما فيش فايدة ما دام ماما لسه في الشارع.. دا أنا كنت فاهم انها راحت الحلمية!..

ورفع صوته مكملا:

- والله يا أستاذ عبد الرافع.. أنا يظهر أني مش حاقدر أجي معاكم.. أنا آسف.

ووقف "سعد" يصفر بفمه لحنا حزينا.. ووجهه إلى شرفة "شوقي".. فاحتد "عطا الله":

- اتفضل يا سيدي.. أهو اعتذر!.. يا بوي!.. حاجة تقلق!.. تضيع لنا وقتنا مع أولاد مصاروة من اللي بيقولوا يا ويكا ويدوروا في الشارع يترقصوا.. اتفضل.. أهو واقف يصفر ويترقص الولد ده يروح أحسن يلبس له بيجاما حرير زرقاء ويمشي يترقص ويصفر ويغني: "يا وردة الحب الصافي"..

وفوجئ "سعد" بطريقة "عطا الله" في الكلام، ورآه يتطوح أمامه ويتراقص بخلاعة في انفعال شديد، ولم يغضب "سعد" وأخذ يتأمل منظر "عطا الله " ويضحك.. وزادت حدة "عطا الله" وسيطرت عليه الرغبة في أن يجرح "سعد".

بيضحك كمان.. كله منك أنت يا "عبد الرافع".. انت المسئول عن كل هذا، كيف نعتمد عليه وهو عاوز ياخد إذن ماما، وبيسأل ماما لسه في الشارع والا خرجت من الشارع.. مش عارف حتى هي فين! دي رقاعة إيه دي؟!.. إذا كان الولد ده مش عارف يواجه أمه يبقى كيف يواجه القوة الغاشمة؟ يا شيخ! يا شيخ! انت أصلك ماسخ يا "عبد الرافع".. "سعد داود" قال!!. تدعي لي "سعد داود" في اجتماع زي ده؟.. ده مستني إذن ماما.. ده ناقص يدخل لنا في المسائل العليا، ماما وطانط وأبله وتيزة.. و..

وفجأة زعق "سعد" في عصبية وهو يمسك كتف "عطا الله" ويهزه بعنف:

- جرى إيه يا واد انت يا واد.؟.. انت يا واد انت يا بلية!. وحياة ديني لولا انك في شارعنا وجاي مع الأستاذ "عبد الرافع" لكنت أمسح بيك الأرض.

وحاول "عطا الله" أن ينحي يد "سعد" عن كتفه بلا جدوى.. فبدأ يعاني من إحساسه بقوة "سعد" وبقدرته على أن يمسح الأرض به فعلا.. وهاله أن يكلمه "سعد" بهذه الطريقة بينما يتحدث عن "عبد الرافع" باحترام كبير..

وعندما لم يفلح في أن ينحي يد "سعد" صاح كالمنهار:

- سيب كتفي أولا.. واخرس يا ولد يا كلب.. ابعد إيدك دي عني باقول لك! انت لازم تعرف انت بتكلم مين يا ولد.. اتكلم كويس معايا.. انت تروح تعمل عصبي على ماما هناك وهي بالروب دي شامبر!.

ورفع "سعد" يده عن كتف "عطا الله" وحطها على فمه في حنق وضغط بكلتا يديه على فم "عطا الله" وأنفه ليمنعه من الاستمرار في الكلام.. ولكن "عبد الرافع" نحي يد سعد بعيدا بينما ابتعد "عطا الله" يتحسس أنفه وفمه وصدغيه، مكروبا من ضغط يد "سعد" على أنفه..

وعندما ابتعد قليلا أخذ يهمهم بصوت منهزم مرتعش:

- بقى كده؟.. يعني هوه كده؟! لكن أنا المسئول اللي سمعت كلام "عبد الرافع" وجيت أدعو ولد كلب زي

ده لاجتماع سياسي هام.. بقى الولد ده هـو اللـي يرتب الاحتفال بيوم ١٣ نوفمبر؟!؟ بقى الكلـب ده حيقـاوم "نسـيم باشـا" وجنـود الإمبراطوريـة البريطانية!؟. أنا في سنة ١٩٣٠ كنت باشتغل مـع رجال، يقوم يحكم الزمن فـي سـنة ١٩٣٥ انـي أتعامل مع صبية؟! مع غلمان!!

وفي تلك اللحظة كان "عبد الحي" يخرج من باب البيـت ويندفع إلى الشارع وهو يتلفت حوله، وكان شوقي هو الآخر يقبل معتذرا عن التأخير ويسلم على عطا الله وعبد الرافع..

ومال عبد الحي إلى عطا الله يسلم بحرارة دون أن يكـتم شعوره بالمفاجأة:

- الله.. أنارت الشارع منور يا أستاذ "عطـا الله". دي فرصة طيبة خالص.. اتفضل تشرب شاي. والله أنا لا يمكن أتركك رغم أني عندي أمر هـام جـدا.. لا يمكن. احنا عرب يا راجل..

فقاطعة "عطا الله" وهو يسترد هدوءه، ويتخذ هيئة رجـل مهم أكبر من سنه بكثير مقلدا طريقـة "مكـرم عبيـد" فـي الخطابة:

- أنا عارف يا أستاذ عبد الحي انــك رجــل كــريم ومضياف ومن خيرة شبابنا الــوطني.. مــش زي بعض الأولاد جيرانك.. أنا لا أنسى بلاءك طــوال الخمس سنوات الماضية.. من عهد صــدقي ســنة ١٩٣٠.. أنا..

وقطع كلامه بقهقهة مصطنعة واسترسل يقول في خطورة وهو يضحك بعصبية ويبتعد به:

- اتفضل انت.. أنا عارف انك مستعجل.. أنا مــدرك أهمية المشوار اللي عندك.. ان شاء الله نلتقي هناك الساعة السابعة تماما.. طبعا..

- وضحكا بزهو وثقة و "عبد الحي" يقول:

- يا سيدي ما احنا من قديم زملاء في الكفاح..

وتمتم سعد:

- زملاء في الكفاح قــال.. أزهريــة وصــعايدة زي بعض.. قولوا زملاء في الفتة والملوحة.. والفــول النابت..

فهزه "شوقي" مستنكرا:

- لا، لا، يا سعد.. عيب كده..! ما يصحش كده.. إيه السخافة دي.

- بينما ضحك "عبد الرافع" متلطفا:

- ومالها الملوحة بقى يا سي سعد؟.. انت حاتعيب في الصعايدة والا ايه؟..

وتنبه "سعد" إلى أن عبد الرافع – أيضا – صعيدي، فتمتم معتذرا:

- لا لا.. دا أنا قصدي الواد "بلية".

وزعق "شوقي":

- لا يا سعد.. أنا لا أسمح لأي واحد إنه يقـول لـه كده.. عيب كده!.

وتقدم "عطا الله" ويده في يد "عبد الحي" إلى "عبد الرافـع" قائلا:

- ودلوقت ستعرف من الفتى.. حاتعرفوا بعض كويس خلال الاجتماع أيضا..

وسلم "عبد الحي" على "عبد الرافع" وهو ينصرف قائلا:

- سنشعلها نارا.. وسيصلاها الأشقى.. سلام عليكم بقى.. لا مؤاخذة.. حاكم أنا عندي مأمورية كده قبل الميعاد إياه يا أستاذ عطا الله.. أنا والله ما قدرت حتى انتظر لحد ما أطلع المحطة أطرق أخوك يا سي "شوقي" يادوبك سلمت عليه مودعا واعتذرت.. لا مؤاخذة يا جماعة.. إن شاء الله تشرفونا بالزيارة في وقت كده يكون فسيح.. أنا لي في عنقك زيارة يا أستاذ "عطا الله".. وانت يا أستاذ عبد الرافع لا بد عن أنك تيجي مرة كده مع الأستاذ "عطا الله" تشربوا الشاي عندي.

وانطلق "عبد الحي" في طريقه مسرعا، و "عبد الرافع" يميل على أذن "شوقي" هامسا:

- الليلة الساعة سبعة فيه اجتماع هام في جريدة الجهاد لتنظيم الاحتفال بعيد الجهاد الوطني.. ده طبعا أول اجتماع يعقد السنة دي لتنظيم احتفال ١٣ نوفمبر وطبعا ستتلوه اجتماعات أخرى.. الاجتماع ده سيشهده مندوبون من الجامعة وطلاب من المدارس الثانوية والصناعية والمتوسطة والأزهر ومندوبين عن العمال والتجار.. أنا فايت عليك

متأخر شوية لكن أنا ما عرفتش بموعد الاجتماع إلا الساعة أربعة النهارده.. أصله اجتماع سري جدا والتحضير له يجري في تكتم شديد لكيلا يهاجمه البوليس.. و.. أنا شايف انك طبعا مشغول بسفر أخوك يا "شوقي".. ولكن أنا رأيي انك تطلع تسلم عليه وتعتذر له وتيجي الاجتماع.. مش لازم تودعه لحد المحطة!.

ولم يستطع "شوقي" أن يجيب.. إنه يجب أن يقبل أخاه على المحطة، ويلوح له والقطار يبتعد!.. الاعتذار يبدو مستحيلا!.. وهو أيضا لا يستطيع أن يتخلى عن الاجتماع!.. فيوم ١٣ نوفمبر عيد وطني له مكانته.. إنها أول مرة يحضر اجتماعا تحضيريا للاحتفال بهذا العيد.. وهو يعرف لماذا يسمونه "عيد الجهاد الوطني" تعلم من إخوته وهو صغير أنه ذكرى اليوم الذي ذهب فيه سعد زغلول ورفيقاه إلى المعتمد البريطاني لتنظيم الحماية وخرجوا من عنده فاستقبلتهم الجماهير تهتف: "الاستقلال التام أو الموت الزؤام"..

وسار سعد زغلول مع الثورة ثم قاد المقاومة حتى مات!

وقطع تفكيره صوت "عبده":

- العفش نزل كله والجماعة نـازلين أهـم يـا سـي "شوقي"... حاتركب في العربية معاهم والا حتاخـد الترماي مع حضرة الدكتور؟ ما تيجي في العربيـة أحسن..

ولم يرد عليه "شوقي"، ووقف تبدو عليه الحيرة.. وقبل أن يتحرك أقبلت بنت أخيه الصغيرة تتحسس يده وتشـده منهـا وتتنطط:

- تعال معانا في العربية والنبي يا أنكل.

وقال "عطا الله" بحزم واستعلاء:

- واضح ان "شوقي" كمان ما عندوش إذن ييجـي.. مش معقول يحضر الاجتماع.. يا للا بنا احنا بقى..

ولم يجب "شوقي"!

صحيح.. لا يصح أن تتخلف عن اجتماع كهذا، فأنت أحد قلائل يمثلون المدرسة الخديوية في هذا الاجتماع يا شوقي.. ولكن. أتترك أخاك يسـافر هكـذا دون أن تودعـه علـى المحطة؟!.. يمكن أن تودعه من هنا.. ولكن بمـاذا تعتـذر؟ أتقول لهم الحقيقة؟!. لن يتركوك تذهب!..

وفي الصمت الذي لف الأصدقاء والشارع ارتفعت أصوات النساء مختلطة بقبلات التوديع.. وبانت إحدى النساء خارجة من على عتبة الباب، فاستدار "عبد الرافع"، ونكس رأسه هامسا لـ "شوقي":

- على العموم ابقى اعمل آخر جهدك انك تحضر ولو متأخر شوية.. لازم تحضر بأي شكل.. الاحتفال بعيد الجهاد الوطني السنة دي يختلف عن السنين اللي فاتت.

وسلم، والنساء يخرجن، وتقدمت زوجة "أحمد" تركب العربية وهي تقول في نبرة حزينة مشحونة بشيء كالدموع:

- وداد مش وداع يا مصر..

وسلم "عطا الله" على "شوقي" بسرعة وهو يهمس:

- على العموم إذا لم تستطيع انك تيجي فما فيش داعي تتعب نفسك واحنا فينا الكفاية.

ومشى "عطا الله" ويده في يد "عبد الرافع"، وابتعد "سعد داود"، وابتلعهم جميعا ظلام الشارع، وصوت "عبد العزيز" يرن وسط الرجال الذين خرجوا لتوهم:

- هو الواد "شوقي" انخفى راح فين؟..

"الواد".. الحمد لله ان "عطا الله" لم يسمعك!.. يا دكتور "عبد العزيز"!.. أنا الآن مندوب المدرسة الخديوية بحالها في اجتماع خطير يحضره مندوبون من كليتك لنتناقش معا في حالة البلد ولندبر المقاومة ضد وزارة "توفيق نسيم" وقصر الدوبارة ونحضر ليوم ١٣ نوفمبر؟..

وتقدم "شوقي" وفي يده ابنة أخيه الصغيرة فدخل في زحمة الرجال والنساء التي يستلقي عليها شعاع من نور مدخل البيت.. وعندما تبين "عبد العزيز" وجه "شوقي" صاح فيه:

- أنت يا أخي كنت انخفيت فيني داهية؟... يا لللا اطلع معاهم العربية انت... واحنا حانحصلكم في الترماي...

وسلم "أحمد" على الرجال وأقسم عليهم أن يبقوا في الشارع وركب العربة وهو يدفع إليها أخاه الأصغر "شوقي"، وقفز "عبده" إلى جوار السائق، وتحركت العربة تترجرج بحملها، و "عبد العزيز" وأقف أمام البيت يقسم على الرجال المودعين أن يبقوا في الشارع.. ولكنهم صمموا أن يروحوا كلهم إلى المحطة... وقطع "شكري" المناقشة بقوله:

- يا أخي أنا حاركب في الأتوبيس والا في ترماي تاني غير اللي حاتركبه انت!..

وضحك الجميع، وتقدم "شكري" في الشارع يتبعه "داود أفندي" و "أمين أفندي"، و "عبد العزيز" يلاحقهم بالاحتجاج من خلال الضحكات... ولكنه سكت أمام إصرارهم.. ومشى "عبد المعبود" يهمس لـ "عبد اللطيف" ضاحكا:

- ما هو واحد زي "داود أفندي" ده ان ما كانش يروح يطرق الباشمهندس حايفتكر ان الدكتور عبد العزيز مش واخد بنته.... حاكم الست جماعة اخوك شبكتكم في تلات عرايس وسافرت.. ولو ان الناس جايين يطرقوا الباشمهندس لله في لله!..

وضحك "عبد اللطيف" بصوت مرتفع، والجميع ينقلون خطواتهم في الطريق الذي يقود إلى السيدة زينب... وقطع "داود أفندي" الصمت قائلا في حزن:

- والله الكام يوم اللي قعدهم معانا مروا زي النسيم..

ولم يجبه أحد فتابع كلامه في جد صارم:

- آنا مش عارف يا دكتور أخوك الباشمهندس كان طايق البلد اللي كان فيها دي إزاي... بقى الشمس اللي هناك حامية

لدرجة أنها تسوي العيش!.. وعيش بالمعنى!.. والله أنا حبيته.. فاكر الكام رغيف اللي بعتتهم لنا جماعة الباشمهندس..؟ إيه رأيك ان الست خبت العيش ده وبتطلع منهم باللقمة كده زي الحلويات!..

والتفت إليه "شكري" قائلا بخفة:

- شمس إيه دي اللي بتتكلم عنها يا "داود أفندي".. ودي تيجي إيه جنب شمس السودان اللي تشوي البني آدم.. تشويك أنت نفسك يا "داود أفندي".

وضحك الجميع، و "داود أفندي" يكمل:

- يا حفيظ!.. الحمد لله اللي ربنا أكرمه بالنقل!.. ودي عيشة إيه دي في وسط العقارب والتعابين والناس الأشرار، والشمس الفظيعة دي.؟!

وساد الصمت لحظة وهم يسيرون... وعلى محطة الترام مال "عبد العزيز" على أذن "شكري عبد العال" هامسًا:

- "داود أفندي" ده بيتكلم زي حماته بالضبط!..

بينما كان "أمين أفندي" يسأل عبد اللطيف:

- ألا قل لي يا أستاذ "عبد اللطيف" أنا عاوز أسألك على حاجة في القانون... دلوقت الدايرة لها عندي حاجة؟ تقدر تخليني أهد البيت وابنيه لجوه بمتر؟.. والا يعني دا كلام تهديد... أصل "أدهم بك" كل يوم والتاني ينط عندنا ويفهمني انه حايش الدايرة عني... وحتى كل ما يقابل "ميمي" عند الست "عديلة" يقول لها كلام زي ده!. إيه رأيك؟ الدايرة تقدر تعمل لي حاجة! لها عندنا كلام!.. أنا أعرف في القانون برضه.. لكن الراجل ده لخبطني.

وقبل أن يجيب "عبد اللطيف"، التفت "شكري" إلى "عبد العزيز" غامزا وهو يهمس.

- اتفضل يا سيدي... بقى ده تقول عليه إيه ده؟!... فيه تغفيل بعد كده.. الله يخيبك!.. شوف "عبد اللطيف" أخوك بيبص له ازاي؟. بقى البغل مش عارف أدهم بيه عاوز منهم ايه!؟.

وتنحنح "عبد اللطيف" ليقول شيئا وهو يكتم ضحكه، غير أن الترام أقبل فتدافعوا عليه... وتقدم "شكري"

و "عبد العزيز" إلى الدرجة الأولى.. ولحق كل واحد من الآخرين بمكان في الترام.

***

وعلى رصيف القطار، وقف الإخوة الثلاثة يقبلون أخاهم الكبير "أحمد". وجرس المحطة يدق مؤذنا بالرحيل.. وعانق "أحمد" كل المودعين، وسلم على "عبده" فتعانقا ثم قبل "عبده" يده وهو يدعو له بالسلامة والهيبة والمال بالويبة.

وابتعد المودعون خطوات حتى سلم الإخوة على زوجة "أحمد" الواقفة في شباك القطار دامعة العين تهمهم: "وداد مش وداع يا مصر" والى جوارها ابنتها تحاول أن ترفع رأسها وتستطيل لتبص هي الأخرى من الشباك...

وتحرك القطار، والمناديل في أيدي المودعين، و "شوقي" ومن ورائه "عبد اللطيف" و "عبد العزيز" يسيرون في اتجاه سير القطار المندفع، يلوحون لأخيهم والنظرات تجهد لاستخلاص الوجه المبتعد، والقلوب تخفق وتغوص في الأعماق شيئا فشيئا، وابتسامة مكابرة على الوجه تتهدل بها الشفاه قليلا قليلا.. ثم تتصاعد الزفرات!

وعندما غاب القطار في البعد، واختلطت كل الرؤى في انطلاقه السريع، كانت دمعة كبيرة تنحدر على خد "شوقي" أصغر الإخوة... و "عبد اللطيف" يمشي مطرقا يتنهد! ...

ووضع "عبد العزيز" يده على كتف "شوقي"... ثم أمسك بذراعه وسارا في صمت... حتى صار إلى المكان الذي يقف فيه رجال الشارع على رصيف المحطة... فوقف "عبد العزيز" يسلم عليهم ويشكرهم، وهو يحاول أن يضحك...

وتأخر "شوقي" يهمس في أذن "عبد اللطيف"... فقال له "عبد اللطيف" برقة.

- كويس... مافيش مانع تروح... بس انت عارف جريدة الجهاد فين؟.. ثم انت حتوصل متأخر قوي يا شوقي.. واللي بيوصل متأخر في اجتماعات زي دي بيبقي محل ريبة! ...

ووجم "شوقي" وقبل أن يقول كلمة كان أخوه "عبد العزيز" يمسك بذراعه في حنان بالغ ويسير به... كأب حنون يسترضي طفله الحزين الوحيد...

ومشى "شوقي" بين أخويه في صمت... وقطعوا ميدان المحطة متلاصقين و "عبد العزيز" ما زال يحاول أن

يضحك، وفي قلب كل واحد من الإخـوة الثلاثـة إحسـاس غريب بحب خارق لأخيه.. وأحس الثلاثة بأنهم يريـدون أن يمشوا متلاصقين هكذا طويلا طويلا!

وعلى باب حارة، احتكت بهم امرأة فاقعة الثياب متعرية، وابتسمت عن أسنان ذهبية وعلى وجهها النحاسي وشـعرها، خليط كريه من الأصباغ يثير الغثيان!..

وشعر "عبد العزيز" بتقزز وتحرج.. ونظر إلـى أخيـه "عبد اللطيف" من فوق رأس "شوقي".. فقال "عبد اللطيف":

- بلاش شارع كلوت بيه ده؟.. تعـالوا نمشـي مـن شارع تاني.

ودخل الإخوة الثلاثة في الشارع المجاور متجهـين إلـى ميدان الأوبرا. وقال "عبد العزيز" فجـأة محـاولا أن يبـدد صمتهم الحزين:

- اسمعوا يا أولاد... الليلة أهـي خـلاص راحـت ومافيش مذاكرة.. تعالوا بقى أفسحكم.. أعشيكم عند الحاتي. وأدخلكم سينما... سينما مصـرية علشـان خاطرك يا "شوقي".

وتحرك "شوقي" ... فلم يتكلم.. كان لا يستطيع أن يقاوم رغبته في أن يظل مع أخويه، وهو يشعر منذ تحرك القطار أن في أعماقه فراغا لا تملؤه غير هذه الصحبة؟.. ولكن كيف يتخلف عن الاجتماع.

ولاحظ "عبد العزيز" وجوم "شوقي"... وكان وجهه يبدو مؤسيا.. فتحسس عبد العزيز وجه أخيه مداعبا.

- الله... دا انت يا واد يا شوقي قربت تبقى طولي أنا و "عبد اللطيف" أهه؟... ويا أخويا يعني شنبك طلع.. على رأي المداح بتاع البلد "يا للي شنبك طلع من أكل الظفر يا أبو خليفة!" تعالى بقى أعشيك ظفر!..

وابتسم "شوقي" على ذكر كلمات المداح، والتفت وراءه فوجد "عبده" يقول محاولا الضحك من خلال دموعه:

- أي والله يا أبو خليفة... يدوم الحماس وأكل القلقاس!

فقال "عبد العزيز" ضاحكا وهو يلمح دموع "عبده":

- الله.. انت هنا يا واد يا "عبده"؟.. وبتعيط ليه؟.. انت زعلان علشان مارحتش تشتغل في الهندسة...

فهمهم "عبده" متهدج الصوت:

- والله الباشمهندز له وحشة...

فدس "عبد العزيز" في يده قطعة نقود قائلا:

- طب خد... روح اتفسح الليلة يا عم.. بس أوعى تحود ع الشارع التاني.. ابعد عن كلوت بيه!

واحمر وجه "شوقي" وقال "عبده" باسما:

- وماله؟ ...

ثم استدرك:

- الغرابة انك لك كلام يا حضرة الدكتور.. ربنا يديم عليك الفرفشة، والانبساط كده ...

وانصرف "عبده" والإخوة الثلاثة يتابعون سيرهم، يلفهم حنان حزين!.

(١٠)

توالى الدق على الباب، ورنت الأحذية الثقيلة على السلم في صمت الليل... فتقلبت "ميمي هانم" في فراشها وهزت زوجها في خوف وحذر..

وسأل "أمين" بصوت مأخوذ وهو يقوم من فراشه:

- مين؟.. مين اللي بيخبط؟

وجاءه جواب خافت ثابت:

- البوليس.

البوليس!؟!.. يا مصيبتك يا "أمين"!! ...

وقفزت "ميمي" من فراشها تخبط صدرها، وجرت إلى مفتاح النور فأدارته، وأخذت تروح وتجئ في الحجرة كفأر في مصيدة...

وتمتم "أمين":

- البوليس؟!... جايين ليه؟.. عايزين إيه؟!.. يا رب لطفلك يا رب!.

وقالت "ميمي" وهي تبلع ريقها، وتتحسس وجهها المصفر، وشفتاها ترتعشان:

- انت عملت إيه يا "أمين"؟.. البوليس؟ مين اللي عملها فينا يا رب؟... انت ضيعت دفاتر في الوزارة تاني زي ما ضيعت دفاتر الدايرة يا أمين؟ كده يا "أمين".

واختنق صوتها وتهدج، وشرقت بالدموع... والباب يدق ويرتفع من ورائه نفس الصوت الثابت الخافت:

- افتح... أنا البوليس..

وهمهم "أمين" وهو يدعك عينيه ويحاول أن يلم نفسه:

- لازم هي مسألة الدفاتر القديمة بتاعة دايرة عزيز... ما هم قالوا انهم يقدروا يبلغوا ضدي في أي وقت ان شاء الله بعد خمس سنين... ما فيش غيره باشكاتب الدايرة المؤذي نسيب "داود آفندي"... هو اللي عملها.. ربنا ينتقم منك يا أدهم بيه!

وأكملت "ميمي" كأنها تولول.

- هو بعينه "أدهم بيه" قريب "عديلة هانم".. عينه زايغة علي من زمان! أنا مهزآه لسه من تلات أيام

قدام كل الستات... ربنا ينتقم منه الشـــايب العايـــب المفتري...

وارتفع الصوت من الخارج غاضبا مهددا هذه المرة:

- حاتفتح والا نكسر الباب... افتح ...

وهرول "أمين" إلى الباب حافيا، ودست له "ميمي" الشبشب في قدميه وهو يدير المفتاح في الباب، وتراجعت مسرعة إلى غرفة النوم ووضعت البالطو على قميصها، وعـــادت إلـــى زوجها تساعده في شد المزلاج وتستقبل معه شـــابا صـــغيرا أنيقا دخل بسرعة في بدلة عادية ومن حوله ستة عســـاكر... قال وهو يدخل في صوت منخفض مؤدب:

- لا مؤاخذة... أنا ضابط مباحث قسم السيدة زينب... أنا متأسف خالص على الإزعاج ده.

وتوقفت "ميمي" بعد أن أضاءت نور حجــرة الصـــالون وسألته وهي تضغط على أعصابها لتبدو متماسكة:

- مباحث؟ والمباحث لها عنـــدنا ايـــه؟ عـــايز إيـــه يا حضرة الضابط جاي ليه؟!. ايه؟.. أفندم!

وتحرج "أمين"... ولمح الضابط يفحص زوجته "ميمـــي" بابتسامة غريبة... فانفجر:

- اسكتي انت.. اخرسي.. ولا امشي أدخلي جوه..

واستدار وهو يرى على وجه زوجته رعبا يخالجه القلق والهزيمة.

- ادخلي انتي يا "ميمي" عند الأولاد أحسن يصحوا مخضوضين.

ونكست "ميمي" رأسها، ولم تجب، ولم تتحرك.

وجلس ضابط المباحث على طرف كنبة كبيرة في حجرة الصالون وأمين أفندي واقف مضطرب... وأشار الضابط إليه:

- اتفضل استريح... المسألة بسيطة خالص... ما فيش داعي لده كله... الست يظهر انها عصبية شوية..

وقعد "أمين أفندي" متزايلا على كرسي بعيد عن الضابط... بينما رن في الصالة صوت عسكري يقول لزميله:

- خف رجلك شوية أحسن الجزم تفزع الكتاكيت اللي جوه. دا العيال دول أحباب الله واللي يسرعهم من نومهم يغضب عليه ربنا... خف رجلك شوية أحسن العيال يصحوا...

ونهض الضابط إلى الصالة قائلا بصوت منخفض:

- بس يا جدع انت وهوه... والا... اطلعوا بره الشقة.. خليكم بره أحسن.. أخرجوا من غير دوشة.. كفاية في الصالة واحد منكم وواحد على الباب واتنين عالبسطة... واتنين عالسلم.

وانسحب العساكر محاولين ألا يحدثوا ضجة أثناء السير، وقعد "أمين" ينظر إلى الضابط بقلق كبير:

- أيوه يا حضرة الضابط... خير... أنا تحت أمرك

وأجاب الضابط بهدوء:

- خير ان شاء الله... المسألة بسيطة خالص...

ودس يده في جيبه – ونظرات "أمين" و "ميمي" تتعلق بيده فأخرج علبة سجاير وفتحها ومد يده بها إلى "أمين" فاعتذر.. وقلب الضابط نظرات مترددة بين علبة السجاير وبين "ميمي" الواقفة فهزت رأسها مستنكرة وهي تتأمل الضابط... وبادره أمين قائلا:

- مراتي مش من الستات اللي بيدخنوا.

وأخذ الضابط سيجارة وأشعلها ببطء وأخذ يعبث بالعلبة بين يديه.. فلمح "أمين" ماركة العلبة ونوعها.. هي سيجارة مصرية... اسمها المصري أفندي.. نوع من السجاير لا يدخنه غير الشباب الذين يتحدثون دائما عن الحرية والدستور والاستقلال! ...

وحملق أمين في الضابط بعجب يخالطه الارتياح، وقال متشجعا بطرب:

- سعادتك بتشرب دخان مصري!

ولم يجب الضابط، وحاول أن يرسم تقطيبة حادة على وجهه الصبوح البسام...

ولم تعجب أمين تقطيبة الضابط، وإن ظل يزحف على قلبه شعور خفي بالارتياح..

وعاد الضابط يخطف نظرة سريعة فاحصة إلى "ميمي" كأنه يعجب لوجود امرأة بمثل هذا الجمال في شارع كهذا... وتضايقت "ميمي" من نظرة الضابط إليها، ومن الصرامة التي اتخذها وجهه فجأة ردًا على تهلل زوجها وتمسحه به...إن زوجها لا يحسن الكلام في الغالب، وهو أحيانًا يقول أشياء لا لزوم لها، ولكنها لا تحب مع ذلك أن يتجهم رجل

في وجه "أمين" لمجرد كلمة طيبة قالها ليطمئن بها نفسه!... وفكرت في العساكر الذين كانوا مرشوقين في الصالة والذين يتناثرون الآن على السلم، وباب الشقة مفتوح على آخره...

ودوى في أعماقها صراخ عاصف أوشك أن يهب، ولكن صوتها اختنق في حلقها قبل أن تقول كلمة، فأمسكت شعرها بيدها في عصبية وعيناها المفتوحتان مشدودتان إلى حوافها..

وسرى في الصمت أنين طفل، ثم ارتفع بكاء آخر من الداخل، و"ميمي" في مكانها تتنهد وتكاد أنفاسها تملأ المكان بزفرات كالفحيح.

وارتعشت بغتة وانقضت في وجه الضابط:

- أنتم جايين تاخدوا الراجل ليه؟... تاخدوه من مراته وأولاده ليه؟!.

ولم تستطع أن تكمل، وانهارت في بكاء تناثرت منه كلمات تلعن "عديله هانم" وقريبها الباشكاتب "أدهم"، والزمن، والمباحث وتندب وحدتها وضياعها...

ودهمت الضابط رهبة مثقلة بالضيق والندم وهو يرى فزعها وأحد أطفالها يتحسس طريقه إليها باكيا في الظلام، ومن ورائه طفل آخر يصرخ من الذعر... ثم طفل ثالث.

وقامت "ميمي" تحمل طفلا وتسحب الآخرين وبدنها كله يرتعد ونحيبها يملأ صمت الليل.

وأشار الضابط إلى العسكري الذي كان يقف في الصالة:

- خليك بره.. انزلوا كلكم على باب البيت البراني...

وامتلأت السلالم بقرعات أحذيتهم وبعض كلمات رثاء للأطفال الذين هبوا من نومهم مذعورين..

وقام الضابط إلى "أمين" أفندي" قعد إلى جواره على كرسي وثير.. و "أمين" واجم مطرق، كأنما راح الدم منه!

وقال الضابط:

- اسمع يا حضرة.. أنا آسف للازعاج ده كله.. أنا جاي بخصوص واحد ساكن عندك في بيتك مش بخصوصك أنت.. مش أنت برضه صاحب البيت..؟

وأكمل الضابط و "أمين أفندي"، يحملق فيه ويتعجل كلماته بتوجس:

- أنا جاي لك بصفتك صاحب البيت ده.. بشأن طالب في دار العلوم اسمه "عبد الحي"..

واسترد "أمين" أنفاسه وزفر بقوة مقاطعا الضابط:

- "عبد الحي"؟! الله يخرب بيته! ماله "عبد الحي"؟! قال علي إيه؟ سعادتك جاي..

وهدأه الضابط:

- يا سيدي ما قالشي عليك حاجة.. المسألة لا تخصك أنت.. بس افهمني... أنا والله..

وقبل أن يكمل، وهو يبحث عن كلمات يهدئ بها "أمين"، إذا بباب الشقة المقابلة يفتح وصوت "عبد العزيز" من الخارج يدوي ثقيلا مرتعشاً.

- ايه يا جماعة الشغل ده؟.. خناق وصوات السعة تلاتة الصبح كمان؟ ما تختشوا بقى وتقدروا ان الواحد عنده مذاكرة وامتحانات! الله!.. جرى إيه يا ست "ميمي"!؟ إيه الحكاية؟. إيه العساكر دول؟.. انتو جبتو البوليس لبعض والا إيه الحكاية؟.. وسكت "عبد العزيز".

وأخذ سكون الليل يئن برجع نواح "ميمي" من داخل غرفة نومها.. وفجأة جلجل زعيق "عبده" من بعيد:

- بتقول إيه يا شاويش؟!.. انتوا المباحث؟!.. شي الله يا مباحث!.. والمباحث جاية تعمل إيه هنا؟!.. دا عمر شارعنا ده ما دخله صنف عسكري

ولا عسكري مرور حتى! انتو فاكرين ايـه؟!. هـو "أمين أفندي" لا سمح الله بيتاجر فـي حشـيش؟ والا انتوا فاكرين الست "ميمي" من بتوع كده والا كده؟!.. روح يا عم انت وهو الله يرضى عنكم.. قطع لسـان اللي يظن فيهم سوء.. دول ناس أشراف.. غلابـة!.. هي الست "ميمي" حمقية وإيدها طويلة على خلـق الله شويه لكن كلنا على الله.؟ روح يا عم انت وهوه روح الله يسهل لكم والله لأصحي لكم البيه "شكري"..

وذاب صوته وهو يبتعد بينما دخل "عبد العزيـز" شـقة "أمين أفندي" وهو يدعك عينيه بطرف إصـبعه، ولـم يكـد "أمين" يراه حتى قام إليه مرحبا مستجيرا كأنه وجد يدا تمتـد إليه من المجهول لتنشله من حفرة ضيقة:

- شوف يا دكتور "عبد العزيز" شوف يا "عبد العزيـز" يا أخوي اللي جرى لنا على آخر الزمن.. البـوليس جاي لي!.

وتهدج صوت أمين، وزوجته "ميمي" ما تزال تحـاول أن تسكت الأطفال في الداخل، وصدى بكائها يـدوي فـي أذن "أمين"، يعصر قلبه ويضغط على حلقه ويجرح صدر ضابط

المباحث.. وعندما شعرت "ميمي" بمقدم "عبد العزيز"، ارتفع نشيجها وهي في الداخل وأوشكت أن تطلق صرخة مفزعة، بينما كان الضابط يقول لزوجها "أمين":

- المسألة بسيطة يا حضرة الفاضل.. أنا عمال أقول لك من الصبح أنا جاي بخصوص موضوع يتعلق بمسجون سياسي.. أنا متأسف اللي جيت في وقت زي ده.. لكن أعمل إيه بس الأوامر كده. وأنا قلت لك يا...

وهب "عبد العزيز" على قدميه فجأة وعيناه تتفتحان على الضابط وهو يصيح في عجب:

- الله؟ الصفطاوي؟.. هو انت ازيك يا واد يا كمال.

وفوجئ ضابط المباحث، ووقف حائرا مبهوتا.. ثم ارتمى في أحضان "عبد العزيز" يعانقه بحرارة:

- خليفة؟!.. يا سلام!! ازيك يا عبد العزيز.. انت لسه ساكن هنا برضه من أيام ما كنا في الخديوية.. ياه.. سبع سنين؟.. أيوه.. سبع سنين السنة دي..

فاستطرد "عبد العزيز" ضاحكا مشيرا إلى الأغنية الشائعة أحيا وأموت في الحتة دي.

فقال الضابط وهو يشد "عبد العزيز" إلى جانبه ويقعد معه على كنبة كبيرة ويغمز بعينه إلى "ميمي هانم" في الداخل متجاهلا تماما وجود زوجها.

- طبعا يا عم. واللي عنده جيران زيك يعزل ليه؟ ازيك يا "عبد العزيز".. والله زمان! دي ظروف إيه دي؟.. يا سلام.. يا راجل من سنة ما خدنا البكالوريا لحد النهارده لا أشوفك ولا أسمع عنك؟ ازيك.. كل اللي أعرفه عنك انك دخلت الطب.. انت خلصت ولا لسه! بتشتغل فين دلوقت!.. الغرابة وأنا داخل الشارع افتكرتك وافتكرت أيامنا..
- فأجابه "عبد العزيز" وصوته يرتفع ثابتا كعادته:
- هو انت فاكر الطب زي البوليس تتسلق في تلات سنين وتقوم ساكع المرتب المعتبر!.. لا يا عم..! أنا لسه عندي آخر امتحان في ديسمبر.. لكن انت فين أراضيك؟ تعرف؟. قابلت مين يا سيدي وقعدنا نتكلم عنك قريب؟. أيوه.. أيوه.. الشيخ حمزة دبوس. ازيك يا كمال.. وبعتم بيت الحلمية من زمان يا أخي ولا حد يعرف فين أراضيك!...

وتنهد الضابط "كمال" وغام عليه حزن طارئ وتنهد قائلا:

- دنيا! يا عبد العزيز!.. بس نقعد مع بعض وأنا أحكي لك؟ دا أنا شفت...

وقاطعه "عبد العزيز" مغيرا جو الحديث:

- وانت فين دلوقت يا وله؟..

فضم الضابط أطراف أصابعه مشيرا إلى "عبد العزيز" أن يتأنى ويراعي الظروف وقال مبتسما:

- زي ما انت شايف يا دكتور.. ضابط مباحث قسم السيدة. وقام "أمين" من الحجرة يجري إلى زوجته ممتلئا بالطمأنينة:

- بس يا ميمي.. اطمئني.. دا الضابط طلع صاحب الدكتور عبد العزيز الروح بالروح!.. دول بيهزروا مع بعض.. الدكتور عبد العزيز بيقول للضابط يا واد.

وقبل أن يعود "أمين أفندي" إلى الحجرة، كان الضابط "كمال الصفطاوي" ينظر إلى النجفة الفاخرة وإلى الكراسي المذهبة الوثيرة، ويتحسس السجادة السخية الوبر، وهو يتساءل:

- ايه الصالون العجيب ده؟! دا شغل برنسات.. بس يا خسارة مش راكب قوي على الأودة أم شبابيك مكسرة دي!..

وابتسم "عبد العزيز":

- ما هو فعلا شغل برنسات! ما هو أمين أفندي كان أصله بيشتغل في دايرة البرنس عزيز.. ولكن قل لي.. انت جاي لهم بالتجريدة دي ليه؟ إيه الحكاية..

فقال الضابط:

- ما فيش حاجة تخصهم بالمرة.. والله يا عبد العزيز أنا عايزك تطمنهم أنت!.. دول أعصابهم انهارت خالص!.. يا أخي شغلتنا دي باستمرار تحط الواحد في مآزق!.. القصد..

وسكت متنهدا و "أمين" يعود من الداخل، وعلى السلم يرن صوت "عبده":

- اتفضل يا بيه! اتفضل يا "شكري بيه". اتفضل يا أسطى "عبد المعبود".. اتفضلوا شوفوا المصيبة اللي حطت على راس أمين أفندي في الليل الأضلم!.. جايبين المباحث قال!!.. مباحث وحكومة على إيه؟!

على إيه يا حكومة تعملي كده في أمين أفندي؟! طيب يا حكومة وعلى رأي الأدهم "وان عشت يا حكومة لالبسكم طرح وشيشان".

وعلت ضحكة عسكري من الخارج قائلا:

- أي والله.. طب تعال بقى يا للي تنحش كمل لنا موال الأدهم. قل لنا يا واد قول: يا حكومة دا أنا الأدهم قتل لي من العيال ولدين.. يا حكومة أنا الأدهم والأدهم أجيبه منين.

وزعق "عبده":

- ابعد عني يا جدع انت وهو! تدهملوا الدنيا وتقولوا غني موال؟! يا خسارتك يا أمين أفندي.. يا خسارتك يا ست ميمي في البهدلة دي كلها.. هم بس عملوا إيه يا أخواتي؟! عملوا إيه يا حكومة!؟.. يعني كانوا شتموا الملك؟ وافرضوا حتى انهم شتموه! طب وماله؟. شتموا.. من غلبهم!. جايبين لنا المباحث؟ طب آدي احنا جبنا لكم "شكري بيه"!.. هيه!

ونهره "عبد العزيز" من الداخل وطلب منـــه أن يخـــرس تماما، بينما "شكري عبد العال" يتقدم إلى الصـــالون ووراءه "عبد المعبود".

ووقف ضابط المباحث يسلم عليهما، وقعد "شكري" مــلء كرسيه بالجلباب والبالطو العسكري وأزاح طربوشه قلـــيلا.. وحين كان "عبد العزيز" يعرفهم بـــبعض اقتحمـــت "ميمـــي" الغرفة مستغيثة متهدجة:

- الحقني.. الحقني يا عم "شكري بيه"..

وقام "شكري" فأمسك بيديها مهدئا، وحـــاول أن يـــدفعها برفق إلى الصالة، ولكنها قعدت معهم في الصالون.. وعـــاد هو يجلس في مكانه مشدود الأعصاب بلا كلمة.

وساد الوجوم..

ودخلت امرأة "عبد المعبود" من باب الشقة ووقفـــت فـــي الصالة، وعلى رأسها شال من الصوف ينسدل على أذنيهـــا وعنقها ويخفي كل شعرها.. والحيرة تضطرم على وجههـــا، ونادت "ميمي هانم" فلم تتحرك "ميمي" وظلـــت تنظـــر فـــي الفراغ كالمذهولة وصدرها يعلو ويهبط بشكل ملحوظ.. فقال

عبد المعبود موجها كلامه إلى "ميمي" وهو يخفض عينيه متحرجا:

- اتفضلي انتي يا ست أم.. يا ست.. يا ست "ميمي".. اتفضلي جوه مع جماعتي.. انتي ما لكيش قعدة هنا دلوقت في وسط الرجالة كده.. قومي حتى أعملي شاي علشان البيه.

وقامت "ميمي" بخطوات بطيئة مترنحة، حتى بلغت الصالة فتلقفتها "أنيسة" زوجة "عبد المعبود" بلهفة، وعانقتها مواسية. وتهدجت "ميمي" بالبكاء من جديد وهي في أحضان "أنيسة".

ونظر "شكري" إلى ضابط المباحث بحسم:

- أيوه يا حضرة الضابط. إيه المهمة اللي انت جاي بخصوصها؟ عايز إيه من الجماعة دول؟. اتفضل اتكلم.. احنا جيرانهم وأهلهم.

فأجاب الضابط ببساطة وسرعة:

- والله يا أفندي المسألة بسيطة وما كانشي فيه داعي للانزعاج والضجة دي كلها.. لكن الست بقى قعدت تصرخ والدنيا اتقلبت وما ادتنيش فرصة أتكلم..

المسألة كلها تتعلق بواحد مسجون سياسي اسمه "عبد الحي" ساكن في بيتهم في الدور الأرضي.. قبض عليه من يومين وهو خارج من الاجتماع اللي عقدوه الطلبة بدار جريدة الجهاد لأنه قال كلام خطير جدا ضد الحكومة.. والمطلوب هو أخذ تحريات عنه وتفتيش بيته ولأنه رفض حتى يدينا العنوان!.. ويظهر انه أخفى المفتاح.. واحنا عرفنا بتحرياتنا طبعا انه ساكن هنا!.. آدي المسألة كلها..

وسادت الدهشة وبهت "عبد العزيز"

- "عبد الحي" مقبوض عليه!؟. أنا راخر بقى لي يومين مش سامع له حس ولا خبر!.. والله دانا فاكره بايت عند واحد صاحبه بيذاكروا سوا والا حاجة..

وارتفع صوت "عبده" من حيث وقف في الصالة:

- يا خبر أسود!.. الشيخ عبد الحي!؟.. يا..

وغمرت زعيق "عبده" من الخارج، صيحة فرح أطلقها "أمين أفندي" وهو يقف:

- بس كده؟! انتو جايين علشان كده!... طيب قول من الصبح يا حضرة الضابط.. الله يقطعك يا عبد الحي

ويقطع أيامك.. يا ميمي دول جايين بس علشان شـقة عبد الحي..!

واعترض "عبد المعبود" مشمئزا:

- ما بلاش هيصة على الفاضي يا أمين أفندي! ما تقعد بعقلك ومقامك كده خلينا نفهم إيه الشـغلة!.. بتقـول عبد الحي مقبوض عليه ليه يا حضرة الضابط؟!.

ولم يتكلم الضابط، وأخذ ينظر إلى أمين الذي كان يوشك أن يقفز من الفرح و "شكري عبد العال" يرمقه بغيظ وحنق، وازدراء، غاض فيه فجأة كل الإشـفاق الـذي كابـده منـذ لحظات.

وقام "شكري" إلى "أمين"، وجذبه من يده بشدة:

- اقعد اقعد يا أهبل.. وبلاش كلام خايب لحد ما نفهـم الموضوع كويس..

وظل "عبد العزيز" ينظر إلى الضابط ثم تهدج صوته:

- إلا حكاية القبض على عبد الحي دي!؟.. يا خسـارة يا عبد الحي..

وتحرج الضابط قائلا بخجل:

- والله أنا آسف جدا يا جماعة.. يعني دي أوامر.. وأنا دايما أحاول أوافق بين الأوامر وبين ضميري.. يا جماعة أنا والله.. وربنا يعلم.. أنا آسف جدا..

وتوقف قليلا، وهو يتأمل النظرات التي تستلقي عليه، و "عبد العزيز" مأخوذ يتنهد..

واستمر الضابط يقول متخلصا من حيرته شيئا فشيئاً:

- والله يا جماعة الحقيقة ان عبد الحي ده شاب كويس جدا.. رغم أنه انضرب واتعذب كتير في المحافظة فهو لم يعترف باسم واحد من اللي نظموا الاجتماع ولا باسم اللي دعاه.. حتى عنوان بيته رفض يقول عليه وقال انه ساكن في بيت الله وربط على كده!.. تصوروا.. غيره لم يحتمل ضربة واتكلم وبعضهم اتكلم من غير حتى ما حد يهدده!.. يا سلام!. ولد صحيح! أنا طبعا لازم أفتش بيته وأرفع تحرياتي للقسم المخصوص من قبل الساعة سبعة الصبح.

ووضع "شكري عبد العال" رجلا على رجل ونظر إليه بتؤدة:

- لكن يا ابني هل أنت عارف انت بتخدم مين دلوقت؟!..هل انت يا ترى بتخدم مصر بالأعمال دي؟!.. أبدا.. دا كله لحساب الإنجليز.. ليه تسمحوا للإنجليز انهم يستعملونا ضد بعض!.. ما تخليهم هم اللي يعملوا الأعمال الفظيعة دي مباشرة من غير واسطتنا احنا.. لكن مع الأسف كل واحد بيقول أنا لوحدي حاعمل ايه؟!.. لا لا.. ده مش تمام!.. لازم كل واحد في مكانه يعمل الواجب كوطني وبس، وهو في الحالة دي مش حايبقى لوحده.. انت باين عليك شاب وطني.. لكن ليه تعمل كده؟.. ليه تنفذ أوامر الإنجليز، الوطن يطالبك بعكس هذا يا ابني!.

وفوجئ "الضابط" كمال الصفطاوي بكلام الصاغ "شكري عبد العال".. وحاول أن يداري اضطرابه في ضحكة شاحبة..

وسكت الجميع، ونفس "كمال الصفطاوي" تجيش بمشاعر عديدة مبهمة.. ولم يعرف كيف يقول!.. "عبد العزيز" يضع يده على خده ويطأطئ رأسه من الحزن! وربما كان يحمله مسئولية القبض على "عبد الحي"!.. ولكن عبد العزيز صديق

لكمال من أيام الخديوية، وهو مازال يذكر بلا ريب كم مشى إلى جواره في المظاهرات وخاض معه دخان البارود وهو يهتف بسقوط الإنجليز وحياة وادي النيل.. ولكن اليوم، يوم آخر!.. لا شيء يخيف "كمال" اليوم مثل اسم "راسل باشا" الضابط الإنجليزي حكمدار العاصمة!.. وإن كان لا يستطيع أن يواجه أحدا – حتى نفسه – بأنه يرهب "راسل باشا" أو يخدم غيره من الإنجليز!.. ومع ذلك فلو أنه تمرد فما هي النتيجة؟!.. إن مرتبه الآن لا يكفي لثمن أدوية أمه التي أصابها الشلل بعد موت أبيه بعام واحد.. وهو يربي أخا له في الدراسة الحربية، وأخا ثانيا في المدرسة السعيدية صغيرا متحمسا كالذين يقبض عليهم، ويرعى أختا أرملة مات زوجها ولم يترك لها غير الحسرة والفجيعة الدائمة، وطفلين!..

ماذا لو أحيل إلى الاستيداع؟.. إنه الآن يقترض إلى جوار مرتبه ليواجه النفقات وهو لا يستطيع أن يسهر مع زملائه لأن مرتبه لا يبقى منه شيء، حتى ثمن السجائر يفتقده في بعض الأحايين، وكم من مرة فكر في أن يمتنع عن التدخين! وهناك مع ذلك من يظن أنه سعيد مرتاح في بحبوحة من

العيش!.. أنت يا حضرة الصاغ شكري عبد العـــال رجـــل آخر.. وأنا أنحني أمامك الآن إكبارا لك.. في أيامك ضربت رئيسك الإنجليزي بالكرسي ولم تبال!.. من يدري كيف كانت ظروفك.. ربما لم تكن لك وقتها أم يقتلها فجأة أن يتأخر عنها الدواء!!... إنك لم تجرب هذا العذاب الذي أعانيه كل شـــهر عند ما أتحسس حساباتي لأوفر أولا ثمن الـــدواء لأم ربمـــا ماتت أمام عيني!!... لو لم يكن لنا بيت بعناه!.. إنك حتـــى لا تعرف ماذا حدث لي وأنا في الســـنة الأولـــى بمدرســـة البوليس!.. لو لم يترك أبي لنا بيتا لما اســـتطعت أن أكمـــل دراستي!... ثمن البيت هو الذي دفع حياتنا حتى تخرجت من البوليس وأصبح علي أنا وحدي أنا أعول هذا الحشد كلـــه... أنا أعرفك يا حضرة الصاغ شكري منذ كنـــت طالبـــا فـــي الخديوية... حكى لي عنك عبد العزيز بإكبـــار... يجـــب أن تعرف أنني كافحت كثيرا أنا أيضا يا حضرة الصاغ... أنـــا أعرف مفخرتك، حدثني عنك "عبـــد العزيـــز" ونحـــن فـــي الخديوية، وذكر لي الآن بطولتك مع الضابط الإنجليزي وهو يعرفنا ببعض... كأنما أصبحت هذه المفخرة علما عليـــك!.. ولكن هذه المفخرة في تاريخك ليست سببا كافيا لهذه النظرات

المشفقة التي تلقيها علي.. أنا وطني مثلك تماماً!.. وأنت أيضا في الخدمة مثلي الآن... ومن يدري... ربما استعملوك لضرب مظاهرات ١٣ نوفمبر عندما تنفجر... وربما لم تستطع ساعتها أن تصنع كما صنعت منذ عشرة أعوام!...

وقطعت الصمت صيحة من عبد العزيز:

- بقى كده يا كمال؟! عبد الحي مقبوض عليه! ...

وزلزل "كمال الصفطاوي" لرنين كلمات "عبد العزيز"... وتلعثم قليلا، ولم يستطع أن ينظر إلى "عبد العزيز"... وسعل وهو يقول بتحرج:

- والله يا عبد العزيز دي أوامر.. أصلك ما تعرفشي العسكرية يا عبد العزيز... اسأل حضرة الصاغ! حضرتك تعرف العسكرية كويس... وأنا على كل حال عاوز آخذ منكم كلمتين تحري عن عبد الحي ونشوف مسألة المسكن.. يعني إذا كان ممكن..

وتعثرت الكلمات في فمه، وأدار إصبعه تحت ياقة قميصه كأنما يوسع عن رقبته، وهو يكمل في زفرة واحدة:

- نفتش مسكنه بشكل ودي ونرفع التقرير للقسم المخصوص.. ونخلص.

وابتسم شكري وهو ينظر إليه معجبا به.. وقال:

- اسمع يا ابني.. سيب الوظيفة دي أحسن.. أنت خسارة! اشتغل في الضبط والربط.. في المرور.. في أي حاجة.. بس أبعد عن أي صلة بالبوليس السياسي.

ونظر "كمال" إلى "عبد العزيز" محاولا أن يرسم ابتسامة، ثم همس بود:

- إيه؟ سرحان ليه كده؟! المسألة إن شاء الله خير يا عبد العزيز.. ما فيش أي ضرر حايصيب عبد الحي.. ويمكن يفرج عنه بسرعة جدا.. بأسرع مما تتصور.. بس أخلص أنا من الإجراءات بتاعتي! أنا يا "عبد العزيز"...

ولم يكمل، والتفت إليه "عبد العزيز".. والتفت نظراتهما، وتألقت عيونهما فجأة بشعاع جميل حمل إلى قلب كل منهما ذكرى رائعة من صفاء الأيام الأولى حين كانا يخوضان الحياة والخطر معا وأولى مغامرات العمر جنبا إلى جنب..

وفاضت السكينة في نفس "عبد العزيز"..

وأخرج الضابط علبة سجائره المصرية، ووقف يقدم سيجارة لـ "شكري بك" فاعتذر، واعتذر الجميع، وتناول "عبد المعبود" السيجارة وأشعلها قائلا بارتياح:

- تسلم يا بيه.. سيجارة المصري أفندي دي أنزه سيجارة! ولأول مرة منذ أقبل الضابط انطلقت في الليل ضحكات مطمئنة.

وتحسس الضابط جيبه، وأخرج منه دفترا صغيرا، وأخذ يقلب في صفحاته، حتى وقف عند صفحة خالية وبدأ يتهيأ للكتابة وهو يسأل:

- هو عبد الحي ده ميوله إيه؟

فبادر "عبد العزيز" بخفة:

- ميوله. لسعاد هانم مسميها سعا..

فهز "عبد المعبود" رأسه مستنكرا، وحاول "شكري" أن يلوم "عبد العزيز" ولكنه انغمر في الضحك الذي استغرق الجميع، و "عبد العزيز" يكمل:

- ده راجل في حاله يا شيخ.. ربنا يرد غيبته.. ميول إيه بس يا كمال!؟

وعاد "كمال" يحاول أن يقطب وجهه متخذا هيئة حاسمة:

- أنا قصدي ميوله السياسية.. تعرفوا عنه إيه؟ يعني الناس اللي بيجتمع بهم في بيته.. آراؤه اللي بيقولها في السياسة.. أنا قصدي كده.

واحتد "عبد العزيز" فجأة:

- الله؟.. انت حاتشغلنا مخبرين على بعض والا ايه؟!.. وتداخل صوت "شكري عبد العال" في صوت "عبد العزيز":

- لا لا.. ما يصحش كده.. أنت عاوز تشغلنا مخبرين للقسم المخصوص!.. ميول إيه وبتاع إيه يا ابني!.. دا الولد مشغول بمذاكرته باستمرار وفي حاله..

وتأفف الضابط:

- يا جماعة أنا مش قصدي أشغلكم مخبرين في القسم المخصوص ولا حاجة! جرى إيه يا عبد العزيز.. أنا قصدي أعرف الحاجات اللي اشتهر بها بينكم لأضمنها تقريري عنه.. لازم أرفع التقرير قبل الساعة السابعة صباحا، وأحب أفتش البيت وأشوف إن لم يكن عنده أوراق خطيرة أو منشورات حيخرج

على طول.. آدي المسألة.. أنا عاوز أعرف بس هو مشهور بإيه بينكم.. أما الأساتذة بتوعه في دار العلوم اتكلموا وقالوا عنه مثلا إنه تلميذ مجتهد.. ومشـــهور بميوله الأدبية ورئيس تحرير مجلة المدرسة..

فانقض "أمين" بضيق:

- أكتب يا حضرة الضابط.. مشهور عنه انه بصـــباص بصباص ونجس.. وان فتشت بيته حتلاقـــي أحجبـــة بالعشق والوصال!..

ونفخ "شكري" مروعا:

- اسكت انت. قم شوف الشـــاي.. أبعـــت لنـــا الســـت أحسن!. إيه الكلام اللي عامل زي كلام خالاتـــك ده.. دي الست بتتكلم أحسن منك.. بقى ده كلام حد يقولـــه على جار في محنة!..

فقام "أمين" وهو يقول مستنكرا:

- محنة إيه بس؟ ما هو اللي خلي نفسه في محنة!.. هو اللي ودى نفسه في داهية.. وما نبناش منـــه طـــول عمره غير الفضايح والخضايض.. بقى ده جار ده..

جايب لنا البوليس في عز الليل!.. هـوه احنـا وش كده!؟.. ما كل المصايب جاية من تحت رأسه!..

بينما ارتفع صوت "عبده" من الخارج:

- اكتب يا حضرة الضابط أنه ما وردشي على شارعنا ولا حايورد عليه واحد أطيب من الشيخ عبد الحـي! أنا باقول أهه.. والشهادة لله.

وقام "عبد المعبود" يدفع "أمين" إلى الداخل مؤنبا:

- روح.. روح شوف الشاي!.. روح انـت يـا شـيخ روح..

وشيعة "عبد العزيز" بنظرة استغراب، وهز رأسه ويـده، وعاد يتلفت إلى "شكري" مبتسما.. واندفع "شـكري" يقـول بصرامة:

- اكتب يا حضرة الضابط اكتب.. قل على مسـئوليتي ان عبد الحي طيب. شاب عنـده أخـلاق.. شـجاع. وطني. غيور.

فتدخل عبد العزيز ساخرا:

- استني بس يا شكري بيه.. ما هو وطني دي وغيور كمان.. دي اللي حاتوديه في داهية صحيح!.. بلاش كلمة وطني في عرضك في الظروف دي.. دا مقبوض عليه بتهمة انه وطني!

قول عنه انه..

وانقطعت ضحكات "عبد العزيز" على صيحة حادة مستنكرة من "شكري عبد العال":

- يعني نقول عليه انه خاين علشان ننقذه؟!.. نقول عليه انه إمعة!!. لازم يعني يكون من برادع الإنجليز؟!.. دا أنا الولد عبد الحي كبر في عيني دلوقت بس!..

ودخلت "ميمي" بالشاي ووراءها "أمين أفندي" ووضعت صينية فضية على مائدة كبيرة في الوسط، وبدأت تقدم بنفسها الفناجين، وأمسك الضابط "كمال" بفنجانه وهو يتأمل دقة نقوشه الثمينة بعجب.

وقعدت "ميمي" يغزوها شعور خفي بأن الجميع ينتظرونها.. ولم يعد الفزع يقبض على وجهها ويشد أطراف ملامحها ويرعش يديها.. وتساءلت

- إيه يا عمي شكري بيه.. إيه؟.. فيه حاجة حصلت للشيخ عبد الحي لا سمح الله..

كان في وجهها طيبة واسترخاء، وصوتها ينساب دافئا مشحونا بالحنان.. ورنت إليها نظرات الضابط وهو يقول:

- والله يا ست هانم إذا كان ممكن تشوفي مفتاح شقة عبد الحي عندكم: بس نفتشها بسرعة ونرجع لكم المفتاح تاني.. إذا كان ده ممكن يعني.. نبقى شاكرين.

والتفت إليها الجميع مترقبين.. ونظرت هي إلى الضابط بقوة، قائلة في صوت خرج منها ضعيفا ولكنه يحمل نبرة استنكار رهيبة:

- أفندم؟!.. مفتاح إيه يافندم؟.

ولكن "أمين" زعق بغلظة:

- امشي ادخلي جوه هاتي مفتاح شقة الشيخ عبد الحي من سكات.. امشي.. إيه اللي حشرك انتي. قومي ياللا هاتي المفتاح. البيه الضابط عاوز يفتش الشقة..

كان معروفا عند "شكري" و "عبد المعبود" و "عبد العزيز" أن "أمين" لا يستطيع أن يكلم امرأته بهذه الطريقة أبدا، فمن

الممكن أن تلتقط أي شيء أمامها وتقذفه به وتنهال عليك بأظافرها وبالشتائم.. ولكنها سكتت وغاض لونها، وخرجت مطاطئة الراس، وعلى صفحة وجهها اختلاجة الغيظ المكظوم..

ونظر "شكري" إلى "أمين" وتمتم وهو يضغط على أعصابه جاهدا:

– ليه يا ابني بس تعمل كده؟ ليه تصم نفسك بعملة زي دي؟ ليه تحمل مراتك على ارتكاب خيانة في حق شاب وطني مسجون! هو حد ألزمك تجيب مفتاح شقة عبد الحي؟.. والا يعني بتتطوع للخيانة.

ودوت كلمة "خيانة" في أذن "أمين" وأرعبته.. ولم يستطع أن يقول كلمة.. واتجه بعينيه إلى ضابط المباحث كأنما يستنجد به ليتم ما جاء من أجله، في ضيق ظاهر بالآخرين..

– اسمع يا كمال.. تعرف؟.. الحقيقة حكاية المفتاح دي سخيفة ومحرجة ومش معقولة كمان.. ما تكسروا الباب أحسن.. أنتم يعني خايفين من الطعن في التفتيش!.. يا سيدي!.. هو فيه حد بيقدر قدام البوليس السياسي!.. لكن بشرفي يا كمال ما حتلاقي حاجة..

تعرف بعد وجع الدماغ ده كله حتلاقي إيه؟.. كتب المدرسة!.. وبالكتير يمكن تلاقي كام ديوان شعر قديم يكون عبد الحي وقعهم من الشيخ حمزة دبوس!.. يعني يا كمال..

ولم يكمل "عبد العزيز" وتمشى.. يعاني الزهق، وعاد يجلس.. وعبد المعبود يقول:

- والله يا حضرة الضابط ما في عنده غيرهم شوية كتب الدين واللغة والنحو اللي قاعد طول النهار والليل يمقق فيهم عينيه.. وسي أمين أفندي يعني.. أنا فكري انه ما عندوش مفتاح لشقة "عبد الحي".

وانفجر أمين في "عبد المعبود":

- أما أمرك غريب يا أخي.. لا يا سيدي.. أنا عندي مفتاح!.. هو انت ولي أمري؟.. دا بيتي وأنا حر فيه يا أخي!.. قومي يا "ميمي" هاتي المفتاح بدل ما نروح احنا في داهية.. احنا اسمنا دلوقتي بنعطل أعمال الضبطية القضائية.. أنا فاهم القانون كويس وعارف الأصول وأنا حر.. ما حدش يتدخل في شئوني!.. الله!..

وتوتر الجو.. ووقفت "ميمي"، ومشت إلى الداخل متثاقلة، ثم استدارت فجأة عند الباب واتسعت عيناها واتخذ وجهها هيئة متحدية غريبة.. وانطلق صوتها رهيبا هادئا بطيئا:

- أنا ما عنديش مفتاح.. ما فيش مفتاح يا حضرة الضابط.. إذا كنت عاوز تكسر باب الشيخ عبد الحي اتفضل!

وأمسك الجميع أنفاسهم، بينما تنهد الضابط بارتياح.. وأخذ يكتب في دفتره الصغيرة بسرعة، ثم أغلقه وهو يقول:

- على كل حال أنا أثق في رأيكم.. أنت متأكد طبعا "يا عبد العزيز" انه لا يملك في شقته منشورات أو مطبوعات خطيرة.. يعني انت واثق ان كل عنده هو كتبه وكراريسه المدرسية.. وطبعا كلكم واثقين ومتأكدين بنفسكم من كده!

وابتسم "شكري عبد العال"، وهز "عبد المعبود" رأسه مؤكدا وبانت الفرحة على وجه "عبد العزيز" وهو ينظر إلى صديقه القديم "كمال الصفطاوي" بحب وثقة.. وأشرق وجه كمال بالطمأنينة ووقف يضع الدفتر في جيبه منصرفا قبل أن يتيح الفرصة لكلام جديد!

ووقف الجميع يسلمون على الضابط وهو يتحرك إلى الباب وتأخر "أمين" وحده، والضابط ينصرف والجميع وراءه.. وشعر "أمين" لساعته بأنه يتزايل، وغرق في خجله، وثقل عليه إحساسه بالوحدة والخوف والزراية.. فأحنى رأسه ولم يعد يرى أمامه شيئا.

وقال "شكري" وهو يسلم على الضابط:

- أنا فخور بمعرفتك يا ابني.. أنا صحيح تشرفت بمعرفتك.. برضه البلد لسه فيها خير كتير.. وعلى رأي أمير الشعراء المرحوم شوقي بيه: وبورك في الشباب الطامحين.

ومشى الضابط مسرعا: ومعه "عبد العزيز" يودعه، وعلى السلالم وهما يهبطان معا أخذ "كمال" يد "عبد العزيز" وجذبه إليه وتوقف هامسا:

- اسمع يا عبد العزيز.. عبد الحي طالع النهارده في الغالب هو وكل الطلبة اللي قبض عليهم في جريدة الجهاد.. أنا أعتقد كده.. لكن كلهم حيظلوا تحت المراقبة.. والإفراج عنهم حيكون مجرد مصيدة لغيرهم.. الحالة حرجة جدا والداخلية مقلوبة.. واحنا

بنشتغل ليل نهار.. خايفين جدا من ١٣ نوفمبر السنة دي.. كل التقارير ان الاستعدادات لــه فــي منتهــى الخطورة.. اسمع.. أنا اتــأخرت وخــايف العســاكر يلاحظوا حاجة.. ما انت جايز تلاقــي مــنهم واحــد بيشتغل مخبر علي.. أنا كنت عاوز أسألك على تلميذ في الخديوية اسمه "شوقي خليفة".. مــش ده أخــوك الصغير؟

وفوجئ "عبد العزيز" بالسؤال فأجاب:

- الله؟!.. أيوه.. لكن.. و

وقاطعه الضابط وهو يتحرك على السلم:

- أنا برضه تصورت كده.. اسمع.. قل له يحترس من تلامذة الخديوية اللي كان مقبوض عليهم واللي حيفرج عنهم النهارده... دول اعترفوا وجابوا سيرته.. اعمل حسابك انه هو مراقب من امبارح.. بس ما تقــولش اني أنا اللي قلت لك!.. هاتها له بأي طريقة.. وابقــى خلينا نشوفك يا عم..

وأفلت "كمال" من "عبد العزيز" قبل أن يعطيه فرصة للرد.. وقفز إلى العربة وهو يطلب منه باللغة الإنجليزية أن يبقى ما دار بينهما سرا في أضيق الحدود..!

ووقف "عبد العزيز" في الشارع مشتت النفس: برد الفجر يملأ الدنيا، وشعاع رقيق يزحف بالزرقة المتوردة في ظلمة السماء!..

وعندما طلع "عبد العزيز" إلى شقته وجد "عبد اللطيف" و "شوقي" في انتظاره على باب الشقة يتكلمان مع ميمي هانم في طمأنينة.

وسحب "عبد العزيز" يد "شوقي" ودخل به إلى الشرفة وحدهما.

وقال "عبد العزيز" بحسم:

- اسمع يا "شوقي".. فيه حد مقبوض عليه من مدرستكم؟

وأجاب "شوقي" دون أن يفهم سر الخطورة التي سيطرت على ملامح أخيه:

- طبعا.. الأستاذ "عطا الله" ده واحد من زعماء المدرسة وشوكت المغربي..

- وقاطعة "عبد العزيز":
- شوكت المغربي؟ مش ده الواد اللي كان بيسرق الكتب منكم! هو كمان من زعماء المدرسة؟.. قال زعماء قال!!. انت أصلك مغفل ومش داري باللي حواليك!..

ودخل "عبد العزيز" إلى الحجرة مسرعا.. تاركا "شوقي" في حيرته واستدار إليه "شوقي" فقال له "عبد العزيز":

- ما تسألنيش... خد بالك منهم كويس وبس... هم طالعين النهارده... كلها ساعتين تلاتة وتلاقيهم قدامك في المدرسة...

واضطربت الأشياء في نفس "شوقي" وشعر بظلمات تغيم على صدره.. والشعاع يزحف ويغمر الأفق الشرقي قبل أن تطلع الشمس، والسحاب الداكن في السماء من فوقه يلتهب بحمرة نور الفجر، والأشياء تضيء أمامه في شارع عزيز... وأحس بالبرد فدخل مسرعا.. ليلبس ويروح إلى المدرسة من توه وفي رأسه آلاف من الأسئلة بلا جواب!

(١١)

ختم "داود أفندي" صلاة الصبح، والتفت إلى زوجته مؤنبا:

- ما بلاش مسك سير الناس ع الصبح!

ورمته "عديلة هانم" بنظرة حادة من عينيها الواسعتين، واستمرت تكلم أمها القاعدة جنبها على كنبة الصالة أمام عدة القهوة. وعندما ترك "داود أفندي" سجادة الصلاة، رمقته "عديلة هانم" بضيق:

- يا أخي أنا قلت لك ألف مرة ما تبقاش تتوضا وانت بالبدلة... إيه يا اختي ده.. شايف بليت نفسك ازاي زي العيال الصغيرين..

ولم يرد "داود أفندي"، وبلع الكلمات ومضى يقرع بلاط الصالة بالقبقاب ويحدث في مشيه دويا تأففت له "عديلة هانم"، وهو يمضي هادئا إلى حجرته ليلبس الحذاء غير حافل بنظراتها، يتمتم بالدعوات لنفسه وأهل بيته بالفلاح والستر، ويدعو لأمين أفندي وزوجته باللطف في قضاء الله!..

وعندما راقت الصالة من خبط القبقاب عادت "عديلة هانم" تكمل حديثا لأمها:

- والنبي لولا "شكري بيه" الله يستره كان البوليس خدها هي وجوزها في الكلبشات... ما هو بسلامته "أمين" لاطش من الدايرة أشكال وألوان.. أطقم صيني وطاقم الصالون ونجف كريستال.. غير بقى الفلوس والحاجات التانية اللي ضيع دفاترها.

وتوقفت عن الكلام قليلا، وتنهدت وهي تتحرك في مكانها:

- يا أختي!.. لما أقوم أروح لها.. برضه شيء واجب.. بس طالعة لي فيها من غير مناسبة وشاطرة تنكت على أدهم بيه. والنبي لولا هو لكانت الدايرة بهدلت جوزها... أقله ما كانش طلع سليم من حكاية الدفاتر... والا البيت اللي واكل فيه حق الدايرة لكانت تهد لهم البيت... قال إيه فاكرة انه بيبصبص لها... قطع لسانها هي مين دي كمان الفلاحة دي!..

- وقامت من فوق الكنبة ومضت إلى حجرتها حيث كان زوجها "داود" يغمغم بتلاوة بعض الأوراد بعد صلاة

الصبح كما تعود منذ عشرات السنين.. وارتفع صوتها وهي تمشي في الممر متجهة إلى زوجها:

- انت مش حاتتطرق بقى يا "داود"... مش يصح تنزل بدري علشان تلحق قبل ما تروح الشغل تفوت على "أمين".. قوم يا أخوي كفاية قراية ما حبكش النهارده.. سودت عيشتي من عشرين سنة بقراية الفقها بتاعتك دي.. انزل بقى حود على "أمين أفندي" خد بخاطرهم على ما بلاهم... يا عيني يا "ميمي" يا أختي... يا ندامة!.. هو يا اختي جوزك كان بيلطش ده كله وفاكر انه حاينجى بيه!..

ولم ترق "سعد" رنة الشماتة الواضحة التي تشيع في كلمات الإشفاق المتناقضة التي قالتها أمه.. ولم يعجبه بصفة خاصة كل ما قالته أمه عن "أدهم بك" و "ميمي" ولا دفاعها عن هذا العجوز المتصابي "أدهم"... فاندفع من حجرته منفجرا في أمه:

- ألا إيه لزوم الكلام اللي بتقوليه ده؟... "عبده" حكى لنا كلنا النهارده الصبح ان المباحث كانت جاية علشان تفتش شقة عبد الحي وانت سامعة كل حاجة بودنك...

البوليس جه "لأمين أفندي" علشان أسباب سياسية وانت عارفة ده كويس.. ليه بقى تقعدي تحوري الحكاية وتقولي كلام ما لوش لزوم!... يا سلام على الستات دول! ...

وفوجئت "عديلة هانم" بلهجة "سعد" وسحنته الممتعضة وهو يكلمها، فصاحت فيه ويدها في وسطها:

- اخرس!... هو أنت يا ولد مالك ومال الحاجات دي!؟ ...هو أنا كل ما اتكلم ترد كلامي وتعلي صوتك عليه يا ولد!.. أنت حاتجيبلي ضغط!... اخص عليك ولد قليل الأدب!

وتهدج صوتها وارتعش، فأعطاها "سعد" ظهره وعلى وجهه اشمئزاز واضح وهو يدمدم:

- ايه اللي ولد؟... إيه اللي ولد وقليل الأدب؟!... كل حاجة كده تقلبيها خناق ونكد وشتيمة وعياط؟... والله ده بابا معذور فيكي...

وزعقت "عديلة" وهي تكاد تفقد سيطرتها على أعصابها:

- سامعين الولد بيقول إيه؟! قليل التربية!... يعني أقــوم عليه أضربه بالشبشب... خدوا الواد ده من قدامي... جروه من قدامي أحسن أنسل عليه الشبشب!..

ووجد "سعد" أخواته البنات الصغيرات حوله ينظرن إليــه في إشفاق، وجدته تبعده برفق، وأخته الكبرى "ميرفت" تحيط بأمها وهي تصرخ:

- إيه ده يا سعد... انت اتجننت؟... ادخل أودتك انت إيه ده يا ماما الزعيق ده ع الصبح.. إيه؟ وحياة ديني أنا بقيت أكره يوم الحد من كده.. كــل أيــام الأجــازة أقضيها في خناقات.. وزعقت فيها أمها:

- امشي من قدامي يا بنت انتي كمان عمى في عينك...

وارتفع من الداخل صوت "داود أفنــدي" محــذرا هادئــا ساخرا:

- هيه يا وليه!؟.. قولي يا فتاح يا علــيم!... صــبحنا تطيحي في العيال!!؟ حانجلبه؟ لازم تجلبي لنا الغم ع الصبح!؟

ورنت ضحكة أم "عديلة" في الجو المتوتر:

- صدقت يا ابني والنبي! جرى إيه يا "عديلة"؟ مالك يا بنتي كده صابحة راكباكي العفاريت!؟ دا الهوانم يا بنتي، تصحى الواحدة منهم من حضن جوزها تضحك وتتمخطر، وانتي مالك كده كفى الله الشر؟! جرى إيه يا سي داود أفندي! مش عوايدك؟!..

ثم اقتربت من ابنتها "عديلة" وهي تخفي ضحكة.. وجرتها بعيدا عن الأولاد وهمست في أذنها:

- هو يا اختي لفندي بعافية اليومين دول والا إيه؟... انتي حتى بقى لك تلات أربع جمع ما بتستحميش معاه!

وأغمضت "عديلة" عينيها ولوحت بكفها وهزت كتفها وتسللت الابتسامة إلى وجهها وهي تقول:

- يوه يا نينه! كلام إيه ده!؟

ثم هشت الأولاد بعيدا، فجروا وراء "ميرفت" إلى حجرة "سعد".. وقعدت "عديلة" في حجرة أولادها.. وجاءت أمها تقعد بجوارها هامسة لها:

- والنبي كله منك يا "عديلة"!.. انتي اللي دايما مغيرة دم الراجل... يا بنتي أنا دايما أقول لك ما تتغريش

قوي بجمالك... دا الوفاق أحسن حاجة.. قال قرد موافق ولا غزال شارد... زمان كانت الواحدة منا تقف قدام جوزها لحد ما يلبس وصوتها ما يعلاش على صوته، وتكبسه قبل ما ينام، وتقف بين إيديه زي الجارية!... علشان كده كانت غلاوة الست في زماننا ما تطلعشي أبدا من قلب الراجل... سوا كانت تركية والا فلاحة!... سيبك يا بنتي من قولة ان جوزك فلاح وانتي تركية.. ده كلام فارغ... أنا غلبت أعلمك... هو بقى سيدك من يوم ما اتجوزك... والنبي أنا ما كنت أقدر أقعد مع المرحوم أبوك على الأكل... كنت أخدمه لحد ما يأكل وأصب له يغسل إيديه... شوفي لما أقولك: الست اللي ما تفتحشي نفس راجلها، نفسه تنفتح على أقل منها... افهمي يا بنتي بقى.. انتي مش صغيرة للعلام... حط عنيكي في وسط رأسك كده وافهمي... هم الرجالة بيلفوا بره ليه ويدوروا يتجوزوا على نسوانهم.. وان ما كانوش يتجوزوا يعرفوا طريق المسخرة؟! هيه؟

فأجابتها "عديلة" بهدوء:

- يا نينه بابا حاجة و "داود" حاجة... أصل زمان كان شكل ودلوقتي شكل! ...

وسمعت "عديلة" باب الشقة الخارجي يدق، وانتظرت أن يفتح الباب أحد... وصاحت عند آخر دقة وهي تصفق:

- آي افتحوا الباب... إيه يا اختي ده؟ هو أنا كمان حافتح لكو الباب؟!.

وقامت من حجرة الأولاد تمشى في الصالة متجهة إلى الباب وهي تنادي:

- رحت فين يا بنت يا ألطاف.. افتحي يا "ميرفت"... الله؟!.. انت طالعة من أودة "سعد" ليه يا بنت يا "ألطاف"؟... إيه اللي غرزك في وسطهم يا بنت.. أنا مش قلت لك ألف مرة ما تخشيش أودة "سعد"... إيه اللي داخلة الأودة بعين وبجاحة ومغروزة في وسط العيال... يا سلام على عيون البنات الفلاحين دول... يندب فيها الرصاص! ...

واندفعت "ألطاف" نحو الباب، قائلة باستنكار:

- والنبي ما دخلت يا ستي... ده ست "ميرفت" هي اللي نادت لي أدخل كباية ميه.. أصل سي "سعد" مفحوم من العياط جوه.

وأسرعت تفتح باب الشقة...

وانقبضت "عديلة هانم".. ووقفت حائرة تنظر إلى حجرة "سعد"، واندفعت نحو الحجرة، ولكن "ألطاف" قالت لها بعد أن فتحت الباب:

- دا سي "شوقي" عاوز سي "سعد" ...

وشعرت "عديلة" بارتياح لمقدم شوقي في هذه اللحظة بالذات ومشت إليه تستقبله:

- اتفضل يا سي شوقي... اتفضل جوه عند سعد في أودته... تعال يا سعد قابل "شوقي" ...إزيك يا شوقي...

ودخل "شوقي" حجرة "سعد"، فاهتز قلبه فجأة.. كانت "ميرفت" أخت "سعد" تقف وسط الحجرة في جلباب منزلي طويل أبيض، وشعرها الأسود يتهدل في فوضى على كتفيها، وعلى وجهها إطراق حزين... لم يرها من قبل في مثل هذا الثوب الذي يبرزها على اتساعه ريانة نضرة حالمة!...

ولاحت له فجأة كإحدى فتيات الأساطير!... وابتسمت هي بجهد ابتسامة مثقلة بالحيرة والأسى الغامض! ...

وتألق في عينيها بريق طيب وهي تقول:

- اتفضل يا شوقي.. مش تخلي صاحبك يعقل شوية!..

وخرجت من الحجرة تترك وراءها حفيفا كالريح الحلوة، وفي ذيلها كل أخواتها الصغيرات... ونظرة "شوقي" على وجهها.

هذه أول مرة تراها من قرب يا "شوقي"... وجها لوجه، وتضع يدك في يدها وتسمع صوتها يخفق باسمك! هذه إذن هي الفتاة التي تملك وجه أمها المستدير الجميل، وما لا يوصف من الفتنة!.. أهذه إذن الفتاة التي يطاردها "شوكت عبد الرحيم المغربي" سارق الكتب، الرقيع، الجاسوس!؟ آه لو عرف "سعد"!.. أنت وحدك يا "شوقي" تحمل هذا السر منذ أيام!.. ليتها هي تعرف ما عرفته أنت فجر اليوم: "شوكت المغربي" جاسوس على زملائه!.. لو أنها عرفت، لصفعته كلما تعرض لها على ناصية مدرسة سان فانسان دي بول، وتابعها في شوارع الحلمية بدلا من أن

تبتسم له بفمها الحلو الرقيق الشفتين، وعينها التي يسطع فيها بريق خارق..

لا بد من ضرب "شوكت" هذا عندما يخرج من الحبس!... هناك ألف سبب لضربه...! لن يفيد أنه قبض عليه في اجتماع جريدة الجهاد... لن يصبح بطلا من أجل هذا!.. قم يا "سعد" قم يا أخي وانظر للعجائب التي جرت!..

ولاحظ "شوقي" أن صديقه "سعد" صامت، محمر الأنف والعينين محتقن الوجه.. فقال متحرجا وهو يتفادى النظر إلى عينيه:

- البس يا سعد البس بسرعة.. لازم نروح المدرسة بدري النهارده.. انت ناسي أن النهارده ميعاد الناظر على العريضة بتاعتنا... والنهارده لن نقبل أي تأجيل... كفاية الاسبوع اللي فات كله أعصابنا تعبانة والواحد ضاغط على نفسه وعمال يحايل ده ويتخانق مع ده علشان ما حدش من اللي مضوا على العريضة يسحب توقيعه!... النهارده يوم فاصل!.. انت ناسي والا إيه يا سعد!؟... تعرف إيه اللي حصل مع عبد الحي!... أنا سمعت حاجات غريبة... البس بس...

عاوزين نفوت على عبد الرافــع نــتكلم معـــاه قبـــل ما نروح المدرسة.. انت تعرف عنوان عبد الرافع!..

وتحرك "سعد" ببطء والاهتمام بما قاله "شـــوقي" يزحـــف على نفسه شيئا فشيئا ووقف "شوقي" يهز كتف "سعد" منفعلا:

- أما الواد شوكت المغربي ده طلع حقير بشكل!... بس البس.. البس وأنا أحكي لك كل حاجة..

وقام "سعد" يغسل وجهه، وقبل أن يعود من دورة الميـــاه دخل "داود أفندي" فسلم على "شوقي" وسأله عن إخوته ووالده الذي لم يزرهم من زمن، ثم جلس على حافة سرير "ســـعد" صامتا، تاركا لـــ "شوقي" الكرسي الوحيد الذي في الحجرة. وبعد قليل همس لـــ "شوقي" قائلا:

- يا ابني أنا عايزك تعقل ســـعد... أخـــوك وبيحتـــرم كلامك وانت كلك عقل زي اخواتك.. ربنا يديم عليكم نعمة العقل..

ثم تنهد "داود أفندي" وهز يده بامتثال، وهو يقلب نظـــرة منطفئة من عينيه الضيقتين إلى "شوقي" الجالس إلى المكتب، و "سعد" الذي دخل إلى الحجرة يلبس بدلته مسرعا..

وسلم "داود أفندي" على "شوقي" وقبل ابنه "سعد" في رأسه وانصرف..

وعندما فرغ "سعد" من ارتداء ملابسه، أقبلت أخته "ميرفت" ووقفت في فتحة الباب تسند ذراعيها إلى مصراعيه بدلال، ومالت برأسها وجذعها وهي تبتسم هامسة:

- فيه واحد عاوزك اسمه غريب وشكله غريب... كده... يظهر انه صعيدي والا قريب الشيخ عبد الحي.. اسمه عبد الرافع!..

وتهلل "سعد" و "شوقي" في نفس الوقت:

- عبد الرافع... اتفضل.

وأدخلته "ميرفت"، واختفت وهي ترمق – بخفة – وجهه الصارم الوقور.

وقال "عبد الرافع" بحسم:

- اسمعوا.. النهارده لن نقبل أي تأجيل... إذا الناظر طلب التأجيل فهذا يعتبر رفض للعريضة واستمرار في حل الجمعيات... احنا يجب أن نتمسك النهارده بالرد.. أنا طول الليل أفكر في الموضوع ده

ما جانيش نوم ووجدت أنه يجب أن تحسم المشكلة النهارده مع الناظر ده..

فقال سعد كأنه يحشر نفسه في الموضوع:

- ما أنا قلت لكم الرأي ده من زمان، أدِحنا استنفدنا كل الوسائل معاه!.

واندفع عبد الرافع:

- أنا أؤكد لكم انه خايف يرد على العريضة... هو لا يستطيع أن يتحدانا بشكل سافر! مهما تكن سلطته.. فالأمة مصدر السلطات! ...

فلاحقه "شوقي":

- طبعا. لكن أنت فين يا "عبد الرافع"؟... دا أنا كنت عاوز أفوت عليك من الفجر! فيه حاجات خطيرة جدا... يا أخي قل لنا على عنوانك.. ساعات الواحد...

وتدخلت كلمات "سعد" تقطع الحديث:

- أنا خلاص لبست.. تحبوا ننزل على طول والا نشرب حاجة يا "أستاذ عبد الرافع" ...

وتقدم "شوقي" إلى الباب متعجلا:

- يا للا بنا ياللا ...

ومشوا في صمت: "عبد الرافع" أطولهم في الوسط يطبق شفتيه على الأسرار، و "شوقي" متوتر الأعصاب قليلا، و "سعد" يرفع رأسه أحيانا ليطلق زفرة..

ولمحوا وهم يتركون شارع عزيز بعض الجيران يدخلون بيت "أمين أفندي".. كانت من بينهم "سعاد هانم" و "أنيسة" زوجة "عبد المعبود"..

وساروا في الطريق إلى درب الجماميز يملئون صدورهم بهواء الصباح البارد وعيونهم تتفتح على آفاق مثيرة من تحدي الخطر، والشمس الفاترة تملأ الدنيا أمامهم، ودرب الجماميز يضطرب في حركة نشطة من الطلاب والموظفين والباعة والعربات المتجولة.

ولمحهم "عبده"، فصاح وهو يلوح بصحيفة في يده:

- دا العرب هاربين الإنجليز في فلسطين!.. يا خسارة يا شيخ عبد الحي!.. انت اللي كنت بتقرا في الجورنال كل يوم وتفهمني اللي فيه قبل ما أطلعه للدكتور.. والله؟.. انتو مستعجلين كده ليه يا افنديه..

تعرف بقى يا سي "شوقي"؟ دا نسيت ان النهارده وعدة الناظر يرد عليكو.. حاكم اللي جرى امبارح بالليل تول الواحد.. وحياة النبي يا شيخ ان صريخ الست ميمي وأولادها لسه ساورني لحد دي الساعة.. ربنا يرجعك بالسلامة يا شيخ عبد الحي ويزيح عنا وعن أمة النبي.

وابتسم "سعد"، وهز "شوقي" رأسه بأسف، و "عبد الرافع" ينظر إلى "عبده" مستغربا..

ورفع "عبده" يديه في ضراعة:

- ربنا ينصركم على من يعاديكم.. روحوا منصورين بعون الله..

ومشى "عبده" ورأسه في الجريدة... يتحسس بعينيه حروف العناوين الكبير محاولا القراءة.. ثم لوح بها وانطلق:

- والله براوة يا فلسطين... دا احنا عرب مين يعانينا وسيوفنا ذهب مين يعادينا...

وتابع "عبده" مشيه متجها إلى شارع عزيز، بينما سعد يحكي لـ "عبد الرافع" عن هجوم البوليس ليلة الأمس على بيت "أمين أفندي" ومحاولة تفتيش بيت"عبد الحي"..

وزفر "شوقي" بعنف... كانت نفسه تجيش وهو يحاول أن يتكلم ويحكي ولكنه لا يعرف من أين يبدأ... ولم يكن من السهل عليه أن يصدق ما يسمعه عن "عطا الله" و "شوكت المغربي"!..

ولئن كان من الممكن أن يصنع "شوكت أشياء كالتي حكاها "عبد العزيز" نقلا عن صديقه ضابط المباحث، فإن المستحيل أن يصنع "عطا الله" شيئا كهذا.. جاسوس!.. أنت يا "عطا الله"؟.. أنت الخطيب الذي هز أعصاب التلاميذ حين اقتحموا المسرح وبدأ ساعتها أنه لا يهاب شيئا ولا يمكن أن يخاف من شيء، وأنه مستعد للدفاع حتى الموت عن الشيء الذي يؤمن به..؟!.. لم تكن يا "شوقي" في الأيام الأخيرة تطيق أن يناديه أحد باسمه الساخر القديم "بلية"، وكنت على العكس مستعدا لأن تمسك بخناق أي واحد يسخر به أمامك، حتى "سعد" نفسه!.. ليس "عطا الله" مثل "شوكت المغربي".. إن "شوكت" هذا ولد سخيف ناقص يسرق الكتب ويحشر نفسه مع المتعجرفين، وهو يتعرض لأخت "سعد" وربما كان يحكي بفخر عن ابتسامتها له وهو جالس مع الثقلاء في ملعب التنس.. ولكن "عطا الله".. الذي يتحدث دائما عن

الكرامة والصدق والكبرياء.. هـذا فظيـع وخـانق ومثيـر للدموع! وانفجر "شوقي" بغتة:

- تصوروا!.. تصور يا "عبد الرافع" ان الواد "شـوكت المغربي".. و "عطا الله".. الأستاذ "عطا الله".. شوف المصيبة السودة... تصور انهم اعترفوا.. شهدوا على "عبد الحي"... قالوا كل حاجة!

وامتلأ وجه "عبد الرافع" بالاستنكار والقلق والاشـمئزاز والخوف فقاطع "شوقي":

- آه؟!.. بتقول إيه؟.. مش ممكن!! مش معقول؟. مـين قال لك كده؟
- فقال "شوقي" بضيق وكأنه يبحث فـي أعماقـه عـن أرض يستقر عليها قلقه:
- يا أخي أنا متأكد ان ده حصل... متأكد من الحكايـة دي زي ما أنا متأكد انك أنت عبـد الرافـع وان ده سعد!

ثم أكمل بصوت متوتر جاف:

- ده الضابط اللي جه امبارح يفتش هو اللي قال لعبد العزيز أخوي.. طلعوا أصحاب زينا من زمان.. وعبد العزيز موصيني ما أقولشي لحد!

وتوقف "عبد الرافع"، و "سعد" ينظر إلى وجه "شوقي" باهتمام ودهشة وقال "سعد".

- طيب يا "شوقي" دول ما يقدروا يودونا كلنا في داهية..

وسحب "عبد الرافع" أنفاسه في بطء كبير وقال في تأمل:

- اسمع يا سعد... البوليس السياسي ساعات يعمل حاجات زي دي علشان الناس تشك في بعض.. وبالطريقة دي يمنع الطلبة من الاتفاق على أي إضراب أو أي شيء.. أنا باقول لك كده... ثم إنهم لو كانوا اعترفوا على زملائهم كانوا اعترفوا علي أنا وادوا البوليس عنواني... طيب إيه رأيك ان مندوب المدرسة الإسماعيلية ساكن جنبي وقبض عليه أول امبارح الفجر.. والبيت جنب البيت!

فقفز "سعد" محتدا:

- هو حد عارف عنوانك!.. إذا كنا احنا مش عارفينه حايعرفه الواد بليه والا الواد شوكت؟!.. هو دا دليل يا أستاذ عبد الرافع؟!.

ووجم "عبد الرافع"، ولم يستطع أن يفتح فمه... وغاض لونه قليلا وعيناه تدوران في الفضاء...

وهمهم "شوقي" بصوت تستريح نبراته على اليقين:

- يا سيدي اللي بيسرق كتب أصحابه يقدر يعمل أي حاجة... اسأل الشيخ حمزة دبوس يحكي لك كتير عن الواد شوكت..

وأكمل "شوقي" في صوت مضطرب النبرات:

- لكن عطا الله يعمل كده! غريبة!؟

فقال "سعد":

- غريبة ليه يا شوقي... انت بتاكل من البلف بتاعه.. انه يعرف السياسيين الكبار، وانه مش عارف ايه!! أصلك انت فلاح يا أخي وهو بيضحك على العبط اللي زيك!.. ما هو رزق الهبل ع المجانين!!..

وعندما اقتربوا من باب المدرسة كانوا صامتين... ومروا على دكان الشيخ "حمزة دبوس" فاستقبلهم مرحبا، واستوقفهم يسلم عليهم قائلا:

النهارده اليوم الموعود... و...

فقاطعه "عبد الرافع":

- انت يعني مهتم بالمسألة قوى كده ليه كأنك واحد من المدرسة... كأنك عضو في جمعية من الجمعيات اللي حلها الناظر؟!

فأكمل الشيخ "حمزة" مقهقها... وهم يسيرون!

- ﴿**وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ**﴾!... أهو ان شاء الله يطلع الناظر بتاعكم زي أصحاب الأخدود!... ده جه من الفجر والمدرسين كلهم.. مش عارف إيه العبارة! ...

وتلفت الأصدقاء الثلاثة إلى بعضهم البعض في دهشة... ليست هذه عادة الناظر ولا المدرسين، فهم لا يحضرون إلا قبل دخول الفصول بدقائق قليلة...

ودخلوا المدرسة: أنفاسهم تتابع، وعلى الوجوه تحفز وهجوم.

ولاحظوا أن المدرسة تكاد تكون خالية... لا أحد في الفناء.. كل تلميذ يدخل من باب المدرسة يلتقطه أحد المشرفين ويأمره بالتوجه إلى فصله... وإذا دخل أكثر من تلميذ معا، فرق بينهم أحد المدرسين أو أحد ضباط المدرسة... وحتى في الصالة الكبيرة أمام الفصول بالدور الأول لا يوجد أحد على الإطلاق إلا مدرس هنا أو مدرس هناك.. لا تجمعات.. ولا كلمة إلا رد مقتضب عن استفسار يوجهه طالب!.. لماذا هذا الإجراء الغريب؟!.. ماذا يعني هذا كله.. لماذا ألغي طابور الصباح؟! ...

وهمهم "عبد الرافع":

- وده جوابه ده!... هو ده رد الناظر على العريضة؟ يظهر أن المسألة حاتنتهي بالإضراب!

وزعق أحد المشرفين على "سعد" و "شوقي":

- بسرعة يا أفندي ما حدش يمشي جنب التاني... كل واحد لوحده!

وتلكأ "عبد الرافع" في سيره وهو يرى "ميخائيل أفندي" مقبلا مكشر الوجه...

وهمس "ميخائيل أفندي" لـ "عبد الرافع":

- الناظر قرر ردا على العريضة إعادة الجمعيات الملغاة ووقف نشاطها مؤقتا... وألغى كل الفسح...

وقاطعه "عبد الرافع" بعجب:

- يعني تبقى الجمعيات موجودة ومش موجودة في نفس الوقت!.. ثم إيه يعني الإجراءات دي كلها؟!

ولوح له "ميخائيل":

- ادخل انت فصلك دلوقت بسرعة... كله سيتضح بعدين... على كل حال هو عامل اجتماع بعد الحصة الأخيرة للمدرسين اللي وقعوا العريضة... دلوقت نشوف إيه آخرة الجو الإرهابي ده.. ده راجل بارع.. ومداور أكتر من الإنجليز أنفسهم.

ودخل "عبد الرافع" الفصل... وتوالى دخول الطلبة إلى فصولهم واحدا بعد واحد.. والمدرسون والمشرفون يروحون ويجيئون بسرعة غير مألوفة..

ودق جرس الصباح في المدرسة خلال الهمهمة والتوتر، وإشفاق مبهم من المجهول!

(١٢)

صوتك الدافئ يا "سعاد هانم" يعمـــر المـــخ!.. معـــذور "عبد الحي" معذور!.. قلوبنا معك في شدتك يا "عبد الحـــي"، يا بطل!.. ربنا يعيدك بالسلامة إلينا وإلى مدرســـتك.. ولـــم نعرف قيمتك في قلوبنا إلا بعد غيابـــك.. لـــم نكـــن نحـــس بوجودك في الشارع إلا حين يرتفع صوتك مرخما: كيا سعا فيمن دعا سعادا.." والآن بعد ما انطفأ نور شـــقتك وأغلقـــت شبابيكها ولم يعد أحد يراك أو يسمع صوتك، شعرنا لغيابـــك بحزن فادح، كذلك الحزن الذي نشعر به حين تخطـــر لنـــا ذكرى إنسان عزيز بعد مرور سنوات على فقـــده... هكـــذا تشعر اليوم يا "شكري" حين تتذكر ابنك الشهيد والمرحومـــة زوجتك.. صورتها في الصالة فوق الراديو الجديـــد.. تقعـــد تحتها تماما "سعاد هانم"، تتكلم بصوتها الخفيض المشـــحون المنكسر، ذي البحة الغريبة، وإلى جوارها امـــرأة الأســـطى "عبد المعبود" تبادر كلما ارتفع صوت الراديو رائقا صـــافيا، فتستعيذ بالله وتصلي على النبي كأنها ترقيه مـــن العـــين!!..

اختشي يا امرأة... لا تعومي على عوم ابنتــي "ســميرة"!.. لا تجرحي "سعاد هانم" هكذا يا "أنيســة"، فعينهــا الجميلــة لا تحسد، وإنما تشعل النار فــي البــدن المنطفــئ!. عيــب يا "شكري"!. هذا والله عيب كبير!.. لا يجب أن تفكر هكذا!. المسكينة "سعاد هانم"!. لماذا يا "سميرة" يا ابنتــي تلســعينها بنظرات متحدية وكلمات خاطفة؟!..

لا تخافي.. لو كنت ولدا يا "سميرة"!.. لو عاش لي ولــد، لطلب مني بنفسه أن أتزوج!..

ربما قبلت يا "سميرة" ذات يوم أن يتزوج أبــوك بعــدما تتزوجين أنت ويشاركك حياتك رجل يفهم حاجات الرجــال، وتعرفين أنت من أسرار الحياة وأمورها أبعد ممــا تعــرفين اليوم!...

ولكنك يا "شكري" لا يجب أن تفكر في هذا كلــه الآن... الباب يخبط وأنتم في الصالة لا تسمعون!.. طبعا.. فصــوت الراديو يشغلكم.. افتحي يا "سميرة".. هــل أقــوم أنــا مــن حجرتي وأفتح، أم تترك درية المذاكرة وتشتغل بوابــة لــك يا ست سميرة؟!.. ما الذي شغلك هكذا وجعلك لا تســمعين

الخبط على الباب..!؟ " كرهت حبك من كتر صدك"؟!! كلام فراغ.. قلة حياء!..

- اقفلي الراديو يا بنت يا "سميرة"!..

ودخلت "سميرة" مضطربة بعض الشيء إلى حجرة أبيها بعد أن أغلقت الراديو وهي تقول:

- "عبده" جايب الورقة دي لحضرتك.

وتقدمت في حجرة أبيها والشقة كلها يغمرها الصمت والتهيب.

ورن صوت "شكري عبد العال" وهو قاعد على كرسيه:

- أنا قلت لك مرة قبل كده، ان الراديو ده مجعول علشان تسمعوا القرآن أو حديث أو تدبير منزلي أو أي حاجة مفيدة مش الكلام المخنث ده عن الحب، والصد وقلة الحيا..

وبلعت "سميرة" ريقها، وطأطأت وهي تغمغم:

- حاضر يا بابا.

ولم تشأ أن تقول إن "درية" هي التي طلبت منها أن تعلي الراديو لتستطيع أن تسمع أغنية "كرهت حبك" وهـي علـى مكتبها.

وتعالى صوت "سعاد هانم" من الصالة في عتاب:

- وفيها إيه لما الولاد يسمعوا غنـا؟ ده النبـي عليـه الصلاة والسلام سمع الغنا يا شكري بيه.

واختنقت "سميرة" بمشاعر متناقضة، ولمعت في عينيهـا دمعة، واحتقن وجهها وهي تسمع النبرة الغاضبة من صوت أبيها تلين وتنعم:

- يا ست سعاد أنا ما باحرمشي أولادي من حاجة.. لكن مش لازم يسمعوا الغنا ده.. ما فيه مغنى كتير!..

وخرجت "سميرة" وصوت أبيها يرتفع:

- تعال يا عبده.. ادخل.. ازي الدكتور عبد العزيـز؟.. ازي الأستاذ عبد اللطيف و "شوقي أفندي"؟ أسـيادك كلهم بخير؟..وتأزم "عبده" وبـان الاحتجـاج علـى وجهه، وتعثرت الكلمات بشفتيه.. وقال كأنما يؤكـد سخطه على كلمة أسياد هذه:

- شوقي أفندي قال لي أدي الورقة لحضرة الصاغ شكري بيه. وان ما لقتوش هاتها وتعال.. قال لي كده قدام الأستاذ عبد اللطيف.

وأخذ "شكري" يعيد قراءة الورقة بصوت مرتفع وهو يمصمص بشفتيه ويهز رأسه بإعجاب!.. "حضرة العم الفاضل شكري بك، أرجو أن تتفضلوا فتسمحوا لي بأن أستعير كتاب الطبيعة الجزء الثالث من كريمتكم المحترمة الآنسة درية.. إذ أنه لم يوزع علينا إلى الآن ونحن مطالبون بشرائه ولا وجود له في المكتبات.. ولدكم المطيع شوقي خليفة".

وطوي الورقة في يده وهو يقول:

- يا سلام!.. أدب وأخلاق وبلاغة.. ربنا يبارك لأبوكم فيكم، والله يا شيخ خليفة انت تستاهل كل خير، عرفت تؤدب أولادك صحيح!.. كده كده!.. عايز يستلف حاجة من درية يقوم يتجه بالكلام إلى أبوها.. ويقول الأسباب كمان.. تعالي يا درية.. تعالي يا بنتي، شوفي شوقي ابن عمك الشيخ خليفة عايز ايه، ابحثي له عن الكتاب ده واديه لعبده.

- وتناولت "درية" الورقة من أبيها وقرأتها ثم ابتسمت قائلة:
- حاضر يا بابا.. ولو أن كتب السنة اللي فاتت دي عايزة تدوير وغلبه.
- وقرأت الورقة من جديد وابتسامتها تملأ وجهها.. ثم أعادتها لأبيها ضاحكة:
- لكن يا بابا ماله كاتب بفقهته كده!... يكونشي اللي كتبها هو الشيخ عبد الحي..

وانقطعت ضحكاتها على طقطقة أبيها المستنكرة وهو يقول متجهما:

- لا لا لا.. ما تقوليش كده!.. عيب كده يا بنتي!

وخرجت تكتم ضحكاتها، وصوت الضحك المكتوم يتناثر من بين شفتيها المضمومتين، و "عبده" يرفع يديه للسماء وهو يتبعها إلى الصالة داعيا:

- إلهي يسمع منك يا ست درية!.. إلهي يرجعك بالسلامة يا شيخ عبد الحي يا أمير!.. ارجع بقى يا شيخ.. كفاية كده حبس ومرمطة.. يا ولداه يا عبد الحي!.. خمس ليالي بزيهم!!..

ودخلت درية حجرتها، ومالت إلى جوار السرير تفتش في كتب السنة الماضية المكومة في ركن الحجرة.

ومشى "عبده" وراءها.. ولمحته "سميرة" من مكانها في الصالة متجها إلى حجرة "درية"، و "درية" في جلبابها المنزلي منحنية تبحث بين الكتب فنادته "سميرة" بغضب:

- تعال يا واد انت يا عبده هنا.. ما تدخلشي أودة ستك درية! وهيه كمان موطية بتدور على الكتب.. عيب كده!..

- وحملق "عبده" فيها، ونقل نظراته بينها وبين الست "سعاد" و "أنيسة" زوجة الأسطى "عبد المعبود" وتزاحمت الكلمات على لسانه، فقال وهو يخبط رأسه بيده في حيرة من لا يعرف كيف يرد الإهانة:

- ما تيجي تاخديني كفين وتريحي نفسك.. اتفضلي.. ما تضربيني لحد ما أقول لك "أنا مرة".

وضحك "شكري" من داخل حجرته، وناداه:

- انت يا واد عبده بتكلم رئيس النقطة في بلدكم والا إيه..

واستطرد "شكري":

- اسمع يا عبده.. سيدك الدكتور بيعمل إيه دلوقت؟

وأجابه "عبده" بسرعة وضيق شديد:

- أهو بيذاكر.. الدكتور بيذاكر.

وعاد إلى حجرة "شكري بك"، وزوجة: عبد المعبود" تداري ابتسامتها ملوحة بذراعيها في ظهر "عبده" قائلة في صوت خفيض:

- جاتك عفرة تعفرك.. والنبي انت مالك قعدة في مصر.. حقك تروح تشتغل غفير في بلدكم بدل الغلب اللي رامي نفسك فيه.. خدام ومعرور من الخدمة!..

وارتفع صوت "عبده" من حجرة "شكري بك":

- إلهي وانت جاهي تاخد شهادة الخدمة يا دكتور عبد العزيز ويعينوك بعيد عن مصر.. نفسي يا اخواتي أبعد عن مصر وبلاويها.. عاوز اشتغل تمرجي بس في بلد تانية غير البلد دي.. أنا عارف بس الباشمهندس ما قضاليش شغلة الهندزة ليه؟!.. والنبي يا سي شكري بيه أنا زهقت من البلد دي خالص.. وحياة النبي.. دا أنا قاعد هنا ملطشة للحريم في شارع عزيز.. اللي تاخدني كفين من الباب

للطاق، واللي تشخط وتنطر، واللـــي فـــاكراني عبـــد عندها.. القصد.. آه يا زمن؟ أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل.. وأيام بتيجي على الحر الكريم ينذل.

- واستغرق "شكري" في الضحك، وشعر "عبده" براحة وهو يرى كلماته تهز الرجل الوقور على كرسيه.

وقال له "شكري" وهو يحاول أن يخلص من ضحكه:

- اللهم اجعله خير.. روح قل للـــدكتور عبـــد العزيـــز يخلص مذاكرة بقى ويلبس ويستناني.. أنـــا حـــافوت عليه بعد ربع ساعة بالكتير. الله يجـــازي شـــيطانك يا عبده!..

فقال "عبده" مستنكرا محتجا:

- هو حد يقدر يدخل أودة الدكتور من غير هو ما يطلبه دلوقت؟!.. هو معقول ينزل ويسيب المـــذاكرة؟!. دا فاضل له على الامتحان قيمة شهر.. والنبي يا ســـي شكري بيه تشوف مرسال غيري للشغلة دي!.. بلاش تعرضني أنا للإهانة والأذية.. بلاش في دي!..

وعاد "شكري عبد العال" يقهقـــه كأنـــه يريـــد أن يغمـــر الهمسات الحزينة التي كانت تملأ نفسه من أول الليل.. وشعر

أنه يريد أن يتكلم طويلا مع "عبده" وأن ضحك من جديد ولكن درية نادت من حجرتها:

- تعال يا عبده خد الكتاب لسيدك.

وتمتم "عبده" وهو يسرع من حجرة "شكري" بك" إلى باب الشقة الخارجي:

قطيعة تقطع "عبده" وسنينه!.. انتم مفيش حيلتكم غير سيدك وستك والكلام اللي يوجع القلب ده؟!..

وأكمل وهو يفتح باب الشقة ويقف خارجه:

- عبده ما بيجيش.. أنا ما بدخلش أود الحريم.. هاتي الكتاب هنا.

ودخلت "سميرة" إلى حجرة "درية" فأخذت منها الكتاب وخبطت به يد "عبده"، وأغفلت وراءه باب الشقة وهي تهمهم:

- ضربه!..

ونزل "عبده" السلالم وهو يتحسس الكتاب بيديه وينظفه من التراب، وعبر الشارع عائدا إلى بيته، وحلقه يشرق من التراب.. وتمتم لنفسه بسخط:

- بس عاملين لي هوانم وشاطرين تتأمروا وكتبكم عليها شبر تراب؟! جاتكو شوطه! عاملين بتوع كده!! قـال يعني!!

وتقدم ببطء يطلع سلالم بيته درجة بعد درجة.. ومر بباب شقة "عبد الحي" فوجدها ما تزال في الصمت المظلم.. وتنهد "عبده" وشعر بحسرة تفيض في أعماقـه وتوشـك أن تـدفع الدموع إلى عينيه.. وأمسك بباب شقة عبد الحـي وغمغـم بصوت كالأنين وهو يتصعب:

- يا والداه.. يا خسارة يا عبد الحي!..

وأسرع بالكتاب إلى "شوقي" الذي كان يجلس أمام مكتـب "عبد اللطيف" وسأله "شوقي":

- إيه ده يا عبده؟ انت غبت كده ليه؟! طب أهو الدكتور عبد العزيز كـان عـايز شـاي ومتعطـل علشـان خاطرك..

ورد "عبده" بثبات:

- آهي العطلة جايه له لحد هنا.. آهو سي شكري بيـه جاي وعايزه يلبس علشان ينزلوا مع بعض.

وأمسك "عبد اللطيف" الكتاب من يد أخيه "شوقي" وقلبه ثم قربه من أنفه كأنه يحاول أن يشم رائحة الأنثى فيه وعاد يقرأ الاسم المكتوب عليه ويلقي على "شوقي" نظرة باسمة عريضة:

- خد يا عم.. "درية شكري".. ذاكر واتهنا.. يمكن نحب الطبيعة وتخش علمي..

ولم يرق كل هذا لـ "شوقي"، وتناول الكتاب من أخيه، وفتحه بعناية.. وأضاءت أمامه الحروف التي كتب بها اسم "درية شكري" وخفق قلبه بسرعة وهو يقلب الصفحات ويقرأ على هوامشه ملخصات متناثرة بخط درية.. خطها الأنيق النحيل!

ورفع رأسه عن الكتاب فوجد أخاه "عبد اللطيف" يراقبه مبتسما فأغلق الكتاب بسرعة واحمر وجهه.

وتابعه أخوه عبد اللطيف بقوله:

- الله؟! سبت الكتاب ليه؟ هو انت سالفه علشان تذاكر فيه والا علشان تحطه قدامك وتتغزل فيه؟

وأحس "شوقي" كأن عبد اللطيف يداهمه ويكشف ستره!. وغاض جسمه بحرارة تلذعه وتحسس جبينه ولم يجب!..

وعاد يفتح الكتاب في صمت، بينما كان "عبد العزيز" يزعق من حجرته البعيدة ويلعن "عبده" وأيامه ويحمله تبعة زيارة "شكري عبد العال"..

ورجع "عبده" من حجرة عبد العزيز محرجا ضيق الصدر يحدث نفسه:

- دهدي؟!.. مش عايز تقابله ما تقابلوش.. وراك مذاكرة وامتحان وما عندكش وقت له ابعتني أقوله له كده.. وأنا مستعد أهه.. وماله؟ الله! خبر إيه؟.. كل حاجة عبده عبده!!.. وأنا مالي؟ هو أنا اللي حانزلك وأضيع لك وقتك؟ ما هو صاحبك؟ شاطرين بس أول ما تشوفوا بعض تشدوا المسخرة على خلق الله!..

وذاب صوته في ضجيج الوابور الذي أوقده في المطبخ ووضع عليه الشاي..

وقام "عبد العزيز" من مكتبه ومشى وحده في الصالة يسب ويلعن فقال له "عبد اللطيف" دون أن يغادر حجرته:

- يا أخي روح اتفسح لك شوية وابقى ارجع عوضهم.. دي حتى فرصة علشان تنظم في مخك المعلومات اللي ذاكرتها.. احنا عندنا أستاذ مدني كان طول

عمره الأول.. ومعاه دكتوراه من فرنسا بدرجة الشرف ومن رأيه إن أحسن طريقة للمذاكرة أن تقطعها للترويح عن النفس.. ده يجدد نشاط الذهن ويخلي الإنسان أكثر استعداد لتلقي لمعلومات جديدة ويمكنه من انه...

فقاطعه "عبد العزيز" وهو ينفخ من الضيق:

- اتلهى يا واد انت بلاش فلسفة.. أستاذ مدني إيه؟ دا طب مش قانون!.. اسمه طب مش الكلام الفارغ اللي بتقروه!

وضحك "عبد اللطيف" وظل "عبد العزيز" يتمشى في الصالة حائرا: الفسحة مع "شكري بك" حلوة ممتعة ليس لها مثيل، ولكن الساعة التي تضيع الآن لا تعوض يا "عبد العزيز"! غير انك الآن لا تفهم ما تقرأ.. ربما كنت في حاجة إلى فسحة صغيرة لتنشيط ذهنك!.. "عبد اللطيف" له حق! كلام أستاذ المدني هذا معقول!.. اسمع.. كم صفحة ذاكرت في الساعتين الأخيرتين؟ ياه!.. ثلاث صفحات!!.. هذه ليست مذاكرة.. كنت سرحان! أنت تذاكر في الساعة عشر صفحات على الأقل.. نعم يحسن أن تتفسح الليلة..

اذهب يا "عبده".. روح ناد "شكري بيه".. الفسحة مع "شكري بيه" تجلي الدماغ، وساعة مذاكرة بعدها أحسن من خمس ساعات الآن.. خير عند ربك من ألف شهر!!..

ودخل "عبده" إلى حجرة "عبد العزيز" يحمل الشاي.. فتناول منه الشاي ووضعه أمامه على المكتب إلى جوار كتاب ضخم مفتوح، وشرد قليلا عن الشاي والكتاب..

وقال "عبده":

اشرب الشاي قبل ما يبرد.. دا خيره في ناره..

فالتفت إليه "عبد العزيز" وزر عينيه.. أيطلب منه أن يذهب ليستعجل "شكري بيه"، أم يلبس هو وينزل، أم يعدل عن هذا كله ويقعد الليلة في البيت يحاول أن يذاكر؟!..

وقبل أن ينطق بكلمة، دق باب الشقة الخارجي.. وأسرع "عبده" يفتح.. الحمد لله!!... جاء "شكري بك" بنفسه، وقطع الشك باليقين.

وقام "عبد العزيز" يغسل رأسه ويلبس بسرعة ملابس الخروج.

وترك "شكري" مع أخويه "عبد اللطيف" و "شوقي"، فلما دخل عليهم في حجرة الصالون بادره "شكري" بقوله:

- إيه الوجاهة دي كلها؟!

كأنما كان شكري يلفت نظره إلى أناقته هو نفسه.. بدلته الجديد الكحلي، والقميص الحريري الأبيض الهفهاف ودبوس الياقة على كرافتة سوداء جديدة يلمع فيها فص مشبك ذهبي.

وضحك "عبد العزيز" وهو يتأمل أناقة "شكري" قائلا باقتضاب:

- ده احنا لازم رايحين نغزو الليلة!..

ولم يعلق "شكري" على كلام "عبد العزيز" بغير الابتسامة والنظرة الخاطفة، والتفت إلى "شوقي" يستأنف الحديث الذي انقطع عند دخول "عبد العزيز".

- فاهم يا "شوقي" يا ابني؟.. أنا كنت باقول لك إيه؟!. أيوه: كون الناظر يرجع لكم الجمعيات، وفي نفس الوقت يفرض عليكم النظام الإرهابي اللي قلت لي عليه ده... دا اسمه كلام فراغ.. وسكوتكم على الحكم دا اسمه كلام فارغ برضه.. إيه اللي كل واحد ينشغل في عمله ومذاكرته؟!. ثم ازاي تقبلوا تأجيل موسم جمعية الخطابة؟ ازاي.. هو خايف ليه من التجمعات في المدرسة!.. هه؟ وازاي تقبلوا أن اجتماعات

التمثيل تبقى في المرسح اللي حاتمثلوا فيه الروايـــة.. يرميكم كده في تيارات عماد الدين؟!.. الله الله علـــى التربية!.. إيه ده؟.. تقعدوا مـــن أول حصـــة لآخـــر حصة بدون فسحة وتخرجوا من الحصص على الغدا وبعدين على بيوتكم؟!.. هو فاكركم غـــنم؟!.. وازاي تسكتوا يومين كاملين على أوضاع زي دي؟!

وأسرع "شوقي" يقول:

- لا، على كل حال هو تراجع برضه.. رجع لنا "ســـعد داود" من زمان غصب عنه.. ورجع لنا الجمعيات.. وعلى كل حال احنا أبلغناه عن طريق المدرسين انـــه إذا فصل أي واحد من اللي وقعوا العريضة أو سحب منه المجانية فاحنا حانعلن الإضراب.. وأبلغناه أنه إذا استمر العمل بهذا النظام حانضرب.. بس ما حددناش ميعاد للإضراب.. أصل الأسطى عبد المعبـــود قـــال مرة كلمة الواحد حاططها قدام عينيه على طول.. قال لنا حاسبوا من الإضراب أحسن دا لو إضراب واحـــد ما نفعش تبقى مصيبة، واللي انتم عـــاملين إضـــراب ضده ياكلكم أكل بعد كده!.. والحقيقة ان فيه تلامـــذة

خايفين من الإضراب.. أصل التلامذة اللي كان قبض عليهم وطلعوا بيقولوا لنا عن حاجات وحشه خـــالص حصلت لهم.. وحضرتك عارف ان الناظر أقســـم أن كل تلميذ حايضرب رايح يسلمه للبوليس بنفسه هـــو مش حايطرد حد من المدرسة.. لكن بيهدد بالبوليس.

وانفجر "شكري" بغتة:

- إيه الكلام الفـــارغ ده؟!.. الأولاد دول بيلعبـــوا فـــي وسطكم لعبة مرسومة!.. الأولاد اللي كانوا محبوسين دول لازم.. لازم جواسيس وعملاء للبوليس وبـــرادع للإنجليز..

وتدخل "عبد العزيز" بسرعة في الحديث يغالبـــه إشـــفاق على أخيه من تأثير كلمات "شكري":

- هه يا "شكري بك"؟.. مستعجل ننـــزل والا نشـــرب حاجة؟..

فوقف شـــكري وتحـــرك نحـــو البـــاب، وهـــو يرمـــق "عبد العزيز" الذي سبقه إلى باب الشقة..

ونزلا معا.

ووقف "عبده" يقول لـــ "شوقي":

- ما هو حقيقي كلام ما يدخلشي المخ. بقى مدرسة فيها ألفين تلميذ بشنبات ما يقدروش على راجل واحد؟!.. ناظر إيه وبتاع إيه؟!.. دا لو كان ناظر النظار ما يقدرش يقف قدامكم!. وده كلام إيه اللي بيقوله الأسطى عبد المعبود ده كمان!؟.. إيه اللي إضراب ينفع وإضراب ما ينفعشي.. هو فيه حاجة ما بتنفعشي!.. طب ما تسأل الأسطى عبد المعبود، كانوا بيعملوا إيه زمان في نسيم باشا ده ذات نفسه؟!.. ما هو حاكي لي.. دا من عشر سنين كانت البلد كلها عامله إضراب ضده وبيتقال له في وشه: إخيه يا نسيم يا أبو عقل تخين.. وأهو كان عنده بوليس وجيش وإنجليز ودنيا هايصة.. بقى مش خارج من إيدكم تعملوا كده في حتة ناظر لا هو هنا ولا هناك! ولا يحتكم حتى على غفير.. يا خسارة يا رجالة!..

وقبل أن يتكلم "شوقي" زمجر "عبد اللطيف" في "عبده":

- اسكت بقى خلينا نذاكر. امشي ادخل جوه في المطبخ.. بلاش كلام في السياسة.

وانسحب "عبده" مهمها:

- والله خسارة يا عبد الحي.

وبدأ يرسل أول كلمات من موال: "السبع لما انحبس.."

ولكن "عبد اللطيف" نهره بعنف وأمره أن يهس.

وسكت "عبده"، ووضع كل من "شوقي" و "عبد اللطيف" رأسه في كتابه.. وبعد قليل سأل "شوقي":

- أقوم أذاكر على مكتبي في الصالة.. يمكن تكون انت عاوز تقرأ بصوت عالي؟!..

فقال "عبد اللطيف" باقتضاب:

تكونش انت عاوز تطلع تدردش مع "عبده" في السياسة.. والا تخبي مجلة تحت الكتاب وتقعد تتسلى فيها!..

وسكت "شوقي" واستغرق في القراءة قليلا.. ثم سأل:

- تفتكر الدكتور عبد العزيز راح فين مع شكري بيه؟..

- ولم يجبه "عبد اللطيف".. ونظر إلى أخيه طويلا، فأحس "شوقي" من نظرات "عبد اللطيف" أنه ما زال صغيرا بحيث لا يجوز له أن يسأل إلى أين يمضي أخوه الكبير مع رجال كبار..!

ورفع "شوقي" صوته كأنه يهرب من المأزق الذي وضعه فيه سؤاله:

- تعرف يا عبد اللطيف؟.. تعرف؟.. كلام شكري بيه ده معقول خالص!.. الواد عبده له حق.. لازم المدرسة تضرب كلها، أو على الأقل لا تخضع.. تعرف؟ ما أنا قلت لك قبل كده!.. والله العظيم ده لما الناظر حل جمعية الخطابة والتمثيل الواحد منا كان حايعيط.. الدمعة فرت من عين عبد الرافع.. بقينا عايزين نزق التلامذة كده ونروح نهد الدنيا على دماغ الناظر..

- ولم يجب "عبد اللطيف"..

صحيح.. كل ما يقوله "شوقي" صحيح.. يجب أن يهدوا الدنيا على رأس الناظر. يجب أن يضربوا أو على الأقل فليتمردوا على النظام الذي وضعه لهم.. ولكنه هو لا يستطيع أن يطالب أخاه بالمخاطرة!

وسمع "عبد اللطيف" صوت أخيه "عبد العزيز" ينادي من الشارع، فأسرع، يفتح الشرفة، وطلب "عبد العزيز" منه أن يرسل البالطو مع "عبده" فالدنيا ثلج!

وعندما نزل "عبده" بالبالطو كان "شكري" يعود من بيته هو الآخر. والبالطو على كتفه.

وسارا معا في برد الطريق المظلم..

وهمس "عبد العزيز" و "شكري بك".

- بتقول احنا رايحين عند "شويكار"؟!.. مش دي قريبة عديلة هانم مرات داود أفندي؟ طب افرض رحنا لقينا المغفل داود هناك؟! تبقى سهرة إيه دي؟! لا يا عم! المذاكرة أحسن!

فلكزه "شكري" بغيظ تخالطه ضحكة مكتومة ودفعه إلى أمام:

- يا أخي لا! اسكت!.. اسكت خالص.. ما تنطقش إلا لما نطلع من الشارع.

ومش "عبد العزيز" بجوار "شكري" وأمامهما في الأفق يختلط الشجر والنخيل بالليل.

***

وحين دخلا أول شارع في الحلمية شعرا بالأرض صلدة تحت الأقدام، وتابعا المشي إلى جوار البيوت ذات الأسوار والحدائق!.

وأطلق "شكري عبد العال" ضحكة رنت في الصمت المظلم وهو يهز "عبد العزيز":

- بقى أنا عاوز أسهرك سهرة ملوكي في بيت شويكار هانم، تقوم تقول لي داود!؟.. يا أخي دا عديلة هانم دي من الفرع المايل في العيلة.. انت دلوقت حاتخش في بيت واحدة أبوها باشا وخالها باشا، وجوزها..

وقطع كلامه ليطلق ضحكة أخرى، ثم أكمل:

- جوزها الشرعي يعني موظف كبير في السراية الملكية... لسه عرسان من أسبوعين!!

ودار رأس "عبد العزيز".. وتفتحت نفسه للمغامرة.. ومشى بسرعة، ولكن "شكري" أمسك به:

- اتقل يا دكتور.. تقل رجلك شويه، كل ما تتأخر كل ما يكون أحسن. مش بيقولوا كل تأخيره وفيها خيره..

ونقل "شكري عبد العال" خطواته ببطء.. وتوقــف قلــيلا على منعطف شارع ومشى خطوتين، ثم استدار وهو يبصق على الأرض واتجه إلى شارع آخر وهو يقول:

- بلاش الشارع ده.. فيه بيت نسيم باشا..

فقال له "عبد العزيز":

- يا أخي هو احنا في إيه والا إيه؟ هو احنا رايحــين مظاهرة؟

ولم يرد "شكري" على "عبد العزيز".

وتابع سيره في ثبات وثقة، وأحــلام المغــامرة الغريبــة المقبلة ترسـم صـورا بــاهرة فــي الظــلام أمــام عــين "عبد العزيز"؟..

(١٣)

طعم الخمر مازال في حلق "عبد العزيز" منذ أول أمس!.. لم يعرف غير البيرة من قبل، أما في تلك الليلة فإنه ظل يشرب "الكونياك"، وأصبح مصدع الرأس، يعاني إحساسا حزينا.. لكم شرب حتى فقد القدرة على ضبط نفسه، وظل يردد الغناء، وأخيرا قام فرقص!.. مر يومان، ومع ذلك، فمازال طعم الكونياك في حلقة!!

لو أن أباه علم!.. لو أنه رآه يشرب لوقع الحاج "خليفة" من طوله مغشيا عليه!!

إن "عبد العزيز" يعاني خجلا غريبا من "شوقي" و "عبد اللطيف" أخويه الصغيرين على الرغم من أنهما لا يعرفان.. وحتى من "عبده"!..

وهو لم يستطع منذ أول أمس أن يواجه نفسه!..

"الكونياك"؟!.. أيمكن إذن أن ينقلب إلى سكير يفقد كل شيء من أجل كأس من "الكونياك"!؟.. أعطته الكئوس نشوة

وألهبت كل حواسه، وحلت عقدة لسانه، ولم يعد متحرجا من "شويكار هانم"، وانطلق يضحك ويتصرف بحرية، ولكنه في الصباح شعر بكل هذا شائنا مهينا، وبأنه في أعماقه مذنب!.. وظل طوال اليومين لا يستطيع أن ينجو من إلحاح هذا الشعور بالذنب..

مع ذلك فلو أن "شكري" دعاه مرة أخرى، فسيذهب مع إلى هناك بسعادة وإقبال وشراهة، ويرد غناء "رجاء صدقي" ويشرب نظراتها بعينيه، ويختلج على الدعاء المختلج من شفتي "شويكار"!..

شويكار..!

إنه مازال يذكر وجهها البديع بالعينين الواسعتين والأنف الطويل الواسع الفتحتين الذي يمنح جمالها طابعا خاصا حريفًا! ونهديها، ودلالها، وتطوحها وهي تغني بعد أن سكرت!.. ليت "شكري" يدعوه الليلة أيضا.. ولكن لا.. مستحيل!

هو لا يستطيع أن يرى "شكري".. إنه خجلان من "شكري" أيضًا!.. كان يجب يا "عبد العزيز" ألا تفقد صوابك إلى هذا الحد.. بدوت طفلا صغيرا أمامهم، ونظر إليك "أدهم

بك" بغيظ واستصغار وأنت تتمايل، و "شويكار" تسندك في آخر السهرة، ولهب يسري في نخاعك، ويستنهضك ويناديك!!... ساعتها قام "أدهم بك" بنفسه فسلمك لـ "شكري عبد العال"، وهمس في أذنه بكلمات غاضبة.. أكان يؤنبه لأنه جاء بك؟.. أنت لم تشعر بحب لهذا الرجل، ولعله هو أيضا كان يحس بك ثقيلا على قلبه.. لماذا قعد هو بعد أن قمت أنت و "شكري"؟.. ولماذا لم تخرج "رجاء صدقي: هي الأخرى؟.. إيه.. كان "شكري" متضررا من وجودها أول الأمر.. وعاتب "شويكار هانم" لأنها أحضرتها وهي من جيرانه.. ولكن "شويكار" أخذت تمزح!..

عجيب "شكري عبد العال" هذا!! انه مع ذلك داعب "رجاء" طويلا!! داعبها بوقار وظرف، ولم تتجرأ هي عليه أبدا.. ظلت تقول له عم "شكري بيه".. مع أنها كانت تلقب "أدهم بك" باسمه مجردا.. وكانت البنت تضحك وتغني وترقص، وتكاد تنط، وتجري كأنها تريد أن تشق المكان، وتمتص السجائر بشراهة كما لو كانت تمتص رحيق الحياة، وتشرب بجنون كأنها تصفي حسابها مع الدنيا، ثم تسعل حتى ينقطع منها النفس!.. لكم كانت مثيرة للرثاء وهي تسعل،

بقدر ما كانت رائعة نفاذة وهي تــرقص وتغنـــي وتركــب الحروف على بعضها وتصنع كلمات جديدة يضـــحك منهــا الموجودون!..

مثل هذا النوع من الفتيات الصغيرات لا يمر بـــلا أثــر يا "عبد العزيز"!! في الحقيقة أنت تريد أن تسهر مرة أخرى مع نفس هذه المجموعة، حتى "أدهم بك"!! إن نظراتـــه إلـــى "شويكار هانم" مسلية جدا، ولكم راق لك يا "عبد العزيــز" أن تتأمله يتودد لــ "شويكار" ويحاول أن ينـــال رضـــاها، هـــو العجوز الذي يكبرها بمثل عمرك أنت!.. وزوجها بعد ذلـــك قاعد مهيب الطلعة طويل نحيل فاخر، يشرب ويضحك فـــي صمت، ويتابع "رجاء" بنظرات حذرة.

كل ما في مثل هذه السهرات بديع، لا يشبع منه القلـــب.. ولكن خسارة، فالحلو لا يكمل.. لو كان من الممكـــن تأجيـــل هذه السهرات إلى ما بعد الامتحان!!

الوقت يزحـــف بســـرعة مخيفـــة.. وليلـــة تضـــيع الآن لا تعوض يا عم "شكري"!..

ولكن "شكري" وقف في شباكه ينادي "عبـــده".. وعنـــدما أسرع إليه سلمه ورقة لــ "عبد العزيز".

وحين فرغ "عبد العزيز" من قراءة الورقة، رماها على مكتبه بخوف، وخبط الكتاب بعصبية!.. لا..!.. مستحيل لن يسهر بعد الآن، لن يشرب "الكونياك" هذه الليلة أيضًا، ويصبح في غده يلفحه الندم ووهج الخمر في رأسه وحلقه!!.. يكفي أنه سهر ليلة الأمس، وهو منذ يومين لا يستطيع أن يستقر على حال..

لا.. لا يا عم "شكري"!.. أنت رجل موظف ليس لديك شيء تصنعه بوقتك إلا مثل هذه السهرات، أما نحن... فطلبة... طلبة.. وراءهم امتحانات ومستقبل وأهل يدفعون دم قلبهم في التعليم وينتظرون النتيجة على نار!..

ستمر الساعة العاشرة تماما لنخرج معا إلى سهرة عندها؟!.. جميل والله!!... تفضل مر على يا سي "شكري" وابحث عن الذي يخرج معك!... كم الساعة الآن؟!.. السابعة... يعني بقيت ثلاث ساعات!!.. ولكننا أيام المذاكرة نكون في حاجة إلى يوم مؤلف من ثلاثين ساعة يا رجل!!... آه... هذا هو الشهر الأخير وبعده لا مذاكرة إلى الأبد!!

ولم يشأ "عبد العزيز" أن يرد على الورقة التي أرسلها إليه "شكري" وظل يذاكر بانفعال واستغراق وحماس، ولم يعد

يشعر بشيء، وكأنما تفتحت كل حواسه وتحولت إلى طاقات تلتهم ما يقرأ...

وتوقف فجأة وهو يلمح عقارب المنبه أمامه على المكتب تشير إلى التاسعة والنصف.

وقلب الصفحات التي قرأها في أول الليل.. وأدرك أنه استوعب كمية من الصفحات – في ساعتين ونصف – أكثر مما يستوعبه عادة في خمس ساعات... وعاد يقلب الصفحات التي كان يجب أن يذاكرها في نفس الليلة، ورآها قليلة جدًا... تكفي لها ساعة من مذاكرة الصباح.

إنه يستطيع أن ينهض في الغد قبل موعد استيقاظه المعهود بساعة واحدة فيأتي عليها هي الأخرى.. وهكذا لا يتعطل!.. أن أولى ساعات الصباح هي أكثر ساعات المذاكرة بركة وإنتاجا!..

قم يا ولد قم وانبسط الليلة أيضًا!... قم فالعم "شكري" لا يطيق أن تعتذر له... ولئن كان هو يترك لك تقدير وقتك ويسألك في أدب أن تذهب معه إن كان لديك وقت، إن واجبك أن تكون أكثر أدبا، فلا ترد طلبه... ربما جرحت شعوره إن اعتذرت... إنك تملك الوقت... فقم. البس البدلة

الكحلي والكرافتة الحمراء البديعة التي مازال "عبد اللطيف" يطمع فيها.. ما أبدعك يا "شويكار" وأنت تقولين لي... متعابثة ولسانك ثقيل من كثرة الشراب: "يا ولد!".

لماذا تعلقين عينيك الواسعتين وتضمين شفتيك الدسمتين وأنت تنظرين إلي أنا؟ ألا تعرفين أنك تغرسين اللهب في قلبي!! ...آه! وزوجك الأنيق الفضي الشعر جالس لا يتكلم!

***

ودخل "عبد العزيز" بيت "شويكار هانم" للمرة الثانية بعد يومين بالضبط من أول مرة دون أن يفارقه تهيبه الذي صحبه في اللحظات الأولى من زيارته السابقة... ونظر إليه "شكري" فوجده يعبث بعلبة من الكريستال موضوعة أمامه على مائدة رخامية... ويداري فيها اضطرابه، وأوشك "عبد العزيز" أن يهشمها، فقال "شكري" مبتسما:

- انت مدهول كده ليه؟!.. ما تتفرد كده يا أخي... دا الجماعة سألوا عليك امبارح، وكنت حانزل أجيبك بس ما حبتش آجي لك وأنا شارب!! تصور! تدخل هنا أول امبارح لأول مرة في حياتك يقوموا

يشعروا بغيابك تاني ليلة على طول.. لازم على كده تيجي كل ليلة!..

وضحك "عبد العزيز" وسحب يديه... وكأنه يفتش عن مكان لهما... ووضع يدا في جيب البنطلون، ومضت يده الأخرى تتحسس عنقه والكرافتة... بينما وقف "شكري" يتأمل في باب زجاجي كبير مغلق يفصل بين حجرة الصالون التي يجلسان فيها، وحجرة أخرى تضج بضحك نساء..

وقال "شكري" متعجبا:

- غريبة قوي!.. الساعة عشرة وربع والمقابلة لسه ما خلصتشي.. دي "شويكار" قايلة لي انها حاتخلص تسعة ونص!..

ولم يجب "عبد العزيز".

وأوشك أن يسأل "شكري" إن كانت شويكار هانم" لم تستثقل وجوده عندما جاءها أول أمس لأول مرة.. ولكنه عدل.. كان يجب أن يسأل عن هذا قبل أن يجيء... وهو يذكر على كل حال أنها ضاقت به أول الليل، ولكنها في آخر السهرة ظلت تداعبه، بطريقة ضايقت "أدهم بك"!!! على أن

"شكري" فاجأه وهو يرقب "شويكار" تتحرك من وراء البـاب المغلق وخيالها ينعكس على زجاج الباب:

- بس يا عم أهي جايه اهه... باقول لك هوستنا عليك امبارح لحـد جوزهـا مـا قـرب يغيـر!!.. دي مستلطفاك قوي يا ولد!.

ونطق "شكري" كلمة يا ولد بنفس الرنة العابثة التي تلقيها بها "شويكار"، فضحك "عبد العزيز" في زهو وأذاب كثيـرا من حرجه.

ودخل خادم في قفطان أبيض يدفع أمامه عربة زجاجيـة عليها كئوس كثيرة ودورق من الكريستال الفاخر يتوهج بـه الكونياك وأطباق بها فستق ولوز مقشور...

وعندما استقر الخادم أمام "عبد العزيـز" انحنـى وتهيـأ للانصراف، فاستوقفه "عبد العزيز" بخفة:

- خد هنا... لمين ده كله؟... امال فين أهل الله؟ فـين الجماعة؟!..

وأشار "شكري" إلـى الخـادم أن ينصـرف، ثـم قـال لـ "عبد العزيز" وهو يكتم الضحك:

- حلمك!.. احلم!

وخطف "عبد العزيز" نظرة سريعة على الظلال المنعكسة على زجاج الباب من ورائه، بينما كان "شكري" الجالس قبالته يحملق في زجاج الباب مهمهما:

– الله دي شويكار غيرت رأيها!.. قعدت!.. الله!... لكن دي مين اللي واقفة دي؟.. دي حاترقص.

وتعالت تصفيقة "على الواحدة" وأنغام البيانو تتصاعد بدور قديم، بينما انعكست على زجاج الباب صورة امرأة سمينة تتمايل على النغم وتقذف بنهديها وبردفيها ويتثنى خصرها في نشاط لا يحتمله امتلاء جسدها!. من الشدة؟

وقام "شكري" وأوشك أن ينظر من خصاص الباب... أليست هذه هي صديقة "شويكار" اللي كانت تملك ذات يوم أجمل جسد في زمانها، رقصت عارية تماما أمام "الملك فؤاد"!؟ ما أسعده!.. ما بالها سمنت!.. طبعا.. إنها الآن أم لبنت تزوجت... كان زوجها يفخر بأنه يملك الكنز الذي كان للملك ذات مرة!... الله يقويه زوجها التيس!... هو الآن موظف كبير جدا حصل على الباشوية منذ عام واحد، مع أن "شوقي بك" أمير الشعراء مات بحسرته على الباشوية!! أوضاع يا "شكري"!... ولكن ما لنا ولهذا كله الآن؟؟. تأمل

يا "عبد العزيز"!.. تأمل يا ولد كيف تتثنى المــرأة!... أنــت لا يمكن أن تصدق أن في الدنيا أشياء غريبة مثل هذه المرأة وحكايتها مع الملك ومع زوجها!... ولكن ماذا تعــرف مــن الدنيا أنت؟!.. أنت لا تعرف إلا شــارع عزيــز، ومغــامرة صغيرة بعد زجاجة بيرة، أو قبلة تخطفها من خد بنت تريدك وهي ترتعش!.. أتعرف فضائح الدنيا وأغوار المدينة وأسرار الشوارع الكبيرة يا ولد!.. لا يمكن يا ابــن الحــاج "خليفــة" الطيب أن تتصور كيف تجري الحياة في بعــض القصــور خارج شارع عزيز!... ولكنا نحن يا أولاد شــارع عزيــز لا يعجبنا العجب، وما نصدق أن نرى مــا لا يعجبنــا فــي الشارع حتى نستلمه ولا نخلص منه أبدا!! كل مــا اســتلفت نظرك يا "عبد العزيز" من سهرة أول أمس ســلوك "رجــاء صدقي"... أنا تضايقت من مجرد وجودهــا، فمــا يليــق أن نسهر مع واحدة من الشارع، ولكنك أنت لم تتضــايق، بــل على العكس كنت تضحك لكلامها ونكاتها وتطرب لرقصــها وغنائها وكنت تغرس عينيك في عينيها أحياناً بشكل ملحوظ، وبطريقة ضايقت "شويكار" التي لا تحب أن يلتفت أحد إلــى سواها... ومع ذلك ظللت أنت على طوال الطريق – ونحــن

راجعان – ترص لي الشتائم في "رجاء صـــدقي"!.. كانـــت البنت محتشمة أكثر من "شويكار"، ولم يغازلها أحد إلا أنـــت ولم تتهد لسواك يا "عبد العزيز" ولم تشتبك نظراتهـــا بغيـــر عينيك.. ولكنك كنت ســـاخطا عليهـــا، تتهمهـــا بالتبـــذل!.. يا سبحان الله!. يا أخي افهم حاجـــات النـــاس ولا تحـــاكمهم بقسوة.. إنها تغني هنا بثمن ألا تفهم؟.. تأخذ جنيهـــا لتحيـــي ليلة انشراح عند "شويكار" وتعود البنت إلى أهلها بســـلام!.. هذا خير من أن تذهب مع رجل أو ربما عدة رجال لتعـــود بهذا المبلغ إلى أهل يعيشون على عملها وأنـــت تعـــرف؟.. وعلى أية حال، فما شأنك بخلق الله يا أخي؟!.. البنت تشرح صدرك بغنائها ورقصها وكلامهـــا وأنـــت تمـــلأ طريقـــي بشتمها!.. كـــان مـــن المعقـــول أن تشـــتم زوج "شـــويكار" نفسها!... على كل حال ربما لم تجئ "رجاء صدقي" الليلة.. ربما كان عندها عمل في المسرح أو لعل "شويكار" اقتنعـــت بأنني لا أرغب في وجودها فتحرجت من دعوتها.. إنها لـــم تسهر عند شويكار بالأمس ولم تكن "شـــويكار" تنتظرهـــا!.. يعني قطعنا عيشها!.. الله يلعنك!! أنت تحكم علـــى "رجـــاء" بقسوة لأنك تعرفها وتعرف أنها فقيرة، وعورة الفقراء كبيرة

أما عورة الأغنياء فمستورة!.. ولكن اسمع... من هذه التي تغني بصوت له بحة حلوة.. الله أكبر هذا (الصوت) أعرفه! ارفعي صوتك يا ست بوحائد الست "منيرة المهدية"!..

واصطدمت رأس "شكري" بالباب وهو يجهد لاختلاس النظر من خصاصه... فارتد مباغتا في خجل، وارتفعت ضحكة "عبد العزيز" بينما كان أدهم الذي جاء منذ مدة يضحك قائلا:

- يا شكري إوعى تكسر الباب!... ما تفتحه وتخش عند الحريم أحسن!... ما هي شخلع تستاهل أكتر من كده...

وضحك "شكري":

- والله ضبطتني... جيت امتي يا أخويا... والله أنا ما شعرت بيك!... وقاعدين ساكتين كده ليه؟

وسلما على بعضها البعض و "شكري" يكمل:

- بقى دي "شخلع" اللي بترقص دي.. أنا كمان قلت مين يعرف يرقص كده! تعرف أنا الأول افتكرتها مين؟... أنا فكري راح...

فتدخل "عبد العزيز" مقاطعا بصوته المرتفع دائما:

- شخلع دي إيه كمان يا جماعة؟!.

وقال "شكري" بسرعة ليسكت "عبد العزيز":

- عالمة!.. عالمة مشهورة يا أخي!.. هو أنت عايش قفي قمقم..

ثم استطرد:

- والله عرفت تقفشني يا "أدهم". والله دا أنا فكري راح إلى "جلفدان هام"... افتكرتها "جلفدان".

فضحك "أدهم بك" قائلا باستعلاء من يعرف أسرارا كثيرة:

- جلفدان؟!.. اللي رقصت عريانة قدام الملك من كام سنة؟! هي فين جلفدان؟ دا انت بقى اللي عايش في قمقم يا مبارك!.

وقام يفرغ لنفسه كأسا ثانية من الدورق، وأفرغ كأسا لـ "شكري" وهو ينظر إلى كأس "عبد العزيز":

- اشرب يا دكتور... يعني ما تشربشي إلا لما تيجي "شويكار هانم" بنفسها وتفتتح السهرة رسمي؟!..

وأمسك "عبد العزيز" كأسه بشيء من التردد، ومد يده إلى طبق اللوز وأخذ يعبث بحباته ويتناول منها على مهل، بينما التفت "أدهم بك" إلى "شكري بك":

- أنت ما تعرفشي يا مبارك ان جلفدان" هربت مع ولد صغير يبقى صاحب جوز بنتها؟. دول عايشين في اسكندرية على طول.

وحملق "عبد العزيز" في دهشة بالغة.. و "شكري" يقول ببساطة:

- لكن طلقت والا لسه على ذمة جوزها!..

ورد "أدهم":

- هو يقدر يطلقها.. دول كانوا يسحبوا منه الباشوية!.

ورنت ضحكات الرجلين، و "عبد العزيز" مازال يحملق... وأوشك أن يسأل عن الحكاية..

ولكنه بلع كلامه.. وبل ريقه بأول جرعة من كأسه.. وأحس في جوفه بنوع من الري والثقل والخدر اللذيذ...

وفجأة سأل "شكري":

- لكن مين اللي كانت بتغني جـوه دي.. أنـا فـاكر الصوت ده.. دي مش "شخلع"!.. لكن أنا سـمعتها قبل كده...

فأجابه "أدهم" بخفة:

- دي البت المفعوصة بتاعة شارعكم دي اللي كانـت هنا ليلة أول امبارح.

وأمسك "عبد العزيز" كأسه بيده، وارتشف جرعة أخرى، ووجم "شكري" ثم رفع كأسه وهو يقول:

- آه.. رجاء صدقي!

واستطرد "أدهم" وهو يسمع ضجة النسـاء ترتفـع مـن الحجرة المجاورة وطرقعة قبلات تختلط بالضحكات:

- يظهر ان الستات نازلين..

ثم همس:

- الست "شويكار" فاهمة انها حاتعمل من البنـت دي "أم كلثوم" تانية.. تعرف البنت اللي كانـت بتسـهر قبلها هنا كانت حلوة صحيح... لكن بطلت تيجـي..

تعرف ليه يا مبارك؟.. الست "شويكار" بتغير منها. فاكرة ان اللي بييجي هنا بييجي علشان البنت!..

وعاد "عبد العزيز" ينظر إلى "شكري" مستغربا، وشعر بنفسه شديد الغباء فسأل ساخرًا:

- الواحد قاعد مش فاهم حاجة أبدًا.. قاعد زي الحمار! أنا عامل زي الفلاح اللي لسه جاي من بلدهم.. إيه الحكاية!. هي الست "شويكار" مش متجوزة من أسبوعين؟.. مش جوزها اللي كان قاعد معانا أول امبارح!..

فقال "شكري" ضاحكا:

- يا أخوي ما انت فاهم!... يعني حاتستعبط في دي كمان!... يا واد بلاش الحاجات دي على عمك!..

وفتح الباب الزجاجي الكبير الذي يفصل بين الحجرتين... وتقدمت "شويكار هانم" في فستان أسود لامع على صدره وردة كبيرة بيضاء، وهي في كامل زينتها، ومن ورائها "رجاء صدقي" في فستانها الصوف الأحمر.

وتقدمت "شويكار" عارية الكتفين، ملفوفة الخصر، بارزة النهدين والردفين، وعندما وقفت أمام "عبد العزيز" رفعت

حاجبيها في دهشة، وهي تبتسم، وأسنانها وعنقها وعيناها وكل شيء فيها يكاد يضيء... ومدت ذراعها إلى "عبد العزيز" ماسة كفه بأناملها وهي تقول في دلال:

- الله... انت جيت يا ولد!... أهلا! كنت فين امبارح؟

فأمسك "عبد العزيز" بيدها مسلما مستمتعا بدفء ملمسها.. ولم يترك يدها وهي واقفة أمامه تبتسم... وتلعلع! ...

وأطلقت ضحكة صغيرة وهي تحاول أن تسحب يدها، ونظراتها تنتقل في غندرة بين "عبد العزيز" و "شكري"، و"أدهم".. وتأفف "أدهم"، ورمق "عبد العزيز" بعينيه، فقال "شكري" ضاحكا:

- الله؟.. ما تسيب إيديها يا ولد انت حاتكلها والا إيه؟!.

ولوحت "رجاء صديقي" بيدها ورأسها وهي تنظر إلى "شويكار" و "عبد العزيز"، ثم تقدمت ضاحكة:

- يا سلاس! ...

وأدرك أنها تريد أن تقول: "يا سلام"!. بتلاعبها الذي عرفه بالحروف. فضحك بخفة وطلاقة.

وعندما جلست "رجاء" وجلس "عبد العزيز" كانت "شويكار هانم" تدير كتفها لأدهم بك بعد أن سلمت عليـه "وشـكري" ينحني برشاقة على يدها فيقبل أطراف أناملها مـرة، ويقبـل كفها كلها مرة ثانية، ثم يمد يده فيداعب ذقنها متلطفاً:

- أهلا أهلا بالقمورة... انتي وحشتيني خالص.. مـن الساعة عشرة واحنا منتظرين.. انتي الليلة حاجـة شيك خالص.. حاجة تمام... أيـوه كـده.. أيـوه.. الحلاوة واللطف!..

وضحكت "شويكار" وقعدت منفلتة في رشاقة من شـكري الذي حاول أن يشم الوردة من على صـدرها.. و "رجـاء" تضج:

- يا سلاس.. اوعى الوردة البيضاء!

بينما أخذ "شكري" بتعليق "رجاء"، وكأنه تذكر امتعاضـه بوجودها، فنظر إلى "شويكار" بعتاب صـامت... ولاحظـت "رجاء" تحرجه فقالت ضاحكة:

- ما تبقاش درام يا عم "شكري بيه".. دانتو وحشتوني قوي امبارح.. أنا كنت عاوزة آجي امبارح.. لكـن عرفت إن الدكتور عبد العزيز كمان ما جاش!

وانفجرت ضحكة "شكري" بارتياح، ونظر إلى "رجاء" بطيبة كبيرة، و "عبد العزيز" يتأمله معجبا بخفة حركته ورشاقته ولطفه وهو يداعب "شويكار" عندما كان يسلم عليها!..

وقامت "شويكار" تملأ كأسا لها وكأسا لـ "رجاء" وهي ترفع كأسها قائلة:

- أما الليلة في المقابلة "رجاء" غنت حتة دور... والنبي ولا "أم كلثوم"!... لازم تغنيه لكم تاني..

فزفر "أدهم بك" بضيق وتحسس شعر رأسه المصبوغ قائلا:

- أم كلثوم؟!... بقى كل واحدة تغني لها كلمتين تبقى أحسن من أم كلثوم.. وأي جورنالجي هلفوت يكتب له كلمتين يبقى أحسن من طه حسين.. وان طلع واد يمدح له الملك ببيتين شعر مكسورين يبقى أحسن من شوقي بك!... وأي سنكوحة بقت أحسن من "فاطمة رشدي"!... والله عال!! ده إيه ده؟ ووجم الجميع... وأحست "شويكار" هانم بحرج فالتفتت إلى "أدهم بك" مستنكرة، ونقل "عبد العزيز" نظراته بين

وجه "أدهم" المتحدي، ووجه "رجاء" الــذي اصــفر فجأة، وشعر "عبد العزيز" بأنه يجب أن يرد الإهانة عن "رجاء"..

ولكن "شكري" رفع كأسه قائلا ليغير الجو:

- في صحتكم... في صحة "شويكار هانم". وشــوقي بيه وطه حسين وأم كلثوم ورجاء صدقي كمان!!

ولاح على "رجاء" وهي ترفع كأسها وتشرب أنها تحاول أن تتماسك.. واختلجت عيناها لحظة، غير أن الابتسامة بدأت تغمر وجهها... ودقت الأرض بقدمها وهزت رأسها وجسدها في حركة تهريج وقالت ضاحكة وهي تمط الحروف:

- القعدة باظت يا جدعان طب وماله..!..

وانفجرت "شويكار" بالضحك..

وتذكر "عبد العزيز" أنه يعرف إنسانا ما يتحــدث بهــذه الطريقة، فالتفت إلى رجاء مبتسما وهو يزري ما بين عينيــه محاولا التذكر، ورجاء تنظر إليه ضاحكة وتميل برأسها في بساطة وهي تعيد:

- طب وماله!.. ومالــ..ــه

ثم استطردت:

- ده "عبده" خدامكم يا دكتور.. كل واحد يهينه بكلمة والا يتضايق من حاجة يرفس في الأرض ويقول وماله!.. وطب وماله!. وضحك "عبد العزيز" و "شكري"..

وقال "أدهم" مستعليا:

- طب سمعينا يا ستي!.. حافضه الدور بتاع أم كلثوم: "إمتى الهوى ييجي سوا وارتاح".. يا سلام عليك يا شيخ زكريا.. ما فيش كده..

وأجابت رجاء:

- لا.. أنا حاقول لك تواشيح يا سي "أدهم".. وبعدين أغني لك دور: يا حلو والله.. أقول لك حاجة من سي عبده الحامولي!.. والا من محمد عثمان.. حاجة تفكرك بشبابك!..

وضحكت "شويكار" قائلة:

- لأ.. عمك "أدهم بيه" مش عجوز قوي كده... يقطعك!.. دا الحاجات دي على أيام جدي!.

واحمر وجه "أدهم"، وبدأ يعبث بشاربه المصبوغ اللامع السواد، المجفف بعناية فائقة.. ثم أخرج علبة سجائره الذهبية، وتحسس سيجارة وتركها، وأخذ سيجارة أخرى فأشعلها في ضيق واضح.

وتدخل "شكري":

- أمال البيه فين الليلة!.. فين البيه بتاعك؟..

فقالت "شويكار" ضاحكة وهي تقوم من مكانها:

- وبتسأل ليه؟..

وضحكت و "عبد العزيز" يبتسم متحرجا من الضحكات المتتابعة التي لم يستطع أن يلاحقها.. أو يفهم سببها!..

وامتلأت الحجرة بدخان أزرق غريب الرائحة ينفثه "أدهم بك".. ووقفت "شويكار" متجهة إليه قائلة بطرب:

- أنت معاك؟!... برافو عليك يا "أدهم بك".. فوت بقى!..

ودهش "عبد العزيز" من الفرحة التي سيطرت على "شويكار" فجأة..

وقفزت تخطف السيجارة من "أدهم" فامتصتها بشراهة غريبة، وكتمت الدخان لبعض الوقت في فمها، ولعبت بفكيها، ثم تركت الدخان يخرج بطيئاً متموجا من فمها وفتحتي أنفها الواسعتين!!.. وأخذت تتأمله في هيمان، ثم مدت يدها بالسيجارة إلى "شكري"، ولكنه نحاها باشمئزاز قائلا:

- أنا ما أشربش حشيش!..

ودوت الكلمة رهيبة في أعماق "عبد العزيز".. ولمح "شكري" ينظر إليه متخوفاً مشفقا.. والتفت "عبد العزيز" إلى "رجاء" فوجدها تعتذر لشويكار متهيبة:

- أنا كمان ما أشربشي.. ما انت عارفة!

ولاحظت "شويكار" الامتعاض الذي ارتسم على وجه "عبد العزيز" و "شكري".. فقامت من مكانها، وتأودت وهي تنظر إليهما قائلة بصوت خافت يكاد أن يكون من أنفها:

- أنا مش متعودة عليه.. لكن أصله بيهدي لي أعصابي!.. أنا أحبه.. أعمل إيه!؟..

وخرجت من الحجرة، فغابت قليلا، و "أدهم" يدخن من السيجارة المحشوة على مهل ويتأمل الدخان الأزرق بتلذذ قائلا باستخفاف:

- على كل حال دي سيجارة واحدة ما فيش غيرها! بلاش فلسفة قوي كده!..

فقال "شكري" بصرامة:

- يا أخي كل واحد حر طبعا.. ولكن أنا ما أحبش مجلس الحشيش!..

وعادت "شويكار" بالعود ملفوفا في كيس أخضر من القطيفة والتقطه منها "شكري بك" فأخرجه بعناية من كيسه، وغمزه بيده.

وسرت أنغام خفيفة ولكن "شكري" توقف، ثم تنهد قائلا:

- والله أنا لو كنت مشيت في العود ده كنت بقيت دلوقت حاجة تانية.. ولكن الدنيا!..

فأخذت "رجاء" العود وهي تقول:

- يا عم شكري باقول لك خليك كوميدي! ما تبكيش على الدنيا ما تبقاش درام!..

وأعطت العود بدورها لـ "شويكار"، فبدأت "شويكار" تلعب بأوتاره... وانطلق نغم جميل... وعكفت "شويكار" على العود لحظة واستغرقها النغم، وبانت فاتنة في وجومها... ثم نحت العود فجأة لتقول بجد:

- تعرف يا شكري... تعرف البيه فين... سعادته مصاحب جديد... واحنا لسه في شهر العسل!!

ثم استدركت ضاحكة:

- مخاوي!.. قال على رأي جحا: واحد شال معزة وقع، قال هاتوا التانية!..

وضحك الجميع، وسأل "شكري":

- ومين المعزة التانية دي بقى!. لكن هو مش قادر على الأولانية صحيح؟

فقالت "شويكار" بتجهم:

- معزة حقيقي!.. بنت قد أولاده!.. من نوعه.. بتشتغل في شباك تذاكر سينما.. بنت طليانية طمعانة في فلوسه! يا للا! يغور بيها الفلاح ده! بكره تشرب المقلب! أصله بسلامته هيئة كده وملو

هدومه والواحدة اللي تشوفه تقول ياما هنـــا يامـــا هناك.. واللي تحت القبة لا هنا ولا هناك!..

وارتفعت ضحكات من جديد وضاع احتجاج عبد العزيـــز على تعريضها بالفلاحين في عجبه من تعرضـــها برجولـــة زوجها.. وذابت الضحكات و "رجاء" تخبط الأرض وتتمايل برأسها وجسمها قائلة:

- طب وما... له!

وانفجر "أدهم بك" قائلا:

- ما تسمعونا حاجة بقى.. على ما قسم! ...

وعادت "شويكار هانم" تلعب بأوتار العود برأســـها علـــى النغم الراقص قائلة لـــ "رجاء":

- وري عملك يا بنت!

ووقفت "رجاء" تضـــحك... وتتمايـــل... ثـــم اســـتغرقها الرقص... ومالت على شويكار" بدلال وهمست لها:

- والنبي اضربني لي آه يا اسمر اللون..

"آه يا اسمر اللون حبيبي الاسمراني"..

"أسمر وعيونه سود حتى الكحل رباني"..

وأقبلت نحو "عبد العزيز".. وبدت له بعد الكأس الثالثة كإحدى فتيات قريته... بسيطة طيبة، لها نفس الوجه، ونفس الصوت.. وسألها وهو يكاد يحتضنها بنظراته:

- انت من أي بلد؟.. انت لك مأساة؟..

ولكنها اربدت فجأة... ثم عادت فابتسمت:

- يا أخي ما تبقاش درام انت كمان!
- وتابعت الرقص، ودارت طويلا، وهي تعيد الأغنية بتلذذ حزين... واسترسلت إلى أغنية أخرى و "شويكار" تتابعها بالعود...

وفجأة سعلت وسعلت.. وكممت فمها بكفها.. ولكنها وجدت على كفها دما... فشهقت... وظلت تسعل... وسال دم جديد على كفها.. وتأملت كفها وأدارتها بعيدا عنها.. ثم صرخت في فزع هائل وارتمت على كتف "عبد العزيز" وتشبثت به:

- دم!! دم!!. الحقني يا دكتور؟!. حاموت يا دكتور!..

(١٤)

أصبح "شوقي خليفة" متعب النفس.. كأن في أعماقه خوفا مبهما من أشياء لا يعرفها تماما...

ولم يكد يفرغ من ارتداء ملابسه حتى شعر بأنه يريد أن يجري إلى الشارع... إلى المدرسة أو إلى أي مكان آخر... ولكن الجو خارج البيت كئيب. لا شمس في السماء، والسحاب كثيف، وفي الشارع هواء بارد..

واستوقفه أخوه "عبد اللطيف" يسأله:

- انت نازل بدري كده ليه؟... مالك؟ من يومين كده ما انتش طبيعي؟ ...

ولم يجب...

وتبعه "عبده" إلى السلم قائلا:

- طيب مش تفطر؟..

ولكن "شوقي" ذهب في صمت، وهو يضم كتبه إلى صدره في عصبية... وتوقف أمام شقة "عبد الحي" التي تقابلها شقة الممثلة "رجاء صدقي".

وفكر في أن يدق باب الممثلة ويدخل ليتكشف سر زيارات أخيه "عبد العزيز" المتكررة في النهار والليل...

لم يعد "عبد العزيز" كما كان.

منذ تلك الليلة التي سهر فيها مع "شكري بك"، وهو يتردد على شقة "رجاء صدقي" بلا انقطاع، ويتحدث عنها بلهجة غريبة... ويخرج كثيرا في الليل! ...

"سعد داود" يقول إن "شكري" و "عبد العزيز" سهرا عند قريبة أمه "شويكار هانم"، وهناك رقصت "رجاء صدقي" وغنت طويلا، ثم سعلت بعد ذلك وبصقت دما... وحملها "عبد العزيز" في عربة حنطور وعاد بها إلى بيتها...

أيكون "عبد العزيز" عاشقًا للممثلة "رجاء"؟!.. أيصنع مثل "أرمان دوفال" مع "مرجريت جوتيه"؟!... ولكن أبوك يا "شوقي" لو عرف فلن يصنع كما صنع الأب "دوفال"... وماذا تصنع أمك لو عرفت أن ولدها المرتجى يعيش في مأساة كمأساة "غادة الكاميليا"؟!

ما كان يصح يا "عبد العزيز" أن تعمل هكذا... أن تخيب أمل أمك وأبيك... أيمكن أن تنجح الآن في امتحانك؟! ...

وشعر "شوقي" وهو يتذكر أمه وأباه في البلد بأشياء عديدة مضطربة تنفجر من أعماق نفسه، وتكاد تدفع الدموع من عينيه... وهمست في أعماقه كلمات حزينة فاجعة من رواية "غادة الكاميليا.. المسرحية التي أخذه إليها "عبد العزيز"، منذ عام، وعاش أياما بعدها تهمس في أذنيه نغماتها الحزينة البائسة!... إنه اليوم بالذات يذكر "مرجريت جوتيه" وهي تصرخ في وجه مصيرها: لماذا كتب عليها الشقاء!... لا ممثلة مثل "روز اليوسف" تملك كل هذه الهالة وهي تتحرك على المسرح!..

واستدار "شوقي" إلى شقة "عبد الحي" وأوشك أن يطرق بابه... ولكن خاطرا حزينا مر به...

وتذكر أن "عبد الحي" لم يعد بعد!... ما برح في سجنه... في غرفة مقبضة بلا فراش ولا شيء، في مثل هذا اليوم البارد... وربما كانوا ما زالوا يضربونه كما حكى الضابط صديق "عبد العزيز"!.. أنت لن تضعف يا "عبد الحي"... ستظل كالجدار – كما كنت تقول عن نفسك – قادر دائما

على أن تطلق ضحكاتك المجلجلة... كنت تضحك من كل شيء... وبصفة خاصة من جوارك للممثلة "رجاء صدقي"!... أتعرف الآن يا "عبد الحي" أنها استولت على "عبد العزيز" فلم يعد يضحك معنا، ولم يعد يملأ البيت علينا ...؟؟!!

أتعرف يا "عبد الحي" أن عبد العزيز" يروح ويجيء بالحقن والأدوية، لا لأهل الشارع كلهم كما كان يفعل من قبل، وإنما لها هي وحدها؟!. أتعرف أن "رجاء" تبصق دما، وربما التقط "عبد العزيز" منها العدوى؟!..

واندفع "شوقي" إلى شقة "رجاء" فجأة.. ولكن صوت عبده من ورائه استوقفه:

- طب بس خد كل اللقمة دي... كل الساندويتش دهه.. دا نزولك من غير فطار يربي لك الدوخة... خد!... كل وانت واقف زي ما انت... كل يا أخوي.

ولم يستطع "شوقي" أن يقاوم عطف "عبده" وملأه حنين هائل لكل شيء..

ووقف يقضم اللقمة ويبلعها وهو يشعر بطعم الدموع في حلقة. ووجد "عبده" يربت على كتفه بحنان قائلا:

- أنا عارف يا أخويا... ربنا ينجينا ...

والتفت إلى "عبده" في خجل، ولم يعرف ماذا يقول...

وخرج إلى الشارع، وأحس بالهواء البارد يلطم وجهه، وينفذ من ملابسه إلى الجلد والعظام...

ووجد نفسه أخيرا أمام باب المدرسة، وقطرات مطر تسقط على رأسه، وأمامه ضباب لا يبدده شعاع. وشعر بالناس من حوله يروحون ويجيئون في الشارع، وبعض المدرسين يدخلون من باب المدرسة نصف المفتوح!

لا يا "شوقي"... ليس أخوك "عبد العزيز" مثل بطل قصة قلب غانية أيضًا... صحيح كان بطل قصة "محمود تيمور" طالبا في كلية الطب جنى عليه حب غانية من جيرانه في "البغالة"... ولكن "عبد العزيز" لا يعيش وحده... و "رجاء" في النهاية ليست كتلك الغانية أنت تعرف... لم يدخل بيتها رجل غريب، وما فاحت لها سمعة... هذه الفتاة السمراء النحيلة ذات النظرة المتوهجة والعيون السوداء، والوجه الحزين بشفتيه الغليظتين وطابع الحسن على الذقن!...

"رجاء" ليست غانية يا شوقي"!... أبـدا!... ليست كغادة الكاميليا، ولا كبطلة قصة (محمود تيمور)!

وسمع "شوقي" صوت بواب المدرسة يناديه:

- إيه يا افندي!... داخل والا مانتش داخل؟!... خلاص كل المدرسين دخلوا ودلوقتي نقدر ندخل التلاميذ.

واغتاظ "شوقي" من لهجة البواب... وأحس كأن قدرا يتحداه ويطرق على عنقه فصاح بالبواب:

- إيه اللي دلوقتي أقدر أدخل؟!.. طيب ما أنا من ساعة ما جيت أقدر أدخل زي ما أنا عايز.

فقال البواب بغضب:

- لا يا أفندم.. انت غلطان... وهي وكالة من غير بواب؟.. ممنوع دخول التلاميذ إلا بعد دخول كل المدرسين... كل المدرسين يدخلوا الأول وبعدين التلاميذ واحد واحد. دي أوامر سعادة البيه الناظر. بقى لنا تلات أيام تمام ماشيين على كده، حتيجي انت تغلطني. ياللا.. عايز تتفضل جوه اتفضل، مش عايز اتفضل بره كده كده على طول أمر حضرة الناظر كده!

فاقتحم "شوقي" باب المدرسة نصف المغلق. قائلا بصوت مرتفع وهو يتقدم داخل المدرسة:

- ناظر إيه وبتاع إيه!؟ هي عزبة أبوه؟! هي خلاص سابت ديابها على كلابها!؟.

ولقي "شوقي" أمامه "ميخائيل أفندي" مقطب الوجه، ينظر إليه بغضب، في أبوة وإشفاق... والمطر يتساقط فجأة بشـدة ويكون في فناء المدرسة بركا صغيرة من الأوحال.

وأمسك "ميخائيل أفندي" يد "شوقي" وجذبه إلـى الـداخل بعيدا عن الفناء وهو يهمس له!

- يا ابني حاسب على نفسـك... إذا كنـتم عـايزين تتمردوا على النظام الجائر ده لازم تكونوا منظمين نفسكم، بدل ما تروح انت ومعاك تلاتة أربعة فـي داهية والمدرسة تظل تشتغل بعدكم زي المعتاد.

ولوح "شوقي" بيده وهو يشعر بنفسه تكاد تزهق، وبأنـه مستعد لأن يصنع أي شيء:

- إحنا مش داخلين الفصول زي الفراخ بعد كده... إن شاء الله نروح في ستين داهية أنا عايز أروح فـي داهية.

كانت كلماته مختنقة، وكان كل جسده يضطرم بهذا النوع من الرفض الذي يمكن أن يذهب به إلى آخر مدى.

واقترب منه تلميذ، وتلميذان وامتلأت أذنه بعد ذلك بصوت تلميذ آخر يأتي من بعيد من الفناء قائلا في سخرية ثابتة:

- احنا نقف هنا في المطر أحسن... مش داخلين الفصول من تاني زي الغنم... احنا لن نسمح لأحد مطلقا انه يسوقنا... احنا مبسوطين كده من وقفتنا في المطر.

كان هو صوت "عبد الرافع"!.

وانفلت "شوقي" من أمام "ميخائيل أفندي"، وجرى إلى فناء المدرسة ومن ورائه بعض التلاميذ ونظر إليهم "ميخائيل أفندي" متعجبا، ثم هرول وراءهم طالبا منهم أن يدخلوا فصولهم في صوت حاول جاهدا أن يلونه بغضب يخفي الفرحة التي شاعت في أغوار نفسه...

ولكن فناء المدرسة كان إذ ذاك يمتلئ بالوحل، والمطر يتساقط أخف مما كان، والحلقات تتناثر من خمسة أو ستة

طلاب كل حلقة تجادل أحد المدرسين، وتعلن أنهـا تـرفض الإذعان بعد للنظام الذي وضعه الناظر...

وسرت الحرارة من حلقة إلى حلقة، وارتفعت الأصـوات واختلطت، وانسحب بعض المدرسين من الفناء إلـى مبنـى المدرسة..

وانقطع المطر... وبدأت أشعة الشـمس تلـون أطـراف السحاب... وفجأة ارتفع صوت تغوص خشونته الجديدة فـي الرعشـة: "يحيـا الإضـراب".. "الخديويـة لا تسـتعبد.. الإضراب... الإضراب".

والتحمت الحلقات المتناثرة بسرعة غريبة، ودبت الحرارة في بدن كل طالب واهتزت السـواعد، والتمعـت العيـون بالغضب، وفتح باب المدرسة الـذي كـان نصـف مغلـق، واقتحمه طلبة آخـرون، والهتـاف الـراقص "الإضـراب الإضراب" ينطلق كالشرارة الملتهبة!..

ووقف "ميخائيل أفندي" بعيدا يفرط يديه، وإلـى جـواره الشيخ "علي" يهمس:

- أنا كنت متوقع أن هذا سيحدث... هو الناظر فـاهم انه يستطيع اقامة مثل هذا النظام وأنوف الطلبة في

الرغام يعني؟!... يتفضل بقى هو يــرغمهم علــى الدخول حســب النظــام بتاعــه، والا يعنــي لازم يعرضنا احنا لمواقف سخيفة!؟..

- ولم يرد عليه "ميخائيل أفندي"... كانــت الهتافــات تملأ نفسه ببهجة غامرة، وكان قلبه يدق بســرعة، ونظراته على الطلبة.. كلهم ملء الفناء ومن ورائهم الأفق العريض رحــب الشــعاع، ولــذة يخالطهــا الإشفاق تضطرم مع الدم في العروق!

وهمهم دون أن يلتفت إلى الشيخ "علــي" وكأنــه ينــاجي نفسه:

- أنا كنت متأكد أن ده سيقع... بس ما كنش لازم تبدأ انت بالهتاف يا "سعد يا داود"!..

والتهبت أكف الطلبة بالتصفيق على نغمة واحدة بهتــاف جديد ردده الكل في صوت واحد "تحيا مصر... تحيا مصر".

وتألق وجه "ميخائيل أفندي"، وأحس أنه يريــد أن ينــدفع وسط الطلاب ويردد معهم نفس الهتاف، والتفت إلى الشــيخ "علي" فوجده يبتسم والنظرة المشعة تسطع من عينيه، وهــو يهمس:

- إيه... آه لو كنا شباب!!.. آه لو كنا طلبة!

وأقبل الناظر من الداخل مسرعا مصفر الوجه بخطوات حاول أن يجعلها ثابتة، ونظر إلى المدرسين الذين كانوا يتناثرون في حلقات على سلم المدرسة، وأمامهم – في الفناء الواسع – جموع الطلبة تدوي هتافاتهم "تحيا مصر"..

وزعق الناظر في المدرسين:

- انتم واقفين تتفرجوا يا أساتذة!.. جرى إيه يا أفندية!.. دا سلوك تربوي ده؟.. يالله دخلوهم الفصول بسرعة. اضرب الجرس يا فراش..

وأخرج الشيخ "علي" ساعته ببطء من داخل القفطان و "ميخائيل أفندي" ينظر إلى الناظر بسخرية وشماتة، وبعض المدرسين يتحركون مرتبكين مترددين بين الناظر والطلبة.. ووضع الشيخ "علي" ساعته على راحة يده، وأخذ يعبث بسلسلتها الفضية ويدير مفتاح الساعة ببطء وثبات قائلا للناظر وعينه على الساعة:

- لكن دا الساعة لسه سبعه ونصف إلا خمسة، نضرب الجرس إزاي؟ لسه فاضل عشرين دقيقة

على موعد ضرب الجرس ومال الناظر برأسه إلى الشيخ "علي" قائلا بغيظ:

- أنا اللي بامشي المدرسة.. مش ساعتك الحقيرة دي يا شيخ على هي اللي حتمشي المدرسة!..

وفوجئ الشيخ "علي" وحملق في الناظر دون أن يقول كلمة، ثم أدار إليه ظهره وهو يمشي بثبات قائلا بصوت ثابت مسموع وهو يتنهد:

- آه..! داروا سفاءكم.. ساعتي الحقيرة؟!.. لكن الحقارة عند غيري ليست في ساعتهم.. وإنما في نفوسهم!. على كل حال... داروا سفاءكم!

ودق الجرس، وهتافات الطلبة تتعالى بحماس متزايد على نفس النغم الراقص:

"الحرية.. الحرية.. الحرية"

واقتحم الناظر جموع الطلبة وحوله بعض المدرسين... وعندما شعر الطلبة بالناظر يتقدم نحوهم انفجروا بكل طاقاتهم يهتفون "يسقط برادع الإنجليز".

ورفع الناظر يده، وهو يندفع وسط الطلبة وهوى بها على وجه طالب طويل.. واستمر يتقدم وأمامه بعض المدرسين

يشقون له الطريق ويده تهوي على الرءوس والوجوه، وبالذات وجوه أكبر الطلاب وأعظمهم مكانة عند زملائهم.

وفجأة واجهته موجه من زحف الطلبة... واشتعلت الهتافات "يسقط الناظر الجبان".

وانحنى بعض الطلبة على الأرض، وإذا بقطع من الوحل تتناثر وتلطخ وجه الناظر وطربوشه، والهتافات تتأجج "يسقط أذناب الإنجليز!.." "يسقط برادع الإنجليز" "يسقط الاستبداد" "الحرية.. الحرية".

وشعر الناظر كأن قلبه يقف عن الخفقان، وتضرج وجهه بالدم لحظة، ثم شحب تماما.. وأسرع عائدا إلى حجرته، وصوته يختنق في حلقه بالشتائم والوعيد والدنيا تظلم في عينيه!

وحين رآه الطلبة يرجع مسرعا.. أفسحوا له الطريق، وهم يتراقصون من حوله ويقذفون بطرابيشهم وكتبهم في الهواء من الفرح هاتفين في نغم راقص "تحيا مصر" والهواء الدافئ مترعا بشعاع الشمس يمسح حبات العرق المتناثرة على الوجوه!..

وارتفع وراء الناظر صوت طالب.. ملحا على زملائه أن يحملوه ليخطب.. ولكن "شوقي" صاح فيه:

- احنا مش عايزين خطب يا سي عطا الله.. مش احنا نعملها وانت تنط على أكتافنا وتطلع زعيم في الآخر!

ولكن عطا الله وجد من يرفعه على كتفه، ووقف يخطب متحمسا:

"أيها الشباب.. إذا استعان الناظر بالبوليس كما هددنا من قبل فإليكم معامل المدرسة فأحرقوها، ودونكم مبانيها فدمروها.. نحن أسود الخديوية ولن ندخل العرين الينا..".

وامتدت يد "عبد الرافع" فشدت "عطا الله" من كتفه وأنزلته.. ووقف "عبد الرافع" على جذع شجرة مقطوعة وسط طلبة يحتجون على تصرفه مع عطا الله ويطالبون عطا الله أن يكمل، وصاح فيهم عبد الرافع:

"يا أبطال الخديوية.. فلنحذر التهور".

وظل "عبد الرافع" يصيح:

"اسعموا لي أيها الشباب.. اسمعوا يا حماة الوطن..".

غير أن همهمة السخط استمرت و "شوقي" و "سعد" وبعض طلاب قليلين يحاولون تهدئة الآخرين الذي تحمسوا لاقتراحات عطا الله بحرق معامل المدرسة!!

وأخيرا استطاع "عبد الرافع" أن يتكلم وأن يقنع الطلبة ألا يدمروا أو يحرقوا مدرستهم.. إنما عليهم أن يخضعوا الناظر لإرادتهم ويجبروه على احترام حقوقهم المسلوبة!!

وانتهى "عبد الرافع" وسط تصفيق فاتر.. وهمهم "شوكت المغربي".

يظهر أن "عبد الرافع" وشلته تفاهموا مع الناظر!.. وانتقلت الهمهمة إلى طالب آخر وثالث..

واستفز هذا الادعاء طالبا.. فحاول أن يمسك بمن يقوله.. ولكن "شوقي" أسرع إلى حيث كان يقف "عبد الرافع" ودقات متوالية تدوي في أعماقه، ورفع "شوقي" صوته فأحس برنين صوته في أذنيه:

"يا حماة الوطن.. يا أبطال الخديوية".

واندفع يتكلم وسط الطلاب متخلصا من حساسيته بنفسه فحذر أن يوجد بين الطلاب من يريد لهم أن ينقسموا ليكسب

الناظر من هذا الانقسام.. وطالبهم بأن يحافظوا على المدرسة ويضربوا الناظر فهي مدرستهم هم لا عزبة الناظر!

واقسم أن "عبد الرافع" في كلماته إنما يحرص على وحدة الطلبة وهو دائما صادق النظر صائب التفكير.. وطالب "أبطال الخديوية " بأن يحذروا فتنة تعصف بهم.. وانسالت في كلمته جملة خطابية من أحد الأدوار التمثيلية التي يحفظها.. فقال دون أن يدري وهو يختم كلامه:

- إذا رأى الحارس خطرا فصاح، رفع الرجل الظالم عصاه فضربه.. فلنحذر أن توجه الضربة إلى من يحرسنا.. ونحن نثق بـ "عبد الرافع" ممثلا لنا..

وعندما انتهى، ارتفع التصفيق بحرارة، وشعر الجميع بأن كلمات "شوقي" تحمل نذيرا صادقا..

وهدأ التصفيق.. ولم يعرف الطلبة ما يصنعون بعد.. وخلا الفناء من المدرسين.. كانوا كلهم مجتمعين في حجرة الناظر يناقشهم في الأمر.

وخيمت على الطلبة حالة من الفتور والحيرة، وبدأت الهتافات تخف..

فوقف "عبد الرافع" يقترح: أن يطالبوا الناظر بالعودة إلى الحالة الطبيعية، وإعادة الفسح، وحرية الجمعيات فعلا، وإلا استمر الإضراب حتى يعدل الناظر من نظامه..

وعاود الطلبة حماسهم من جديد.. وصفقوا طويلا.. وتقدموا..

تقدموا جميعا إلى داخل المدرسة كتلا متدافعة يرن هتافها في الصالة الكبيرة داخل الجدران "نريد الرد.. نريد الرد.." وزاد رنين الهتاف من حماستهم، واندفعوا إلى السلم الذي يقود إلى حجرة الناظر، وعندما طلعوا آخر درجة من السلم وبدءوا يتقدمون في البهو الواسع أمام حجرة الناظر، وجدوا صفا كبيرا من السعاة، وأمامه صف آخر من المدرسين أمام باب الناظر، والناظر يخرج من حجرته ويطلب من الطلبة بانفعال مكظوم أن يكفوا عن الهتاف لأنه يريد أن يحدثهم كأب.

وسكت التلاميذ.. ولم يعد أحد يسمع شيئا حتى الأنفاس، وتقدم الناظر خطوة قائلا في صوت خفيض:

- أنا عايز أفهمكم اني مش من برادع الإنجليز.. أنا كنت من أبطال سنة ١٩.. أنا كنت من زعماء طلبة المعلمين العليا..

وتقطع صوته وأوشك أن يتهدج، واستمر يقول:

- أنا من الممكن أن أطلب البوليس.. لكن مش أنا اللي أعمل كده مع طلبتي وأبنائي.. أبنائي اللي أنا مهتم بتربيتهم على أحدث نظريات التربية.. أبنائي الذين لم أكن أنتظر منهم أبدا أنهم يعملوا معي ما حصل.. على كل حال أنا ممكن أفصل المسئولين عن هذه الجريمة الخلقية، وممكن أن أسحب المجانية من المشتركين في الجرم ولكني سأعفو عنكم جميعا.. جميعا.. وأنا أفضل أنكم ترجعوا بيوتكم. أنا قررت إعطاءكم النهارده أجازة وبكره نبدأ صفحة جديدة.

وانطلق هتاف "شوكت المغربي" وسط وجوم الطلبة: "عاش الناظر الوطني".

وقاطعه الناظر بازدراء:

- اتفضلوا أنا مش عايز هتافات، مش عايز هتافات يا سي شوكت مرسي قوي.. اتفضل!!

وتحرك "شوكت المغربي" منسحبا ووراءه بعض الطلبة لينصرفوا صامتين متثاقلين، ولكن "شوقي" زعق بغيظ من يدرك فجأة أن قوة غاشمة تعبث به وتحاول أن تستغله:

- لكن النظام الجديد يا حضرة الناظر.. النظام اللي انت فرضته على المدرسة.

وتوتر الجو بغتة..

ولم يجب الناظر.. وبدا على وجهه ضيق شديد، وضم شفتيه بحنق وعضلات صدغه تتقلص، ونظراته تلفح "شوقي خليفة"..

وساد الصمت تماما.. صمت لا تحركه غير دقات القلوب..

ثم تقدم "سعد داود" بين الزحام، ووقع طربوشه.. فتركه في يد تلميذ وراءه وقال برنة خطابية متقنة:

- نريد أن نعرف إن كنت جادا في تغيير النظام أم أنك خدعتنا!..

وانفجرت عاصفة من التصفيق..

ونظر الناظر طويلا إلى "سعد داود"، ولم تـنخفض رأس "سعد".. وظل يواجه النظرات الموجهة إليه بثبات..

وأخيرا قال الناظر:

- يا شاطر بدل ما تحط بريانتين على شعرك بـنص مرتب أبوك. روح قص شعرك أحسن ووفر الفلوس دي لأهلك!..

وشعر "سعد" بتزايل مفاجئ.. ووضع يـده علـى كتـف جاره.. وأمسك بجار آخر من ذراعه وشدد قبضته.. ورنـت في البهو زفرات جزع.. وانفجر "سعد" في نبـرات غريبـة مشحونة موجعة:

- هذا شيء لا شأن لك به. هذا لا يليق بك ولا يحـق لك أن تقوله. وأنا أستجوبك هنا باسم الطلبة.. ماذا ستفعل في النظام الإرهابي الجائر الـذي فرضـته علينا. نحن نرفضه ونرفضه ونرفضه.

وتهدج صوت "سعد" ودمعت عيناه.

ولهب خارق يحتدم في قلوب الطلبة فيضجون بالتصـفيق وصياح الإعجاب، ويحملون "سعد" على أكتافهم.

وحاول الناظر عبثا أن يهدئ الطلبة فالتفت إلى المدرسين مستعينا ولكن الاشمئزاز منه كان واضحا على كثير من الوجوه... وجوه المدرسين والسعادة.. كل النظرات تستلقي على الناظر في استنكار..

ودهمه إحساس مخيف بالوحدة، وسعل في عصبية، وخبط الأرض بقدمه وهو يدير رأسه بسرعة بين الطلبة والمدرسين والفراشين واندفع إلى سعد داود يزعق بعصبية ويأس:

- اتفضل بقى.. اتفضلوا كلكم.. أنا لغيت النظام.. اتفضلوا خلاص.. ارجعوا فوضى زي الأول.. اتفضلوا من قدامي.. اتفضلوا.

وتدافع الطلبة على السلم يركضون ويصفقون ويخبطون كتبهم وحقائبهم بأيديهم في نشوة بالغة.. وتدافعت جماعات منهم تغني "سالمة يا سلامة روحنا وجينا بالسلامة".. والضحكات الظافرة ترتفع، والنداءات تشتبك مع بعضها البعض، وصوت حلقات أخرى ترتفع بأغنية "يا نخلتين في العلالي يا بلحهم دوا.. يا نخلتين على نخلتين بقوا أربعة طرحوا سوا"... وآخرون ينشدون في نغم راقص "الخمسة في خمسة بخمسة و.. عشرين، والخمسة في سبعة بخمسة

و.. تلاتين" وجماعات أخرى تغني على نغمات أخرى راقصة "أدب الدنيا والدين.. أدب الدنيا.. والد.. دين!".

ومشى وراءهم بعض المدرسين يطلبون منهم أن ينصرفوا في صمت بينما دخل الناظر غرفته وطلب أن يبقى وحده.

وقبل أن يغادروا المدرسة ارتفع هتاف: "الخديوية لا تستعبد".. وردده الجميع بكبرياء.. ثم انصرفوا.

***

وانتظر "شوقي" على باب المدرسة يتأمل البواب يصفق بيديه متعجبا ويستعيذ بالله مما جرى، حتى جاء "عبد الرافع" و "سعد".

وفتح "شوقي" ذراعيه لـ "سعد" بزهو وإشفاق.. وعانقه وهو يضحك..

ونادى الشيخ "حمزة دبوس" على الأصدقاء الثلاثة، ولكنهم حيوه وانصرفوا يتابعون سيرهم: كل واحد منهم يريد أن يتكلم طويلا ويسمع طويلا.. وغابوا في زحام درب الجماميز، وصوت الشيخ "حمزة" من ورائهم:

- الله ينجح مقاصدكم، ويكفيكم شر الرجل المؤذي اللـــي ما ينطري ده!..

كان "عبد الرافع" واجما بعض الشيء، و "شوقي" يتحدث عن لعبة الناظر التي كشفها "سعد".. بجرأته!

والتفت "عبد الرافع" إلى "شوقي" قائلا:

- الواد "شوكت المغربي" دا خطر فعلا.

وصاح "شوقي":

- يا أخي باقولك كده من زمان..

وقال سعد:

- لكن شفت ميخائيل أفندي كان مبسوط ازاي؟!..

وأكمل "شوقي":

- وإلا الكلمة اللي خبطها الشيخ "علي" للنـــاظر فـــي عضمه..

وأخذ "سعد" يقلد الشيخ "علي" بمخارج ألفاظه:

- داروا سفاءكم!.. الحقارة عند غيري في نفوسهم!..

ومضى الأصدقاء يتكلمون فيما حدث بزهو ورضى.

ومال "عبد الرافع" إلى شارع الخليج.. وتابع "شوقي" و "سعد" المشي في اتجاه شارع عزيز.

وعندما بلغا أول الشارع... توقف "شوقي" فجأة وقال بامتعاض:

- حانروح من دي الوقت نعمل إيه؟ تعال يا شيخ.. تعال نروح عماد الدين.. دا يبقى الصبح حاجة تانية.. منظره غريب وحزين جدا..

ولكن "سعد" قال له:

- لا يا عم. تعال نروح الأول على الأقل نرمي الكتب.. ونقول لهم في البيت.

وتقدما في شارع عزيز.

وسمعا لغطا غريبا في الشارع.. ونظر كل واحد منهما لأخيه في قلق، وهو يتوقف..

كانت الضجة تنبعث من بيت "شوقي" بالقرب من شقة الممثلة "رجاء"، وتسللت من الضجة ضحكات كثيرة بينها ضحكة غريبة، ووقعت عين "شوقي" على شباك "عبد الحي".. كان مفتوحا..

وصاح وهو يقفز:

- الله؟! الله حي.. عبد الحي!.

وخبط "شوقي" باب "عبد الحي"، بلهفة فوجده مفتوحا، واندفع ومن ورائه "سعد"، و "عبده" يروح ويجيء ويهيص ويدخل ويخرج.

وتعانق "شوقي" و "عبد الحي"..

ولم يستطع شوقي أن يمسك دموعه.. وعاد يعانق "عبد الحي" ومن حولهم ترتفع ضحكات "عبد العزيز" و "شكري عبد العال" و "أمين أفندي" و "عبد اللطيف" و "عبد المعبود".. وصينية محملة بالشربات تهبط من عند "ميمي" يحملها "عبده" قائلا:

- حتى الست "ميمي" فرحانة يا سي "عبد الحي".. وبتسقي شربات في رجوعك!.. ورجالة الشارع كلهم من فرحهم ما راحوش الشغل. حتى التلامذة سابوا المدارس ورجعوا! ألف سلامة يا شيخ عبد الحي.. يا سي عبد الحي أفندي.

(١٥)

هذه الشمس الصفراء يجب أن تكون أنصع شعاعا يا عبد العزيز.. النهار شاحب.. شاحب.. يوشك أن يسعل هو الآخر مثل "رجاء".. لا.. لا.. لا تغلق الكتاب!..

ذاكر يا أخي ذاكر، فلم يعد إلا القليل وتدخل الامتحان وتصبح الدكتور "عبد العزيز" بحق.. نحن في الأسبوع الأول من نوفمبر.

والأيام تجري بسرعة، وبعد قليل يأتي ديسمبر، وتفرغ من كل شيء وتصبح الدكتور "عبد العزيز خليفة"!.. أمك تنتظر هذا في البلد، وأبوك ...

لا بد أن أمك تحلم لك الآن بالنجاح كما تعودت أن تفعل قبل كل امتحان.. عندما تنجح يجب أن تحتفظ بترتيبك لتظفر بالبعثة إلى "لندن".. وهنا يجب أن تتخصص في الأمراض الصدرية.

ويجب أن تجد طريقة لهذا الشيء الرهيب الذي يقتات بدم البشر وينخر الرئة على مهل ويبتلع حياة الناس.. المسكينة "رجاء" لا تعرف مرضها ولا تعرف أنها لن تشفى بسرعة في مسكنها الرطب الذي لا تدخله شمس..

أنت وحدك تعرف أن حياتها تنحدر إلى المغيب، وأن الومضة الخارقة في عينيها، إنما تعكس اللهيب الذي يأكل صدرها يوما بعد يوم!..

أمن السهل أن تنتهي حياة فتاة كهذه بمثل هذه السرعة واليسر؟

لا.. لا، ذاكر يا عبد العزيز ذاكر.. لا تفكر في الأشياء الكئيبة القاتمة!..

"رجاء" يجب أن تعيش!

لم تكن تشعر بها من قبل..

على كل حال أنت لا تحبها، وإنما تشفق عليها.

ليس هذا هو الحب!..

أنت تؤدي واجبك بصفتك الرجل الوحيد في هذا الشارع الذي يعرف مرضها والذي يستطيع أن يساعدها.. يدك هي

حلقة النجاة الوحيدة التي يمكن أن تنتشل هذا الكائن.. لا لا!.. ليس هذا هو الحب! إنك لم تتبادل معها طوال مدة إقامتها في الشارع أكثر من عشر كلمات.. عشر كلمات في عامين أو ثلاثة..! لم تفكر أبدا من قبل في أن تضمها بين ذراعيك.. في أن تضع يدك على شعرها.. لم يخفق قلبك أبدا من قبل وأنت تنظر إليها وعيناها في عينيك.. لم تشعر بأنك تريد أن تقول لها شيئا، أو من الممكن أن تضحكا معا لشيء واحد. لم يحدث شيء من هذا أبدا قبل أن تراها وتسهر معها عند "شويكار هانم"..

ومع ذلك فما الذي حدث عند "شويكار هانم"؟!. كنت تضحك لكلماتها وتعجب بغنائها.

ولكن لماذا تفكر في هذا كله الآن؟! ويجب أن تفرغ من قراءة هذا الكتاب مرتين قبل دخول الامتحان.. لا وقت بعد للشرود!

لم تعد في السادسة عشر يا "عبد العزيز".. أخوك "شوقي" هو الذي في السادسة عشر الآن، وهو ينظر إليك بريبة، وتلمع عيناه بشيء كالدموع كلما رآك تطلع من عند "رجاء" أو تنزل إليها وهو يخفض عينيه كأنما يداري من أجلك خجلا

زريا.. وحتى ما حدث في المدرسة بعد يوم الإضراب، واجتماع الناظر ببعض الطلبة واشتباك "شوقي" معه في مناقشة، كل ذلك لم يحرك الولد ليحكيه لك أنت كما تعود، وسمعته مصادفة يحكي لـ "عبد اللطيف" وحده!.

و "عبد اللطيف" هو الآخر واجم دائما.. دائما.. ينظر إليك بإشفاق وجمود كمن يرى شيئا عزيزا عليه ينحدر إلى هاوية وهو لا يملك حيال ذلك شيئا!.. هو لا يريد أن يجرحك.. يريد أن يتجاهل الأمر!.. أي أمر؟. أنت لا تحب رجاء!!.. هذا الشارع الملعون لا يفهم.. و "عبده" أيضا يدعو دائما أن يصلح الله الأحوال.. أية أحوال يا ملعون؟!.. و "عبد الحي" ينضم إليهم ويتحدث عن خضراء الدمن.. وما خضراء الدمن يا شيخ؟.. هي المرأة الجميلة في المنبت الفاسد..!.. لعنة الله عليك يا "عبد الحي".. أنت جامد صلد لا تهتز! ماذا تعرف يا "عبد الحي" عن "رجاء"؟!.. لا أحد منا يعرف شيئا عنها. جاءت وأهلها إلى الشارع منذ عامين أو ثلاثة، ولم نر عليها ما يعيب.. لم يزرها رجل غريب.. ولم يرتفع من بيتها ضحك خليع كما يرتفع من بيوت تحترمونها!.

كلكم يحترم "داود أفندي" وأنت يا "شوقي" صديق ابنــه.. ألم تسمع ضحكات "عديلة هانم" أبدا؟!..

لعنة الله عليكم.. فأنتم لا تفهمون.. أنكــم لا تعرفــون أن "رجاء" تغيض ساعة بعد ساعة؟! شعلة أيامها تنطفــئ فــي أيديكم وأنتم تلعنونها بلا سبب!.

ولكن.. لو أن أحدا منكم رآها مثلي في بيــت "شــويكار" وسط نساء باهرات ساطعات!

كانوا يعاملونها هناك كأنهــا قــردة تســلي الآخــرين!.. العبي.. اقفزي.. ارقصي!.. ورقصــت وغنــت وضــحكت بجنون كأنها تستل حياتها من جانبيها.!. وفجأة سعلت، وظلت تسعل حتى بصقت دما وفقدت الصــواب... أكنــا ســاعتها نرميها في الشارع؟!.. أكان يجب أن أتركها هناك وأكتفــي بأن أتذكر بأسف تلك اللحظات الممتعة التي خلقها لي غناؤها ورقصتها وضحكها، أم أتصرف كإنسان وأحملها معي فــي عربة وأحضر لها الدواء؟!..

ومع ذلك فهي تذوب هنا بينكم على مهل!..

لا!.. مستحيل!.. "رجاء" يجب أن تعيش.. فلو أنهــا لــم تعش.. لو أن هذا حدث!..

وغامت عين "عبد العزيز" وتساقطت قطرات من عينيه على الكتاب المفتوح أمامه، وأحس بأنه يريد أن يبكي بنشيج مرتفع.. ولكنه تماسك فجأة وهو يتذكر أن "شوقي" و "عبد اللطيف" و "عبده" في الداخل.. ومسح عينيه بسرعة، وأغلق الكتاب، وقام إلى باب الشقة! ...

وحين كان يفتح الباب ليندفع إلى الخارج اعترضه "عبده" قائلا بإشفاق وحيرة:

- أقعد يا دكتور، أقعد الله يكفيك شر أولاد الحرام يا أخويا. أعمل لك فنجان شاي علشان تعرف تذاكر كده وتروق بالك؟!..

وأجابه "عبد العزيز" بصفعة قوية رنت على وجه "عبده" بغتة. ودوى الباب بقوة خلف "عبد العزيز" وهو يندفع إلى الخارج ويكتم في أعماقه صراخا رهيبا يريد أن ينطلق.

وتمنى لو أن كل شيء من حوله يستحيل إلى دوامة وحشية من الضجيج والفزع تفجر الدوي المكظوم في أعماقه ليستريح!..

وأخذ يقفز السلم بسرعة حتى وصل إلى باب شقة "رجاء" ومن ورائه يرتفع نداء "أمين أفندي" الذي فتح بابـــه دون أن يشعر به "عبد العزيز":

- بس اسمعني يا دكتور من فضلك.. بذمتك هي مش عندها باسم الله الحفيظ؟.. يا منجي.. في عرضـــك بس تقول لنا الحقيقة..

واستدار "عبد العزيز" إليه بحنق.. وتمنى لو أنه صـــفعه على وجهه المكتنز، ثم زعق فيه:

- قلت لك ألف مرة لأ.. قلنا لكم دي نزلة شعبية حادة تعب خفيف في الرئة والزور..

ونزل "أمين أفندي" درجتين من السلم وهو يقول بصـــوت مستعطف:

- طب بس قل لميمي تطلع... وتحاسب على نفســـها من العدوى! هي بتسمع كلامك أنت.

ودق "عبد العزيز" باب "رجاء" بعصبية وهو يتنهد بسرعة وغيظ:

- إذا كنت عاوز مراتك ما تنزلش هنا، احكم عليهـــا انت يا أخي أنزل خدها وغور.

وفتحت "ميمي" باب شقة "رجاء"، واستقبلت "عبد العزيز" مبتسمة و "أمين" يغلي من الضيق والارتباك.. وناداها "أمين" فأجابته:

- طيب! آديني طالعة. أوعى تنادي على تاني!

وأغلقت باب شقة رجاء، ومشت أمام عبد العزيز..

ودخل "عبد العزيز" ويده في جيب البيجامة، وجاوز الصالة الصغيرة المظلمة ذات الرائحة الغريبة التي تذكره برائحة الحلبة، واتجه إلى حجرة يشحب فيها ضوء النهار، ويملؤها سرير واسع بأعمدة سوداء، تواجهه أريكة كبيرة..

وأشرق وجه "رجاء" حين رأته.

وتحركت من سريرها وهي تفتح عينيها الغافيتين على تألق نظرات حزينة مرحبة.. وأشار إليها "عبد العزيز" ألا تتحرك.

ووقف إلى جانبها يتحسس جبينها ويدها، وفي أعماقه يسكت الضجيج الصاخب ويتحول إلى همسات تقطعها دقات رتيبة خافته..

وجاءت إليه أم "رجاء" بكرسي من الصالة، ومسحت قاعدته الخشبية بقطعة من القماش، وتحسست المسامير الناتئة من حافته، وعندما اطمأنت إلى سلامة الكرسي أشارت إليه:

- اتفضل أقعد يا دكتور "عبد العزيز".. اتفضل يا ابني.. ثم أكملت وهي ترفع رأسها، ونظراتها تتشبث بيد "عبد العزيز" :

- ازاي الحال دلوقت يا دكتور؟.. ربنا يجعل في إيدك الشفا يا ابني ولا يدخلناش غم.. ربنا يكرمنا على إيدك.

وقعد "عبد العزيز" وهو ينظر إلى أم رجاء مغتصبا ابتسامة يغالب بها الحزن الذي هاجته في أعماقه رنة صوتها.. قال:

- الحمد لله. أحسن.. رجاء بتتحسن خالص.

ولم يستطع أن يحبس نظراته عن أم رجاء، وهي تقعد إلى جوار "ميمي" على الأريكة تحكم الطرحة على رأسها، وتتلمس شعرها لتخفيه تحت الطرحة، وتلم جلبابها الكستور الغامق الفضفاض، الطويل حتى قدميها.. وبعد قليل قامت وهي تحني وجهها النحيل، نفس وجه "رجاء" النحيل الأسمر بالفم الواسع الطيب.. وخرجت من الحجرة في انكسار..

مسكينة أنت يا أم رجاء!.. لا أحد في الشارع يعرف من أين جئت.. ولا كيف تعيشين.. ومع ذلك فكل الناس هنا يريدون أن يقذفوا بكم خارج الشارع منذ سعلت "رجاء" وبصقت دما!

لا أحد يزوركم غير "ميمي"!..

ولكن "أم رجاء" تملك من الطيبة وانكسار الخاطر مثل ما تملكه أمك يا "عبد اللطيف" يا من تنظر إلي دائما بحكمة وجمود وفزع منذ بدأت أهتم بإنقاذ حياة "رجاء"!..

حجرتك يا "عبد اللطيف" فوق حجرتها تماما.. ما أسعدك! ومع ذلك فأنت تخافها كأنما هي كلبة جرباء تحمل الوباء!..

وتنبه "عبد العزيز" فجأة على "ميمي" تزعق بعصبية وهي تلوح بيدها في وجه "رجاء":

- يا رجاء يا اختي الدكتور قال لك ألف مرة بلاش كل ما تكحي تبصي في المنديل.. إيه اللي كل شوية اهئ.. اهئ! يا جيجي يا أختي مش كده! ما تشخط فيها يا عبد العزيز خليها تجمد كده.

وبعدها وقفت "ميمي" تسحب الغطاء على كتف "رجاء"، ثم أمسكتها برفق وأرقدتها تماما..

واستدارت "رجاء"، واهتز بدنها كله ببكاء صامت يختنق:

- حاموت يا ميمي.. حاموت يا دكتور.

ووقف "عبد العزيز" مبهوتا، والظلام يملأ الحجرة، وأحس فجأة بشيء يتصدع بين ضلوعه، وترنح لحظة... ثم أمسك بعمود السرير الأسود، وغمام كئيب كريه يغمر الدنيا أمام عينيه وأعمدة السرير السوداء تميل، وجدران الحجرة ترتعش، و "ميمي"، وكل شيء من حوله يلفه ضباب داكن.. وغصة تملأ حلقه، والضجيج الوحشي يدوي في أذنيه من جديد!!

وارتمى إلى جوار "رجاء"، وأمسكها من كتفيها، وضمها من ظهرها إلى صدره بكل فزعه من مجهول غاشم ينقض عليها، كأنما يحميها بيديه من ضربة مفاجئة.. يعرف هو أكثر من غيره مدى فظاعتها!

واستدارت إليه "رجاء" والدموع تغشي وجهها الشاحب وفمها يختلج، وفي عينيها حيرة مضطربة ويأس، ودعاء ملهوف صامت إلى النجدة!..

وظلت نظرات "عبد العزيز" معلقة عليها لحظة.. وهو يرتعش.

وخبطته "ميمي" على كتفه وهي ترى دموعه.. ثم اتجهت إلى مفتاح النور فأدارته وهي تقول في محاولة جاهدة لتغيير الجو، والنور يغمر الحجرة:

- ما تخافيش يا رجاء يا أختي.. دا حتى عمر الشقي بقي!.

- ووقفت "ميمي" تغالب نفسها وتتأمل "عبد العزيـز" يمسك بكتف رجاء ويحتضنها!

وعادت تحـاول أن تثيـر الضـحك.. فقالـت لرجـاء وعبد العزيز:

- ما تبوسوا بعض قدامي وتريحوا نفسكم.. أطفي لكم النور تاني وأعمل لكم جو يـا أولاد؟! الله الله لـو مامتك يا ست رجاء دخلت دلوقت على البـوز ده! خليها تفتكرني.. زي بعضه! ابعد عنها يا واد انت واختشي بقى..

وتهافتت رجاء في ضحكة، وأخفت رأسـها بـين يـديها بخجل..

وتوالت دقات على الباب فمالت "ميمي" عليهما بخفة قائلة بهمس:

- لازم دا المأذون!..

ورنت ضحكة "رجاء" تجتاح ما على صدرها من كروب، ومسحت عينيها ووجهها بكفيها، بينما قفز "عبد العزيز" وقعد على الكرسي مضطربا لا يعرف إلى أين ينظر ولا كيف يضع يديه..

وقالت أم "رجاء" من الخارج:

- اتفضل يا أمين أفندي.. اتفضل في أودة المسافرين!

ووقف "أمين أفندي" متلعثما في الصالة.. فقالت له "ميمي" بضيق:

- تعالى يا أخي سلم على رجاء.. ادخل ما تتكسفش..

وقعد "أمين" على الكنبة إلى جوار زوجته "ميمي" دون أن يضع يده في يد "رجاء"..

وتنحنح قليلا ونظراته تتأمل وجه "رجاء" المزرق وكتفها العارية بلا خجل من "عبد العزيز"!..

والتفت "أمين أفندي" إلى زوجته وغمز بعينيه.. فحملقت فيه "ميمي" بغيظ.. وهزت كتفها، ولوت شفتها المليئة بالأحمر.. وشعر "أمين" بخجل!.

ماذا يقول عن "رجاء"، وزوجته هـي الأخـرى عاريـة الكتفين؟! لو أنها تقوم الآن بدلا من قعدتها طوال النهار مـع امرأة مصدورة! هذا خطر عليـه وعلـى الأولاد.. وعليهـا أيضا!

وارتفع صوت "عبد العزيز" في الصمت قائلا:

- يا رجاء انتي حالتك بتتحسن جـدا. بـلاش بقـى الأفكار السودا اللي عندك دي.. انتي عندك نزلـة شعبية وزورك مجروح، والدم ده ينزل من جـرح في الزور نتيجة السعال الشديد! كلها أسبوعين تلاته وتسيبي السرير.

وتمتم "أمين أفندي" دون أن يدري:

- لطفك يا رب!

وقالت "رجاء" وكلماتها تسقط في أنفاسها:

- أمال ليه يا دكتور كل الناس خايفة تزورني..

والتفتت إلى "ميمي" مكملة بانكسار:

- شوفي عديلة هانم.. أعمل لهـا المقابلـة بتاعتهـا، وتوديني عند قرايبها أغنى، وكده يوم ما أرقد..

وغاب صوتها، فبلعت ريقها وسكتت..

واندفعت "ميمي" تقول وكلماتها تتدافع:

- أصلها ناقصة.. لكن انت لو كان عندك زي ما انتي فاكرة كان إيه اللي يخليني عندك طول النهار.؟

وأوشك "أمين" أن يتكلم وتحرك قليلا، فأزت الكنبة وابتسمت "رجاء" قائلة:

- أصل عديلة هانم دي ما تعرفشي الناس الا لما تكون محووجة لهم.. واللي زيي يا ميمي ما ينسألش عنها الا لما تكون في صحتها. ما حدش ينحوج لنا الا واحنا صاحيين!..

واهتز "عبد العزيز"، وترددت في أذنيه نغمات باكية من مأساة "غادة الكاميليا".. وتذكر أباه بغتة واضطرب في مقعده.. وعادت الكلمات التي قالتها "مرجيت جوتيه" – وهي على فراش الموت – تتحرك وتنبش في أعماقه، فتفجر منها ينابيع لم يعرفها من قبل!

وسالت على صدره أمواج سوداء.

وقالت "رجاء" فجأة وضحكة خافتة تنطلق منها:

- يعني حاقدر أمثل في حفلة المدرسة السعيدية؟! دا أنا واخدة العربون! كان نفسي أمثل معاهم دور "مرجيت جوتيه". لكن راحوا اختاروا رواية "الوطن".

ونظر إليها "عبد العزيز" متعجبا.. وفتح فمه ولكنه لم يتكلم.

وقامت "ميمي" تسحب الغطاء مرة أخرى على كتفي "رجاء"، وهي ما تزال تفكر في كلمات "رجاء" عن خوف الناس منها بعد أن مرضت.

وقالت "ميمي" وعلى وجهها شيء كالشرود:

- انت لكي ساعات تقولي كلام غريب كده! ليه تقولي كده؟!

ليه تقولي أن اللي زيك ما تتعرفش الا لما تكون في صحتها؟. ليه كده؟!.. ما كلنا زي بعض!.. اخص عليكي يا جيجي! كلنا اخوات.

وضحكت "رجاء" وهي تتأمل "ميمي" بإكبار وحب:

- يا "ميمي" بلاش تدققي.. دا كلام روايات..

ووقف "أمين" متضايقا من كلام زوجته، متحرجا.. وتحرك إلى الباب الخارجي وهو يشير إلى "ميمي".

ولم تهتم "ميمي" بإشارته فناداها.. وأجابته:

- إيه يا أمين بس؟! مالك قلقان كده ليه!!؟.. عايز إيه يا أخي؟ طيب يا سيدي أنا طالعة وراك.

وفتح أمين أفندي باب الشقة في صمت، فوجد "عبده" أمامه يكاد يخبط الباب، وتلقفه "عبده" كأنما كان يبحث عنه، وأعطاه ورقة و "ميمي" ترجع إلى مكانها على الكنبة، وهي تنفخ..

وقالت بدلال:

- ايه يا دكتور؟!.. مش ناوي تقوم تذاكر الليلة؟!..

وتبعتها "رجاء" وكأنها تنبهت فجأة:

- والنبي يا دكتور باعطلك خالص. قوم انت ذاكر.

وقال "عبد العزيز".

- لا لا.. أنا مرتب وقتي كويس.

وعادت "رجاء" تشرد مرة أخرى. ثم تنهدت. وابتسمت بامتعاض، وهو تقول:

- بقى "عديلة هانم" مستكبرة تزورني؟ الست دي غريبة قوي.. مستعيبة ليه يعني!!؟ علشان ممثلة!!..
- وانفجرت "ميمي" محنقة:
- – يا اختي! تروح تتنيل على بنتها ميرفت! تلاقي كل أصحاب الواد "سعد" أخوها دايرين معاها!

فقاطعتها "رجاء" في استنكار خفيف:

- لأ يا ميمي.. لأ.. حرام!

وشعر "عبد العزيز" براحة خفيفة وهو يسمع الحديث الدائر أمامه، وابتسم! هو نفسه قبل "ميرفت داود" مرة تحت سلم البيت.. بالضبط أمام شقة "رجاء" وهو خارج في الليل.. كانت قادمة تنادي "رجاء" فسلم هو عليها فجأة وأمسك بيدها وضغط ولكنها استدركت بلا مناسبة قائلة له: إنها تخشى أن يأتي الآن أحد فيراهما، فتقدم إليها بوجهه وتركت نفسها له، فقبلها وتركت له بدنها لحظة فاحتضنها بعنف ثم انفلتت منه خائفة، وأكمل هو طريقه كأن شيئا لم يحدث، وعادت هي تدق على باب "رجاء" بثبات!.. "عبد العزيز" يذكر هذا جيدا..

وبدأ يشعر في أغوار قلقه بالرغبة في الانطلاق والضحك والجري.

ولكن "أمين أفندي" عاد بسرعة وهو يقول في لهوجة بصوت موجع:

- شفتم!؟ شفتي يا "ميمي"؟! شفتم بيعملوا إيه بتوع دايرة عزيز؟!. عايزين ينزعوا ملكية البيت!! انذار!! انذار يا ميمي! عاوزين يرمونا كلنا في الشارع. الله!؟ لكن ده بيتي! بيتي أنا مش بيت الدائرة!

ووقف "عبد العزيز" مضطربا، و "ميمي" تخطف الورقة وتنظر إليها في جزع، ثم تعيدها إليه.. ثم تأخذها منه وتعطيها لـ "عبد العزيز"..

وتمتم "عبد العزيز" وهو يقلب نظراته على الورقة:

- يعني إيه الكلام ده؟! خالفتم شروط الدايرة عند البناء؟!.. الشارع يجب أن يكون أوسع من ذلك بكثير؟ الدايرة رايحة تبني عمارات سكنية؟! ستدفع لك التعويض ولو انك خالفت شروطها! إيه الكلام

ده؟! حاجة مش مفهومة أبدا؟!. تعويض إيه وشروط إيه اللي انت خالفتها؟!

وقالت "ميمي" وهي تكتم ثورتها بجهد:

- يعني احنا الحيطة المايلة! اشمعنا بيتنا هو اللي ينهد؟... والدايرة دي إيه كمان؟ هيه التنظيم؟!. هيه حكومة يعني!.. قصدهم ع المتر اللي خدناه زمان من أرض الشارع؟ طب ما ندفع ثمنه ويريحونا!. لكن يهدوا البيت؟. هو افترا والا استضعاف.

وضغط "أمين" على أسنانه بغيظ:

- اسكتي!

وظلت "رجاء" تحملق في الجميع، وهي راقدة دون أن تقول كلمة.

وأكملت "ميمي" وصوتها يرتفع شيئا فشيئا:

- بقى كله من شغل الراجل الباشكاتب قريب "عديلة هانم". اسمه إيه أدهم بيه والا أدهم نيلة! الراجل الشايب أبو صبغة... بقى يعني يا إما..

فقاطعها "أمين" بضيق والكلمات تختنق في حلقة من فرط الغيظ ووجهه يحتقن:

- يا شيخة ده شغل البرنس نفسه!. عمارات سكنية؟؟!! لكن دا أنا شاري الأرض من الدايرة ودافع فلوسها!! ينزعوا ملكيتها كلها! ازاي؟!. الله!؟. دا.. الله...؟!. د. د.

واضطربت الكلمات في فمه.. فتقدمت اليه "ميمي" قائلة بنفس اللهجة الساخطة:

- حاسب على نفسك يا أخي.. يعني لما تنشل والا يجري لك حاجة.. حاتنفعنا بإيه الدايرة؟ حاتبقى الدايرة توكل العيال!!

وقال "عبد العزيز":

- روح أحسن لواحد محامي كويس يشوف لك حل يا أمين. دا مش معقول أبدا. الدايرة تنزع ملكية بيتك ازاي؟!. طب ما كفاية تبني في الخرابات اللي في الشارع عمارات على كيفها! ده ملكها تاخده الدايرة ازاي؟!.

فقال "أمين" بيأس:

- أنا شاري أرض البيت ده بفلوس يا ناس؟. تنــزع ملكيته ازاي؟!. وتعويض إيه اللي حاتدفعه يعني؟! ما أنا عارف التعويضات اللي بتدفعها الدايرة!
- وانسحبت "ميمي" مسرعة وهي تحاول أن تحــبس دموعها، ومشى وراءها "أمين أفندي" بينما اهتزت "رجاء" في سعال متتابع.. ومال "عبد العزيز" عليها يسند رأسها بذراعه.

ودخلت أم "رجاء"، فأخذت مكانه، ووقفت تســند ابنتهــا. و "عبد العزيز" أمامها منبهر الأنفاس وعينــاه علــى وجــه "رجاء" الشاحب.. وفكره يدور فيما يمكن أن يحــدث إن لــم يقف هذا السعال.. وقلبه يدق بعنف وأنفاسه تكاد تتوقف فــي توجس وخشية وحذر!!

(١٦)

"عبد الحي" مشغول هذه الأيام بأشياء لا يعرفهـا أحـد.. يزوره طلبة لم يرهم الشارع من قبل، ويخرجون من عنـده في ساعات متأخرة من الليل، ولا يسمع أحد لهم صوتا غير ضحكات قليلة ترتفع في فترات متباعدة..

وهو يتردد على "عبد المعبود" أكثر من المألوف ويـذهب إليه أحيانا في مطبعته الصغيرة بدرب الجماميز.

و "عبد العزيز" يتهم "عبد الحي" بأنه جامد القلب، لا يفكر أبدا في السؤال عن جارتـه المريضـة "رجـاء صـدقي"، ولا يكف عن إبداء الاشمئزاز كلما جاءت سيرتها أمامه.. مع أنها برقبته ورقبة عشرة من صنفه!!

و "أمين " يتهم "عبد الحي" بأنه لم يكترث لما حصل له.. وهو يعتقد أن "عبد الحي" يشمت فيه! فهو لم يثر ضد الإنذار بنزع ملكية بيت "أمين أفندي".. مع أن "عبد اللطيف" شـقيق الدكتور "عبد العزيز" هاج حين قرأ الإنذار وقال إنه لم يسمع بشيء مثل هذا أبدا، وإن مثل هذا لا يمكن أن يحـدث فـي

التاريخ، وفي الدنيا قانون!.. وقال كلمات أخرى عظيمة كأنه يخطب، و "أمين أفندي" يشكر هذا لعبد اللطيف. أما "عبد الحي" الذي حبس ذات يوم لأنه ألقى خطبة ثائرة، فلم يقل أبدا في هذا الموضوع كلاما يشفي الغليل، وإنما نظر إلى "أمين أفندي" مبتسما وهز رأسه قائلا:

– اصبر وما صبرك إلا بالله... بكره تتعدل! ما يهمكش لا الدايرة ولا غيرها ولا حتى نسيم باشا رئيس الحكومة نفسه...

ولم يقل شيئا آخر غير هذا... وحتى هذا الكلام قاله بصوت منخفض كأنه غير مكترث!

و "شوقي" أيضا لم يعد يعرف ماذا جرى لـ "عبد الحي"... طالما حدثه عن تصرفات الناظر، فلم يزد شيئا عن هزة الرأس والنظرة الثابتة المبتسمة وقوله:

– تتعدل.. بكره الطقم ده كله يغور!!

وحين جاءه "شوقي" مرة يشتم له "شوكت المغربي" الذي كان محبوسا معه، ويحكي له كيف ضبطه بعد الانصراف من المدرسة بساعة واقفا على زاوية شارع ضيق في الحلمية يكلم أخت "سعد داود" فانقض عليهما بلا وعي وضرب

"شوكت" ونهر أخت "سعد"،.. حين حكى له أن أخت "سـعد" رمقته بغضب وانصرفت مهمهمة: "سم؟!" ...

حين حكى "شوقي" هذا كله لـ "عبد الحي"، انتظر منه أن يقول كلاما كثيرا، ولكن "عبد الحي" لم يزد علـى أن قـال باقتضاب:

- يا أخي دع الخلق للخالق...

وحتى الحديث عن "عبد العزيز" و "رجاء" لم يعد يـروق لـ "عبد الحي"!. هو مشغول دائمـا مـع ثلاثـة أو أربعـة يترددون عليه في بيته، منهم طالب في كلية الحقوق يعرفـه "عبد اللطيف" ويقول عنه إنه عضو في اتحاد الجامعة...

هكذا كان "عبد الحي" يبدو للآخرين في الأيام الأخيرة!

ولكن "عبد الحي" نفسه، لم يكن كما حسبه الآخرون.. فهو يشارك "شوقي" حنقه على "شوكت المغربـي"، ويتمنـى أن يصفعه كل من يراه... وهو مغيظ لأن أخت "سـعد" تتـرك الذباب يهش عليها...

وهو لا يرتاح للتغير الذي طـرأ علـى "عبـد العزيـز" ولا يحب انشغاله بـ "رجاء"، ومع ذلك فقلبه يرثي لها، ويود

لو أنه أصبح فوجدها بعافية... بعيدا عن "عبد العزيز"، والشارع كله!

ومسألة نزع ملكية بيت "أمين أفندي" تشغله لا لأنه هو نفسه سيجبر على ترك البيت والشارع الذي ألف ناسه وحفظهم وحفظوه ولكن لأنه يعرف فداحة أن ينتزع منا الشيء نملكه نحن... هو يعرف الهوان الذي يحني الرءوس إذ ذاك ويملأ النفس بالهموم!... ولكن "أمين أفندي" لا يفهم! ...

لا أحد في الشارع يفهمك الآن يا عبد الحي... والرجل الوحيد الذي كان يمكن أن يفهمك يا عبد الحي ويفهم كل شيء.. هذا الرجل مشغول القلب والعقل بحب "رجاء"!..

أما "شكري عبد العال"... فهذه هي المصيبة!... منذ أسابيع، ولا أحد يستطيع أن يحرك اهتمامه بشيء مما يجري في الشارع! ...

- أتراه لم يهتم بموضوع نزع ملكية بيت "أمين أفندي" لأنه يعرف هو الآخر – كما يعرف عبد الحي – أن المهم الآن هو الحصول على الدستور، وأنه عندما يسود حكم الدستور فلن يستطيع أحد في دائرة

البرنس عزيز ولا البرنس عزيز نفسه أن يتعرض لبيت "أمين أفندي" ولا أن ينتزع حقا من بين يدي صاحبه؟!

من فيكم يا أهل الشارع يمكن أن يفهم هذا غيرك يا "عبد العزيز" أنت وحضرة السيد السند "شكري عبد العال"؟!..

"عبده" وحده آمن بهذه الحقيقة عندما قلتها له يا "عبد الحي" ودعا الله أن ينجح المقاصد، وفهم بشكل غامض أن الطلبة الغرباء يجتمعون عندك يا "عبد الحي" من أجل هذا، فبدأ كلما أحس بوجودهم يأتي متطوعا ليعد لهم الشاي بحماس!... وهو أيضا يحرس الطريق.. في كل مرة قبل أن يجيئوا تتأكد منه أنه لا يوجد على أية ناصية للشارع رجل غريب يراقب!!

أما أنت يا "أمين" – خيبك الله – فلم تفهم أبدا شيئا من هذا. وعندما حدثتك عن الدستور أطلقت لسانك في، وأسأت الأدب وأخذت تعرض بي وتقول "بلاش فقهنة وفلسفة كدابة!".

كل ما تملكه من وسيلة لدفع الخطر عن نفسك يا "أمين" هو أن تضغط على زوجتك "ميمي" وترسلها إلى "أدهم بك" باشكاتب الدائرة مع أنها استصرختك مائة مرة لأنه يغازلها!... هذا المفتون المأفون المصبوغ الشعر!.. مازالت تعارض فاحتشم... حسبها أن تذهب إلى "عديلة هانم" لترجو زوجها "داود أفندي" وتوسطها هي لدى قريبها هذا الماجن!.

ومع ذلك فأنتم تحسبونني لا أفكر فيكم يا أهل الشارع!

آه لو نجحت الحركة التي نعدها للإطاحة بحكومة "نسيم" وإعادة الدستور!.

ولكن من فيكم يقدر كيف يحميه الدستور ويلقي الطمأنينة في قلبه ويؤمن له الحقوق!

آه... لو تعرفون يا أهل شارع عزيز!!

لا تخف هكذا يا "أمين أفندي"... أمامنا شهر كامل على موعد نزع الملكية.. شهر كامل يصنع فيه الله ما يريد.. والله فعال لما يريد أيها الجبان الرعديد!!.. كل ما أنت فالح فيه يا أمين هو أن تقول لي "بلاش فقهنة!".. أنت غبي!

ستنفجر المظاهرات بعد أيام تطالب بالدستور والحرية والاستقلال.

يا أخي اسأل "عبد المعبود"... وتأمل الضحكة الدائرة على وجهه. أنت بطل يا "عبد المعبود"!... تطبع لنا المنشـورات بنفسك بعد أن تغلق المطبعة... وعندما تفـرغ مـن طبـع المنشورات تكومها. الكومة إلى جوار الكومة، وتخبئها فـي بيتك، وترفض أن تتناول منا أجرا عن كل هذا... حتى ثمن الورق ترفض أن تأخذه! كوِّم عندك.! ففي اليـوم الموعـود تغمر المنشورات القاهرة والدنيا كلها، ولن يعرف أحد مـن أين جاءت... لن يعرف أحد... ولن يكتشفوا أبدا مطبعتـك.. حانت الساعة يا أسطى "عبد المعبود" ولكل أجل كتاب!

وعندما يعود الدستور ونحصل على الاستقلال سـيذكرك التاريخ يا "عبد المعبود"، وتصبح من أبطال هذه الثـورة... هكذا شارك إخوان لك في ثورة سنة ١٩١٩ وكانوا عصـبها الحي يا رجل! ...

وأفاق "عبد الحي" من خواطره على خبط يتوالى على باب شقته في صبر نافد.

من الطارق الساعة!؟

لا أحد من الصحاب يأتي في مثل هذه الساعة المبكرة من الليل. صلاة العشاء لم تؤذن بعد. انتظر يا أخي لا تطرق هكذا... أأفتح لك حافيا؟ أين القبقاب؟

لا يمكن أن يكون "عبد المعبود"... قلت لك حاضر! من هو هذا اللحوح العجول المستعجل؟!..

واتجه نحو الباب بسرعة بعد أن فشل في العثور على القبقاب، ولم يكد يفتح حتى ندت منه آهة استغراب، ولكنه قال مرحبا:

- أهلا أهلا "شكري بيه"! اتفضل... أهلا وسهلا. أشرقت الأنوار.

وهرول أمام "شكري" الذي دخل وراءه في بدلة أنيقة يفوح منه العطر.

وقدم له "عبد الحي" كرسيا في الصالة امتحنه بعناية، واستأذن ليعد له كوبا من الشاي أو القهوة، ولكن "شكري" استوقفه شاكرا.

وقعد "عبد الحي" قبالته يرحب به بابتسامة عريضة، ويرفع كلتا يديه إلى جبهته محييا:

- أهلا وسهلا ومرحبا.. طيبون.

وأجابه "شكري" في اقتضاب وأدب:

- أهلا.

وأخذ "عبد الحي" ينظر إلى "شكري" متعجبا من هذه الزيارة!... هذه أول مرة يدخل فيها "شكري" بيته بعد زيارة التهنئة يوم الإفراج عنه، وهو نفسه لم يدخل بيت "شكري" أبدا!... خيرا... أجاء "شكري" يحدثه بشكل ما عن "سعاد هانم"؟!

لن يسمح "عبد الحي" الآن بمثل هذا الحديث، فهذا عهد مضى وانقضى، وهو منذ عاد من السجن لم يحاول أن يختلس نظرة إلى "سعاد هانم"... وحتى "عبد العزيز" المهذار لم يعد يهزل كما كان من قبل، ولم يعد يقول له "الشيخ سعا"...

خيرا يا "شكري بيه". تكلم يا أخي، ولا تطل الزيارة، فبعد نصف ساعة على الأكثر يجب أن أخرج لأصلي العشاء في مسجد السيدة وأعود إلى هنا بصديق لا يعرف البيت..

تكلم يا حضرة!.. ماذا بعد السؤال عن الصحة والأحوال!..

شعبنا من التحيات.. وماذا بعد؟ خيرا!؟ قل لماذا تزورني هنا؟ وقال "شكري" فجأة:

- ما تعرفش "عبد العزيز" راح فين؟ اخواته بيقولوا انه خرج يذاكر بره مع أنه عارف أن عندنا مشوار مهم!

إلى أين يا "شكري بيه"؟ إلى أين تذهب بـ "عبد العزيز"؟ كفى ما كان! "عبد العزيز" كان في حاله يستعد للامتحان، فأخذته يا "شكري بك" إلى سهرة عند امرأة في الحلمية من قريبات "عديلة هانم"، وعاد بعدها مثقل القلب، في يده فتاة تبصق دما، لم يكن يلتفت إليها من قبل!.. كفى يا "شكري" فالحكاية شاعت وذاعت... وعيب عليك أن تفسد شابا مثل "عبد العزيز" وتحمله إلى بيت غانية كقريبة "عديلة هانم"!!

وعاد "عبد الحي" يرفع يديه إلى جبينه مرحبا ليقطع الصمت.. وهمهمت كلمات التحية المتبادلة من جديد، ومن جديد ساد الصمت!

وأخذ "شكري" يلقي على "عبد الحي" نظرات فاحصة من عين نصف مغلقة.. وأحس "عبد الحي" بهذه النظرات..

فمالت ذقنه على صدره، ورفع رأسه بعد قليل فوجد "شكري" ما زال ينظر إليه.

وسأله "شكري" بلا مقدمات:

- انت يعني ما تعرفش "عبد العزيز" راح فين؟..

واستطرد بسرعة قبل أن يعطي "عبد الحي" وقتا للرد:

- ايه حكاية الطلبة اللي بيسهروا عنك دول؟

واختلج "عبد الحي"... ولم يتكلم.. وداري اضطرابه في نحنحة.. ودق قلبه بسرعة.

فاستمر "شكري":

- ليه مش بترد عليه.. أنا فاهم.. انت يا "عبد الحي" ما بقتش تثق فيه؟... أنا شاعر ان فيه حاجة كده بيني وبينك! حاجة كده واقفه بينا. أنا لا أستطيع اني أتبينها ولكني شاعر بيها!

وخاف "عبد الحي" أن يكون "شكري" يعني بهذا التعريض نكتة "عبد العزيز" التي ذاعت عنه هو و "سعاد هانم" فعبد العزيز يسمى عبد الحي "الشيخ سعا".. وعبد الحي يعرف من

كلام سريع قاله "عبد المعبود" أن "شكري عبد العال" يفكر أحيانا في الزواج من "سعاد هانم".

واضطرب صوت "شكري" وهو يتأمل "عبد الحي" الصامت الشارد:

- الله... انت ساكت ليه؟... فيه إيه بيني وبينك!

ثم استدرك قائلا:

- انت زي ابني... كلكم أولادي.. اتكلم يا اخي.. أنا مش متصور أن ممكن تكون فيه حاجة بيني وبينك على الأقل لأنك زي ابني.

ونظر "عبد الحي" – ربما لأول مرة – في عيني "شكري"، وأخذ يتأمل اهتمامه الجديد بأن يتعطر ويبالغ في تأنقه...

وسحب الكرسي، واقترب من "شكري" في ثبات وهو يمتلئ شيئا فشيئا بإحساس خارق بالمقدرة والجرأة والمسئولية.

وقال "عبد الحي" بصوت بطيء مرتفع وقور:

- يا شكري بيه.. أنا ما فيش بيني وبينك إلا كل خير... لكن الحق يقال.. أنا غير مستريح من ناحية حاجات كتير... أولا مسألة "أمين أفندي" أنت لم تولها الاهتمام الواجب.. كان مفروض وأنت أفضالك سابقة وسابغة أيضا أنك تهتم بها أكثر من كده!

وضاق "شكري عبد العال" بكلمات "عبد الحي".. وأحس بها كالوخز! ولم تعجبه أيضا الطريقة التي اختارها "عبد الحي" للكلام... "شكري" نفسه يؤنب الناس بهذا الأسلوب، ولا يجب أن يبدو أحد لبقا على حسابه، وبصفة خاصة: الذين هم أصغر منه سنا وشأنا..!

وقال بصراحة:

- وانت مالك يا أخي ومال الحكاية دي؟!.. هو انت يعني مهما بلغ اهتمامك بأهل الشارع حايكون زي اهتمامي أنا بمشاكلهم ومشاكل غيرهم.. أنا فاهم واجبي.. تفتكر انت يعني..

وأخذ يلوح بيديه ويهز رأسه، ولم يكمل ما يريد أن يقول، وإنما ألقى على "عبد الحي" نظرات حادة لاذعة أكثر عنفاً من الكلمات!

واستفزت نظراته غضب "عبد الحي" وضيقة منه، فأوشك أن يصرخ في وجهه أنه رجل مغرور يفرض على الآخرين هيبة زائفة.. وهو في نفس الوقت يأخذ شابا في مثل سن ابنه ويرميه في الأوكار التي يتردد عليها ليعود من هناك بحب غريب يهدد مستقبله!

ولكن "عبد الحي" أمسك نفسه بصعوبة، ولم يجد من المناسب أن يقول لرجل في الخمسين يزوره في بيته كلاما يمكن أن يحرجه...

وظل "شكري" يتأمل وجه "عبد الحي" الذي تتقلص عضلاته .... ولم يعد يتردد في الصمت تحت ضوء المصباح الكهربائي الخافت في الصالة العارية غير أنفاس "عبد الحي"..!

وفجأة أطلق "شكري" ضحكة جعلت "عبد الحي" ينظر إليه مفتوح الفم.. محملق العينين.. وارتفعت قهقهة "شكري" وهو يفحص "عبد الحي" في جلبابه الكستور المخطط والطاقية

على رأسه.. وفي إحدى قدميه فردة قبقاب والأخرى حافية... ماذا لو دعاه فلبس بدلة وأخذه ليسهر معه عند "شويكار هانم"؟!؟

ولكن "شكري" هز رأسه ومصمص شفتيه، وقام وهو يخبط كتف "عبد الحي" قائلا:

- إن شاء الله ربنا يوفقنا جميعا إلى ما فيه الخير...

وسلم "شكري"، وخرج و "عبد الحي" لا يفهم من هذا كله شيئا... لماذا زاره؟! ماذا يقلقه؟!.. وما الذي أضحكه آخر الأمر؟ يا عبد الحي سبحان الذي أضحك وأبكى!.

ثم أي شيء هذا الذي شعر به "شكري" قائما بينه وبينك يا عبد الحي؟ ولماذا استاء حين كلمته عن مشكلة نزع ملكية بيت "أمين أفندي"؟! ثم ماذا يقصد بحديثه عن الطلبة الذين يزورونك؟! وبعد، فلماذا ضحك فجأة وكان طوال الوقت يجلس مقطب الوجه!!؟.. نعم لماذا ضحك فجأة.. شيء يحير!..

لم يفلح "عبد الحي" في أن يجد جوابا واحدا لكل الأسئلة التي ثارت في نفسه.. وتوقف قليلا يفكر في اهتمام "شكري عبد العال" بالطلبة الذين يزورونه.. ولكنه لم يكد يشعر

بخطوات "شكري" تبعد غائصة في صمت الليل، حتى قام ليلبس مهرولا... إلى مسجد السيدة زينب... ليلحق بصديقه على موعد صلاة العشاء بجوار منبر المسجد..

أما "شكري" فكان ينطلق متجها إلى مقهى في العتبة الخضراء حتى يحين موعد السهرة عند "شويكار"... وهو يمني نفسه بمتاع باهر.

(١٧)

قعد "شكري عبد العال" يمضغ أوراق النعناع، وكوب الشاي على شفته، وهو ينظر إلى "عبد المعبود" في ضيق بالغ، وضجيج آلة المطبعة يرج المكان ويضغط على أعصاب "شكري".

ماله الأسطى "عبد المعبود" هو الآخر؟ لا يكاد يستقر على مكتبه الخشبي الصغير الوسخ في مدخل المطبعة حتى يقوم ويغيب طويلا في الداخل وراء الحاجز الخشبي؟!..

لماذا حشرت نفسك هنا يا "شكري" في هذا المكان المزعج على كرسي يكاد يقع عليك ويمكن أن تمزق مساميره بدلتك!

"عبد المعبود" غير مهتم بك! ليتك ما حكيت له!.

أف! قديما كأن "عبد المعبود" يترك كل شيء ويسمع لك، ولكنه اليوم وأنت في مطبعته لا يشغل نفسه بك!.. امرأته هي التي تقوي بنتك "سميرة" عليك، و "درية" مسكينة لا تقول شيئا من عندها، وإنما تردد دائما ما تسمعه من أختها الكبيرة.. وكلهم يكرهون "سعاد هانم"!.. لا أحد منكم جميعا

يعرف هذه المرأة... لا أحد منكم يستطيع أن يقبل فكرة زواجي بها، كأنما هي ستنتزع منكم شيئا تملكونه!.. كأنني أنا ملك لكم يا كلاب!..

اقعد يا "عبد المعبود" وثبت عيونك الزائغة، وقل لي ما رأيك يا أخي في هذه المصيبة، أنا يا أخي أريد أن أتزوج على سنة الله ورسوله، ولكن "سميرة" تهددني بالانتحار إذا أنا جئت بامرأة أخرى مكان أمها!.. وأنا أشعر بملل فارغ. وشيء رهيب كالندم يفغر فاه ليلتهمني في صباح كل ليلة أقضيها ساهرا عند "شويكار" وعندما يتحرك لساني ثقيلا بخدر خمر ليلة البارحة وأنا أشرب قهوة الصباح، أحس بشيء كريه كالقيح يملأ صدري... فأكاد أبكي يا رجل!!..

ماذا تظن يا "عبد المعبود"؟.. تكلم.. تعال واقعد ودبرني. كلكم يتهامس بأنني أتردد على منزل "شويكار هانم"!.. و "عبد الحي" يجد في نفسه الشجاعة لينظر إلي باحتقار!.. أنا مع ذلك لا أريد أن أذهب مرة أخرى إلى هناك. ولكنني أندفع إليها كل ليلة معصوب العينين كالذي يسير وهو نائم، وهناك أظل أضحك وأضحك، وتفتح أمامي الخمر آفاقا حلوة فإذا كل شكل بديع: الكلمة العابرة تثير القلب، وهزة القوام

تلهب الأعصاب، والأغنية القديمة الممجوجة تصدح على وهج الخمر وتعمر الدماغ وتصبح شيئا تتلهف إليه.. وحتى الدخان الأزرق الذي تنفثه "شويكار" من أنفها لم يعد يرهقني.. أصبح يغريني بتأمل هذا العنفوان الظامئ، ولكن "شويكار" لا تعطيك نفسها أبدا.. كل ما تمنحه لك هو الدلال والبسمات ولهب الرغبة!!.

ولكنكم لا تعرفون الضحك ولا الأنس يا أهل شارع عزيز!.. لا أحد بعد يعرف الضيق الذي يطبق على الصدر في الصباح من بعد هذا كله! ...

اقعد يا "عبد المعبود" واسمعني واحمد ربك أن رجلا في مثل مقامي يزور مطبعتك.. ماذا جرى في الدنيا يا ناس؟ أضاعت المقامات! ...

ولكني أنا أستاهل كل ما يحصل!

هيه!! لن أتحدث مع أحد منكم بعد، سأضع نفسي في مكانها يا أهل شارع عزيز...

إنكم تنسون أني من جيل كله اليوم ضباط كبار، وأتعسهم حظا يحمل رتبة البكوية!..

وهم "شكري" بالقيام فوجد يد "عبد المعبود" تمسكه بقــوة، وتشده إلى الكرسي.

وقال "عبد المعبود" في عجلة وهو يتهيأ للعودة إلى داخل المطبعة:

- صبرك علي بس يا شكري بيه قيمة خمس دقايق.. بس قيمة ما تخلص الشاي بتاعك.

والأشعة الحمراء من شمس الأصيل تستلقي على الحاجز الخشبي الذي يفصل آلة الطباعة عن مكتب "عبــد المعبــود" القائم في مدخل المطبعة.

وأخذ "شكري" يتأمل في صمت شحوب آخر شعاع مــن الشمس الغاربة وسماء الخريف مــن وراء بــاب المطبعــة تزحف عليها زرقة الليل الداكنة، والضياء يغيب و "شــكري" وحيد ينتظر أن يفرغ له "عبد المعبود"، وشيء كالظمأ يثقــل لسانه.. ظمأ غريب يخدر لسانه وشــدقيه، ويــذكره بطعــم الكونياك.. لا لا!!. لا تضعف الليلة أيضا يــا شــكري!!... ولكنك هكذا في كــل ليلــة، تقــرر فــي مهــبط المغــرب ألا تذهب... ثم ما يكاد يتقدم بك الليل حتى تقودك خطواتــك

إلى "شويكار"!!... وعند "شويكار" تحلم بالزواج من "سعاد هانم!".

وانطلق من شارع درب الجماميز نداء باعة الجرائد يجرون وراء بعضهم صائحين:

- ملحق البلاغ الليلة. تصريح جديد للمستر هور يا جدع..

وأقبل "عبد المعبود" من الداخل مندفعا إلى الشارع ينادي بائع الجرائد ويزيح مقعد "شكري" بيده دون أن يشعر، وهو يقول متعجبا:

- الله هو المستر هور ده حيستلمنا تصريحات والا إيه؟! ...

وأمسك الصحيفة بيده وهو واقف أمام باب المطبعة يقرأ بلهفة ولكنه طواها ودخل إلى مكتبه وأدار مفتاح الكهرباء من وراء ظهره وهو يمد يده بالصحيفة إلى "شكري" قائلا:

- دا تأكيد للتصريح اياه اللي نشروه في جرايد امبارح الصبح!.. قال حكومة مصر بتستشيرهم في الدستور، وجنابه مش عاجبه أن الدستور يرجع!.. ياما قلنا من زمان ان نسيم باشا عمره ما يتعدل،

قالوا لنا اطلعوا من البلد! آهو مستر هـور بنفسـه فضح الشغلة كلها!.

وبان على وجـه "شـكري" ضـيق شـديد مـن كـلام "عبد المعبود" وكأنه يستكثر عليه أن يتكلم في مسائل سياسية مثل هذه... إن "شكري" نفسه لم يهتم كثيرا بهذا التصـريح، غاظه أول الأمر عندما قرأه بالأمس وهو في مكتبه، ولكنه لم يكد يعود إلى بيته وينادي ابنته "سميرة" بعد الغداء ليحـدثها عن تصميمه على أن يتزوج "سعاد هانم" حتى أنساه صـراخ بنته كل شيء.. ثم أخذ الغضب يستبد به حين كلمتـه ابنتـه بطريقة لم يألفها مـن قبـل، وعـاد اليـوم ليجـد امـرأة "عبد المعبود" مع ابنتيه وهما تشتمان "سعاد هانم" المرأة التي ستكون شريكة حياته.. عندها فكـر فـي أن يطلـب مـن "عبد المعبود" أن يمنع امرأته من زيـارة ابنتيـه وأصـبح ما يشغله حقا هو تـدخلها فـي شـئونه الخاصـة. ولكـن "عبد المعبود" الذي لا يعرف من القراءة أكثر ممـا تتطلبـه مهنته مشغول هو الآخر بمستر هور!!..

وهو يلقي على "شكري" منذ بدأ يحكي له.. نظرة غريبة.. نظرة مثل هذه النظرة التي يختلج أمامها المذنب ويشعر بأنه

ضعيف، والتي لا يلقيها أبدا إلا رجال أقوياء مطهرون على الذين تغلبهم رذائلهم!

حتى "عبد الحي" ألقى عليه هذه النظرة منذ يومين عندما زاره ليسأله عن "عبد العزيز".. و "شوقي" الصغير أيضا يقتحمه بهذه النظرة نفسها!..

أنت يا "شكري" هنت على الأولاد كلهم... كل الأولاد الذين رأوا في حياتك دائما سيرة خارقة من البطولة، ورأيت نظرات الإكبار تتطلع إليك من عيونهم الصغيرة وهم يدرجون مع الأيام عاما بعد عام... هؤلاء الأولاد الذين ليس فيهم كلهم واحد يساوي ابنك المرحوم، أصبحوا ينظرون إليك بإهمال واشمئزاز واستصغار!

وأوشك "شكري" أن يختنق بالدموع، فاختلج فجأة وأخذ منديله الحريري من جيبه ومسح به وجهه وجبينه ثم دسه في جيبه بسرعة.. وشد نفسه على الكرسي، وألقى على "عبد المعبود" نظرة من زاوية عينه دون أن يحرك إليه وجهه... ثم زعق بطريقة باغتت "عبد المعبود":

- يا أسطى انت فاهم إيه؟ أنا جاي أكلمك في المصيبة اللي عاملاها مراتك، تقوم تكلمني في السياسة؟! هو أنت يا أخي حتعلمني السياسة؟!... هو انت ...

فاسترد "عبد المعبود" هدوءه بسرعة وقاطعه والسكينة تغمر وجهه:

- الله الله! زعلان ليه كده يا شكري بيه؟ يا سيدي انت الخير والبركة. أعلمك ازاي؟ روق بس!. ما تحملش هم حاجات فاضية! جواز إيه اللي مغير دمك كده؟ لما انت بتقول على حكاية زي دي مصيبة، أمال "أمين" المسكين اللي الدايرة عايزة تاخد منه بيته يعمل إيه؟!

فانفجر "شكري" وحنقه يتزايد:

- أما أمرك غريب قوي يا أسطى..! انت بتأنبني والا ايه!... أنا مالي ومال "أمين"؟ أنا غلطان اللي فت عليك! لكن اسمع... أنا مش عايز مراتك دي تاني مرة...

واستدرك "شكري" وهو في أوج غضبه.. وارتجف صوته وهو يكمل:

- يعني أنا بأقول لك... أنا يعني.. مش عايز جماعتك... يعني من فضلك نبه على الست، انها.... ما فيش داعي انها تكلم الأولاد تاني في موضوع سعاد هانم.

وأجاب "عبد المعبود" وهو يلحظ رجفته:

- كده يا شكري بيه؟ وهو ده كلام يتقال بره البيت!؟ ده انت أبو الأصول... يعني لو واحد زبون سمعك بتتكلم كده يبقى إيه بس؟! يبقى إيه بس؟ لا لا يا "شكري بيه" الحمد لله ان محدش شافك في الحالة دي! هو ده كلام يا راجل؟ هيه الناس في إيه والا في ايه!؟..

- ولم يستطع "شكري" أن يقول شيئا.

وفكر لحظة في أن يقوم فيقلب الدنيا على رأس "عبد المعبود" الذي يقابل ثورته وهياجه بهذا الهدوء المستخف، وآلمه أن يشعر أمام هدوء "عبد المعبود" أنه أحمق شاذ!..

وبدأ يلح عليه إحساس بالوحدة، وعاد يشعر في حلقه بطعم الدموع، وفي رأسه تختلط صور غريبة يرن فيها

صوت "سعاد هانم" الدافئ، وطلقات الرصاص في مظاهرات سنة ١٩١٩ وصراخ زوجته حين سمعت بمقتل ابنه، ورنين ضحكات "شويكار هانم"، ونشيج ابنتيه بعد ظهر الأمس، وصيحته المنتصرة حين ضرب الضابط الإنجليزي بالكرسي منذ عشرة أعوام، وصدى زعيقه الآن وهو يحاول أن يجرح "عبد المعبود"!

ووقف "عبد المعبود" أمامه يبتسم، وومضة حانية مشفقة تبرق في عينيه، وشعر "شكري" بيد "عبد المعبود" تضغط على كتفه وهو يقول في صوته الهادئ:

- وكمان يا "شكري بك" إيه حكاية يا أسطى دي!؟ هو ده اللي بينا؟ يا أسطى؟؟.. يعني كأنك واحد زبون غريب.. كأن مفيش عشرة ولا عيش وملح!!..

هذه النبرة نفسها هي التي مسحت آلام "شكري عبد العال" ذات يوم حين ماتت زوجته! ...

واضطربت الصور في رأس "شكري" واختلطت الأصوات في أعماقه.. ووجد نفسه يقف.. ويهمهم:

- أنا تعبان يا "عبد المعبود"!.. إوعى تزعل مني... أنا تعبان.. سلامو عليكم.

وانفلت بسرعة إلى الخارج.

وتنهد "عبد المعبود" وهو يتابعه بنظراته... ورآه يمضي بشارع درب الجماميز.. يرتعش ظله على أضواء المصابيح الخافتة.

وعاد "عبد المعبود" إلى المطبعة.. ودخل وراء الحاجز الخشبي فأغلق بابه، وأخذ يفحص المنشورات التي كان منهمكا في طبعا ثم حزمها بسرعة... في حزم صغيرة، ووضعها على الأرض، وألقى عليها بضعة أوراق.

وأوقف آلة الطباعة، وفتح باب الحاجز الخشبي... فوجد رجلا يجلس على الكرسي الذي يواجه مكتبه يقرأ صحيفة تغطي وجهه!!

وتتابعت دقات قلب "عبد المعبود" وكتم أنفاسه، وفكر في أن يعود مسرعا إلى الداخل!

ولكنه تقدم خطوة في اتجاه الرجل الجالس.. ثم صاح مرحبا:

- أهلا!.. يا شيخ!! خضتني. ازيك يا دكتور! أهلا.. إيه؟.. مش عوايدك!.

وكان "عبد العزيز" مستغرقا في القــراءة، فالتفــت إلــى "عبد المعبود" بسرعة وسأله:

- خلصت؟ خلصوا..

وأجابه "عبد المعبود" بدهشة:

- هم إيه اللي خلصوا؟

واكفر وجه "عبد العزيز" وقال وهو يغالب ارتفاع صوته:

- المنشورات يا أخي!.. يعني عايزني أقولــك انــي جاي من طرف "عبد الحي"؟!.. اسمع.. فيه واحــد غريب في الشارع بتاعنا رايح جاي يكلم واحد تاني على ناصية الشارع! يظهر انه بيراقب "عبد الحي" وجايز يقبضوا عليــه الليلــة... أنــا خــدت كــل المنشورات اللي عنده وأخفيتها.

وتوقف "عبد العزيز" قبل أن يكمل. واختلج صوته قلــيلا وهو يقاوم خجلا مفاجئا يدهمه:

- أنا أخفيت كل حاجة.. عند "رجاء".. و "ميمي هانم" كمان صممت تاخد شوية.. لكن.. على كــل حــال يا "عبد المعبود".. على كل حال احنا قدرنا نــزوغ "عبد الحي" ربنا يلطف لحد يوم ١٣ نوفمبر. هانت

خلاص يا عم!. كلها يوم والتاني!. "عبد الحي" آهو زاغ. والمهم ان ما حدش يقع، ولا المنشورات تقع.

كان يتكلم بخطورة، وبطريقة لم يألفها أحد فيه من قبل.

ووقف "عبد المعبود" يحملق في "عبد العزيز" بدهشة، والفرح يزحف إلى نفسه كأنه يسترد شيئا فقده، ومشاعره تضطرم بكل ما يقوله "عبد العزيز": الفرج بعد يومين! هذا الرجل الغريب يروح ويجيء في الشارع يكلم رجلا غريبا آخر على الناصية!. "عبد الحي" إذن كان يمكن أن يقبض عليه والمنشورات في بيته!.. أي شيء كان يمكن أن يحدث لو أن "عبد العزيز" لم يجئ الآن لينبهه هو؟! ثم هذه الفتاة المصدورة "رجاء"؟!. كيف تقبل المنشورات في بيتها؟ طبعا يا عم! كله يهون من أجل "عبد العزيز" و "ميمي هانم" أيضا؟!.. حتى الست "ميمي" هي الأخرى تخفي منشورات؟! وما حال "أمين"؟!

وقال "عبد المعبود" بتؤدة دون مقدمات:

- اسمع يا دكتور.. أنا عندي كلمتين عايز أقولهم لك من مدة، بس ما تخدش على خاطرك مني. ما تشوف لك طريقة في "رجاء" دي. ما تدخلها

المستشفى بدل الخيلة الكدابة دي! وعلى كل حال برضه المستشفى أحسن من علاج البيت!

فاصفر وجه "عبد العزيز" وهم بأن يزعق في وجهه "عبد المعبود" ألا يتدخل في شيء كهذا.. ولكنه أمسك لسانه.

ووقف ومد قامته الطويلة، وتطلع إلى داخل المطبعة وهو يقول بصوت يداري به امتعاضه وضيقه:

- بس هات انت المنشورات. أنا حاوصلهم "لعبد الحي" في البيت اللي راح يبات فيه.

وتحرك "عبد المعبود" إلى داخل المطبعة وهو يهمهم:

- طيب ولو اتقفشت بالحاجة؟

وبهت "عبد العزيز" لحظة.. إنه لم يفكر في هذا من قبل..

وقبل أن يجمع شتات فكره عاد إليه "عبد المعبود" قائلا:

- اسمع. اديني العنوان وانا حاوصلهم بنفسي. والا أقول لك.. ما نشيل الحاجة عند "شكري بيه"! والا أقولك؟ بلاش. اديني العنوان بس يا دكتور ومالكشي دعوة انت.

ودخل الأسطى "عبد المعبود" بخطوات وئيدة إلى ما وراء الحاجز الخشبي، بينما وقف "عبد العزيز" حائرا.. إنه لا يستريح إلى ما يقوله الأسطى "عبد المعبود"!. جاء يحدثه عن المنشورات فتجاهله "عبد المعبود" وأخفى عنه الأمر. وعندما حدثه عن الخطر الذي يهدد "عبد الحي" ويهدد الشارع كله، حدثه "عبد المعبود" عن "رجاء" وطالبه بأن يتخلص منها، ويخلص منها الشارع، ويرميها في المستشفى! وهو الآن لا يريد أن يعطيه المنشورات ليحملها إلى "عبد الحي"، ويلوح له بأن البوليس يمكن أن يقبض عليه!

إنه على أية حال لا يستريح إلى سلوك "عبد المعبود" معه ويستشعر فيه نوعا من الاستخفاف وعدم الثقة!

لماذا يحدثه عن "رجاء" الآن بالذات؟!

ومع ذلك فهي تخفي منشورات أخرى تحت سريرها... بالضبط تحت رأسها! ولكن هذا لا يغير شيئا من رأيهم فيها! إنهم يرونه يدخل ويخرج من عند "رجاء" ولهذا تقوم الدنيا عليه حتى في لحظة حرجة كالتي يعيشونها الآن!

مم يخافون؟.. "رجاء" لن تعطله عن الامتحان.. والمشكلة الآن هي تصريح المستر "هور"! وهم لم يروا كيف كان

حاله في الكلية حين قرأ كغيره من الطلبة تصريح المستر "هور"! "عبد المعبود" أيضا لا يصدق إلا ما يراه.. إلا ما يمسكه بيده!

وهو لم يرك يا "عبد العزيز" تجتمع مع الطلبة صباح اليوم في بوفيه كلية الطب.. ولن يراكم في اجتماع الليلة!

هو لم ير إلا ترددك على "رجاء"! وهو يثق في "عبد الحي" أكثر مما يثق فيك! ربما لأنه رآه يسجن، وعرف بنفسه كيف قاوم وهو في السجن، وليست له سقطة!. حتى مغازلته القديمة لـ "سعاد هانم" والرغبة القديمة في السخرية به، ذابت تماما منذ خرج من السجن راسخ القدم شامخ الرأس.

ولكنك يا "عبد المعبود" تبالغ!

لماذا يجب أن تذهب أنت بالمنشورات؟!.. ربما كان يجب ألا تعرف البيت يا أخي!. بل أنت يا أخي يجب ألا تعرف البيت!.

وارتعش "عبد العزيز" على هذا الخاطر.. وبان الاشمئزاز على وجهه، وشعر بالخجل بينه وبين نفسه!.

يجب ألا يفكر هكذا في "عبد المعبود"!

لا يكفي أن يعرض "عبد المعبود" لعلاقته بـــــ "رجـــاء" أو أن يمتنع عن إعطائه المنشورات ليطلق هو فيـــه لســـانه ويتحيز ضده، ويفكر في اتهامه على هذا النحو الشائن..!

لا لا.. معذرة يا "عبد المعبود".. الحمد لله أن اللسان لـــم يسبق بهذه الكلمات الكريهة!.

لو أنني قلتها لعذبني شعور زري بالدناءة!. انت على حق يا "عبد المعبود".. يجب ألا يحمل المنشورات أحد غيرك!.. أنت تخاف علي، وهذا كل ما في الأمر!.. أنت لـــك خبـــرة قديمة في هذه الأمور.. ولك حـــق يـــا "عبـــد المعبـــود"!.. صحيح!.. من الخير أن تذهب "رجاء" إلى مستشفى.. فهناك تظفر بعناية أكثر، ونفرغ نحن لما يلقيه علينا مستر "هـــور"، وللمعركة التي ستجعل هذه الأيام من نـــوفمبر ســـنة ١٩٣٥ أياما حاسمة!

المستشفى..؟.. ولكن لا. لا. أنا أدرى بمـــا يحـــدث فـــي المستشفيات!! ستتحول هناك إلى حالة يفحصها الأطباء الجدد ويتعلم عليها الطلبة، وتسعل وحدها في الليل، وتنسل منهـــا حياتها شيئا فشيئا بلا رعاية ولا دواء، وتدق الجرس المعلق إلى سريرها فلا يجيبها أحد!.. أنا أدرى بمـــا يحـــدث فـــي

المستشفيات!. ستموت هناك!.. ثم.. كيف يمكن أن أحتمل الحياة لو أنني أفقت ذات صباح فلم أجد "رجاء" في مكانها!.

ولكنها تتحسن على كل حال.. ولن يحتاج الأمر إلى مستشفى.. فلنفكر في هذا فيما بعد!!..

لا تشغل نفسك بهذا الآن، فقد كنت منذ لحظة تلعن "أمين أفندي" لأن الإنذار الذي تلقاه من الدائرة بنزع ملكية البيت ألهاه عن تصريح المستر "هور" فلم يجد في نفسه حتى مجرد الاستعداد لأن يقرأه ويسمع من يتكلم فيه!..

كنت تلوم "أمين"!.. و "أمين" مسكين له حق في كل هذا الجزع.. له الحق في أن يطوف كل يوم على المحامين يسمع من كل محام ذات الكلام، ويسعد بأن يستعيد كلماتهم لنفسه. أن الدائرة لا تملك الحق في نزع ملكية بيته الخاص!

"أمين" معذور.. فهو مهدد بضياع البيت الذي وضع فيه كل شيء، كل تعبه، وكل حياته، ومستقبله.. وحتى شرفه!!

إن "أمين" يعزي نفسه بأن يسمع كلمة أن الدائرة لا حق لها، وهو لا يستطيع أن يفهم أنه لا قيمة للحق والباطل ما دامت البلد بلا دستور!!

ولكنه شتم "عبد الحي" حين حدثه في هذا.. ولمته أنت يا "عبد العزيز" وسخرت به! ثم تعود بعد هذا وتشغل نفسك بنقل "رجاء" إلى المستشفى!!.. من غيرك تشغله هذه المشكلة؟!

على كل حال، لسنا في حاجة إلى قلق جديد يا أخي.. ستبقى "رجاء" كما هي..

لا!.. بل المستشفى أفضل، ما دمت أنا أستطيع أن أوصي عليها الأطباء، وأن أمنح الممرضين بعض المال!..

الله يسامحك يا "عبد المعبود"!.. لماذا فتحت على هذه الفتحة السوداء؟!..

"رجاء" ستبقى في بيتها وتشفى وتسمن!!..

***

وانتبه "عبد العزيز" من أفكاره فوجد "عبد المعبود" مازال في الداخل يربط حزم المنشورات الصغيرة العديدة في حزمة كبيرة واحدة.

وعندما عاد "عبد المعبود" من الداخل كان "عبد العزيز" يقف في باب المطبعة، والشارع من أمامه تخف فيه الخطوات..

ورأى "عبده" يلهث في مواجهته، كأنما انشقت عنه الأرض، ومن ورائه "شوقي" يسرع في خطوة مقبلا من بعد..

وقال "عبده" مروعا:

- الحق يا داكتور.. الضابط صاحبك بتاع المرة اللي فاتت جه مع قوة يسألوا على "عبد الحي". عاوزين ياخدوه تاني.

وذهل "عبد العزيز"..

ثم بدأ يغلي بالحنق، بينما أسرع "عبد المعبود" إلى داخل المطبعة وحمل الحزمة الكبيرة.. واندفع إلى خارج المطبعة وهو يقول:

- طيب تعال معاي يا دكتور وريني البيت اللي فيه "عبد الحي".

ورمى الحزمة الكبيرة لـ "عبده" وانشغل بإغلاق باب المطبعة ثم استعادها منه وتقدم مع "عبد العزيز".. و "عبد العزيز" ما زال يهمهم لنفسه:

- البوليس؟!.

ولقيهم "شوقي" فهمس في أذن "عبد العزيز":

- البوليس جه و..

وأجاب "عبد العزيز" باقتضاب:

- عارف.. روح انت!.

ولكن "شوقي أكمل:

وأم رجاء بتصوت.. أنا سايبهم بيرشوا ميه على وش رجاء!

وتوقف "عبد العزيز"، وشعر بقلبه يغوص بين ضلوعه.. ولم يعرف ماذا يقول.

وساد الصمت لحظة..

ثم تحرك "عبد المعبود" وهم يتحركون وراءه في بطء، تحت أضواء المصابيح الشاحبة وظلالهم الطويلة تنعكس على أرض شارع درب الجماميز كالأشباح..!

وبان الشارع في الضوء الخافت أمام "عبد العزيز" كأنه طريق طويل بارد إلى العدم، والحيطان المتهالكة تقوم على جانبيه بلا نهاية، وكل شيء فيه ممض، معذب صدئ ومثقل بالآثام ورائحة الموت!

ومال "عبد المعبود" يهمس في أذن شوقي:

- انت عارف البيت اللي راح فيه عبد الحي!

فهمس "شوقي" بزهو خفيف:

- طبعا.

ومالت يد "عبد المعبود" حانية قوية على كتف "عبد العزيز" كأنه يحاول أن ينشله من الضياع القاتم الذي ينحدر إليه بإذعان وكآبة واستسلام!.

وعندما أحس "عبد العزيز" بيد "عبد المعبود" فوجئ، وأوشك أن يبتعد، ولكن "عبد المعبود" قال له من خلال ابتسامة واثقة مضيئة:

- طيب ارجع لها أنت يا دكتور. لازم ترجع الشارع تسعف رجاء.. أنا حاوصل مع شوقي.. ربنا يجعل في إيدك الشفا!.

واندفع "عبد العزيز" في طريقه إلى شارع عزيز، وأصوات رهيبة كالعواء تزمجر في أغوار قلبه، والطريق أمامه غائم مظلم لا يكاد ينتهي..

(١٨)

لم ينزل "سعد داود" من منزله بعد، على الرغم من أنه يعرف أن "شوقي خليفة" ينتظره في الشارع أمام باب البيت منذ ربع ساعة!.

ولكن "سعد" ليس نائما، فصوته يرتفع منذ لحظات مختلطا بصياح أمه وأبيه وجدته.

لو لم تكن "عديلة هانم" عصبية لا تبالي بما تقول، لطلع "شوقي" إليه وأخذه من يده إلى المدرسة ليخلص.. ولكنها أهانته ليلة البارحة حين رأته عند ابنها "سعد" وكلاهما مبحوح الصوت بعد يوم عاصف من المظاهرات.. واتهمته بأنه يسحب ابنها ويدور به في الشارع، وهو ابن بيوت وليس كغيره من الفلاحين أو أولاد الحواري!!

لو كانت امرأة أخرى غير أم "سعد" هي التي قالت له هذا لعرفها مقامها، ولكنه بلع كلامها وسكت، ثم خرج وهو يحلف ألا يزور بيت "سعد" مرة أخرى.. غير أن "سعد" رجاه ألا يهتم بكلامها، وأن يمر عليه في الصباح ليأخذ كل واحد

دوره أمام باب المدرسة مع الذين تعهدوا بأن ينبهوا الطلبة أن ينصرفوا إلى الجامعة في صمت، للاشتراك في المؤتمر الوطني الكبير الذي سيزحف من حرم الجامعة إلى بيت "نسيم باشا" بالحلمية الجديدة.

يجب أن ينزل "سعد" الآن! يجب أن ينهي هذه المشاجرة مع أمه. ونادى "شوقي" مرة أخرى متعجلا.. فلم يرد "سعد" وظلت شبابيك بيته مغلقة على الضجيج الصاخب الذي يتميز فيه صوت أمه الحاد!

وأخذ "شوقي" يتمشى في شارع "عزيز"، ووجهه مرفوع إلى الشبابيك المغلقة، والهواء البارد يلحس وجهه وينفذ إلى بدنه.

وأوشك أن يصطدم وهو يتمشى ببنت صغيرة تنقر الأرض بقدميها الحافيتين، وتوحوح منكمشة على نفسها، وبين يديها طبق من الفول.

ومد "شوقي" يديه بسرعة، فأمسك بالبنت الصغيرة من كتفيها ودفعها برفق في طريقها كأنه يسترضيها..

وتابعت البنت سيرها وهي تغرس رأسها بين كتفيها كأنها كتكوتة مبتلة..

ولو أن خادمتك هذه وقعت الآن بطبق الفول يـا "أمـين أفندي" لكان نهارها أغبر، وربمـا نهـارك أنـت أيضـا!. لو ضاع هذا الفول على الأرض لما شـبعت مـن ضـرب البنت، ولقعدت طول النهار تتشاتم أنت وزوجتـك "ميمـي هانم"!!. كل يا "أمين أفندي" كـل، وامـلأ بطنـك وتمتـع بـ "ميمي هانم" طبق القشدة كما كان يسميها "عبد الحي"!!.. كل وتمتع قبل أن ينزعوا منك ملكية البيت!.. لو كنت تفهـم يا أخي، لعرفت انهم يهددونك بنزع ملكية بيتـك لأن الـبلاد بلا قانون. ولأن الدستور ليس هو الذي يحكم الآن علاقـات الناس!. عندما ننجح يا "أمين أفندي" ويعود الدسـتور فلـن ينزع أحد منك شيئا تملكه!

غير أنك لا تفهم، سخرت من "عبد الحي" حين قال لـك هذا، وبدأت تشك في آراء "عبد اللطيف" أيضا حـين شـرح الأمر بكلام حلو بعد ما أتعبت قلبه بالأسئلة.. ولـم يعجـبكم كلامي حين حكيت ما حدث طوال نهار أمس!.

نحن يا "أمين أفندي" نعرف الكثير، ونعمل لك، ونتعرض لرصاص الإنجليز، وأنت همك في بطنك وفي القشدة التـي تملكها!!.

لم يعد الأمر محتاجا إلى ذكاء خارق يا "أمين أفنـدي".. فالحكومة التي تستعين بها الدائرة لاغتصاب ما تملكه أنـت، وجهت إلينا بالأمس عساكرها جنبا إلى جنب مع الكونستبلات الإنجليز.. كلهم فتحوا علينا أفواه البنادق بالنار يا "أمين".

أتعرف ما صنعه طلبة مدرسة دار العلوم بالأمس يا "أمين أفندي"؟ حكى لنا الدكتور "عبد العزيز" بزهو، وتألقت عيناه لأول مرة منذ شغلته "رجاء" بسعالها وشحوبها والدم الذي تبصقه.. تحدث "عبد العزيز" أيضا عن الدم!. عن الحصار الذي فرضه البوليس بقيادة الضباط الإنجليز على مدرسة دار العلوم وكلية الطب.. عن الاقتحامة الجسور التي حطمت هذا الحصار، فإذا بـ "عبد الحي" مع كل طلبة مدرسة دار العلوم وطلبة مدارس السيدة زينب يدخلون إلى كلية الطب، وهناك ينفجر "عبد الحي" يقول كلاما كالصواعق.

"عبد الحي" الذي لا يعجبك يا "أمين أفندي".

لو كنت تركتني أحكي لك عما صنعناه نحن بالمدرسة الخديوية اسأل "عبد المعبود".. كان يقف ساعتها على باب مطبعته والمظاهرات تمر في شارع درب الجماميز.. وهبطت المنشورات على رءوسنا فجأة، فتلقفناها، بشغف،

ووقف عبد الرافع يقرؤها.. ثم اندفعنا في طريقنا إلى ميدان السيدة زينب: الأيدي الملوحة تهز صمت الفضاء، وفي أعماقنا إحساس خارق بالقدرة المذهلة على اقتحام أي خطر، و "عبد المعبود" على المكتب الخشبي في مدخل مطبعته ينظر إلينا في ثبات وهو يبتسم في ثقة ورضا.. ولكن البوليس استطاع أن يفرقنا.. كان يجب أن نصل إلى مدرسة دار العلوم وكلية الطب..!

على أية حال لن تستطيع أية قوة أن تفرقنا اليوم.. كل شيء أعد، وسنصل إلى حرم الجامعة ونعود منه طوفانا لا يقاوم لنصفعك بقراراتنا يا "نسيم باشا"!

لا انتظار بعد، فموقفك منا بالأمس وضح كل شيء!.. لن تستطيع أن تخدع أحدا بأنك تريد الدستور!.. نحن لن نفصل بين الدستور والاستقلال.. الاستقلال والدستور مطلب واحد يا "نسيم باشا"!.

و "سعد" لم ينزل! هذه المصيبة.. لا يريد أن يتحرك من حضن أمه!. ليس هذه وقت المشاجرة مع أمك يا "سعد" ... انزل.. انزل يا أخي!.

ماذا يقول عنا الطلبة إذا وصلنا متأخرين؟

سيقولون إننا جبناء، و "شوكت عبد الرحيم المغربي" هـو سيد من يذيع عنا إشاعة كهذه.. ونحن نعطيه الفرصة بهـذا التأخير!

ونادى "شوقي" يستحث نـزول "سـعد" للمـرة الأخيـرة بعصبية، مقررا بينه وبين نفسه أن ينصرف وحـده إن لـم ينزل "سعد" من فوره. ونبهه وقع خطوات متتابعة ثابتة على بلاط مدخل باب البيت، فاستدار متجها إلى الباب المغلق وهو يلقي في وجه القادم بقوله:

- انت فاهم يا سي سعد اني أنا خدام أبوك؟.. وكمان جاي تتمخطر لي زي البنوتـة؟!. اجـري شـوية يا أخي..

وانفتح الباب ولكنه لم يكن "سعد".

وتراجع "شوقي" مشمئزا، ونظراته ترتد بامتعـاض عـن أخت "سعد".. إنها "ميرفت" اللعينة بقامتها الفارعة المتـأودة وصدرها النافر الوقح، وخطواتها المتحدية ووجهها الذي لـم ترسم عليه بعد آثار جرائمها!.. اللعينـة عشـيقة "شـوكت عبد الرحيم المغربي"!.. رفيقته بلا ريب!..

لو أن كل نظرة منها ألقتها عليه تستل شعاعا من عينيها!.. لو أن كل قبلة تترك على وجهها علامة كالبرص لا تمحى تصرخ بالعار والذنب!

كل قبلة؟!.. لا لا!..

ولكن "شوكت عبد الرحيم المغربي" يقبلها بلا شك، وصدرها هذا يتلقى ضغط يديه.. ليت هذه الأشياء الفاجرة تترك في جسدها آثارا كالحفر الشائهة التي يصنعها الكي بالنار! ... ليت أنفاسه التي تتلقاها وتختلط بأنفاسها تخنقها كالدخان المسموم!!.. الملعونة تجرى، وكأنها لا تراني، ولا تكلف نفسها حتى أن تقول لي إن كان أخوها سينزل أم أنه قاعد طوال النهار يتشاجر مع أمه!.. "عديلة هانم"!!.. أختك يا "سعد" لم تجلبه من الخارج.. فالبنت لأمها!. الملعونة تلتفت وراءها وتقلب شفتها وتمضي. كأنها تقول لي يا "سم"!.. حولي عني عينيك فأنا لا أريد أن أتلقى نظرة من العين التي تسطع فيها الرغبة الحالمة بالولد "شوكت المغربي".. "شوكت المغربي"!؟.. هو نفسه مائع له فضيحة منذ عامين مع طالب كبير في حجرة الملابس بملعب التنس!.. هو من صنفك تماما..!

أنت ذاهبة إليه الآن طبعا، فموعد مدرستك لم يحن بعد.. ليتنا نراكما الآن معا في الشارع ونكسر رقبتكما ونستريح!.

أين كنت معه بالأمس ونحن في المظاهرة؟!..

بالأمس ونحن في شارع درب الجماميز تسلل "شوكت" أمام حارة السادات حيث يقع الباب الخلفي لمدرسة "سان فنسان دي بول" ولم تفتني أبدا نظراته الساخرة إلي وإلى "سعد".. الله يلعنه ويلعنك!.

***

ودفعته يد قوية، وهو واقف يغلي ويحتدم، والتفت فوجد "سعد" في الشارع يقتحم الهواء البارد ويشده قائلا في حنق:

- يا للا.. والله العظيم ما أنا قاعد في البيت ده! وديني ما أنا راجع لهم تاني.

ولم يكد يمشي خطوتين في الشارع، و "شوقي" يلم نفسه ويزدرد ضيقه، حتى كانت "ألطاف" وراءه تلهث من الجري وبدنها السمين يترجرج وهي تقول متلجلجة:

- والنبي يا سيدي. بس اسمع يا سيدي.. تعال انت يا سي شوقي أفندي! ستي بتقول لك..

وانفجر "سعد" قبل أن تكمل:

- روحي كده.

ووقف "شوقي" حائرا ممتعضا و "ألطاف" تكلمه كأنها لم تسمع شيئا من "سعد":

- تعالى بس!.. والنبي يا سي "شوقي" تيجي تكلم الست.. انت كبير وعاقل وتعرف برضه.. هدي سي سعد رجعه تاني أحسن ويمين النبي ستي قربت تتشنج.. يا سي شوقي انتم ما لكوش نزول في وسط الضرب والإنجليز.. والنبي يا سي شوقي تهديه وترجعه تاني ربنا يهدي لك نفسك..

ولم يجب "شوقي".

واندفع "سعد" في طريقه يهمهم بالشتائم، ولكن "ألطاف" اعترضته، فاتحة ذراعيها أمامه لتقاوم اندفاعه، فانبثق من أغوار نفسه على الفور إحساس قديم بالعجز والمهانة حين كان ينطلق في الشارع وهو طفل منذ ثلاثة أو أربعة أعوام، فتأتي "ألطاف" نفسها وتحمله إلى أمه غصبا عنه. وأحس أنها تحاول أن تصنع معه اليوم نفس الشيء بعد أن أصبح هو

أطول منها بشكل ملحوظ: خشن الصـوت، مليئـا بـالفتوة والعنفوان، وهي أمامه لحم أنثوي!!

ودوت في رأس "سعد" أصوات غريبة مختلطة، وأحـس بصفرة كريهة تتماوج أمام عينيه وتتشـابك فيهـا عـروق سوداء. وغلى بدنه، ومد ذراعه بكل طاقته فأزاح "ألطـاف" من طريقه فأوشكت أن تقع إلى جانبه.

واندفع محمر الوجه والأذنين، وهو يرتعد في أعماقه من الغضب، والإحساس بالخجل من "شوقي" يلفحـه بـوخزات كالإبر المحماة. وزحفت "ألطاف"، ثم انتصبت واقفة مروعة الوجه، و "شوقي" يقلب نظراته بينها وبين سعد فـي حيـرة وهو يتمتم:

- روحي انت يا "ألطاف" قولي للست ما تخافش...

والتفت "سعد" إلى شـوقي يسـتعجله، ثـم لـوح بيـده لـ "ألطاف" منذرا:

- وحياة ديني ان مشيتي ورايا تاني لاكسرك! وديني لاكسر أي واحد منكم يمشي ورايا! الله!. أنا مـش عيل.. وديني لأوريكم.

ثم تابع سيره وإلى جواره "شوقي".

وعندما كان يختفي من الشارع، كانت أمه "عديلة هـانم" تقف في الشرفة بالشال على كتفها وهي تناديه فـي جـزع، وتعالت نبرات صوتها المتهدج تملأ الفضاء كاحتجاج صارخ يائس في وجه كارثة يزحف بها المجهول.

ولكن "سعد" لم يحاول أن يلتفـت إلـى وراء، وتعثـرت خطواته قليلا ثم نشطت، تحت سماء كالرصاص المصبوب، في الطريق إلى الحلمية الجديدة.

ونظر إلى "شوقي" فوجده واجما كأنما هو الآخر يغالـب زحف انقباض مفاجئ وخوف غريب مبهم.

وسأله "سعد":

- احنا ماشيين من هنا ليه.

فقال "شوقي":

- حنقت قدام باب المدرسـة اللـي ناحيـة الحلميـة الجديدة. وسكت "سعد".

ثم عاد يسأل:

- وليه مش باب الجماميز اللي احنا متعودين نـدخل منه؟

وأجاب شوقي:

- الترتيب كده أحسن. بعدين أقول لك.

وعندما اقتربا من المدرسة، لمحا في كل الشوارع المؤدية إلى بيت "نسيم باشا" عددا كبيرا من الجنود في العربات وعلى ظهور الخيل... والسنكي يلمع في ضباب الصباح بأيدي الجنود.

ومرا ببيت "شويكار هانم"، فقال "سعد" لـ "شوقي" بصوت جاف غريب وهو يشير برأسه في عصبية:

- بيت "شويكار هانم".

كان واضحا أنه يريد أن يقول أي كلام، كأنما يهرب من الصمت الذي يلقي به وجها لوجه أمام أغوار نفسه!

وأحس "شوقي" بقلبه هو الآخر يدق في خفوت وتهافت، وكأنه خيط من الماء يغيض في الرمال.

وحاول أن ينظر إلى وجه "سعد" وهو يشعر بحاجة خارقة إلى أن يرى في عينيه ومض الشعاع الهادئ الذي ترسله عين الصديق فيملأ القلب بالسكينة، ولكن نظراته لم تستطع أن تلتقي بنظرات "سعد".

وفجأة قال "سعد" بنفس الصوت الجاف الغريب المرتعش:

- كام واحد ماتوا في مظاهرة امبارح بتاعت دار العلوم؟

واختلج "شوقي" ولم يجب.

واقتربا من بيت "نسيم باشا" خطوات أخرى... صفوف العساكر هنا أكثر مما في الشارع الآخر.. السونكي يلمع والبنادق منتصبة في الأيدي.. فوهات البنادق يراها كل من يمر.. من هنا من هذه الفوهات يخرج الرصاص!!.. الخيل تروح وتجيء وعليها رجال حمر الوجوه.. تحت هذه السنابك سقط بالأمس عشرة طلاب.. اختلطت دماؤهم بالأسفلت.. في شوارع كالتي نمشي عليها الآن، ووقع طلاب آخرون على حافة الرصيف وتهشمت رءوسهم ثم جاءت الخيل فغرست حوافرها في صدورهم واليوم؟ كم من الطلاب؟!..

وأمسك "سعد" بكتف "شوقي" بغتة:

- انت خايف يا "شوقي"؟

وفتح "شوقي" عينيه وانتفض، وأخذ يحملق في "سعد" ثم تابعا السير حتى وصلا إلى باب المدرسة فقال "سعد":

- يظهر احنا اتأخرنا خالص...

ولقيا أمامهما طلبة ينصرفون عن باب المدرسة، و"عبد الرافع" يقف نافد الصبر، وإلى جواره "شوكت المغربي" و "عطا الله"..

وصاح "شوكت المغربي":

- أهم شرفوا!. قلت لك يا "عبد الرافع" لازم يكونوا في السكة. تلاقي العساكر تعبوهم وهم جايين. دا أنا قعدت ألف من شارع لشارع وكل ما أمشي في شارع آلاقيه مليان عساكر..

- على كل حال حانروح احنا بقى عند باب درب الجماميز.

فقال "عبد الرافع" بحدة:

- أنت تقف هنا مع سعد وشوقي وأنا حاخد عطا الله معايا ونقف على باب درب الجماميز ونبعت لكم اللي واقفين هناك توقفوهم بعيد شوية عن باب المدرسة.. وكفاية الشيخ "حمزة" هناك قايم بالواجب.

وتدخل "عطا الله" قائلا باستعلاء وخطورة:

- أنا ما حدش أخطرني بهذه الترتيبات. أنا لم أعلم بها إلا الآن.. أنا مش فاهم! يعني تقولوا خطتكم للشيخ حمزة بتاع الكتب ويقوم هو بالدور الوطني وأنا قاعد في المدرسة ما ليش قيمة ولا كلمة؟ ثم اني معترض على الخطة دي! يعني إيه الطلبة يتسربوا واحد ورا واحد إلى الجامعة؟ ليه ما نخرجش كلنا بمظاهرة كاملة؟! ثم اننا لازم نقدر ظروف الناس. افرض طالب ما عندوش فلوس يركب لحد الجامعة لازم نحتشد كلنا ونحتل عربات الترام معا ونذهب في موكب يليق بناء وأوشك "سعد" أن يتكلم.

لأول مرة يجد في كلام "عطا الله" شيئا يوافقه..

صحيح يجب أن يحتلوا كلهم عربات الترام إلى الجامعة...

ولكن "عبد الرافع" اندفع يقول بضيق وهو يشد يد "عطا الله":

- يا عطا الله بلاش تضيع الوقت في مناقشات فارغة!.. دي مسائل ناقشناها امبارح واتفقنا عليها

وانتهينا!.. فيه مدارس رايحة بمظاهرات ومدارس رايحة على طريقتنا. ياللا بس.

وتوقف "عطا الله" وهو يسحب يده من "عبد الرافع" محتجا:

- الله الله!! ناقشتم واتفقتم وأنا ولا كأني هنا. قول لي ازاي أنا لا أدعى إلى مثل هذا الاجتماع!؟ دي مسألة كرامة؟ أنا لا أقبلها!.. هو انتم فاكرين اني الشيخ حمزة بتبلغوه القرارات وخلاص وما عليا إلا التنفيذ؟!. ثم تعال هنا قل لي. اجتمعت مع مين وفين؟ مع "سعد داود" و "شوقي خليفة"؟؟ والا انت عاوزني أفهم من كلامك انك اجتمعت في اللجنة التنفيذية العليا؟.. اتكلم. مين انتخبك تمثل الخديوية في هذه اللجنة وبأي حق تتكلم باسمنا؟؟ أنا لا أقبل هذه القرارات.. أنا سأدخل المدرسة واحتكم للطلبة.. انت فاكر نفسك زعيم!! هو علشان يعني ما بقيت رئيس جمعية الخطابة في غفلة من الزمان؟ ثم.. أنا كمان لا أعترف برئاستك لجمعية الخطابة. لا بد من استفتاء الطلبة. أمال عاوزين نستفتي الأمة

ازاي!؟. أنت عاوز تعمل دكتاتور يا عبد الرافع؟ أنا سأقاومك. أنا سأحطمك!

وبهت "عبد الرافع" ووقف حائرا لا يدري ماذا يقول.

وتحركت في نفسه فكرة أن يصفع "عطا الله" بالكف ويركله برجله ويقول له أمام الطلبة كل ما سمعه عنه. كل ما همس به ضابط المباحث للدكتور "عبد العزيز" ذات يوم وردده "شوقي"!

ولكن "عبد الرافع" وقف ينظر إليه في صمت ثم تنهد وهو يقول بهدوء وحسم:

- أنت لن تدخل المدرسة! ما حدش فينا حيدخل المدرسة. كلنا حنروح على الجامعة حسب الترتيب الموضوع، إن ما كنتش مقتنع أو خايف فأنا أنصحك انك تروح بيتك أحسن لك.. واسكت خالص أحسن لك.

وقفز "عطا الله" ولكز "عبد الرافع" في صدره متحديا:

- إيه اللي أحسن لك.. أحسن لك؟! أحسن لي يعني إيه انت بتهددني؟ ازاي تكلمني أنا بالطريقة دي يا ولد؟

ووجد "عطا الله" نفسه في يد "سعد" وهو يزعق فيه:

- أنت يا واد يا بلية عايز تتخانق مع الأستاذ عبد الرافع كمان.. تعرف تقول له يا ولد؟!. هيه حصلت انك تقل أدبك وتسوق جنانك على عبد الرافع نفسه؟

فاضطرب "عطا الله"، وفوجئ، ولم يحاول أن يلتفت إلى "سعد" وهو في قبضته، ولم يحاول أن يدافع عن نفسه، وإنما التفت إلى "عبد الرافع" قائلا بأنفه:

- حوش عني الغلام بتاعك ده يا ولد.

فرنت صفعة قوية على وجه "عطا الله" من يد "سعد"، ثم انهال عليه بالكلمات، وتدخل "شوكت المغربي" يخلص بينهما، وسحب "عبد الرافع" يد عطا الله بقوة وجذبه إليه و "عطا الله" مصفر يشتم "سعد":

- ولد شوارعي! هوه فاكرني بتاع بوكس؟ طيب أنا رايح أربيه!..

ومشى "عبد الرافع" بـ "عطا الله" قائلا:

- يعني لازم تعطلنا وتشوه كل حاجة؟ سعد ده أرجل منك.

وعندما كان يبتعد بعطا الله صاح "شوقي":

- ما تسيبه يا عبد الرافع لسعد خليه يؤدبه.. تحب تعرف انت إيه يا سي عطا الله وبتعمل كده ليه وعايز تفسد ترتيبات المؤتمر ليه؟. وحياة النبي لو عملت لنا راجل تاني مرة لاخشعك! ما اللي كانوا معاك في الحبس عارفين كل حاجة يا سي عطا الله.. يا بلية الكلب!

وحاول عطا الله أن يلتفت ليرد، ولكن "عبد الرافع" كان يسير به ويكاد يجره.

ولم يكد "عبد الرافع" يمضي بـ "عطا الله" حتى قال "شوكت المغربي" لـ "سعد":

- هو ده يوم خناق؟.. انتم ما لكوش حق أبدا.

وانقض "شوقي" على "شوكت" بحنق مفاجئ فأمسك بخناقه، وهزه قليلا ثم تركه قائلا:

- اسمع يا ولد يا شوكت انت كمان! ما تعملشي حفلوط علينا!. انجر على باب درب الجماميز والا أمشي روح على بيتك!

واستنجد "شوكت" بـ "سعد" قائلا:

- شايف يا "سعد"؟! كده يعني ندور الضرب في بعض؟

فاحتد "شوقي":

- مالكش دعوة بسعد! أنا اللي باكلمك. ابعد خالص عن سعد وسكة سعد واللي يمت لسعد!. فاهم؟ يعني والا لأ. افهمني كويس قوي!

واعترض أحد الطلبة الواقفين:

- الله؟!. ما توفروا قوتكم للعساكر. التلامذة بتفلت منا وتدخل المدرسة واحنا مش واخدين بالنا...

- ورد "سعد":

- لا. دول الصغيرين بس. أنا واخد بالي. ما تخافوش.

وبدأت الشمس تخترق جنبات الصباح، وفتيات "مدرسة سان فانسان دي بول" يقبلن من بعيد، ويدخلن بسرعة إلى مدرستهن، وتنبه "سعد" متسائلا:

- الله!؟ هيه الساعة كام؟

وأجابه "شوكت":

- سبعة ونص.. يعني الوقت خلاص. فاضل ربع ساعة على ضرب الجرس.. معظم التلامذة بييجو دلوقت.

وأخذوا ينشطون في استقبال كل طالب كبير يجيء. ويهمس له أحدهم فينصرف الطالب.

وجاء تلميذ متأنق شاحب الوجه فقال "شوكت" ضاحكا:

- الشاعر جه أهه.. أهلا بالشعرور!

وضحك "سعد"، فقال "شوقي" بغيظ:

- بلاش تتمسخر على اللي أحسن منك يا سي شوكت!.. احنا مش واقفين هنا تتريق على خلق الله!

وسكت "شوكت" ممتعضا..

وأقبل الشيخ "علي" مدرس اللغة العربية فاستقبله "شوكت المغربي" وهمس له، فتقدم الشيخ "علي" إلى باب المدرسة بوقار ونظر إليهم في ابتسامة مشجعة وهو يهمهم:

- ربنا ينصركم.

وقال "سعد" وهو يتابع قامة الشيخ "علي" المهيبة تختفي داخل فناء المدرسة:

- يا بخت اللي واقفين على باب درب الجماميز. تلاقيهم بيدردشوا دلوقت مع "ميخائيل أفندي"!..

ودق جرس الدخول بالمدرسة الخديوية، وليس فيها غير التلاميذ الصغار، وتحرك "شوقي" يمشي إلى جوار "سعد" وعيناه على "شوكت عبد الرحيم المغربي" وهو يتقدمهم مع طلبة آخرين ليركبوا جميعا إلى الجامعة. وفي الطريق مروا بمدرسة بنبا قادن الثانوية فوجدوا الطلبة مجتمعين داخل المدرسة يستمعون إلى طالب يخطب والتفت "شوكت" قائلا:

- دول مش حايعرفوا يطلعوا. دلوقت البوليس يحاصرهم!

وقبل أن يجيبه أحد ممن معه.. تسلق "شوقي" سور المدرسة وصاح بصوت مرتفع كأنه يخطب:

- إلى حرم الجامعة. إلى المؤتمر الوطني في الجامعة فورا قبل أن يحاصرنا البوليس. لنذهب متفرقين.

وانفتح باب المدرسة تحت ضغط الطلبة. وذاب فيهم "شوقي" و "سعد" والآخرون.

واندفعت أمواج زاخرة منهم إلى شارع محمد علي تهتف "الحرية.. الحرية".. فتوقف الترام وردد السائق هتافهم.

وبدأ البوليس يزحف من جهات متفرقة ليحمي بيت " نسيم باشا".. بينما كانت عربات الترام تندفع بلا توقف في الطريق إلى الجامعة تدوي منها الهتافات بالحرية والاستقلال والدستور.

(١٩)

خرج "شكري عبد العال" من القهوة مصدع الرأس.

لم تكن الكئوس الثلاث من البراندي الرخيص هي التـي قلبت دماغه، ولكن كلام "أدهم بك" باشكاتب دائرة البـرنس عزيز الذي ظل ساعتين كاملتين يشـرب البرانـدي ويفتـل شاربه القصير المصبوغ ويحكي عن النساء.. لا توجد امرأة على ذلك يمكن أن يطمئن إليها الإنسان!.. مصيبة!.. كانـت ليلة سوداء حقا ليلة قابله عند "شويكار هـانم" فـي منزلهـا الأنيق بالحلمية الجديدة، فمن هناك نشأت صداقة سريعة بينه وبين هذا الباشكاتب.

وتعودا بعد ذلك أن يتقابلا في بار قهوة "ماتاتيا" في العتبة الخضراء. وهناك رفض "شكري" أن يشـرب الخمـر لأول مرة في مكان عام، ثم شرب كأسه الأولى وهو يغالب نفسه، ثم أخذ يتردد في أن يطلب بنفسه كأس الخمر. وبعد ذلك بـدأ يشرب بسهولة كأسا وكأسين وثلاثة، ويسمع حكايات طويلـة

عن النساء وعن مغامرات الرجل البدين الملمع النظيف الثوب ذي الياقة المنشاة التي يتدلى عليها ذقن كبير.

ظل هذا الرجل يحدثه عن فضائح النساء ببساطة، ودون أن يختلج منه شيء كما لو كان يتحدث عن الجو!

ولم يكن "شكري" في حاجة لأن يسمع منه شيئا عن "شويكار هانم" فهو بتجربته الخاصة يعرف أنها تلقي في روع أي رجل أن الطريق إليها مفتوح، فما يكاد يتقدم حتى تصدمه بشكل ما! قبل يدها مرة فمالت إلى الوراء بدلال ملحوظ، وحين أمسك بذقنها مداعبا، أدرك من التماعة عينيها وغمزاتها أن الطريق إليها مفتوح، ولكنه لم يستطيع أن ينالها أبدا!.. إنها من هذا النوع من النساء الذي يلهب في البدن نارا لا تنطفئ، ولكنه يعرف أيضا متى وأين يقف! إن لديها كفايتها من العجائز، وهي تبحث عن شاب جميل، كانت توشك أن تلتهم "عبد العزيز" ولو أنه أمرها لجرت إليه، غير أنه المغفل صرف هواه إلى المريضة المسكينة.. "رجاء صدقي". وعلى أية حال فلا يمكن أن تكون لشويكار مغامرة مع أدهم!.

وعلى الرغم من أن "شكري" كان يعرف أن "أدهم" يبالغ ويتصور أشياء لا أصل لها! وعلى الرغم من أن رأي "أدهم" في النساء لم يثر في "شكري" من قبل غير الابتسام، على الرغم من هذا كله فكلام "أدهم" الليلة جعل "شكري" يعاني في أعماقه شيئا كنبش الأظفار.

كان يشرب كأسه الثانية حين فاجأه الباشكاتب بعد صمت قليل بقوله:

- دانا يا مبارك شفت كتير وجربت كتير.. كل واحدة ولها تمن! كل حاجة ولها طريقها! خد عندك أي واحدة من اللي حواليك. أصلك انت يا مبارك لسه سنانك لبن. خد الولية عديلة والا البنت ميمي والا أي واحدة تعجبك في الشارع بتاعكم. الحكاية كلها حكاية تكتيك! كده. الله! أمال انت راجل عسكري ازاي؟! أنا أنا أقول لك، آهو انت عايش في شارع عزيز وعامل انك انت عارف وانت مانتش عارف حاجة أبدا. تعرف الواد عبد اللطيف تلميذ الحقوق اللي ساكن جنب البنت ميمي؟ أهم غرقانين لشوشتهم ولا حد منكم هنا!

لم يكد "شكري عبد العال" يسمع هذا حتى أحس بشيء يزلزله، أممكن هذا؟ "ميمي" و "عبد اللطيف"؟ ربما كان لـ "عديلة هانم" علاقات أيضا! و "سعاد" ما حكايتها هي الأخرى؟ مع من الرجال؟!. والبنات أليست لهن حكايات. لمن يخفق قلب "سميرة" الوديعة الطيبة، "درية" التي تحكي له منذ يومين عن الإضرابات في مدرستها، وتروي له الأخبار التي تسمعها من "سعد" ابن "عديلة هانم"؟ لماذا تروح البيت دائما عند بنت "عديلة هانم"؟ كانت بنت "عديلة هانم" تأتي إليها لتساعدها في اللغة الفرنسية، ولكن "درية" تعودت في الأيام الأخيرة أن تذهب بنفسها إلى هناك لتذاكر الفرنسية، وهي تعود لتحكي أخبار المظاهرات! كل هذا.. مذاكرة؟! أهي لا تدرس في المدرسة السنية شيئا عن اللغة الفرنسية لتضيع فيها كل هذا الوقت؟!

إن هذا الباشكاتب يعرف عن الآباء المستغفلين أكثر مما يعرفه عن الأزواج المغفلين، ولكنه ينظر دائما بعد كل حكاية ويضيق جفونه المتغضنة على عينيه المنطفئتين قائلا بخطورة:

- أقول لك إيه والا إيه يا مبارك؟ غيرشي ربنا أمر بالستر!

إنه سعيد هذا الباشكاتب: زوج بناته، وهو يعيش الآن وحيدا في البيت على حل شعره.. المصبوغ!

غريبة! كيف يتحدث هكذا عن قريباته؟! المفروض أن "شويكار هانم" قريبته. إنها وثيقة القرابة به، ربما كانت بنت خالته أو بنت خاله، ولا أحد يعرف عنها سوءا! وهو نفسه لا يحكي فضيحة محددة عنها، ولكنه يتكلم عنها كما لو كانت بضاعة في السوق لها ثمن يمكن أن يدفعه الراغبون! من يا ترى هذا الثمن!؟ لا أحد بالطبع، فهي ما تزال في شارع عزيز!.

لعنة الله على هذا الرجل بكرشه الذي تتدلى عليه السلسلة الذهبية وأفكاره الفظيعة!. كلامه فارغ! كل كلامه فارغ..!!

من قال له إن "ميمي" عشيقة لعبد اللطيف؟!

آه!! ولكن "أدهم" هذا معذور! إنه يشتهي "ميمي" منذ زمن، وهو ينظر إليها حين يقابلها في أي مكان – في اضطراب وتوسل – كالكلب الجائع الشريد يلهث تحت أقدام مائدة عامرة!

هذه هي الحكاية إذن!! ومنذ وصل إلى "أمين أفندي" خطاب الإنذار بنزع ملكية البيت وأدهم هذا يحوم حول البيت!

***

وأمس الأول ذهب "أدهم" الباشكاتب بنفسه إلى البيت، واستقبله الحمار "أمين أفندي" بترحاب كبير، وبدأ الباشكاتب يتكلم كأنه المخلص المنقذ، فعرض على "أمين" أن يبيع البيت لصاحبة بار "ألفي" وهي زوجة لجارسون بقهوة "ماتانيا" ويأخذ عليها ورقة ضده، لأنها فرنسية الجنسية تتمتع بالامتيازات الأجنبية.. وهكذا ينجو البيت من نزع ملكيته، فالمحاكم المختلطة هي التي ستختص بالموضوع، ولن تجرؤ الدائرة على اتخاذ أي إجراء فيه عدوان على ملكية هذه الفرنسية!!.. وزاط "أمين" وهاص وجري إلى امرأته "ميمي" يهنئها بالخلاص، وطالبها بأن تأتي إلى حجرة الصالون لتشكر سعادة الباشكاتب "أدهم بك" ولكن "ميمي" التي أحست دائما بلفح النظرات الوقحة من عيني الباشكاتب، والتي لم يفارقها أبدا شعورها كلما تقابلا بأنه يفحص لحمها نفسه بعد أن يجردها بعينيه من ملابسها. ولكن "ميمي" ثارت فجأة في

وجه زوجها، وتساءلت مسترِيبة عن هذه المــرأة الأجنبيــة، التي يعرض الباشكاتب "أدهم بيه" خدماتها، وعن سر تطوعه لإنقاذ البيت وهو الذي وقع بنفسه الإنذار بنزع الملكية!! ثــم اتهمت زوجها بالخيبة، وتركته يعــود إلــى ضــيفه، بينمــا أسرعت هي تقرع باب جارها الدكتور "عبد العزيز" وحــين فتح لها أخوه "عبد اللطيف" حكت له مــا حصــل بســرعة ورجته أن يحضر ليفتي في الأمر.. ولم تدخل إلى الباشكاتب إلا مع "عبد اللطيف".. ودار الحديث قصيرا خاطفــا، هــاج بعده الباشكاتب في وجه "عبد اللطيف"، فهو صــغير الســن لا يعرف.. وحاول أن يهينه، ونصحه بأن يهتم بالدراسة بدلا من التدخل فيما لا يعنيه.. فرد عليه "عبد اللطيــف" متحــديا وأعلن أن "أمين" يرفض هذا الأسلوب، و "ميمي" ترفض أن تتعامل مع سيدة أجنبية تقوم بأعمال مشوهة وتشرف علــى بار سيئ السمعة في شارع "ألفي"، وأنه لا توجد قــوة فــي الأرض تستطيع أن تنتزع البيت من مالكه!!. ووقفت "ميمي" متحمسة بإعجاب تؤيد كلام "عبد اللطيف"، و "أمين" صامت، فانسحب الباشكاتب وهو يلعن الجميع في سره!!

هذه حكاية زيارة الباشكاتب لبيت "أمين أفندي"! سمعها "شكري" ثلاث مرات من "عبده" ليلة الأمس، وسمعها من "عبد المعبود" ظهر اليوم، ثم سمع ابنته "سميرة" ترويها لـ "درية"، قبل أن يخرج من بيته بعد العصر!

الشيء الذي لم يتبينه الجميع فيما حدث هو أن الباشكاتب كان يريد أن يستخدم المرأة الأجنبية لتسحب له "ميمي"، وهي امرأة حاذقة في هذا اللون من الأعمال، تجر النساء بادئة بحل المشاكل المالية. قرض بربا ثم التنازل عن الفائدة، أو تهريب ملكية منزل أو أرض للخلاص من الحجز أو من أية إجراءات قانونية أخرى، محتمية بامتيازاتها الأجنبية!.. ولها مع "أدهم بك" معاملات سابقا!!.

"شكري" يعرف هذا الصنف من النساء، ويعرف أسواق الرقيق المرتبطة بكل الأعمال غير المشروعة.. وهو يعرف هذه الحياة الرهيبة التي تحياها الشوارع الأمامية الكبرى في قلب القاهرة أكثر مما يعرفها الباشكاتب ذو الشعر المصبوغ الملمع.. ولكن الباشكاتب يتصور نفسه خبيرا بكل شيء لمجرد أنه يعرف سر المرأة التي رقصت عارية أمام "الملك فؤاد"، ولأنه استطاع أن يجد طريقه إلى بعض نساء من هذا

الصنف ولأن "شويكار" تغرس عينيها في عينيه وتنفث الدخان الأزرق في وجهه!!

لعنة الله عليه هذا الباشكاتب "أدهم".. إنه لا يعرف "ميمي"! وهو لن ينالها، ولن يفيده أن يتهمها مع "عبد اللطيف"!.. أيعرف هو أي نوع من النساء هذا الذي يتكلم عنه؟! أيمكن أن يفهم هذا الباشكاتب أية اهتمامات تشغل "عبد اللطيف" الآن وتمتلكه؟! إن "أدهم" يتحدث عن المظاهرات بلا اهتمام وبخفة مذهلة تماما كما يتحدث عن النساء!!. وهو يرى كل شيء لعب أطفال وباطلا.. وهو لا يمكن أن يفهم كيف تلتهب أعصاب الطلبة كلما اقترب يوم ١٣ نوفمبر من كل عام، وبدءوا يستعدون للاحتفال بعيد الجهاد الوطني!.. منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٩ عندما ذهب سعد وصحبه إلى دار المعتمد البريطاني إلى أيامنا هذه من سنة ١٩٣٥، والطلبة يحتفلون بعيد الجهاد الوطني، ويقبلون عليه بتضحية وجسارة واستعداد لبذل الدم، ولكن أدهم لا يمكن أن يفهم هذا! مات ابنك يا "شكري" في مثل هذه المظاهرات منذ عشرة أعوام.

***

ووجد "شكري" نفسه يدخل شارع عزيز في صمت الليل.. وشعاع خافت يمد لسانه الشاحب من دكان بعيد في الشارع الرئيسي.. وتوقف على الشعاع ينظر في ساعته.. إنها العاشرة والنصف.

ثم تابع سيره وامتلأت خياشيمه من الرائحة المألوفة التي تعطي شارع عزيز طابعه الخاص. وأحس بالراحة تملأ نفسه وحمد الله، لأنه الليلة لم يذهب إلى "شويكار هانم" كما تعود في الليالي الأخيرة..!

ووثبت من أعماقه فكرة زادت رضاه عن نفسه، إنه حتى لم يحاول أن يمر بالحلمية الجديدة، ولم يناقش نفسه، وإنما ترك الباشكاتب يذهب وحده، وخاض هو زحام العتبة الخضراء دون أن يشعر بما حوله، فلم يلتفت إلى واحد من الأولاد البيض الذين تحرشوا به، ونسي اشمئزازه المعهود منهم، لم تلتقط أذنه همسة الرجل ذي الأسنان الذهبية الذي يعرض بضاعته من الصغيرات سن ستة عشر!

... ولم تعلق عينه وهو يمضي في طول شارع محمد علي بردف امرأة، ولم تتق نفسه إلى سهرة عند إحدى العوالم

كما كان يحدث في ليال سابقة، بل تابع السير في صمت وهو لا يكاد يشعر بشيء مما حوله!

ومسح شاربه باطمئنان وهو يقرع أرض الشارع بثبات، ولاح النور متقطعا من شيش شباك في بيت "داود أفندي" فنظر إليه وهز رأسه ولعن "أدهم بك"، وأحس بإشفاق غريب يغمره بالحنان الحزين، وهو يتأمل في الظلمات خيالات من وجه "داود أفندي" الطيب، ومن "عديلة هانم" وهي تبكي خوفا على ابنها "سعد" الذي ما زال مصمما على الرغم من كل شيء أن يخرج كل صباح ليشترك في المظاهرات ويعود مبحوح الصوت!!. ورن في أذنه صدى قديم من عويل امرأته.. وتخايلت أمامه نظرات زوجته الجزعة الهالعة حين سقط ابنه في مظاهرات سنة ١٩٢٥.

وأوشك أن يختنق بالدموع!..

وتقدم في الصمت المظلم إلى باب بيته، ولكن رائحة الخمر التي شربها ملأت أنفه فجأة، وأحس بالخجل يدهمه أن يدخل إلى بيته وهو مخمور! لا أحد يمكن أن يلقاه في الشارع ويغفر له رائحة الخمر غير "عبد العزيز"!!.

ومال إلى بيت "عبد العزيز" ... لم ير شعاعا. أغلقت شبابيك "عبد الحي" على الظلمة منذ هجر البيت ليختبئ بعيدا عن عين البوليس قبل يوم ١٣ نوفمبر، وشقة "أمين" مظلمة.. هو نائم بلا ريب، ولا أحد في شقة "عبد العزيز"، لا ضوء ولا حس. لا شيء في البيت كله غير همهمة خافتة في شقة الممثلة "رجاء صدقي"، وضوء خافت في حجرة داخلية..

وتقدم "شكري" قليلا، ولكنه تراجع، ربما كان "عبد العزيز" يهمس لـ "رجاء" بكلمات حب. ولا يصح أن يطرق هو باب "رجاء" على أية حال!!.

واستدار يعبر الشارع إلى بيته ولكنه فوجئ بباب شقة "رجاء" يفتح ويغلق بحرص كبير، وتسلل إلى الشارع شبحان تبين منهما امرأة فارعة مكسمة البدن تمسك بيدها حقيبة وإلى جوارها رجل طويل.

من؟ من؟ مصيبة!! الباشكاتب له حق! انها "ميمي" مع "عبد اللطيف"!؟. "ميمي" معها حقيبة!؟. أصحيح إذن أن لكل امرأة ثمنها، وهذه البنت كما قال الباشكاتب لي يوما مثل أختها المتزوجة في المنصورة تحب المحامين ووكلاء النيابة، فإن لم تجد فتلاميذ الحقوق!! وها هي تتعلق بشاب أصغر

منها ما زال تلميذا في كلية الحقوق وتهرب بــه فــي الليــل والزوج المسكين المغفل نائم!

وتقدم "شكري" مندفعا إليهما في الظلام المطبق الســاكن، واضطربت خطوات "ميمي" وهي تسرع لتخرج من الشارع وإلى جوارها "عبد اللطيف".

وهمس لها "عبد اللطيف" فانطلقت بالحقيبة الكبيــرة ثــم توقف هو ليواجه في الظلمة هذا الرجل الــذي يطاردهمــا.. وواجهه فعلا متحديا بكل القوة التي يمنحها اليأس:

- عاوز إيه يا أفندي انت؟

ورد عليه "شكري":

- الله!!.

وضحك "عبد اللطيف" وتوقفت "ميمي" تهمس مطمئنة:

- عم شكري بيه.. الحمد الله!!

وبوغت "شكري" من الطمأنينة التــي غمرتهمــا عنــدما عرفاه.. ووقف صامتا، مفتوح الفم!.

وبادره عبد اللطيف قائلا وهو يتنهد بارتياح:

- احنا افتكرناك مخبر مستخبي في الشارع وطلع لنـــا فجأة! خفنا صحيح كنا رحنا في داهيـــة!. أنـــا قلـــت استبيع معاه وخلاص! يا قاتل يا مقتول!

وقبل أن يفرغ "شكري" من دهشته قالت له "ميمي":

- والنبي يا عمي شكري بيك تطلع انت كده على ناصية الشارع تشوف لنا السكة نضيفه والا فيـــه حـــد فـــي الشارع البراني.. والنبي من غير تكليـــف.. دا انـــت جيت لنا نجدة من السما.

وبدأ "شكري" يفهم.

ولكنه لم يستطع أن يفسر لنفسه لماذا تهتم "ميمي" بـــالأمر إلى هذا الحد..

وسأل بخطورة:

- دي منشورات؟

فأجاب "عبد اللطيف" بتردد:

- ده أكل لعبد العزيز وزملائه، كتـــر خيرهـــا ميمـــي طبخته بنفسها في بيت رجاء.. فيه عشرة طلبة بايتين في الكلية يحرسوا جثث الشهداء والبـــوليس فـــاكرهم

ألف!.. الحكومة عاوزة تسلم جثث الشهداء لأهلهم يدفنوهم من غير احتفال!!. لكن ده مستحيل.. مستحيل تماما..

طلبة الطب سرقوا الجثث وأخفوها وبكره الاحتفال يا شكري بيه. مصر كلها بكره حتمشي وراء الشهداء.. مصر كلها.

وكان "عبد اللطيف" يتكلم بطريقة لم يألفها "شكري" من قبل، ووجه "ميمي" يتخذ هيئة صارمة متحدية مليئة بالكبرياء والرغبة في اقتحام الخطر..

إنه لم ير "ميمي" هكذا من قبل حتى عندما رفضت أن تسلم مفتاح شقة "عبد الحي" لضابط المباحث منذ أسابيع!

وأحس "شكري" بخجل يطحنه.. وزعقت رائحة الخمر في خياشيمه. ولم يستطع أن يقول كلمة!

حتى "ميمي" منشغلة بالأمر، بينما هو قاعد يشرب البراندي ويسمع مغامرات الباشكاتب!!.

حتى "ميمي" على الرغم من جسدها الفائر المكسم ونهودها الثائرة تحت المعطف الثقيل!!

ومرت لحظة غريبة غامضة شعر خلالها أنه يكره نفسه!.

وود لو شتم "ميمي" لأنها تخرج في هذه الساعة من الليل مع رجل غريب ومعها حقيبة سفر!..

ما معنى كل هذا؟! أيعرف "أمين" أن امرأته تخترق الظلمات إلى جوار شاب غريب!؟ أيعرف ما يقول عنهما الباشكاتب؟.. لماذا تهتم هي بأن تحمل طعاما لـ "عبد العزيز" ولزملائه من كلية الطب؟! ثم ما هذا الذي يقول "عبد اللطيف" عن الشهداء؟.. الشهداء؟. الشهداء؟! أسقط شهداء في هذه المظاهرات، أمات الطلبة الذين جرحوا أول أمس في ذكرى ١٣ نوفمبر وهو لا يدري؟!.

ماذا يحدث في الدنيا الآن وهو موزع النفسي بين ليالي "شويكار هانم" وأحلامه بالسكينة في بيت تعمره الست "سعاد"؟

أيكون "عبد الحي" هو الآخر بين الجرحى أو الشهداء؟.

وسأله فجأة:

- وازي أخبار الأستاذ عبد الحي؟

فأجابه "عبد اللطيف" مسرعا وهو ينقل قدمه ليخطو:

- كويس. بخير. الأستاذ عبد الحي لم يقبض عليه ولم يصب في مظاهرة ١٣ نوفمبر.. بس والله من غير

تكليف يا سي شكري بيه تطلع تشوف السكة فاضـــية والا فيه مخبرين بره الشارع.. الأكـــل لازم يوصـــل أحسن دول طول النهار ما كلوش، والمنشـــورات دي لازم تتوزع الليلة وإلا باظت كل الترتيبات.

وقاوم "شكري" الغضاضة والخجل واندفع إلـــى خـــارج الشارع يضرب في سواد الليل وحده وهو يقـــرض أســـنانه، وأنفاسه تتلاحق وفي أعماقه هاوية بأســـرها تغـــوص فيهـــا الأفكار. امرأة فيها فتنة ألف غانية وشاب ملـــيء بـــالفتوة، يواجهان وحدهما الخطر والليل والموت والفاجعة! والنتيجة؟! ولكن! لا لا!!.

وغاب قليلا ثم عاد بعربة حنطور ووقـــف علـــى بـــاب الشارع، وقفز هو متجها إلى "ميمي" فأخذ منها الحقيبة قـــائلا بصرامة:

- روحي انتي لجوزك وأولادك يا بنتي ...

ولكن "عبد اللطيف" همس معترضا:

- لا لا يا شكري بيه. الترتيب كده لازم واحده ست هي اللي تخش بالشـــنطة، لأن الحصـــار هنـــاك قـــوي ولا يمكن السماح لأي راجل بالدخول. المفروض انها

قريبة واحدة من الحكيمات المقيمات في المستشفي.. لا لا يا شكري بيه. ميمي هي اللي ممكن تدخل الأكل.

فصمت "شكري" قليلا ثم قال كالشارد:

- طيب روح انت يا بني أنا هاروح معاها.

ولكن "عبد اللطيف" تابع همسه مبتسما:

- لا يا عم شكري بيه.. لازم أنا أروح علشان المنشورات متشكرين.. احنا عارفين همتك ووطنيتك..

وانطلقت العربة بهما، و "شكري" يعود إلى بيته متثاقلا.. وأدار المفتاح في الباب ببطء ودخل، إلى حجرته وهو يحيي ابنتيه برأسه، وارتمى في الفراش بملابسه..

وكان صوت "درية" يصل إليه وهي تحكي لأختها بانفعال كل ما سمعته الليلة من "سعد" حين كانت تذاكر مع أخته.

المظاهرات التي لم تهدأ اليوم. بعض رجال البوليس لا يطيق أن يضرب الطلبة بالعصي فيضرب الأرض ويصرخ.. صوت في المدرسة الخديوية ارتفع من تلميذ اسمه "عطا الله" يطالب بأن تقتصر الهتافات على المناداة

بالدستور.. وتلميذ آخر اسمه "شـوكت المغربـي" يتحـرش بـ "عطا الله" ويطالب بأن تكون الهتافات بالاستقلال وحده.. والطلبة ينقسمون حول هذا، ويرفض بعضهم أن يجمع فـي الهتافات بين الدستور والاستقلال.. وبعضـهم يقـول بـأن الدستور خديعة، وآخرون يقولون إن الاستقلال دسيسة، ثـم ترتفع أصوات تهتف بوحدة الطلبة والجبهة الوطنية من أجل الدستور والاستقلال.. ويندفع "سعد داود" و "شـوقي خليفـة" وطالب اسمه "عبد الرافع" يقنعـون الطلبـة بـأن الدسيسـة والخديعة هي هذه الخلافات التي يبذرها بين الطلبة عمـلاء محترفون.. وفي مدرسة السنية أيضـا تهتـف مظـاهرات بالجبهة الوطنية والدستور والاستقلال وتتعرض لها مدرسـة إنجليزية متأنقة فتقذفها تلميذة بالحبر على فستانها.!

وتقلب "شكري" وهو يسمع لابنته تتحدث عن أشياء غريبة عنها تماما. وتذكر أسماء غرباء عنها بلا حرج!

وأحس بأنه يواجه فجأة عالما جديدا لا يعرفه.. ولكنه عالم يتبين ملامحه بصعوبة بعد طول اغتراب!. هيه.. أكنت فـي رحلة إلى عالم آخر يا شـكري؟!.. نعـم أول أمـس كـان الاحتفال السنوي بذكرى ١٣ نوفمبر، وقامت مظاهرة الطلبة

كالمعتاد، ولكن أعنف من أي عام مضى. وأنت لا تشعر.! وابنك مع ذلك مات في مثل هذه المظاهرات!

ودعك عينيه وقام يخلع بذلته في بطء شديد، وما زال حديث ابنته "درية" يرن في أذنيه آتيا من حجرتها. ما كل هذا؟ ماذا يجري في عالمه هو الضيق!. حديث ابنته بكل هذه الحرارة.. وهذا الأكل الذي أعدته "ميمي" بنفسها في بيت "رجاء" ومضت فحملته إلى طلبة كلية الطب الذين قرروا أن يحرسوا جثث الشهداء ويشيعوها باحتفال كبير؟!

الحياة تمضي بدونك يا شكري أعنف مما كانت تمضي!.

والأرض لن تتوقف عن الدوران في انتظار رأيك بالطبع!

وأطفأ "شكري" النور وهو يشعر بشيء كالغصة تملأ حلقه، وظل سمعه يسري في الصمت إلى حجرة ابنته فالتقط صوت "سميرة" تقول لأختها "درية" في صوت منخفض:

- بقى مانتش عارفة؟! هو أنا لسه صغيرة؟ بابا متغير من يوم حكاية مقصوفة الرقبة سعاد هانم. من يوم ماجه يقول لي انه عايز يجوزها، واتخانق معايا علشان ما ريحتوش.. وبابا ما بقاش بابا.

واهتز "شكري" في فراشه كأن شيئا قاسيا يضغط على صدره وبطحنه! الأولاد يشعرون ويفكرون إلى المدى الذي لا نتخيله نحن الآباء!. كل شيء يتغير وهو لا يدري..!

وسمع صوت "درية خافتا"

– طيب ما يتجوزها. وليه يعني؟ هو احنا نفهم اكتر من بابا؟.

ورفت على وجهه نسمة رطبة، وشعر بنفسه ترتاح، وتنهد، وابتسم. وعاد يسمع همهمة لم يتبينها، ثم ارتفع صوت "درية":

– اسمعي يا "سميرة" اسمعي الجواب اللي بعته واحد من الشهداء للإنجليز كده.

ثم شاع في صوت "درية" رنة كالنحيب وهي تقرأ، وشكري ينصت من حجرته بأعصاب مرهفة:

"خطاب مفتوح إلى رئيس وزراء انجلترا.. روح الشر: أطلق على واحد من بني جلدتك النار.. وهاأنذا أزحف نحو الموت، ولكني سعيد جدا لأن أبذل روحي وأضحي بدمي في سبيل مصر... الموت شيء تافه... وآلام الموت عذبة من أجل مصرنا.. تحيا مصر.. مصر فوق الجميع.. تحيا التضحية.. يسقط الاستعمار.. تسقط إنجلترا.. سيعاقبكم الله. تحيا التضحية..

عبد الحكم الجراحي
أحد الشهداء المصريين

واختنق صوت "درية" وهي تقرأ، وارتفع عويل أختها "سميرة"

وقفز "شكري" من على فراشه، وهرول إليهما، وضربات قلبه تتوالى، والدموع تخنقه مختلطة بحرارة تأججت في بدنه فجأة.

ووجد "درية" على مكتبها ورأسها منكفئ على أحد المنشورات وهي تنتفض من البكاء، والى جوارها "سميرة" واقفة تبكي وتحاول مع ذلك أن تسكت "درية"

وأخذ "شكري" ابنته "درية" بين ذراعيه وأنهضها، وربت على كتفها ونظر إلى "سميرة" بعينيه المغرورقتين، وخانته الكلمات. وخرجت "سميرة" منكسة الرأس فألقت "درية" رأسها على كتف أبيها وظلت تنتحب!..

وعادت "سميرة" بكوب من الماء، فشرب أبوها جرعة، وشربت "درية" ثم سحبتها أختها فغسلت وجهها.

والتقط "شكري" من فوق مكتبها الورقة التي كانت تقرؤها وأخذ يتأمل فيها صورة شاب في إطار أسود غليظ، ويعيد قراءة رسالة "عبد الحكم الجراحي". ولم يبرح "شكري"

الحجرة حتى نامت "درية" و "سميرة". ثم سحب عليهما الغطاء، وقبلهما، وانصرف إلى حجرته..

***

وفي الصباح عندما كان "شكري" يتهيأ للخروج وهو يداعب ابنتيه كما لو كانتا طفلتين، سمع دقات غريبة متلاحقة على باب بيته!

وذهب بنفسه يفتح، فلقي أمامه أحد عساكر وزارة الحربية، يحييه ويقدم له ورقة. وصرفه "شكري"، واختلجت عضلات وجهه واستدار يقبل ابنته وخرج والدم يكاد يغيض منه!

مرة أخرى يدعونه إلى مقاومة المظاهرات!!

واندفع في الشارع فوجد أمامه "سعد" و "شوقي"، وحياهما بسرعة. ربما كانوا في وزارة الحربية يدعونه إلى أن يقتل واحدا من هذين. أو ربما كانوا يريدون منه أن يذبح "عبد الحي" أو "عبد العزيز" أو "عبد اللطيف"!

المجانين!! ما يحسبون؟!.

مرة أخرى يجب أن يتعرض للاستيداع والمصائب والمعاش القليل بعد ما بدأت الدنيا تحلو..

ولاحظ على طول الطريق جماعات من الطلبة تمضي مسرعة متدافعة أكثر من أي يوم آخر.

وتلقى نظرات العداء والريبة تلقيها الوجوه الغضة على بدلته العسكرية، وشعر بالزراير النحاسية والنجوم والتاج كأثقال من حديد ساخن فوق جسده.. والعربات تروح وتجيء تنقل العساكر.. والخيل في ميدان السيدة زينب في حركة لا تهدأ ولمح بين جنود البوليس بعض وحدات من الجيش.. وبدأ يشعر في أغواره كأنما ضلوعه تسقط واحدا بعد الآخر وتبتلعها دوامة بلا قرار!

وتهافتت نفسه، ولكنه ظل يسير مشدود القامة.

واقتحم مكتبه بوزارة الحربية، فلم يجد أحدا فيه من زملائه. وأخذ يطوف على المكاتب الأخرى، فوجد بعض ضباط في مثل رتبته وكلهم يتحدثون عن الأوامر الجديدة بمنع الاحتفال بتشييع جنازة الشهداء مهما يكن الثمن!

وطلع ونزل في وزارة الحربية، ودخل مكاتب من لقيه من الرؤساء، وسمع كثيرا..

وخرج من وزارة الحربية والكلمات التي سمعها ترن في أذنه: "اسكت بقى وخليك تاكل عيش" "دي أوامر السراي".

"أوامر قصر الدوبارة". "دي أوامر لاظوغلي" الجيش كله نزل الشوارع.. اسفنكس باشا القائد الإنجليزي بنفسه موجود على رأس قوة بتحرس قصر عابدين. أولادك كبروا يا شكري. اعقل بقى. بلاش طيش زمان. مركز القوة بتاعتك قدام باب القصر العيني. يجب منع المظاهرة بأي ثمن. كفاية المدة اللي اتبهدلتها في المعاش. شوف زملاءك بقوا في إيه وانت في إيه. حكمدار العاصمة راسل باشا وكل ضباط الجيش الإنجليزي موجودين في الشوارع النهارده!.. اعقل بقى ونفذ الأوامر. بلاش طيش!!

واتجه "شكري" ومعه بعض ضباط يصغرونه في الرتبة إلى شارع القصر العيني، وكلما اقتربت بهم العربة من المكان المخصص للقوة أحس كأنما روحه تنسل مع أنفاسه المتتابعة.

ووصلت الهتافات إلى أذنيه "تموت وتحيا مصر" "رفعت العلم يا عبد الحكم". "الدستور والاستقلال"، "تحيا الجبهة الوطنية".

ودق قلبه بسرعة، وغاض ريقه، وبدأت رأسه تدور!

وتحركت المظاهرة، وخرجت من وراء سور القصر العيني إلى الشارع.

ولاحت له النعوش في الأعلام الخضراء، ملفوفة بالزهر وعليها صور الشباب الذين سقطوا. ومن وراء النعوش يتدافع سيل من الشباب كلهم في عمر الورد، ومن بينهم مئات على أكتاف زملائهم يهتفون. ودمعت عيناه وهو لا يشعر.

ورن في أذنه نحيب امرأته حين قتل ابنه منذ عشرة أعوام، وتخايلت أمامه صورة ابنه ووجهه الباسم حين قبله في ذلك الصباح البعيد، ليعود إليه بعد ذلك شهيدا!..

وتحركت القوة واستعدت. وهمس في أذنه أحد ضباطه الذين يعاونونه أن الأوامر تقضي بإطلاق الرصاص في صدور الذين يهتفون! أحدهم يقبل محمولا على أكتاف زملائه!. أيجب إذن أن يطلق الرصاص عليه ليصبح هو الآخر في غد نعشا يلفه علم الوطن؟!

وتأمل "شكري" في الفراغ، والمظاهرة تتقدم، ولم يجب..

والتفت إلى الجنود وقال لهم: "انتظروا أوامري. أنا شخصيا اللي أصدر الأوامر".

وأخذ يحملق في وجوه الذين يهتفون.

ولاح من بينهم وجه "عبد العزيز" ووجه "سعد" و "شوقي".. و "عبد الحي" و "عبد اللطيف" وآلاف الوجوه المتشابهة!

لا.. لا!. هذا هو وجه ابنه.. دائما وجه ابنه الذي مات في مظاهرة منذ عشرة أعوام، وهذا هو صوته بالضبط!.. ابنه هو هذا الذي يهتف ويمر من أمامه!.. وابنه أيضا هو هذا الآخر الذي يقبل ملوحا بيديه، وهو هذا الثالث الذي يحمل صورة الشهيد!..

وتأمل في صورة الشهيد. هي أيضا صورة ابنه.. العين الباسمة في ثقة بالحياة.. والوجه الغض المتفائل البديع المطمئن المشرق بالكبرياء!

ولم يعد "شكري عبد العال" يرى من كل ما أمامه شيئا، ولم يعد يسمع شيئا: وهزه أحد الضباط قائلا بخوف ولهفة:

- يا أفندم احنا سيبنا المظاهر تمر على خلاف الأوامر. إيه خطتك؟! أنا مش فاهم!. نمشي وراها ونحاصرها؟! إيه تعليماتك يا أفندم.. ده سفنكس باشا قائد الجيش بنفسه هو المشرف النهارده.. سكرتيره

العسكري واقف هناك على حصانه.. يا أفندم نعمل إيه؟!.. المظاهرة حاتقفلت منا؟!

وأخذ "شكري" منديله فمسح به دموعه.. ووقف الضابط ينظر إليه مذهولا وهو يرى بدنه يرتعد كأنه يتهشم ونداء الطلبة يرج الآفاق.. نموت وتحيا مصر!! وعندما رفع "شكري" رأسه كان يبتسم من خلال الدموع:

- نموت وتحيا مصر؟!

(٢٠)

كاد "سعد" يسمع دقات قلبه، وهو في الشارع ينتظر مقدم صديقه "شوقي، وأشياء تتزايل في نفسه كأنه ينتظر انفجار حدث عظيم رهيب!. وصفرة العصر تغيض في احمرار داكن حزين، والأصوات تهدأ في شارع عزيز، ونسمات وانية مترعة بالبرد تمسح الوجوه، والبيوت، وتملأ شارع عزيز بالهمسات.

و "شوقي" لم يجئ بعد!.

وأخذ "سعد" يتمشى في الشارع..

ورأى "درية" تقبل من بعيد بقامتها الطويلة الفارغة، مسرعة الخطوات منحنية قليلا إلى أمام بجذعها، ومسحة جليلة من ألم غامض تغمر وجهها الذي يبتسم دائما على الرغم من كل شيء!.

واهتز إلى أعماق نفسه، وتوقف في مكانه، ولم يعرف إن كان يندفع إليها فيسلم عليها، أم يتظاهر بأنه لم يلحظها. وخيل إليه من توه أنها تتأمله، فنكس رأسه، وسيطر عليه

الخجل مما صنعه معها بخياله ليلة أمس خلف باب مغلــق، بعد أن انصرفت من عند أخته ميرفت!.. كان وقتها يتــذكر بكاءها واهتزاز بدنها بين يدي أخته، وبرزت له فجأة – وهو وحيد – صورة نهديها يرتعشان.. إن نظراته لم تتوقف عنــد نهديها عندما كانت تبكي.. فهو نفسه أوشك أن يبكــي حــين رآها تقرض شفتيها بأسنانها ويتقلص وجهها، ثم تهز رأسها، وتنهار فتعول بصوت مرتفع.. كانوا يتحدثون ساعتها عــن الاحتفال بتشييع ذكرى الشهداء.. وقرءوا مقالا كتبته إحــدى الصحف تصف الاحتفال، وتمجد موقف الضــابط "شــكري عبد العال"، وتحتج لأن الحكومة أحالته مــرة أخــرى إلــى الاستيداع.. إن "درية" لم تكن تبكي لأن أباهــا أحيــل إلــى الاستيداع، فهي كانت تفخر بما حدث، والكلمات التي مدحت بطولة أبيها ملأتها بالزهو، فانفسح صدرها وبدا على وجهها كل ما يمكن أن تثيره الكبرياء في وجه فتاة طيبة.. ولكنهــا التقطت الصحيفة وأعادت قراءة وصــف تشــييع الجنــازة، وأخذت تتأمل الصور، وبعدها شردت فجأة.. ربما تــذكرت أخاها الذي استشهد أيضا منذ عشرة أعــوام، ثــم أجهشــت وظلت تنتحب!.

ولم يكد يخلو إلى نفسه حين نام الجميع في بيتـه، حتـى برزت أمامه صورة "درية" وهي تبكي ونهدها يخفق، وتمنى لو أنه كان احتضنها وهي تبكي، ومسح دموعها بشفتيه، ثـم تخايلت أمامه بعد ذلك صورتها عارية.. عارية تماما ونهداها أيضا عاريان!. وعندما بدأ ينام كان يعاني اشمئزازا رهيبـا من نفسه ومن خيالاته ومن كل ما صنعه!!

وهي الآن أمامه في الشارع.. لو أنها عرفت كيف فكـر فيها ليلة البارحة! لبصقت في وجهه!

ولكن "درية" دخلت بيتها، و "سعد" يقف متخشـبا مـنكس الرأس يلتهب الدم في وجهه وأطـراف أذنيـه، وسـحابات المغرب تزحف إلى السماء!

وحين لمح الشارع خاليا منها بدأ يمشي من جديد، وهـو يحس كأن الهواء يستحيل إلى شيء مصبوب ثقيـل يضـغط على صدره! لم يجئ "شوقي" بعد!. لعلهم لا يجتمعون الليلة!! أو لعلهم قرروا ألا يدعوه هو للاشتراك في هذا الاجتماع!.

لو كان يعرف على الأقل أين يجتمعون، لذهب وحده بدلا من وقفته الممضة ينتظر "شـوقي"، ويـداري خجلـه مـن "درية"!!..

لو كان يستطيع أن يذهب إلى "درية" فيعتذر ويقسم لها إنه لم يفكر فيها من قبل أبدا بهذه الطريقة، وإنه لن يفعلها، وسيظل على الدوام يحمل لها الإعجاب والاحترام والإكبار، فتنظر هي إليه مبتسمة وتلوح بيدها في وجهه مستخفة، وتؤكد له أنها هي أيضا معجبة به!!.. ولكن "درية" لا تعرف إلى أي مدى ذهبت أفكاره.. وما دام هو لم يبادرها بما يمكن أن تنكره، فما الذي يجعلها تغضب منه، وكيف تعرف أنه تخيلها عارية في فراشه ذات ليلة؟!

ووجد نفسه يقف في مواجهة بيتها تماما، ونور غرفتها يضيء خلف شيش الشباك المغلق، وهو يستند إلى الباب الخارجي لبيت "ميمي هانم"، حيث يسكن "شوقي"!..

ومر به "عبده" مسرعا فاستوقفه "سعد" يسأله عن "شوقي"، ولكن "عبده" لم يتوقف، بل أجابه وهو يكاد يجري:

- لسه ماجاش.. لكن اسمع، اوعوا تتحركوا إلا لما ارجع.. أنا باقول لك أهه.. اوعوا تتزحزحوا كده والا كده الا أما آجي سامع؟ آه!

وتابعه "سعد" بنظرة استغراب، وأحس بضيق من لهجة "عبده" التي تحمل – بشكل غير مهذب – نوعا من التهديد.. وقال لنفسه وعبده يبتعد:

- يا أخي ما تتكلموا كويس!!..

***

ولم يكد ينقل قدمه من جديد في الشارع حتى ارتفعت من ورائه صيحات مختلطة منهكة.. كان واضحا أن "ميمي" و "أمين" يستأنفان حديثا انقطع. صوتهما يقتحم الجدران والشبابيك ليصبح مسموعا لكل من يمر في الشارع، وكان صوت "ميمي" متهدجا متحرجا يبدو فيه الضغط على أعصابها أمام إهانات جارحة. ولكن "أمين" كان يخور كالثور يهتاجه إصرار "ميمي" على أن تنهي المناقشة..

ورنت في أذن "سعد" صرخة "أمين":

- انتي كذابة وغشاشة!.. انتي ماكنتيش سهرانة عند رجاء صدقي ولا رجاء زفت! انتي مجرمة. انتي من ليلتين كنتي في عربية حانطور مع عبد اللطيف ودايرين مع بضع في انصاص الليالي! هه؟ أنا عارف كل حاجة! أنا مش مغفل. عامله لي شريفة

وشاطرة تطردي لي الباشكاتب اللي جاي يساعدني، وتقولي عليه انه بيعاكسك، وانت دايره من ورايه مع مع حتة ولد تلميذ فلاح! أنا حاشرب من دمكم انتم الاتنين!

لم يسمع "سعد" من قبل مثل هذه النبرات الفزعة في صوت إنسان وخيل إليه أن "أمين" يمكن أن يشرب من دم "ميمي" و "عبد اللطيف" بالفعل.. "ميمي" و "عبد اللطيف"؟! لا أحد يمكن أن يتصور أن علاقة تنشأ بينهما؟! إنه سمع من أمه يوما تعريضا بـ "ميمي" وعلاقتها مع "عبد العزيز" ثم سمع من أمه أيضا اليوم تعريضا جديدا بعلاقة "ميمي" و "عبد اللطيف" فاشمأز من هذا الكلام وأوشك أن يتشاجر مع أمه. إنه هو يعرف أن هذا الكلام لم يثر إلا منذ استنجدت "ميمي" بجارها "عبد اللطيف" ليناقش الباشكاتب يوم جاء يعرض على زوجها أن يرهن البيت لامرأة أجنبية كطريقة للتهرب من إنذار الدائرة بنزع الملكية!. وهو متأكد أن الباشكاتب نفسه هو الذي بدأ يطلق هذه الإشاعة عن "ميمي" و "عبد اللطيف".. هذا الباشكاتب قريب أمه، الذي يحس "سعد" كلما رآه في بيته كأن يدا شائهة ملوثة الأظفار تنهش

رقبته!!.. إنه لا يحب تأنقه ولا شعره المصبوغ ولا نظراته ولا الطريقة التي يتعامل بها مع أمه!!.. وهو يعجب دائما لماذا لا يطرده أبوه؟!

و "سعد" يعرف أيضا أن "ميمي" ذهبت مع "عبد اللطيف" إلى مستشفى قصر العيني حيث كان يعتصم بعض طلبة السنة النهائية بكلية الطب لحراسة جثث الشهداء، وحملت لهم الطعام والمنشورات.. ولكنه لم يفكر من قبل كيف حدث هذا. في أية ساعة من الليل أو النهار؟. ذهبت في منتصف الليل حقا في عربة مع "عبد اللطيف" ولكن ماذا يهم؟! إن "عبد اللطيف" بوجهه الوديع وهدوئه ونظراته النبيلة يملك في أعماقه طهارة ملاك.. "عبد اللطيف" لا يصنع هذا أبدا! إن "عبد اللطيف" يجعل الإنسان يتمنى لو أنه كان أخاه!. ولكن.. في الليل عندما تكون امرأة مثل "ميمي" وحدها ببدنها الساخن الذي ينفض اللهب، ونهديها البارزين ولحمها الأبيض الشهي، وفمها المليء؟!. أن الإنسان لا يكاد يتخيلها إلا عارية.. ألم تلتصق بـ "عبد اللطيف" والعربة تميل؟.. لا يمكن أن تريح رأسها على كتفه فتنفذ أنفاسها إلى أعماقه حتى تشعل نخاعه؟ أيمكن أن يصنع "عبد اللطيف" شيئا كهذا.. ومع امرأة من

جيرانه يعرف زوجها ويقابله ويضحك معه، وفـــي ســـاعات تعصر القلب، أمام أحداث الشهداء؟! ولكن "شوقي" حكى لـــه أنه سمع "عبد اللطيف" يقول لـــ "عبد العزيز" إنه أمسك بيـــد "ميمي" مرة وغلبته لحظة وجد مباغته فوجدها ترتعش بكـــل بدنها كالقطة الصغيرة الشـــريدة فـــي المطـــر، وأوشـــك أن يحتضنها فوجد شفتيها تختلجان، وهمست والدموع في وجهها المروع: حرام يا عبد اللطيف.. حرام نعمل كده في أمين، ثم تخاذلت أمامه متهالكة، فابتعد هو عنها والخجل يكاد يخنقـــه، وقبل يدها الباردة معتذرا ولقيها بعد ذلك فأحس بعجزه عـــن أن ينظر في عينيها وكأن شيئا يقف بينهما!

"سعد" يذكر أنه سمع هذا الحديث مرة من "شوقي".. ولكنه لم يعبأ به، وكل ما أثاره في نفسه هذا الحديث هو مزيد مـــن الإعجاب بـــ "عبد اللطيف" ولكن متى حدث هذا؟! أكان هذا في بيت "ميمي" قبل أن يذهبا إلى القصـــر العينـــي، أم فـــي العربة بعد منتصف الليل؟ أم قبل ذلك بزمن؟.. متى يجـــيء "شوقي"؟!

وسمع "سعد" في الشارع صوت زجاج الشـــبابيك يغلـــق بعنف، وتناهي إليه صوت "ميمي" كنهنهة البكاء:

- كده يا أمين؟ إذا كنت عاوز تطلقني انت حـــر. أنـــا والعيال لنا رب يرزقنا. لكن ورحمة بابا أنا عمـــري ما غشيتك يا أمين، وعبد اللطيف ده اللي بتقول عليه، هو أشرف واحد دخل بيتنا. وعمر ما حصـــل بينـــي وبينه حاجة تسيئك. أنا حاقول لك كل حاجة يا أمين! اخص عليك. كده بعد العشرة دي كلها؟!.

واختنق صوتها، ولم يعد "سعد" يسمع غير نشـــيج فـــاجع زلزله، وشعر كأن دموعه هو نفسه، تنفجر من أغوار بعيدة، وأشعة الأصيل الحمراء تختفي في ظلال المغرب.

كان يتوقع أن تثور "ميمي" وتقذف زوجها بـــأي شـــيء، ولكن نحيبها ظل يرن بأنين يائس جريح..

***

وفجأة شعر "سعد" بيد "شوقي" تمسكه بلهفة وتشده:

- تعال تعال! والا استنى هنا. أنا جاي لك حالا.

ودخل "شوقي" الى بيته بحقيبة كتب يحملها بحرص، ومن ورائه "عبده"، وهمس "شوقي" من وراء باب البيت فـــي اذن "عبده" ثم ترك له الحقيبة، وعاد إلى الشارع مسرعا فأمســـك

بيد "سعد" واندفع به، و "عبده" من ورائها ويداه على الحقيبة في انبساط وفخر، وهو يزعق في خفة:

- مع السلامة. كل سنة وانتو طيبين! يـــاللا يـــا أهـــل الشارع ع الرؤية.. يا للا نشوف هلال رمضان!

ثم رفع "عبده" رأسه إلى شقة "أمين" وأذنه تلتقط صـــدى بكاء "ميمي":

- دهدي؟ يا أهل الله! الليلة مفترجة عند المتجوزين ... لا واحد يتخانق مع مراته.. ولا واحده تتخـــانق مـــع راجلها... يا سامعين.. هو.. د... ه!

وعاد إليه "شوقي" متضايقا فخبطه في صدره قائلا:

- اسمع يا أخي.. احنا في إيه والا إيه.. انت رايح فين بالشنطة؟ فضيها زي ما قلت لك.. أوعى تروح بيها.. وحاسب.

فهمس "عبده" بثقة:

- الله.. اعتمد.. كله حا يكون هنا في عبي.. والربطـــة اللي كانت عند الست ميمي ورجاء ما وصلت كمان. وفيه سيد مين يوزعهـــا.. دي زفـــة الرؤيـــة الليلـــة حاتشغي بالمناشير.. اعتمد!.

ووضع "شوقي" يده في ذراع "سعد" وانطلق به مسرعا واتجه إلى درب الجماميز.. وأدرك "سعد" أنهما يسيران في اتجاه المدرسة، فتوقف يتساءل، ولكن شوقي جذبه ومشيا حتى وصلا إلى دكان الشيخ "حمزة دبوس" ومال عليه "شوقي"، فأحضر الشيخ حمزة من الداخل بعض الكتب وعرضها أمامه، وعينه على بعض المخبرين الواقفين أمام سور المدرسة.. وتظاهر الشيخ حمزة بأنه يساوم شوقي على ثمن الكتب وهمس:

- الاجتماع في بيت عبد الرافع.

وانصرف "شوقي" مع "سعد" والشيخ "حمزة" يتظاهر بأنه يريد أن يسترضيه، فينادي عليه أن يعود ويدفع ما يرضاه.. ولكن "شوقي" لم يلتفت إليه.. وتألقت نظرة إعجاب في عين "سعد"، وهم أن يعلق على ما حدث كله، ولكن "شوقي" جذبه وهما يبتعدان ويميلان إلى حارة ضيقة تكاد أعالي بيوتها المتقابلة تتعانق ملقية رقع ظلال رمادية داكنة على الأرض المبلطة.. وقال "شوقي" فجأة:

- تعرف يا "سعد"؟ الحركة أثبتت إن فيه أبطال وطنيين ما نعرفهمش. الشيخ حمزة اللي بيشتري الكتب

المسروقة، وشكري بيه اللي كلنا كنا افتكرناه خسر خلاص؟ الراجل ده بموقفه الأخير أصبح بطل وطني خالد. وحتى البت رجاء اللي ظلمناها. و "ميمي".. تصور! وشوف "عبده" متحمس ازاي!.

وصاح "سعد" كأنه يهرب إلى صوته من اضطرام أفكاره:

- كلهم أبطال كده يا نيلة!؟.. وشوكت المغربي وعطا الله ما تقول عليهم أبطال كمان!

وخرج الاثنان إلى شارع الخليج، وغاصت أصواتهما في ضجة الترام، وتوقفا قليلا قبل أن يعبر الشارع على الضوء الخافت المنبعث من المصابيح ومن الترام الذي يهز الأرض في انطلاقه المجلجل السريع.

ودخلا مرة أخرى في حارة طويلة ضيقة، يزحمها رجال ونساء وأولاد يروحون ويجيئون أمام المقاهي الصاخبة بكراسي القش والموائد النحاسية، ورائحة البخور تملأ الطريق..

وفرقهما الزحام عن بعضهما البعض أكثر من مرة، ثم مال "شوقي" عن زقاق ضيق هادئ. والتفت على طلقات

المدافع، فوجد المآذن تضيء، ورائحة مـاء الـورد تـنعش صدره!..

وهتف دون أن يدري:

- المنشورات اتوزعـت دلوقـت.. يقفلـوا الجامعـة والمدارس على كيفهم بقى.. ولا يهمك.. بكـره أول رمضان "كل سنة وانت طيب يا سعد".

وسار "سعد" خلف "شوقي" وقال بغتة:

- دا أمين أفندي كان بيتخـانق مـع ميمـي دلوقـت.. بيتهمهما في "عبد اللطيف" أخوك..! تصور..

ورد "شوقي" بسرعة مستنكرا:

- إيه السخافة دي؟!. ما أنا حاكي لك كل حاجة..

وأخذ "شوقي" يتحسس بعينيه في الظلمات أبواب البيـوت التي يمر بها. وتتابعت أنفاس "سعد" وعاد يستشـعر تزايـل أشياء في نفسه كأن في داخله بناء ينقص..

وتوقف "شوقي" أمام بيت من طابقين بفناء مترب. ودفـع الباب نصف المغلق وجاوز الفناء، ثم دخل في ممر ضـيق

وصعد درجات السلم ودق الباب ثلاث دقات خفيفة متتابعة قائلا:

- شوقي!

وهمس لـ "سعد" أن ينطق اسمه بنفسه.

ولمحا نورا يأتي من وراء زجاج باب الشقة ثم فتح الباب. وعندما دخل "شوقي" ومن ورائه "سعد" وجدا أمامهما "عبد الرافع". وقادهما ومصباح الجاز في يده إلى حجرة في الداخل، وأغلق باب الشقة والحجرة. ووضع المصباح على المكتب.. وبانت الحجرة أمامهما على نور المصباح عارية فيها أربعة كراسي إلى جوار المكتب، وحصيرة يجلس عليها رجل بشارب! من؟ "عبد الحي"؟؟..

وانقض "شوقي" عليه يعانقه، ثم عانقه "سعد". وقعد "سعد إلى جوار "عبد الحي" من الناحية الأخرى يتأمل شاربه الأسود الكثيف الذي رباه وتنكر فيه!.

وقال "عبد الحي":

- ضمنت توزيع المنشورات يا شوقي؟ ازيك؟ وانت يا سعد ازاي حالك؟ وازي شكرى بيه. بلغوه تقدير لجنة الطلبة العليا.. احنا أرسلنا له برقية بتقديرنا على

كل حال.. وازي الشارع كله؟ ازي عبده وميمي هانم وازي رجاء!؟..

وساد الصمت بغتة والباب يفتح ببطء، ثم دخل "عبد المعبود" مبتسما. وسلم وقعد على الحصيرة قائلا بشكل خاطف:

- أنا اسمي في الاجتماع محمود من عمال النقل.. وعبد الحي اسمه زكي مندوب لجنة الطلبة..

ورنت من بعيد طرقة على الباب الخارجي، فهمس عبد الحي في أذن "شوقي":

- ابقى خلي عبده يجيب لي هدومي. وخد مفتاح الشقة أهه! وإذا قدر يغسلهم يبقى كتر خيره! ابقى هاته معاك مرة..

ودخل طالب طويل قدم نفسه باسم "محسن" مندوب المدارس المتوسطة والطالب بالفنون والصنايع، ومعه طالب آخر قدم نفسه باسم "علوان" مندوب لجنة مدارس شبرا، ثم جاء "عطا الله".. وقعدوا كلهم على الكراسي، وقعد عبد الرافع على كرسي إلى جوار المكتب. وأعلن "عبد الحي" وهو على الحصير افتتاح الجلسة قائلا:

- بمناسبة إغلاق الجامعة والأزهر ودار العلوم ومعظم المدارس الثانوية والمتوسطة، فلجنة الطلبة العليا ترى أن عبء الاستمرار في الحركة الوطنية يقع على المدارس التي اكتفت الحكومة بإبعاد بعض طلبتها.. وبنشوف كمان انه يجب البحث عن وسيلة للاستمرار في الحركة عن طريق العمال وأهو معانا مندوبهم الأسطى.. "محمود" من عمال النقل.. إن ثورتنا هذه في سنة ١٩٣٥ يجب ألا تقع فيما وقعت فيه ثورة سنة ١٩١٩، وهكذا سيذكر التاريخ أن الطلبة والعمال قادوا بحكمة ثورة سنة ١٩٣٥، ونحن مجتمعون أولا لبحث الاستمرار في الحركة حتى يعاد الدستور ويتحقق الاستقلال، وثانيا: لبحث تشكيل الجبهة الوطنية من كل زعماء الأحزاب السياسية وممثلي الطلبة والعمال.. والأخبار من هذه الناحية مطمئنة جدا.

وفجأة.. اعترض "عطا الله" وهو يتأمل على الضوء الخافت وجوه الجالسين، ويداري ضيقه لأن "عبد الحي" لم يحتفل به ولم يقم له ليسلم عليه:

- تسمح يا أستاذ "عبد الحي"..
- فتدخل "عبد الرافع" بسرعة:
- حضرته اسمه الأستاذ "زكي" مندوب لجنة الطلبة العليا! وتضايق "عطا الله"، وظل يحدق بعينيه وهو يتأمل القاعدين على الحصيرة وقال:
- احنا لم نتعرف ببعض يا أساتذة!
- فقال "سعد" بضيق:

مش دا المهم.. المهم اننا نتكلم ونخلص.

واقترح "عبد الرافع" أن يقفوا دقيقة حدادا على الشهداء قبل بدء الاجتماع.. فوقفوا خاشعين، وحين قعدوا، رفع "عطا الله" صوته، و "عبد الرافع" ينبهه بيده ألا يزعق:

- كلامي أنا مش مهم ازاي؟ أنا أولا أحب أفهم الحاضرين هنا دول صفتهم ايه؟! وبأي حق يشتركوا في الاجتماع؟

وأشار "عبد الرافع" إلى "شوقي" قائلا بضيق:

- حضرته مندوب الخديوية.

ثم أشار إلى "سعد":

- وحضرته كمان مندوب الخديوية.

وهز "عطا الله" رأسه قائلا باستنكار:

- لما حضرته وحضرته مندوب الخديوية.. أمال أنا هنا بصفة إيه.

وأجاب "عبد الرافع" متكلفا الهدوء:

- مندوب مدارس الحلمية كلهـا. وحضـرته منـدوب مدارس شبرا.. وحضرته مندوب المدارس المتوسطة، ومندوب مدارس العباسية والجيزة اعتذروا وسنبلغهم القرارات.. و..

فقال "عطا الله" قبل أن ينتهي "عبد الرافع":

- طيب فيه مسألة أحب أثيرها قبل البدء في المناقشـة. أنا معترض على وجود بعض الناس هنا..

ثم أشار إلى "شوقي" و "سعد" واستمر:

- أنا لا أوافق على الولدين دول، وأعتقد أن وجـودهم خطر على الاجتماع، لأنهم.. متصلين بالبوليس.. أنا شفتهم امبارح بيضحكوا لضابط المباحث اللي اسـمه كمال الصفطاوي قدام باب المدرسـة وكلمـوه بعـد

خروجهم كمان. ثم إنهم هم اللي تسببوا في نقل الشيخ "علي" إلى مدرسة أولية في قنا، وميخائيل أفندي إلى ابتدائية في أسوان. والمسألة الثالثة انهم رغم اشتراكهم في كل إضرابات الخديوية بشكل بارز لم يقبض عليهم أبدا، و.. وحتى لم يبعدوا مع الطلبة الذين أبعدوا.. وإنما من باب المداراة وذر الرماد في العيون أبعدهم الناظر امبارح فقط!.. دا كله معناه إيه؟؟ ثم إننا بقى لازم نبطل نضيع الوقت مع أولاد صغيرين!.. وإلا فأنا أنسحب.

واستطاع "عبد الحي" بجهد شديد أن يمسك "شوقي " وأن يمنعه من الرد على "عطا الله" ورفع "عبد الرافع" رأسه ليقاطع سعد الذي كان يتهيأ للرد على عطا الله.. ثم قال عبد الرافع في حسم:

- أنا رأيي اننا نناقش هذا الموضوع، وأن نتكلم فيما جئنا من أجله مفيش داعي للاتهامات، وأنا أؤكد أن الأستاذين شوقي وسعد لم يتحدثا إلى الضابط كمال إلا لأنه صديق لشقيق واحد منهم.. أما مسألة أنهم لم يطردوا من المدرسة، ولم يقبض عليهم، فربما كانت

دي مكيدة من الناظر. وهذا كسب على كـل حـال، فليس من الضروري أن يقبض علينـا جميعـا، أمـا مسألة انهم وشوا بالأستاذ ميخائيل والشيخ علي، فأنـا أؤكد أنه لم يأسف طالب على هذا النقل مثل أسـفهم هم، بل إنهم بكوا.. ومعروف أن المسئول عن هـذه الجريمة هو شوكت المغربي اللي تآمر مـع حسـونة أفندي و.. و.. وعلاقتهم ببعض قـذرة ومعروفـة.! "شوكت" هو اللي على صلة بالبوليس يـا "عطـا الله" وكفاية بقى.. كفاية إثارة مشاكل بقى.. كفاية يا عطـا الله..

واعترض "عبد المعبـود" علـى الاسـتمرار فـي هـذا الموضوع:

- يا جماعة المفروض ان كل اللي هنا موثوق فـيهم.. العمال مالهومش دعوة بالمشاكل اللي بيـنكم وبـين بعض دي.. أنا مش عارفها ومش عـاوز أعرفهـا! عاوزين نتكلم في الجد.. احنـا بنشـوف ان وجـود صدقي في الجبهة الوطنية هو والناس اللي دوخونـا، وكانوا طول عمرهم مع الإنجليز دا خطـر كبيـر..

ياما عملوا جبهات وبيبجوا ساعة الزنقة ويعملوا عملة تهد كل اللي اتبنى وتأخر البلد! وهم مش ممكن يدخلوا في الجبهة مندوب للطلبة ومندوب للعمال! نحط إيدنا في إيدهم ازاي؟!.. احنا بنشوف ان ده غلط كبير قوي حايقعوا فيه التلامذة..

- فالتفت "عطا الله" إلى عبد الرافع ثم إلى "عبد المعبود" قائلا:

- أولاد أنا أحتج على هذا الاتهام ضد شوكت المغربي، وأتهمك يا "عبد الرافع" بحماية الخونة!.. أنا دعيت شوكت إلى هذا الاجتماع لأنه أجدر من غيره بالحضور.. ثانيا أنت يا أسطى بتتكلم باسم مين؟.. باسم العمال بتوع الوفد أو العمال بتوع عباس حليم.. انتم مين؟! إذا كنت وفدي..

فقاطعه "عبد المعبود" مبتسما:

- باسم العمال وبس.. باسم العمال بتوع العمال.. يا حضرة لفندي.. وحسن ملافظك شوية لو سمحت يعني.. وبلاش تضييع وقت..

وقام "عطا الله" بتؤدة يهز رأسه مستنكرا:

- أنا مش فاهم إيه الجو ده.. عامل لم أره أبدا يحـاول الانتقاص مني، و "عبد الحي" قاعد متنكـر بشـنبه.. والخونة قاعدين في حماية "عبد الرافع".. لا لا لا..

وقف "سعد" فجأة وهو يقرض أسنانه فأمسك بخناق "عطا الله":

- مين اللي خونة يا واد انت؟ احنا سـاكتين لـك مـن الصبح وانت عمال تلطش كده يمين وشمال وما حدش مالي عينك!.. إيه يا واد انت يا واد.. انت إيه انـت وشوكت بتاعك دا كمان؟..

وانتفض "عطا الله" وحاول أن يبتعد عن "سـعد" ولكنـه ارتطم بالمكتب وهو يزعق:

- انت يا ولد رايح تتطاول علي هنـا فـي الاجتمـاع الخطير ده كمان؟ انت يا ولد تبعد عني أحسن، واياك انك تستبيح لنفسك شتيمتي أنـا أو شـوكت.. انـت حاتتعود ع التطاول علي والا ايه!؟. إما انك تخـرج والا فأنا أنسحب!

وحين وقف "عطا الله" يصـلح هندامـه وقـف بينهمـا "عبد المعبود" يقول بأسف ودهشة:

- يبقى دا اجتماع دا والا لعبة عيال؟

وتجهم "عبد الرافع" وهو ينظر إلى "عطا الله" و "سعد":

- أنا لا أسمح بمثل هذه المهازل في الاجتماع.. يجب أن نبدأ في المناقشة فورا واللي مش عاجبه ينسحب.

وقعد "سعد" يداري خجله من اندفاعه، بينما تراجع "عطا الله" مغمغما.

- ولد كلب رقيع.. ابقوا روحوا اسألوا اخواتكم البنات عن شوكت يا كلاب قبل ما تحضروا اجتماعات وتتهجموا على أسيادكم..

وخيم صمت غريب.. وأوشك "سعد" أن يصرخ ويده تقرع جبهته.. واستلقت الأنظار على "عطا الله" تكاد تشويه، وكل واحد يكذب أذنيه.. وهب "شوقي" في صمت وهو يغلي وفي أعماقه دوي أصوات كالمجنون، فحمل "عطا الله" بيده ورماه على الأرض خارج الحجرة، ثم فتح له الباب الخارجي ورفسه بعيدا، وأغلق وراءه الباب، وعاد.. والكل صامت يحملق، والأنفاس تتابع، وضربات القلوب ترتفع!..

وارتعش صوت "عبد الرافع" وسرى خافتا جافا:

- متأسفين يا سعد. كلنا بنعتذر لك عن السقطة الفظيعة دي. وأطبق السكون من جديد، و "سعد" يغالب دموعه.

وارتفعت من مندوب المدارس الصناعية زفرات اشمئزاز... وقال زميله الآخر:

- جو الاجتماع ده غريب.. ومريب كمان.. أنا مكنتش متصور ان "عطا الله" بالشكل ده!

بينما قال عبد المعبود:

- ثم ازاي لفندي ده يقول على الاجتماع لواحد ما اتفقناش على دعوته!؟

وارتفع صوت في استنكار:

- من شوكت ده كمان اللي فشى له بسر الاجتماع؟!

وجاءهم من الشارع صوت "عطا الله" متكسرا:

- والله لأوريكم يا كلاب!.. أنا مندوب مدارس الحلمية، وكل القرارات اللي حاتتخذوها سأعارضها وتعارضها مدارس الحلمية بالإجماع.

وتحرك "سعد"، وتمنى لو نزل إليه ليسحقه في الشـــارع، ولكن "شوقي" أمسك به قائلا، وهو ما زال يرتجف:

- الواد ده فاكر نفسه يقدر يخش مدرسة في الحلمية!.. والله ليطردوه بالجزم من أي مدرسة!. أنا باقول لـــك من زمان يا عبد الرافع انه جاسوس، تقول لـــي لا!.. طيب لما نشوف آخرتها. إيه اللي يخليه يفشـــي سـر الاجتماع لواحد زي شوكت المغربي!

ووقف مندوب مدارس شبرا قائلا:

- أقترح فض الاجتماع. يظهر أن الجدع ده عارف ان فيه حاجة.. أنا غير مطمئن أبدا.. من أول مـــا جـــه وهو عمال يثير إشكالات وعاوز ينسحب. أنـــا غيـــر مطمئن. خطته كانت انه يطول الاجتمـــاع وينســـحب هو.. أنا مش فاهم.. حاجة تخيل!

فقال "عبد الرافع" بثقة:

- لا.. أنا عامل حسابي ومرتب المسألة مـــع صـــاحب القهوة اللي على الناصية، وهو نفسه صاحب البيـــت وساكن تحت!.. بمجرد ظهور أي شـــخص غريـــب مشتبه فيه مش بس البوليس، الجرسون رايح ييجـــي

يصقف من تحت.. في الحالة دي رايحين ننزل كلنا وندخل شقة صاحب البيت وتتسرب من باب البيت الوراني قبل ما يلحقوا يحاصروه كمان.. أنا أقترح نستمر في الاجتماع ونفرغ منه بأسرع ما يمكن وأنا المسئول..

وبدأ "عبد المعبود" على الفور يشرح وجهة نظره في الجبهة.. واعترضه "عبد الحي" وطلب البدء بمناقشة الترتيبات التي تكفل استمرار الحركة رغم إغلاق الجامعة ومعظم المدارس.. واتفقوا على توجيه منشورات مستمرة إلى الشعب والتجار والعمال لإعلان الإضراب العام بعد أسبوع، والاتجاه إلى الأقاليم أيضا، لتكون هذه الثورة في سنة ١٩٣٥ أروع من ثورة سنة ١٩١٩.

وقال شوقي إن منشورات وزعت اليوم في موكب الرؤية وستوزع غدا. وقرروا متابعة المنشورات يوميا. وتمنى "عبد الحي" لو أنهم أصدروا مجلة!!..

ولاحت فكرة المجلة غريبة مفاجئة، ولكن "عبد المعبود" تحمس للاقتراح، وأيده الجميع دون أن يناقشوا تفاصيله..

وفجأة دوت في الشارع تصفيقه من كف مرتعشة، وصـوت كالهمس يوشوش في الصمت:

- كبسه! البوليس!

واختفى الصوت، فوقف "عبد المعبود" يطالب الجميع بالهدوء وبالسير وراء "عبد الرافع" وعدم مناقشة أوامره!.. وأطفأ "عبد الرافع" نور المصباح الجاز وخرج من الشقة يهبط السلم، ومن ورائه كل الحاضرين وهم يتحسسون الأرض، ويحاذرون أن يصدر أي صوت من احتكاك أقدامهم بدرجات السلم.. ووجد باب الدور الأرضي مفتوحا، فدخل، ودخلوا كلهم وراءه.. وظهرت لهم امرأة بدينة حلوة، أغلقت الباب الخارجي، وأضاءت لهم بمصباح الجاز وهم يعبرون في ممر ضيق وعلى شفتيها تخفق كلمات هامسة:

- روحوا ربنا يحرس لكم شبابكم.. شيل الحجر يا سي عبد الرافع ينفتح الباب البراني خالص تلاقي قدامك في وش عدوك الحارة اللي توصل على الحنفي.. حاسبوا يا سي عبده.. إلهي يحميكم..

واندفعوا واحدا فواحدا.. وسمعوا وهم يمشون في الدهليز الخلفي قرعات شديدة على باب شقة "عبد الرافع".. وصوت العساكر وهم يصعدون ويتحركون أمام باب الشقة.

وعندما خرجوا كلهم إلى الحارة الخلفية فاجأهم ضوء بطارية ورجل يسير يكلم جنودا وراءه.. وتعرف "شوقي" من صوت الرجل على صوت الضابط "كمال".. وفجأة سطع ضوء البطارية على وجه "شوقي" فتوقف مرتعدا.. والجنود يتأهبون ويشرعون البنادق بالسنكي إلى "شوقي" و "سعد" بينما التصق زملاؤهم الآخرون بالحائط يمسكون أنفاسهم ...

وابتسم الضابط "كمال" وتابع سيره وهو يهز رأسه صائحا في العساكر:

- مش هم دول.. مش معقول يهربوا من هنا!.. حا يطلعوا ازاي من الباب الوراني ده. يظهر انهم لسه في الشقة ما لحقوش يهربوا.. وراي يا عسكري انت وهوه على شقة عبد الرافع... فرد مساعده:
- الشقة داهمتها القوة اللي سعادتك بعتها تستطلع ... وقال الضابط كمال:
- بسرعة ورايا.. بسرعه..

وانطلق "شوقي" ويده في يد "سعد"، وبرد الطريق يمسح حبات العرق، والكلمات تغوص في الأنفاس المتقطعة..

وعندما خرجوا إلى الحنفي.. قال "شوقي" بحنق وهو يمسك بذراع "عبد الرافع":

- شفتم عطا الله؟! جالكم كلامي.. اقتنعت يا سيدي!!؟

فقال عبد الرافع في وجوم:

- على كل حال هوه مالحقش. لكن اللي حصل ده كله غريب ومش مفهوم!

أولا البوليس لا يعرف محل اقامتي.. ثم.. ثم إن الضابط كمال شافنا وسابنا! و.. الباب ده ما حدش يعرف اننا طالعين منه غير المعلم صاحب البيت والقهوة.. أنا مش فاهم!!

وامتلأت عيونهم بالنور، وهم يتفرقون في الشارع الصاخب المزدحم المليء بالحياة والهواء، وفورة الفرحة بمقدم رمضان.

وتنبه "شوقي" وهو يمشي ويده في ذراع "سعد" – على أطفال في الجلاليب يطوحون بالفوانيس الصغيرة وعيونهم مشرقة بالبهجة وأصواتهم الرفيعة تزقزق بأغنية رمضان:

رحت يا شعبان جيت يا رمضان

بنت السلطان لابسه قفطان

وحوي وحوي ... إياحه

لولا "عبد المعبود" لوقع "عبد الحي" ووقع معه عدد مـــن طلبة اللجنة التنفيذية العليا. ولكن "عبـــد المعبـــود" تصـــرف بسرعة وقرر من فوره أن يقتحم الخطر وحده حـــين هـــاجم البوليس مطبعته ذات صـــباح فوجـــد فيهـــا "عبـــد الرافـــع" و "عبد اللطيف" ساعتها زعق "عبد المعبود" في الطلبة:

- حل عني يا أفندي انت وهوه! إيه اللي كل شوية ينط لي واحد أفندي عايز يطبع كارت معايدة؟! المطبعـــة مش فاضية دلوقتي لطبع الكروت. ابقوا ارجعوا لـــي في جمعة العيد والا شوفوا حد غيري! اتفضلوا.
- ونظر إليهم الضابط "كمال الصفطاوي" الذي جاء على رأس القوة وتـــركهم ينصـــرفون، ثـــم اتجـــه إلـــى "عبد المعبود" يسأله بحزم عن المنشورات التي طبعت عنـــده ووزعـــت يـــوم الإضـــراب العـــام فأجابـــه "عبد المعبود" بإهمال:
- اتفضلوا فتشوا.

وحين ابتعد "عبد الحـــي" وزمـــيلاه عـــن شـــارع درب الجماميز، ودخلوا في زحام ميـــدان الســـيدة زينـــب، شـــد "عبد الحي" كتف "عبد اللطيف" وتوقف قائلا:

- الله؟!.. دي المنشورات الجديدة في المطبعـــة.. إزاي تسيب عبد المعبود كده..

- وأجابه "عبد اللطيف":

- لازم واحد منا يرجع يقول للضابط إن المنشورات دي بتاعتنا ونخلي مسئولية "عبد المعبود". ما هو الضابط كمال عارفني ولو انه تجاهلني.

- ازاي البوليس عرف ان فيه منشورات جديـــدة وانـــا رايحين نستلمها النهاردة؟ البوليس عادة لا يهاجم في النهار إيه اللي يخليه يهاجم المطبعة دلوقتي؟

- ووجموا لحظة، ثم قال "عبد الحي":

- يمكن رايحين للمنشورات القديمة يبحثوا عن أصولها.

وتدخل "عبد الرافع":

- شيء محير.. يمكن بيفتشوا كل المطابع اللـــي فـــي مصر!

فاعترض "عبد الحي":

- لا مش معقول. فيه حد بلغ ضروري. لكن مين اللي بلغ؟

وقال "عبد اللطيف" بخطورة:

- المهم أن احنا نتصرف دلوقتي، وبعدين نبقى نشوف مين بيبلغ. لازم نعرف مين اللي بلغ عن الاجتماع اللي كان في بيت عبد الرافع، ومين اللي بلغ عن عبد المعبود.. ولا رحمة لجاسوس.

وظلوا يتناقشون لبعض الوقت، وفي أعماق كل منهم شكوك لا يستطيع أن يتبينها، وضيق كخيبة الأمل يزحف بشيء كاليأس إلى قلب كل واحد من الثلاثة، ولكنه يستمد القوة من زميله لكي لا يرفع يديه – مذعنا – أمام هذا الإحساس المخيف!!..

واتفقوا على أن يذهب "عبد الرافع" فيمر بمطبعة "عبد المعبود" وهناك يتصرف كما تقضي الظروف.

وعندما اقترب "عبد الرافع" من المطبعة، لاح له "عبد المعبود" واقفا بثبات أمام مكتبة الخشبي، وعلى

الرصيف المقابل يتجول عدد من المخبرين بأحذيتهم الصفراء، وقاماتهم المديدة، والبالطو، والعصا.

وتقدم "عبد الرافع" إلى باب المطبعة، و "عبد المعبود" يفتح فمه مندهشا ويشير إليه بعينيه وحواجبه وعضلات وجهه أن يبتعد. ولكن "عبد الرافع" دخل المطبعة وما زال "عبد المعبود" يشير بوجهه وعينيه ويديه في عصبية.

ووقف "عبد الرافع" داخل المطبعة كأنه شهيد من العصور الأولى يقتحم مصيره في ثبات وبطولة، ولم يجد أمامه غير "عبد المعبود" متوترا من الحنق، ومن وراء الحاجز الخشبي تتعالى ضجة العساكر وهم يفتشون وصوت لفائف تتمزق، والضابط يقول من الداخل لأحد العساكر:

- دي مش منشورات يا بهيم؟! دي عقود إيجار. دوروا كويس.

وصرح "عبد المعبود" في "عبد الرافع".

يا أخي ابعدوا عني. قلت لكم ما فيش وقت لطبع كروت!

ثم همس وهو يخطف الكلام وضجيج التفتيش يتعالى من داخل المطبعة:

- يا أخي ان لقوا المنشورات عندي وأنا صاحب المطبعة حاروح ست أشهر من غير كلام! وجودكم مش نافعني، وكل اللي حايزيد على انكم حاتتحبسوا معايا. زوغوا أحسن، كملوا انتم وشوفوا مين اللي فتن علينا.

ثم رفع صوته وهو يزعق في عصبية.

- يا أخي أنا مش فاضي أطبع كروت!. روح بقى.

وانصرف "عبد الرافع" عائدا إلى زملائه.

ولم يستطع أحد منهم منذ ذلك اليوم أن يعرف كيف اكتشف البوليس أن "عبد المعبود" هو الذي يطبع منشورات الطلبة، وحتى الذين شكوا في أن "عطا الله" أو "شوكت المغربي" هو الذي أبلغ يوما عن اجتماع بيت "عبد الرافع" هؤلاء لم يعرفوا إلى من تتجه ظنونهم الآن!.. فلا "شوكت" ولا "عطا الله" يعرف شيئا عن حقيقة دور "عبد المعبود" أو حتى حقيقة اسمه ومهنته!!

على أن القبض على "عبد المعبود" لم يمر ببساطة، فبعد القبض عليه بيوم واحد أصدرت لجنة الطلبة العليا منشورا صغيرا تطالب فيه بالإفراج عن "عبد المعبود"، وتحيي من

خلال شخصه تضامن العمال مع الطلبة، وتذكر الشعب بالأيام المجيدة من سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٣٠ حين كان العمال هم أعصاب الثورة ولهب المقاومة، وتؤكد أن هذه الأيام من سنة ١٩٣٥، إنما تؤكد أن تضامن العمال والطلبة هو الضمان لنجاح الثورة.

وفي شارع عزيز انتشر خبر القبض وسط الذهول والأسف، ولكن أهل الشارع منحوا "عبد المعبود" احتراما جديدا خارقا جعل امرأته تخجل من البكاء، فلم تفارقها "سميرة" ولا "درية"، وزارها "شكري عبد العال" حينما علم، وكانت إذ ذاك وحيدة تبكي فأكد لها أنها يجب أن تفخر بما حدث، وأن الجميع ينحنون إكبارا للرجل الذي ضحى بحريته من أجل الوطن، ثم أقسم عليها أن تقيم معهم وأرسل ابنته "سميرة" إليها فعادت بها، وعدلت تماما عن فكرة السفر إلى أهلها في الريف كما فعلت مرة حين قبض على زوجها قديما في إضرابات عمال المطبعة الأميرية...

وعرضت عليها "سعاد هانم" أن تقيم معها، وأخذت تتردد عليها وأحسست أن "سعاد هانم" تتسلل إلى قلبها، وتكاد تملؤه.. وزارتها "ميمي" لأول مرة، وزارها "عبد اللطيف"

مندوبا عن لجنة الطلبة، ودس في يدها خمسة جنيهات هدية من اللجنة، ودهمها الخجل، وأوشكت أن تبكي، ولكن "عبد اللطيف" ظل يحدثها حتى اقتنعت بأن تقبلها بلا غضاضة، وزايلها الإحساس بالضعف والحاجة.

وتعودت امرأة "عبد المعبود" بعد ذلك أن تسمع كلاما جميلا لم تسمعه من قبل، ولئن لم تستطع أن تفهمه كله، ولكن نفسها امتلأت بالزهو والرضى والطمأنينة، والثقة في أن الناس فيهم الخير.. وعرفت أيضا أن "عبده" يحمل الطعام والنقود إلى زوجها منذ قبض عليه، فجاشت نفسها بحب هؤلاء الطلبة.

***

وكان "عبده" في الأيام الأخيرة قبل القبض على "عبد المعبود" سعيدا لا تطيقه الدنيا من الفرحة من يوم أن أخذه "شوقي" إلى البيت الذي يختبئ فيه "عبد الحي".. وهو من يومها يفر كالنحلة يحمل المنشورات من المطبعة إلى شقة "عبد الرافع" مزهوا بأنه ينطوي على أسرار خطيرة، ويستطيع أن يكتمها.. ولم يكن يسمح لأحد أيا كان بأن ينبش على أسراره، حتى "ميمي هانم" التي تطوعت بأن تغسل

ملابس "عبد الحي" لم يسمح لها "عبده" بأن تسأله عن المكان الذي يختفي فيه "عبد الحي".

و "عبده" منذ أيام يتكلم بلا ملل عن بطولة "شكري عبد العال" وما حدث منه يوم رفض أن يضرب مظاهرة الاحتفال بتشييع الشهداء!.. وحين يغلبه الانفعال يقف في الشارع ليزعق وهو يصفق بإعجاب وفخر:

– بعد غلب عشر سنين في المعاش رجعونا، رجعنا وقعدنا شهرين ورفسناها برجلينا من عزم شهامتنا!.. يحيا الوطني الجريء شكري بيه عبد العال!.

وظل "عبده" يحكي في كل يوم قصة جديدة عن بطولة "شكري".. وامتلأ بالفرحة والأمل حين سمع يوما من "عبد المعبود" قبل القبض عليه حديثا عن توسيع المطبعة وإصدار مجلة.. والاستعانة بـ "شكري" في كل هذا.. ومنذ سمع "عبده" هذا الحديث وهو يحلم بأن يترك عمله بعد أن يفرغ من تعلم القراءة والكتابة، ويقف أمام الحروف يصفها.. وأخذ هو يتردد على مطبعة "عبد المعبود" يتأمل الآلات والحروف ويراقب بشغف ونظراته شاردة في حلم بعيد...

ولكن المطبعة أغلقت منذ قبض على "عبد المعبود"، ولم يعد "عبده" يستطيع أن يمسك دموعه كلما مر عليها، وخيل إليه أن "شكري" ربما لم يكن يعرف شيئا عن مشروع "عبد المعبود" في توسيع المطبعة وإصدار مجلة يتولاها "عبد الحي".

فذهب "عبده" يحدث "شكري" في الأمر! وابتسم "شكري" ولم يجب فراح "عبده" يتكلم مع "عبد العزيز" ثم مع "عبد اللطيف" ولكن أحدا لم يتلفت إليه ... وطلب من "عبد العزيز" أن يقنع "شكري" بالاشتراك في المطبعة من أجل خاطر عبد المعبود في غيبته ولكن "عبد العزيز" نهره قائلا:

- إحنا عارفين مصلحة عبد المعبود أكثر منك. اسكت أنت.

ولكن "عبده" لم يسكت... وما صدق ذات يوم أن وجد "شوقي" و "عبد اللطيف" و "عبد العزيز" يخرجون الواحد بعد الآخر حتى ذهب إلى "ميمي هانم" وهي تقعد في الشمس مع "رجاء" التي تركت فراشها لأول مرة واستلقت على كرسي في شرفة "ميمي"، كأنها تستخلص من أشعة الشمس الدافئة

حياة جديدة وقد بدأ اللون الوردي يعود شيئا فشيئا إلى وجهها المصفر... وفي طريقه إلى الشرفة قابل "أمين أفنـدي" فـي صالة البيت يسلي صيامه بإعداد طبق من السلاطة... كـان مقطبا يبدو عليه الدوار من الصيام، وخطر لـ "عبـده" أن يكلمه في الموضوع فانقض عليه:

- رمضان كريم. اسمع يا سي أمين أفندي. بقى صـلي ع النبي. الأسطى "عبد المعبود" والشيخ "عبد الحـي" كانوا بيتكلموا قدامي زمان علـى توسـيع المطبعـة وعمل مجلة، ولولا أن الأسطى عبد المعبود اتمسـك كانوا بدءوا في المشروع. لكن آهـو بكـره يطلـع والمشروع يمشي ... ودي تكسب دهب... أنا دريـت انهم كانوا ناويين يكلموا شكري بيه.. ما اعرفشي بقى ان كانوا كلموه والا ايه.. لكن الشيخ عبد الحي...

ثم توقف "عبده" يعض شفتيه نادما كأنه باح بسر، والتفت إليه "أمين" متيقظا:

- بتقول مين؟ الشيخ عبد الحي؟ هو فين؟!.. هو انـت قابلته؟. قابلته فين؟.. امتى ...

واستدرك "عبده" بصرامة:

- أنا قلت الشيخ عبد الحي؟؟. أنا جبت سيرة الشيخ عبد الحي؟! ... هو حد يعرف فين الشيخ عبد الحي؟! ... دهدي!!.. يا سيدي!.. رمضان كريم!.. انت يعني حاتفتح لي محضر غلطة لسان؟ حاكم الصيام له أحكام!!..

وقاطعه "أمين" كأنما يريد أن يتصيد منه شيئا.

- أيوه. هيه. اتكلم. ماله الشيخ عبد الحي. ما تزعلش كده. هو مستخبي فين؟

وانفجرت "عبده" يزعق:

- دهدي؟. وبتبرق كده ليه؟ يعني لقيت لقيه؟! دا عبد الحي مخفي في سابع أرض ولا الجن الأزرق يعرف طريقه!. قصر الكلام. قل لي... ما عندكش حسبة ميت جنيه كده وتخش شريك في المطبعة؟!.. يعني ما انكسرلكشي من ماهيتك طول العمر ده كله قيمة ميت جنيه؟.

وأجاب "أمين" بضيق وسأم:

- يا أخي اياك تتكسر رقبتك!. ما كفاية البيت اللي بنيته بشقا العمر كله جايه الدايرة عايزه تنزع ملكيتـــه! ... وادينى داير أعمل اللي ما يعمل علشان أنجى به!

ونادت "ميمي" من الشرفة على "عبده" ضاحكة وأســـرع إليها "عبده" مهمهما. فوجد أمامها طبقا من الجـــزر، وإلـــى جوارهما عيدان القصب، و "ميمي" تجهد لقطع عـــود مـــن القصب بسكين، وانتزعه "عبده" بنشاط من يـــدها البيضـــاء وكسره على ركبته إلى قطع صغيرة تناولتها "ميمي" وأخذت تنزع قشورها بالسكين وتقدمها لـــ "رجاء" ... والتفت عبـــده إلى "رجاء" مبتسما وهو يرى عافية مقبلة تدب فـــي وجههـــا وتسطع في عينيها وقال:

- الحمد لله على السلامة!. آي كده.. والنبـــي دكتورنـــا إيده كلها بركة!.. هه! ... كلي جزر كتيـــر ومصـــي قصب ... دا "شكري بك" كل يوم ياكل بقرش صـــاغ جزر. بيقول انه بينقي الدم وينشط البدن!

ثم تعثرت الكلمات في فمه... وكتمت "ميمي" ضحكة وهي تنظر إلى "رجاء" فاتجه إلى "ميمي" قائلا:

كنا عاوزين ميت جنيه عشان ما نوسع المطبعة.. لكـن.. قولي لي. أنا كنت باتراود مع أمين أفندي في عبارة المبلغ ده لقيته كده مش زي عوايده! مش قولة صيام.. لا.. هو مالـه أمين أفندي؟ ماله ملحوق كده؟!. لساني وقـع باسـم الشـيخ عبد الحي مسكها لي وفتح لي محضر: (هو فـين؟ وشـفته امته؟!). إيه ده بقى؟!

وغام وجه "ميمي" ... وأطرقت، وبان عليها أنهـا تكـتم انفعالات جائحة، وهزت رأسها، ولعبت في مفـرق شـعرها بأطراف أناملها، بينما قالت "رجاء" مبتسمة وهـي تغمـض عينيها:

- قل لي يا عبده.. الدكتور اليـومين دول دايمـا عنـد شكري بيه ليه؟ هو راح يتجوز درية والا إيه؟ بيقولوا كده!.

وبدا السؤال مفاجئا، ورفعت "ميمـي" رأسـها وهزتهـا فتأرجح شعرها، وشاعت في وجههـا ابتسـامة تتخلـل تكشيرتها، فزعق "عبده" كأنه يلقي بيانا حاسما:

- لا! يا ستي لا!! احنا ما بنتجوزشي دلوقت! وكمـان ما بنتجوزشي من الشارع ده! هه. خلي اللي يقولـوا

يقولوا.. لكن احنا حناخد الشهادة ونغور من هنـــا!.. حنروح نفتح عيادة على وش الدنيا!.. وآديني بـــاقول لكم بعلو حسي اهه.. ومستعد أكتب الكـــلام ده فـــي الجـــرانين كمـــان... والحاضـــر يعلـــم الغايـــب.. ما بنتجوزش من هنا.. هه!..

وتتابعت ضحكات "ميمي" وهي تتابع "عبـــده" بنظراتهـــا وترفع حاجبها في دهشة.. وكأنما سحبت ضحكاتها فاترة...

ثم استدار "عبده" متجها إلى "ميمي":

- لكن احنا مش كده دلوقت يا ست ميمي. وحياة أيمان النبي يا شيخة تاخدي بالـــك مـــن كلامـــي. دلوقـــت المطبعة مقفولة والحال واقف مع إن عبد المعبود ربنا يرد غيبته بالسلامة كان ناوي يوسعها ويشرك فيهـــا شكري بيه... يعني دلوقت بدل المطبعـــة مـــا هـــي مسكوكة كده، ويمكن فيها أشغال ناس ومصالح نـــاس ويمكن كمان لها فلوس بـــره حاتتـــدفع لمـــا الشـــغل المتعطل ينقضي... وكمان يعني الست مرات الأسطى عايشة عالة يعني..

وسرحت "ميمي" قليلا وقالت بتأفف:

- مش فاهمة انت عايز إيه دلوقت.. اتكلم على مهلك وفهمني.

وقال بضيق:

- دهدي؟! ما تنفتح المطبعة ... ونشوف واحد مطبعجي بالأجرة يمشي شغلها، وأهي الفلوس اللي تيجي منها تاخدها الست مرات الأسطى... أنا مستعد أقعد فيها.. أنا مكسوف أكلم الست أنيسة مرات الأسطى. واجب عليكم انتم يا حريم تكلموا بعض.. العبارة مش قوله يعني.. ده رأي الأسطى عبد المعبود نفسه ... أنا مكلمه امبارح من وراء الحديد وهو قال لي افتحوا المطبعة يا عبده.. لا بد عن فتح المطبعة.

وقالت "ميمي":

- فاهمة.. فاهمة.. فهمت..

ولم يكد "عبده" ينصرف، حتى نزلت "ميمي" وتركت "رجاء" في شمس الشرفة وتحدثت مع امرأة "عبد المعبود" فيما قاله "عبده" فاهتزت الفكرة بعد تفكير قليل، وكلمت "شكري"، فاستمهلها.. وذهب "عبده" فكلمها بعد ذلك عما سمعه عن مشروع توسيع المطبعة وأقنعها بأن استمرار

إغلاق المطبعة عمل ضار بمستقبل المشروع، ثم قذف فـي وجهها أن زوجها يريد منها أن تأكل من المطبعـة لا مـن الصدقات!.

***

وفوجئ "شكري" في اليوم التالي وهو واقف في الشـرفة ينتظر انطلاق مدفع المغرب بامرأة "عبد المعبود" راجعة من الخارج قبل أن ينطلق مدفع الإفطار.. ولاحـت لـه جميلـة بشكل لم يلحظه من قبل، مشدودة البدن.. عفية نشطة خفيفة.. ذات نهدين راسخين..

واختلج وهو يراها تقبل عليه لتحكي له أنها كانـت فـي المطبعة طوال النهار ومعها "عبده"، و "شوقي"، وأنها وجدت المطبعة ملأى بأعمال لم تنجز، ولها متأخرات كثيـرة عنـد بعض الزبائن.. ومع أنها هي نفسها لا تعرف القراءة.. فهي تفهم كل ما يقرأ لها شـوقي مـن أوراق فـي المطبعـة!.. وأضافت "أنيسة" أن فتح المطبعة كله خير لأنها اليوم بالذات تلقت أعمالا جديدة، وإذا كانت لا تعرف كيف تتصرف، فإنها طلبت من "عبده" أن يفتش لها عن العامل الذي كان يسـاعد زوجها أو عن أحد غيره إن لم يجده..

ولم يسترح "شكري" لهذا كله... وأدرك أنها بتصرفها هذا تحمل إليه نوعا من التأنيب، ولم يحتمل أن يعرضها بجاذبيتها ووجهها الطيب الساحر السمرة، وكل ما تملك من متاع – اكتشفه هو فجأة – لعيون رجال غرباء، وربما لأطماعهم أيضا!..

ولاح له كل هذا مرهفا وشاذا: امرأة في مثل جمالها تقعد على مكتب في مطبعة! لسنا في أوربا!.. وهي أيضا.. ليست مثل "ميمي" مثلا!

وقال لها بعنف:

- انتي تقعدي هنا في بيتي. وأنا اللي أشوف كل حاجة... أنا هنا زي "عبد المعبود" وأكتر.. اقعدي انتي وأنا حاشوف مسألة المطبعة...

ولكنها قالت بخجل:

- كتر خيرك يا شكري أفندي.. لكن أنا كمان ما أقعدشي عوالة على حد واحنا عندنا.. لو ما كانشي عندنا اللي يسترنا، كان معلشي. كتر خيرك على كل حال.. وبيتك يعني – ولو فيها كسوف – محتاج لكل قرش في ايدك دلوقت.. الله يعينك! ... وكمان يعني

ستنا خديجة مرات سيدنا النبي كانت بتتاجر.. الشغل للستات مش عيب ما دام الواحدة مفتحة لنفسها!

وعلى أن "شكري" تضايق من إصرارها على أن تناديه بشكري أفندي، فهو لم يظهر ضيقه... وأخذ يتلطف لها ويحاورها.

وحاول أن يقنعها أن تقعد هي في البيت، وسيدبر هو الأمر، ولكنها خرجت في اليوم التالي... وسمعها تحكي لـ "درية" و "سميرة" تفاصيل ما دار في المطبعة بفرح ساذج.. كيف جاء إليها "سعد" و "شوقي" وبقيا معها مدة ثم ذهبا يبحثان لها عن عامل واحد. فعادا ومعهما رجل اسمه الشيخ "حمزة دبوس"، وأربعة عمال!!. ولم تستطع أن تستخدم إلا عاملا واحدا، أصر الشيخ "حمزة" على أن يختاره هو بنفسه من بين الأربعة، وذكرت امرأة "عبد المعبود" أنها سمعت الشيخ "حمزة" وهو ينصرف يقول لـ "سعد" و "شوقي" إنه اختار العامل العجوز ليكون أبعد عن الشبهات والفتنة!..

والتهب "شكري" وهو يسمع هذا الكلام. وسمعها تسأل "درية" – ضاحكة – عن معنى الفتنة هذه التي ذكرها الشيخ! ولم يعرف ماذا يصنع!..

وراودته فكرة أن يصفعها ويحبسها. ثم عاد يفكر في أن يذهب ليقعد هو في المطبعة بنفسه، ويحرم عليها دخول المطبعة!

ولكنه استنكر هذا على نفسه.. ورنت في أذنه صدى ضحكاتها وهو قاعد وحده في حجرته بعد صلاة العشاء، وتذكر كلماتها التي قالتها عن "شوقي" وعن "سعد"!

في كلماتها حرارة أكثر من الإعجاب! ... غريبة! هذه المرأة في نحو الخامسة والثلاثين، بكل عنفوان أنوثتها، أتراها أحبت الولدين!!..

وانتفض "شكري" مشمئزا من نفسه، ولاحت له في الفراغ ابتسامة "عبد المعبود" بوجهه الواثق المطمئن!

وقام من فوره!

إنه أصبح يفكر مثل "أدهم" ذلك الباشكاتب اللعين! الباشكاتب، و "شويكار"! إيه!.. لنا مدة لم نزر "شويكار". أيام طوال لم نذق فيها طعم الكونياك! لا.. لا.. اقعد

يا "شكري"!.. يجب أن تفرغ من قراءة كتاب التاريخ السري للاحتلال البريطاني.! أنت وحيد الآن.. لم تعد تطيق أن تقابل أصحاب بار "ماتاتيا" وشلة بيت "شويكار هانم"! ولا أحد في الشارع يهتم بك، غير "عبد العزيز"!

قالوا لك كلاما عظيما يوم تشييع جنازة الشهداء، ثم زاروك وحملوا لك التحية من لجنة الطلبة العليا يوم أحلت إلى الاستيداع، وبعد هذا نسوك تماما، لم يكن أحد يزورك غير "عبد المعبود" و "عبد العزيز" وكلهم الآن يهتمون بامرأة "عبد المعبود".

أيكون الباشكاتب على حق في نظرته إلى النساء؟!. يا شيخ اتق الله!.. ولكنها تتحدث دائما عن "شوقي" و "سعد" منذ عادا إليها بالعامل العجوز، وفي ليلة البارحة بالذات عانقت الولد "سعد" وقبلته في وجهه أمامك وأمام ابنتك وأمام "سعاد هانم"!.. واحمر وجه الولد من الخجل، فقالت له إنها تتمنى أن يكون لها ولد مثله!.

لا ... ليست هذه قبلة أم. و"سعد" على أي حال لم يعد طفلا! ما أسعده! أعوذ بالله! لا يجوز أن تفكر هكذا في امرأة "عبد المعبود" المرأة فاضلة، وأنت نفسك لم تجد ساعتها فيما

حدث شيئا تأباه، أو يجرح حياء ابنتيك، بل اهتززت إشـفاقا عليها ودعوت لها ولـ "عبد المعبود" أن يرزقا بالولد...!

ولكنها امرأة جامدة الدماغ، تخرج إلى المطبعة منذ أربعة أيام ولا تسمع الكلام...!

الليلة سيأمرها ألا تصنع هذا!.

وقام يصلي العشاء، وعندما فرغ من صلاته دخل حجرة ابنته "درية"، فوجدها تقرأ لـ "سميرة"، ولـم يجـد امـرأة "عبد المعبود"، وسأل عنها وأوشك أن يطلب من "سميرة" أن تذهب فتناديها.. ولكن عينه وقعت على الكتاب الذي تقرأ فيه "درية". مرة أخرى تاريخ نابليون والثورة الفرنسية!! ...

واندفع نحو الكتاب وقلبه، ثم رماه ناظرا إلى ابنته "درية" بشدة:

- يا بنتي اقرئي تاريخ بطل مصري أحسـن. نـابليون ايه؟.. اسمعي يا بنتي. اقرئي تـاريخ اللـي قـاوموا نابليون في مصر.. تاريخ الناس اللي... أقـول لـك إيه.. اقرئي تاريخ "عرابـي" تـاريخ السـيد "عمـر مكرم".. شوفي "عمر مكرم" عمل إيه في نابليون ... هزمه ازاي هنا في مصر!!.. اقرئي تاريخ إبـراهيم

باشا اللي دوخ أوروبا واللي فتح عكا بعد ما عجز نابليون عن فتحها!

وهز يديه وخرج بالجلباب، و "درية" تتابعه بنظراتها، وقلبها يدق لما سمعته من أبيها.. وهمست "سميرة":

- الله! دا باب خارج بالجلابية!! أنادي له أفكره؟

فقالت "درية":

- سيبيه.. يعني هو مش دريان بنفسه؟!..

ووجد "شكري" نفسه يدق باب امرأة "عبد المعبود"..

كان محنقا.. ثائرا على "أنيسة" يريد أن يكلمها بصراحة، ويأمرها بألا تذهب إلى المطبعة، وأن تترك له هو تدبير الأمور وصمم على أن يهددها بأن يؤدبها إذا عصت أمره!..

وفتحت له الباب، وحين وجدته أمامها لم تخف دهشتها، وتحرجت وفكرت ماذا تصنع، ولكنها تركته يدخل..

وتحسست رأسها العارية، وحاولت أن تجري لتغطي رأسها بأي شيء..

ولاحظ هو ارتباكها، فسألها بحزم وضيق:

- انت مالك ملخبطة ليه كده...؟!

- ودقت على صدرها منزعجة ... كأن غريزتها استشعرت الاتهام الذي تحمله كلماته ولهجته.. ومضت تدير مفتاح النور في كل حجرة وتفتحها وهي تقول:
- يا نصيبتي!! بتقول ملخبطة ليه؟ اتفضل.. تحب تقعد في أنهي أوده؟ ملخبطة ليه؟! كفى الله الشر!! هو احنا يا سي شكري أفندي لا سمح الله!؟ بقى كمان؟! هو يعني علشان ما جوزي غايب وانكسفت أدخلك عندي تقوم..

وخنقها البكاء وهما أمام باب حجرة النوم التي أضاءتها "أنيسة"..

ودخل "شكري" ...

لم يكن يتوقع أن تثير كلماته كل هذا!.

وتقدم إليها وهي واقفة في مدخل الباب، فتأخرت هي ... ووجد "شكري" أمامه كنبة طويلة وسريرا كبيرا من النحاس الأصفر...

وشعر بخجل أن يدخل مخدع "عبد المعبود"، فتراجع خطوة.. ولكنها ظلت تبكي، وسمعت صوت نحيبها يدوي من

أذنيها، فانهارت في بكاء جديد، وكأنما تستنزف بدموعها مزيدا من الدموع!

ورآها "شكري" تختلع أمامه معولة، فوقف لا يعرف كيف يتصرف: أيتقدم إليها فيمسكها بين ذراعيه ويسكتها!؟

غير انه فزع من هذه الفكرة، وغاض صوته وجف، وحاول أن يتكلم... وفكر في أن يعود ليستنجد بـ"سميرة" أو ينادي "سعاد هانم"..

وتقدم إلى المطبخ فحمل كوب ماء إلى امرأة "عبد المعبود" وقدمه قائلا:

- أنا مش قصدي حاجة يا بنتي لا سمح الله.. بس.. بس... اشربي!

ورفعت رأسها متنبهة، وتناولت منه كوب الماء، قائلة:

- يا خبر!.. العفو يا شكري أفندي.

وذهبت مسرعة إلى دورة المياه فغسلت وجهها، وعادت... وأحس شكري، وهي تذهب وتعود، برائحة الصابون تفوح من جسدها.. يبدو أنها كانت تستحم قبل أن يطرق الباب! وقعدت أمامه تتردد أنفاسها في أنفها بقوة... وأطبقت شفتيها الدسمتين، وغضت من عينيها الواسعتين

وشعرها يلمع بقطرات من الماء، وفي جسمها كل النضـــارة التي يضيء بها جسد المرأة بعد الاستحمام...

وارتجف "شكري" وهو يراها أمامه منكسة الرأس..

وبدأ يقول باحثا عن الكلمات:

- أنا جاي لك يا بنتي علشان أكلمك بصراحة... أنا مش موافق على انك تروحي المطبعة وانتي واحدة ست!.. أنا أصلي.. وأنا كمان ما أقدرش أقعد في المطبعـــة، لكن أنا حاشوف أي طريقة. أنا حاشوف طريقة بـــأي شكل بحيث ان المطبعة لازم تمشـــي وانـــت كمـــان ما تتعرضيشي لحاجات مش كويســـة.. انتـــي.. أنـــا ما أقدرش أكلمك بصراحة قدام أولادي.. انـــت أولا شابة .... و. وجذابة.. و.. يعني مغريـــة.. قصـــدي جميلة. ووجودك لوحدك هناك في المطبعة واختلاطك مع رجال أغراب. دا مش كـــويس. يعنـــي يطمعـــوا فيك.. في جمالك. لا سمح الله.. لكن. يا بنتي.. انـــت شابة جميلة.. خسارة.. حلاوتك دي.

ورفعت عينيها إلى "شكري".

كانت نظراتها تسطع ببريق رهيب.. وعلى وجهها البديع السمرة حيرة حزينة، وشرود ...

ولم يستطع "شكري" أن يكمل... ولا أن يواجه نظراتهـــا. وتقدم منها خطوة، ورآها تقف وتتأخر وخيل إليه أن نهـــديها الراسخين وكل بدنها يتفجر من بعيـــد بالنـــداءات ورائحـــة صابون معطر تفوح من جسدها، وقطرات ماء تلمـــع علـــى شعرها الأسود الكثيف الممشط.. وأحس بســـخونة تلفحـــه، وبمثل لذيذ يدب في كل جسده.. وفتحت ثغرها الدسم الشهي، فلاحت أجمل من أية امرأة عرفها ... ضعيفة متهالكـــة فـــي حاجة إلى أن يبسط عليها بدنه القوى ليحميهـــا مـــن قـــوى مجهولة تروعها!..

واقترب منها وهو يمتلئ برائحة لحمها، رائحـــة منعشـــة ثقيلة في نفس الوقت... ولم يعد يشعر بغير أنفاســـها تتـــردد على بعد خطوة منه وهو يكاد يشربها في رئتيـــه ونخاعـــه وأعصابه!

واستدارت هي في حركة سريعة، وانكمشت على نفســـها وهي تئن.. ثم قفزت كأنما تنتزع نفسها من لحظـــة انهيـــار، وأسندت ظهرها إلى باب الحجرة المفتوح علـــى مصـــراعيه

وأمامها تتخايل صور عديدة لزوجها، في دوامة تلوح هي فيها أمام نفسها كامرأة من الفواحش، وكان زوجها يبصق على وجهها الذي امتلأ فجأة بالأصباغ.. وأحست بنفسها لبعض اللحظات كأنما هي كلبة إلى جوار حائط خرابة، تشمها كلاب جربة منتنة غريبة، وتتابعت أمامها بسرعة مذهلة صور زوجها خلال العشرين سنة التي عاشتها معه في ضحك وبكاء واضطرام وملل وثقة في أيام أسعد، وخيل إليها كأنها تسمع من بعيد نشيج زوجها وهو يصرخ مجروح القلب... وهالها أن تسقط لمجرد أن زوجها تغيب عنها بعد هذا العمر كله!..

وامتلأت أذناها بأصوات كالعواء والفحيح تردد كلمات العار والسقوط والخيانة والفحش والغش، وأحست في رقبتها بما لا نهاية له من الأصابع تشير إليها وتضغط على حلقها باستهزاء!..

وفتحت عينيها كالمجنونة فوجدت شيئا كاللهب يضطرم في وجه "شكري" وهو يتقدم منها بإصرار... هذا الرجل الذي أحبه زوجها أكثر من أي رجل آخر!.. لم يكن شكري

يقول شيئا... ولكن نظراته تريد أن تنتزع ثيابها على الرغم منها... وزعقت فجأة كأنها تستغيث:

- هو عبد المعبود طالع إمتى؟.. هو عبد المعبود حايقعد العمر كله في السجن يا شكري أفندي!؟؟. دا عبد المعبود أخوك...

واهتز "شكري" كأنما تلقى على دماغه ضربة مفاجئة لا قبل له بها... وترنح لحظة وهو يراها متشنجة اليدين على باب الحجرة، وصوتها ينطق باسم زوجها متشبثة به كغريق يمسك بالأعشاب في فزع وأمل، وفي وجهها تحفز النمرة أمام الخطر..

وانحط هو على الكنبة منبهر الأنفاس، يمسح وجهه بظهر كفه لاهثا.. وهو لا يرى أمامه في الحجرة غير وجه "عبد المعبود" يملأ الفراغ بنظرته الباسمة الطيبة الواثقة.

ولم يستطع "شكري" أن يطيق نفسه.

وعندما خرج من شقة "عبد المعبود" كان يشد نفسه على السلم قبل أن يدخل على ابنتيه، وهو يحمد الله لأنه لم يقل شيئا لامرأة "عبد المعبود".. لم يقل كلمة غزل، ولم تبدر منه إشارة واحدة تعبر عما احتدم في نفسه...

وتقزز وهو يذكر ما حدث، وحاول الهرب إلى الشارع لكيلا يواجه ابنتيه ولكنه أدرك أنه بالجلباب...!

ودخل البيت ...

ولم يلحظ وجود "ميمي هانم" و "سعاد هانم" ... ومشى صامتا إلى حجرته، فسمع "ميمي هانم" تناديه، وهي تكاد تختنق بالدموع، وتوقف في الصالة وصوت الراديو يتصاعد خافتا معلنا بدء قراءة الشيخ "رفعت" ... وقالت "ميمي" مندفعة:

- أنا مش حاطول عليك يا عم شكري بيه.. الحق أمين... دار عليه الضابط اللي اسمه كمال صاحب عبد العزيز ده.

واستمرت "ميمي" وهي تغالب اندفاعها:

- دا عاوز يشغل أمين جاسوس يا عمي شكري بيه... الحقني.. تصور انه فهمه انه يقدر يخلي الدايرة تسيب له البيت لو كتب له تقارير عن تلامذة الشارع.

فأجابها "شكري" وهو يدخل حجرته:

- جوزك طول عمره حمار.. فين هوه من راجل بطل زي عبد المعبود؟..

وارتفع صوت الشيخ "رفعت"، وقعدت "ميمي" و "سعاد" و "درية" و "سميرة" حول الراديو في خشوع، بينما كان "شكري" يلبس.

وخرج إلى الشارع مسرعا لا يعرف إلى أين يمضي.. ومشى في طرقات الحلمية الجديدة يبهره الضوء الذي يملأ واجهات بعض البيوت، ويعمر قلبه بالأصوات المتعانقة ترتفع من البيوت المتقابلة بالقرآن والتواشيح.. ولقي نفسه أمام بيت "شويكار" وصوت مقرئ يرتفع منه.. وابتسم لنفسه.. هي أيضا تحتفل بشهر رمضان!! ...

ثم استدار وهو يشعر بنهم خارق إلى التهام بقية كتاب أسرار الاحتلال البريطاني.

وفي الصباح غادر بيته وهو مقتنع بأن يقعد في المطبعة طوال النهار...

وسمع صوت امرأة "عبد المعبود" يأتي من حجرة ابنته "سميرة" وهي تقول لها ضاحكة:

- لا يا أختي.. أبوك ده مالوش قعاد من غير جواز أبدا.! والنبي دا الست سعاد ما جرتشي.. ما نجوزها له يا سميرة!...

وأغلق باب الشقة وراءه، ورنين خافت من ضحكة "سعاد" يملأ أذنيه!..

(٢٢)

قام "عبد العزيز" من نومه متأخرا فلم يجد "عبده"... وظل يناديه ولكنه تذكر أن "عبده" مثل هذه الساعات من الضحى يشتغل في المطبعة ولا يرجع منها إلا قبل مدفع الإفطار بثلاث ساعات بالضبط ليبدأ في إعداد الطعام...

وتناول "عبد العزيز" فوطة ومشى إلى دورة المياه، فوجد "عبد اللطيف" في الصالة يقرأ خطابا وهو يخفي ابتسامة ويهمس لـ "شوقي" مداعبا:

- قم يا واد يا نجس البس هدومك وسافر ع البلد.

وسمع "عبد العزيز" أخاه "شوقي" يقول في تحد خفيف:

- طب ما هي الأوامر صدرت لك انت كمان.

وسأل "عبد العزيز" متثائبا:

- صباح الخير. إيه الحكاية؟

وقال "عبد اللطيف" دون أن يرفع رأسه عن الخطاب:

- جواب من ابوك... بيسلم عليك بشدة!.

ودب نشاط مفاجئ في "عبد العزيز" ورفع رأسه المثقلة من كثرة السهر، ومد يده فأخذ الخطاب من "عبد اللطيف" وبدأ يقرأ لنفسه بصوت غير واضح، ثم ارتفع صوته متابعا قراءة خطاب والده وعينه تقع على "عبد اللطيف": "وعرفنا أن الجامعة أقفلت، فلماذا يبقى "عبد اللطيف" في مصر، وإذا كنت أنت مضطرا للبقاء لأن امتحانك على الأبواب فهل تحتفظ بإخوتك معك لتسليتك؟."

ورفع رأسه عن الخطاب، ثم عاود القراءة "كنت أظنك أكثر حرصا على مستقبلهم وأكثر تقديرا للمسئولية، ولكنك تركتهم وهم بلا عمل، يعرضون أنفسهم للرصاص من ناحية، وللفساد من ناحية أخرى، فأنت تعرف القول المأثور: الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة" ...

وقاطعة "عبد اللطيف":

- جدة إيه؟.. وهو احنا واجدين حاجة؟!.. فين هي الفلوس دي؟.. هو أبوك فاكر ان الفلوس اللي بيبعتها لنا دي اسمها جدة؟!

واطمأن "شوقي" قليلا وابتسم على الرغم منه، وكان في تلك اللحظة يفكر في معنى كلمة "جدة" ويقاوم حاجته إلى السؤال عن معناها...

واستمر "عبد العزيز" يقرأ: "هذا وأخبرك أن المدرسة الخديوية أفادتني أن شوقي مبعد عن المدرسة مع التلامذة المشاغبين ... فلماذا يقعد هذا الولد المنجوس في مصر وهو لا يذهب إلى المدرسة؟.. وأنا أقول لك في الختام أرسل إخوتك بمجرد وصول البريد وحذار من التأخير.. ولا تقولوا سننتظر حتى نسافر في إجازة العيد. هذا وأفيدكم أن الست والدتكم بخير ولكنها مشغولة عليكم فلا تتأخر في إرسال إخوتك وخصوصا الولد الصغير النجس، وأفدنا بسرعة عن موعد وصولهم، وربنا ينجح مقاصدك، وينصرك في الامتحان بنصر من عنده، ويحفظكم جميعا ويرعاكم بفضله تعالى، إنه سميع مجيب"..

ووضع "عبد العزيز" الخطاب في جيب البيجامة، والتقط الجريدة الملقاة على الأرض بجوار "شوقي" وهو يقول مغالبا ضحكة:

- اعملوا حسابكم تسافروا النهارده.. وأولكم الواد النجس شوقي دهه!

وزعق "شوقي" مستنكرا:

- النهارده؟

بينما قال "عبد اللطيف" بهدوء:

- قول بكره والا بعده ...

وسكت "عبد العزيز" قليلا وهو يتثاءب ثم قال:

- طيب.. سافروا بكره أحسن.

فقال "شوقي":

- مش أبوي بيقول لك ترد عليه بموعد وصولنا.. لو كتبت له دلوقت الجواب حايوصل بكره. قل بقى نسافر بعد بكره..

- ونظر اليه "عبد العزيز" بدهشة:

- انت طول عمرك ما بتصدق تيجي أجازة وتنط ع البلد اشمعنى المرة دي بقى مش عايز تسافر؟! لازم تسافروا بكره. مالكش دعوة انت بالرد وميعاد

وصول الرد. وراك إيه؟ مواعيد؟! وراك راندفو بعد بكره؟!

وقال عبد اللطيف:

- أوعى يا واد تكون واخد راندفو من أخت سعد؟

واشمأز شوقي من المزاح في أمر كهذا، وأوشك أن يسأل "عبد اللطيف" هل معه هو موعد مع "ميمي هانم" ولكنه أمسك لسانه ولم يسترح للتفكير في هذا أيضا. وقال فجأة:

- اسكت أحسن "سعد" جاي دلوقت!!.

فقال "عبد اللطيف" وهو يتمطى ويزعق بحرية:

- أما الواد ده عليه حتة أخت وأم، وحتة خالة.. يا قوة الله! مش شويكار دي تبقى خالته يا واد يا شوقي والا بنت خالة أمه؟!. يا سلام على الحلاوة البيضة!.. الله يخيبكم..

ورنت ضحكاته في الصالة، فارتفع صوت "عبد العزيز" من دورة المياه:

- ايه يا عبد اللطيف الكلام اللي عمال تفتح عليه عين شوقي ده؟! انت يعني صابح غزالتك رايقة قوي كده يا أخي! كنت سهران فين امباح يا وله؟..

فقال "عبد اللطيف" بلا تحرج:

- كنا في "رتيبة وأنصاف رشدي". أما هناك حتة استعراض بيغنوا فيه: "يا قميص اليوم يا محليني".. تقولشي جايبين له بنات من الجنة؟! إلا البنت الجديدة اللي اسمها تحية كاريوكا دي! مش تقول لي "رجاء صدقي"؟..

وانقض "شوقي" قائلا:

- يبقى أبوك له حق بقى؟. أمال مش عاجبك ليه بقى ان أبوك بيقول الفراغ والجدة.. يعني وجدت فلوس تروح صالة؟ بس شاطر تقول على نجس!. وأبويا ما يكتبشي اسمي إلا لما يقول المنجوس.. كأنه لقب!

وضحك "عبد اللطيف" بقوة، وهو ينظر إلى غضب أخيه "شوقي" وحماسه... صحيح!! انك يا شوقي دوننا كلنا تحظى من أبيك وأمك بأكثر مما عرفناه من الشتائم، والحنان والحب أيضا!. انت يا ولد آخر العنقود!! أبوك

دايما يسميك النجس أو المنجوس، وأمك تسميك المخفـــي، لكن لك انت ولأكبرنا أحمد مكانة خاصة عند أبي وأمـــي لا أعرفها أنا ولا عبد العزيز!..

ورنت ضحكة "عبد اللطيف" مرة أخرى وهو ينظر إلـــى غضب أخيه الصـــغير، وهـــزه أن يـــتكلم "شـــوقي" هكـــذا كالرجال!.. وتشجع "شوقي" فقال:

- أصل بكره بالليل افتتاح الفرقة القومية الجديدة علـــى مسرح دار الأوبرا الملكية حيمثلوا "أهل الكهف" وأنا و "سعد" قاطعين تذاكر.. لو كنت يا "عبـــد اللطيـــف" تكلم الدكتور "عبد العزيز" علشان يخلينا نقعـــد بكـــره ونسافر بعد بكره...

ثم توقف قليلا قبل أن يكمل بفرح ملحوظ:

- احنا شفنا البروفات.. اشتغلنا فيها امبارح كومبارس.. يا سلام!!

وسبحت نظراته قليلا، ثم قال بلهجة تمثيلية مسترجعا من الرواية بعض الكلمات التي بهرته...

- العقل ... آلة الأبعاد والمقاييس المحدودة!!.. الزمن؟!

وبهت "عبد اللطيف" وقاطعه بصرامة:

- كومبارس؟. دانت لازم تسافر من النهارده! طب دخلت فرقة التمثيل في المدرسة سكتنا، لكن تشتغل كومبارس في فرقة وما نخلصشي في سنتنا!؟.. يا نهارك أسود ومنيل بنيلة يا واد يا شوقي.. كومبارس؟! انت مش بتقول قاطع تذاكر؟

هي حصلت تشتغل كومبارس!؟.

واضطرب "شوقي" عندما وجد سحنة "عبد اللطيف" تتقلب، والحالة المرحة التي استولت عليه منذ الصباح تغيض في حنق مفاجئ.

عجيبة!!..

ولكن الساعات التي تسلل فيها هو و "سعد" إلى المسرح ملأتهما بالخفقات الرائعة، وشعر كل منهما بسعادة لم يعرفها من قبل، وهو يتأمل في الرجال والنساء الذين تثير أسماؤهم نوعا من الشغف الغامض: "عزيز عيد" و "جورج أبيض" و "عزيزة أمير"!.. لم يشعر "شوقي" وقدماه تقرعان خشبة مسرح الأوبرا بأنه يرتكب ما يشين... كان على العكس يحس بفرح هائل، وتتفتح نفسه على آفاق غريبة، ويود لو احتضن كل الناس، وتمرغ في الأرض والخشب والظلال

الزرقاء والأوراق التي رسمت عليها غابات وجبال وأبواب قصور وأحراش.. لم يتصور أبدا أن هذا الشيء يمكن أن يغضب "عبد اللطيف"!... بل إن "شوقي" بالعكس خرج من المسرح يقول! "سعد" إنه يتمنى أن يكتب ويخرج مسرحية مثل "أهل الكهف"... فقال له "سعد" بفرح: إنه يتمنى أن يدخل الحقوق ويكتب المسرحيات!

إن السهر عند "رتيبة وأنصاف رشدي" هو الشيء الشائن حقا لو تدري يا "عبد اللطيف"!.. وقميص النوم والفتيات اللاتي تتحدث عنهن!

وأوشك "شوقي" أن يطلق في وجه "عبد اللطيف" صرخة احتجاج، ورفض كل ما يسمعه، ولكن "عبد اللطيف" قال بنبرة حزينة:

- كده؟!.. دا أنا كنت فاكرك يا شوقي بتروح اجتماعات سياسية وكنت فرحان بك!! دا لو أمك ولا أبوك عرفوا انك بتنغرز في وسط الممثلين دول كانوا يقعوا من طولهم ميتين!

وتأثر "شوقي" ولم يستطع أن يتكلم، وواصل "عبد اللطيف" كلامه:

- مين اللي جرك هناك؟! لازم الواد "سعد"؟...

أيصنع "عبد اللطيف" مع "سعد" مثلما تصنع أم "سعد" مع "شوقي"؟! هي أيضا تظن أن "شوقي" هو الذي يجر ابنها إلى المظاهرات وإلى أماكن لا تعرفها...

ألا يعرف "عبد اللطيف" أن "سعد" مفتون به، وأنه يتمنى أن يدخل كلية الحقوق ليكون مثله!؟

وقال "شوقي" بضيق:

- أنا ما حدش يجرني أبدا. أنا اللي خدت سعد...

وعاد "عبد العزيز" من دورة المياه يقول لـ "عبد اللطيف":

- والله عال!.. يعني حضرتكم تروحوا تسهروا في الصالات، واحنا مغروزين في القصر العيني!.. يا سلام على الجهاد الوطني بتاع لجنة كلية الحقوق.

- ولم يعد "عبد اللطيف" في حالة تمكنه من متابعة المزاء، فقال بضيق وهو ينظر إلى "شوقي" الذي راح يلبس بدلته:

- يا "عبد العزيز". دي ليلة وعدت يا أخي!

وسمع "شوقي" نداء "سعد" من الشارع... فقال "عبد اللطيف" وهو لا يكاد يرفع صوته:

- أوعوا تكونوا رايحين تشتغلوا كومبارس دلوقت!

وأجابه "شوقي":

- لا ... دلوقت احنا فعلا رايحين اجتماع سياسي... رايحين قهوة في باب الخلق نقابل "عبد الرافع" وياخدنا على بيت واحد صاحبه. فيه اجتماع لمندوبي المدارس الثانوية والفنية! تحب تحضر معانا علشان تصدق؟

ولم تعجب "عبد اللطيف" اللهجة المتحدية التي يتكلم بها "شوقي" فنهره قائلا:

- طب يا أخي خلاص... غور!

ثم تمتم:

- ما انت ان فلحت لنفسك.. ما فلحتش لنفسك.

وفتح "شوقي" باب الشقة مسرعا، ولكن "عبد العزيز" ناداه:

- خد هنا يا واد يا شوقي! انت رايح فين؟ ... هيه وكالة من غير بواب؟ مش تقول لي رايح فين؟ إيه اللي يسهر لي في صالة من غير ما يقول، واللي ينزل من غير حد ما يدرى به! إيه الحكاية؟ ما تروح كمان عند ميمي هانم تسهر معاها، والا تسلوا صيامكم سوا زي جماعة.

وتضايق "عبد اللطيف" من هذا التعريض، فتدخل ناظرا إلى "شوقي":

- انزل انت يا شوقي.. جرى إيه يا "عبد العزيز".؟ إيه الكلام ده؟ أصلك انت أول ما تتلم على شكري بيه ما حدش يسلم من لسانكم... انزل انت يا شوقي، واقف كده ليه؟...

فاحتد "عبد العزيز":

- ينزل ازاي؟ هو أنا طرطور في البيت ده؟ مش أعرف هو رايح فين... افرض أبوك طب دلوقت حا أقول له والله الواد خد الإذن من سعادتك!

فقال "عبد اللطيف" باستغراب:

- ما هو كل يوم بينزل يا عبد العزيز؟ اشمعنى النهارده يعني؟. يا سيدي عنده ميعاد! عندهم اجتماع دلوقت. لسه البوليس لم يلتفت للاجتماعات النهارية!

وعاود "عبد العزيز" الرغبة في السخرية فقال:

- يا سلام يا سيدي على الاجتماعات النهارية دي؟ يا سلام على فلسفتك؟ ما تبقى تتفلسف كده قدام أبوك!.. طب روح يا سي "شوقي" الاجتماعات النهارية. وكفاية عليك انت يا سي "عبد اللطيف" الاجتماعات الليلية.. في صالة رتيبة وأنصاف رشدي!

وتحرك "شوقي" متحرجا و "سعد" في الشارع مازال ينادي عليه، فقال له "عبد العزيز" وهو يسمعه يفتح الباب:

- ابقى فوت على المطبعة ابعت لي الواد عبده.

واندفع "شوقي" إلى الشارع، وأخذ "سعد" وأسرع به ... ولم يلاحظ ضيق "سعد" بالانتظار، ولا شروده، ومال به في اتجاه المطبعة فقال "سعد" محتجا:

- الميعاد في ميدان باب الخلق.

فهمهم "شوقي" بلهوجة:

- بس دقيقة واحدة حانفوت على المطبعة أنادي عبده.

وظل "سعد" واجما لا يتكلم...

وقبل أن يصلا إلى المطبعة، مص شفتيه بأسف قائلا بشرود:

- الواد عبده ده... قصدي صنف الخدامين ده كله! ... على كل حال!

وتنهد ... ولم يكمل.

والتفت اليه "شوقي" باستغراب، ثم تقدم وحده مسرعا إلى المطبعة فوجد "شكري" يقف أمام المكتب، تغمر وجهه ابتسامة رضا والآلة تدور من وراء الحاجز الخشبي.

وسلم عليه ودخل ينادي "عبده" فأجابه "عبده" بإهمال:

- استنى دلوقت. مش فاضي.. أنا مشغول لشوشتي!.. دهدي!

وقال شوقي محتدا:

- روح كلم الدكتور عبد العزيز يا واد يا عبده.. هو عاوزك ضروري..

فانفجر "عبده":

- طب وما له؟!. ما يعوزني!! دهدي.. طب وأنا أعمل إيه يعني؟ احنا في إيه والا هو في إيه دلوقت! احنا مش فاضيين لكده.. احنا دلوقت داخلين على جمعة العيد والشغل مغرقنا، انتو لكم عندي اني أجي قبل المغرب بتلات ساعات أعمل لكم لقمة الفطار.. احنا متفقين على كده من بدري.. ما دخلناش بقى في قولة كلم الدكتور.. والدكتور عايزك والحاجات دي؟! يعني نوقف المطبعة يا خواتي؟! روح انت بقى مع السلامة وأنا والدكتور لنا محدث مع بعض!

وضحك "شكري" من قدام الحاجز الخشبي قائلا:

- بلاش مهيصة يا واد يا عبده.. وتعال الناحية دي خلي الأسطى اللي قدام الماكينة يعرف يشتغل.

فرد "عبده" من الداخل:

- ما احنا بنشتغل أهه! دا أنا ايده اليمين. هو أنا أقدر أمشي من هنا؟ دي كانت المطبعة تقف.

وكان "عبده" يقف إلى جوار العامل العجوز يكلمه ويسأله عن كل حركة يقوم بها، وعن الحروف وتكوين الكلمات..

وأخذ "شوقي" يتأمله، وأعاد عليه أن "عبد العزيز" ينتظره في البيت، فقال "شكري" بصوت مرتفع ثابت مطمئن في نبراته رنة ضحك.

- طب معلهش يا أسطى عبده، روح انت كلم الدكتور عبد العزيز بس ما تغيبش.

وخرج "شوقي" مسرعا، ووضع يده في يد "سعد" متجها به إلى "ميدان باب الخلق" قائلا:

- الواد عبده فاهم انه هو اللي بيدير المطبعة..

ولم يعلق "سعد". استطرد "شوقي":

- عمك شكري واقف جوه نافش كده ومبسوط ومزهزه كأنه يعني..

ولم يكمل "شوقي"، وصدمه تأفف "سعد"، وكثرة تنهداته..

مالك يا سعد؟!.. أنت أحيانا تشرد هكذا.. ولكنك في النهاية ما تكاد تلتقط شيئا يمكن أن تضحك له حتى تضرب الأرض بقدمك وتظل تلوك الكلمات وتقهقه وتستدير في الشارع وتنط وتصخب!. ما لك؟! كأنك تحمل على رأسك فاجعة!.. أهي أمك أيضا؟ أتشاجرت معك اليوم؟! آه لو سمعت ما قاله عنها "عبد اللطيف"!!

وزفر "سعد" فجأة قائلا:

- أنتم يا أخي بتعاملوا عبده كده ليه؟ دا صنف الخدامين ده يستاهل الحرق!.. أنا والله العظـيم امبـارح بعـد السحور كنت حاخنق البنت ألطاف؟!

ألطاف؟..

ما هي الحكاية؟!

تكلم يا "سعد".

وانتظر "شوقي".. فأمسك "سعد".

وسأله "شوقي":

- ما لها ألطاف؟!

وأطبق "سعد" فمه تماما، واتسعت عيناه، واحمر وجهـه، وبانت في قسماته تعاسة مخيفة.. وأحس "شوقي" أن صـديقه يريد أن يبكي.. ونظر في عينيه فوجـدها منتفخـين، وفـي الجفون حمرة واحتقان.

أنت بكيت كثيرا يا "سعد"!.. ما هي الحكاية؟! يـا أخـي تكلم!

واقتربا من المدرسة الخديوية فقال "شوقي":

- تعال نبعد عن المدرسة أحسن الضابط كمال الصفطاوي قاعد وأول ما حيشوفنا حينادي لنا وحد يشوفنا. ما حدش متصور انه بيقعد يكلمنا عن ذكرياته في الخديوية ومسرح الخديوية وفي الأدب! أول ما بنقعد معاه يا عم بتبقى مصيبة!!.. على فكرة.. أنا ملاحظ أن كمال بيسهر كتير عند أمين أفندي اليومين دول! أنا ما قلتلكشي يا سعد.

ولم يجب "سعد"، ومال إلى شارع الخليج، ومال معه "شوقي" وتابعا سيرهما على الرصيف الضيق بلا كلمة.

يا أخي لا تكن متعبا هكذا.. كنت تلعن "ألطاف" فأكمل اذن!

ماذا؟ أحملت "ألطاف" رسالة من أحد إلى أختك يا سعد؟! ماذا يا سعد؟! تكلم يا أخي!.. ربما لو انفجرت بالكلام أو حتى بالبكاء لأرحت نفسك.. ولكنك لا تريد!.. لا شيء غير التنهدات.. أنت لا ترى وجهك المتقلص الذي يبدو لمن يراه كالحسرة المتحجرة!

وفجأة، وهما يقتربان من المقهى، قال "سعد":

- تعرف يا "شوقي"؟ ماما دي؟! أنا عمري ما حبتها قد النهارده!.. النهارده الصبح قعدت أبوسها.. و.. و.. كنت حاقول لها.. لكن.. ما قدرتش.. لقيت الدموع نازلة وصوتي مخنوق..

وعجب "شوقي".. وتوقف يتأمل "سعد" في ذهول وهو واقف على شريط الترام، ولكن الترام أقبل مسرعا، فقفز "شوقي" وشد يد "سعد" بكل قوة الذعر المفاجئ، وقفزا إلى الناحية الأخرى قبل أن يدهسهما الترام في ميدان "باب الخلق".

وقال له شوقي:

- إيه يا سعد؟.. انت عاوز تنتحر تحت الترماي والا إيه!

فابتسم سعد بمرارة، ولم يتكلم!

وعلى باب المقهى.. وقف "سعد" يمسح أنفه ووجهه بمنديله وأدرك "شوقي" أنه يمسح دموعه..

ولم يفهم شيئا.. وحاول أن يسأله.. ولكنه كان يطبق فمه بإصرار، ويفتح صدره، وهما يدخلان المقهى.. حيث كان

"عبد الرافع" ينتظرهما بصبر نافد.. واتجه بهما إلى مكان الاجتماع على الفور!

***

وبعد المغرب، لم يكد "شوقي" يفرغ من طعام الإفطار، وليل رمضان يزحف وانيا على السماء، والمآذن ترتفع من بعيد بالأنوار الساطعة حتى سمع طرقات مضطربة على الباب.

وأسرع "شوقي" يفتح قبل أن يقوم "عبده" عن طعامه... فوجد أمامه "سعد" مضطربا..

وقال له "سعد" باختصار:

- أنا عمال أنادي لك م الصبح. إذا كنت كلت انزل. أنا مستني تحت.

ونزل "شوقي" بعد قليل، وهو يتساءل بينه وبين نفسه عن هذا الوجوم الشديد الذي استبد بـ "سعد".. إنه لم يتكلم اليوم حتى في الاجتماع، وعندما رجعا معا لم يفلح "شوقي" أيضا في إخراجه من صمته. لم يستطع أن ينتزع من أعماق "سعد" سر الشيء الذي يضنيه! إنه يقول كلمات سريعة عصبية عن الخدم.. وعن "ألطاف" بالذات.. ثم يغيض صوته، وتنقلب

الكلمات في حلقه إلى أنين حزين ليتحدث عن أمه بندم وإشفاق!

لم تتحدث يا "سعد" عن أمك من قبل بمثل هذا الصوت؟!. ما هي الحكاية؟ ليتك تقول وتريح نفسك وتريحني أنا أيضا!.. أنت لم تعرف أنني مسافر غدا!.. ولكنك عرفت.. أنا قلت لك حين رجعنا من الاجتماع، فبان على وجهك ضيق شديد وشيء مذهل كالرعب، ولم تقل كلمة!.. يا أخي أرح نفسك وأرحني!.

ولكن "سعد" ظل يسير صامتا مع "شوقي" في شوارع الحلمية الجديدة. واقتربا من المدرسة، وملأ "سعد" نظره منها، وتابع سيره، ثم صاح فجأة:

- يا للا نروح مكان زحمة! مكان كله ناس.. وزعيق!

وتوقف "شوقي" وقال بضيق:

- اسمع يا سعد. انت حيرتني!.. طول النهار مكتوم، وما انتش عاوز تتكلم، وأطوارك غريبة جدا. احنا بكره حانشترك في أخطر مظاهرة! مش تفهمني إيه الحكاية؟..

ولم يقل "سعد" شيئا.

ولكنه بعد قليل سأل "شوقي":

- تيجي نروح الأوبرا؟! دلوقت فيه بروفة جنرال لمسرحية أهل الكهف.

فأجابه "شوقي":

- لا!.. ما تقول لي يا أخي إيه اللي مضايقك؟

ثم تسللت لهجة تمثيلية إلى صوت شوقي وهو يسأل سعد ببيت من مسرحية "مجنون ليلى".

- فيم أنت مطرق مفكر!

وعلى الرغم من أن سعد كان عادة يتهلل بالفرحة لمثل هذه الجمل المسرحية التي تفتح أمامه لتوها آفاقا من الأحلام، إلا أنه أطرق.. وظل واجما.

وظلا يمشيان، ودخلا شارع محمد علي، وتاه صوتهما في ضجة المقاهي والترام.. وفجأة قال "سعد":

- إيه رأيك يا شوقي لما تعرف ان أبوك.. يعني.. إيه رأيك في أبويا؟!..

وقال "شوقي" باستخفاف في محاولة لإضحاك سعد:

– أبوك؟!. يعني أبو زيد الهلالي يا سي سعد؟.. الله يلعن.

ولكن شرود "سعد" صدمه فلم يكمل..

وأخذ "شوقي" يتأمل وجه "سعد" الحزين المعذب الذي ارتسمت عليه التعاسة، وتخلت عنه كل رغبة في الضحك!.

وبدأ شوقي يتنهد وخفت صوته وهو يستجمع خيوط كل ما سمعه من "سعد".

وقال بحنان مفاجئ:

– لكن إيه يا سعد!؟ ماله أبوك..؟

فانتفض "سعد" بذعر كأنه يمسك نفسه قبل أن يقع من على حافة هاوية فظيعة:

– ما فيش حاجة.. ما فيش حاجة أبدا! بعدين بعدين يا شوقي!.. أنا لازم حاقولك طبعا. بكره أقول لك..

ثم أطبق على شفتيه وشد عليهما كأنه يمنع نفسه من الكلام بالقوة..

وشعر كل منهما أن اللحظات تمضي بطيئة ثقيلة وأنه لا شيء يجمع بينهم الساعة ولا حديث يمكن أن يدور!

وقال "شوقي" بملل:

- مش نروح أحسن؟

واختلج "سعد" بغتة، وأطرق، ثم استدار في صمت، ومشى مع "شوقي" راجعين إلى شارع عزيز..

وقال له "شوقي" وهو يودعه:

- على كل حال يا سعد انت لازم تتشجع!. اجمد.. نام كويس علشان نعرف نشترك في مظاهرة بكره..

***

وفي ظهر اليوم التالي لم يستطع "شوقي" أن يعثر على "سعد" حين تفرقت المظاهرة.. كانوا يطوفون على بيوت الزعماء واحدا بعد واحد.. يهتفون بالجبهة الوطنية لتحقيق الاستقلال والدستور بلا شروط، ووعدهم الزعماء بأن يعلنوا تشكيل الجبهة فانصرفوا سعداء مزهوين لأن المظاهرات حققت الغرض منها ... وقرروا أن يذهبوا إلى الملك يطالبونه بتشكيل حكومة من الجبهة الوطنية.. ثم تقدموا في الطريق إلى القصر الملكي.

وفجأة هجم البوليس والجيش بالرصاص.

ووجد الطلبة من أمامهم ومن حولهم ومن ورائهم جنـــودا كثيرين على ظهر الخيل.. ورأى "شوقي" طلبـــة يســـقطون تحت سنابك الخيل الزاحفة، وسمع صـــرخات فزعـــة بعـــد انطلاق الرصاص!.

ومن كل مكان، كان الرصاص أيضا ينطلق!..

وهرب "شوقي" من شارع جانبي هو وبعـــض الطلبـــة.. وبحث عن "سعد" وعن "عبد الرافع" فلم يجد أحدا منهما!..

وذهب إلى قهوة باب الخلق التي تعودوا أن يلتقوا فيهـــا، وانتظر هناك طويلا، ولكن أحدا لم يجئ.. وقعد يسلي صيامه بمراقبة الذين يسلون صيامهم..

ولكن! يجب أن يقوم الآن ليعود إلى بيته، فهـــو مســـافر اليوم.. اليوم؟ لا يمكن! فالليلة تقدم الفرقة القومية مســـرحية "أهل الكهف"! يجب أن يذهب مع "سعد" لمشاهدة المسرحية.. أيكون "سعد" الآن؟!. غير معقول!.. لا بد أن يجـــيء إلـــى القهوة!.. يا ترى يا "سعد" ما الذي كان يعذبك طـــول نهـــار الأمس!

وأخيرا.. غادر "شوقي" القهوة، ومشى متثاقلا إلى شارع عزيز!..

كانت الشمس إذ ذاك رائعة في زرقة السماء، ورائحة الشواء تملأ صدره.. كل الناس يستعدون للإفطار..

وتقدم في الطريق إلى شارع عزيز، يعبر الحواري التي تقوم عليها البيوت القديمة المتهالكة.. لا أحد هنا يشعر بما حدث هناك: بالحصاد الوحشي الذي كان يقتلع حياة عشرات من الطلاب.. ومن يدري كم منهم سقط؟!

وفجأة.. سمع "شوقي" رنينا يملأ أذنيه.. رنينا مفزعا.. رنين صراخ هائل من ناحية شارع عزيز!..

ودق قلبه بسرعة! ما الخبر؟!

طالما شعر بخوف مبهم وهو يقبل إلى الشارع.. وطالما تخيل انه سيدخل البيت فيجد خطابا من البلد يحمل أخبارا مفزعة!!.. أهي أمه.؟ أيكون أبوه هو الذي مات فجأة في البلد!!

وجرى وهو يحس في أعماقه بأشياء تتداعى، وبرعب!

وتخاذلت قدمه والصراخ يرتفع..

ولكنه اندفع، ودخل الشارع، فوجد زحاما أمام بيت "سعد"، والصراخ الفاجع يملأ الدنيا!..

ما هذا كله؟!.. أماتت جدة "سعد"؟.. ما هذه الكراسي أمام بيته؟! و "داود أفندي" هناك يحيطه "شكري" و "أمين".. وكلهم يبكون! وتقدم "شوقي" كأنه يمشي إلى النار؟!.. ما الخبر؟!.. "عبد اللطيف" أيضا يبكي!.. وأين "عبد العزيز"؟ هو يروح ويجيء ويقول إنه ذاهب لإحضار الجثة قبل أن يشرحوها في القصر العيني!.. و " داود أفندي" يقوم ويمشي معه!.. كان "سعد" هذا الصباح يريد أن يقول كلاما عنك يا "داود أفندي"!

وأقبل "شوقي" على الجالسين، فوجد "عبد الرافع" و "عطا الله"، و "شوكت المغربي"!.. كلهم يبكون!.. أنتم هنا كلكم، فأين "سعد"؟!

وتساءل "شوقي" ما الخبر؟.. وبحثت عيناه في فزع غريزي عن وجه "سعد" بين القاعدين!!.. أين "سعد"؟! سعد؟!

ولم يصدق ما سمعه أول الأمر!.

ماذا؟!..

كان "عبده" أمامه يلطم...

مات سعد!!.. قتل سعد!!.

مات سعد!؟.. مستحيل!

ووقع "شوقي" على الأرض.. وشعر بيد تنتزعه وهو يزحف على رجليه وصوته يختنق.. مات "سعد"!.. ولكن لماذا لم تتوقف الدنيا بعد عن الدوران؟ وأمسكوه.. وأقعدوه على كرسي!.. وسمع "شكري" يقول:

- دي سنة الحياة يا ابني!.. لا إله إلا الله!.. يا رب!

وغاض صوت "شكري" في دموعه، وأمسك شفته بأسنانه.. والصراخ المروع يرتفع من داخل شقة "سعد"..

مات سعد؟!..

كيف؟! مستحيل!.. ولكن الشمس ما زالت تشرق وبيوت شارع عزيز كما هي لم تنهد على من فيها، ومن بعيد مازال يقف أطفال، وما زال يروح الناس ويجيئون.. والى جوار "شوقي" رجل يسأل جاره.. ما زال يستطيع أن يسأل جاره:

- فاضل كام على مدفع الفطار؟..

الناس أيضا يفكرون في الطعام!.. وصوت "عديلة هانم" يرتفع مذبوحا.. "اسم الله عليك يا ابني"!.. وشيء كالجنون يصفر في أعماق "شوقي"!.. هذا كله غريب!.. فظيع.. ومذنب، ومضحك أيضا، وبشع!.. ومستحيل!.

وامتدت يد "شكري" تمسك بكتفه:

- اصبر يا شوقي يا ابني! بعدين تتجنن! دي سنة الحياة يا ابني.

الحياة؟! لا.. ليست هذه الحياة!.. إنهم قتلوه.. هناك تحت سنابك الخيل! هرسوا دماغه على حافة الرصيف!!..

ووجد "شوقي" نفسه يكاد يعض الأرض وهو يصـــرخ: آه يا خوي: آه يا سعد.. يا خوي!

ومن حوله بكاء خافت تقطعه الهمهمة:

- دنيا!..

دنيا؟!؟ ما هذه الدنيا؟!

(٢٣)

نعم يا "شوقي" يجب أن تعيش، وما دمت تحيا فيجب أن تحيا بحق!..

هكذا قال ذلك أخوك "عبد العزيز"، و "عبد اللطيف".. هكذا قال لك "عبد الحي" و "العم شكري".

و "شكري عبد العال" يحاول أن يقنعك بأن الحياة تجري وتبتلع في جريانها كل شيء: المآسي الضخمة، والمضايقات الصغيرة.. الدموع والضحكات التي تنعش البدن فجأة.. الضيق، والندم، والإحساس بالفاجعة، وكل شيء.. كل شيء تلتهمه الأيام والليالي!

صحيح يا عم "شكري"!

إن ستة عشر عاما سن صغيرة جدا للكآبة والشرود.. ولكنها أيضا أنسب سن!..

أنت يا "شوقي" لم تختر لنفسك هذه الفاجعة في سنك هذه! آه.. ستصبح يا "شوقي" ذات يوم في الثامنة عشرة، وتشعر كما يقول "العم شكري" أن كل شيء ممكن حتى النسيان، وأن

الحياة كلها لعبة صغيرة في الحبيب!.. وعندما تصبح في الأربعين يا شوقي سيمر بك خاطر حزين من الأيام الذاهبة، وتبتسم وأنت تذكر دموعك التي تذرفها هذه الأيام!. ثم تتذكر اللحظات الضاحكة التي عشتها مع "سعد" ذات يوم فلا تبكي، وإنما تضحك! ماذا يقول هذا "العم شكري"! وسيكون لك ابن، وربما نسيت أن تطلق عليه اسم صديقك الذي تمنيت أن تصحبه تحت التراب! ودافعت اللحادين وهم ينحدرون به إلى حفرة القبر!!

ولكن لا.. لن تبتسم أبدا يا "شوقي"!

وستظل تذكر هذه الدموع، ولو مر عليها مائة عام!..

لن تنسى أبدا اسم "سعد"..!

ولن تنسى أبدا يومه الأخير في هذه الدنيا.. ولا حيرته واضطرابه وقلقه وهو يحدثك عن "ألطاف" وعن أبيه، ويغلق فمه على السر الذي رحل به!!..

ليتك ألححت عليه!

ليتك لم تتركه في تلك الليلة من رمضان بعد ما سرت معه في شوارع الحلمية، وألقى بنفسه في ضجيج شارع محمد علي!..

كان يمكن أن يقول لك سره. ولكنك ضقت به!.

لماذا ضقت به؟!. لماذا تركته يمضي بآلامه وعذابه؟!

أيكون "سعد" هو الذي.. لا.. "يا شوقي"! لا يجب أن تشوه جلال بطولة الصديق!.. "سعد" لم ينتحر.. ولكنه استشهد.. هم الذين قتلوه!.. سحقوه تحت سنابك الخيل وهو يهتف بالحرية والدستور والاستقلال والجبهة الوطنية!..

ومع ذلك فما كان يجب أن يموت.. إن موته لم يخلق شيئا جديدا في حياة الوطن!

ولكن ماذا تقول؟ اسكت! يوم مات "سعد" أعلنت الجبهة الوطنية.. كان هو آخر الشهداء.. وبعد موته بأيام أعلنت عودة الدستور!

ولكنك لن تنساه يا "شوقي" أبدا أبدا!! والذين يقولون لك إن الحي أبقى من الميت، هم حمقى!.. كلهم بلا قلب!.. الموتى أيضا – قبل الأحياء – يجب أن يعيشوا في قلوبنا وذكرياتنا!

نعم. إن الحياة لا تقف لأننا نفقد الذين نحبهم، ولكن هذا ليس سببا كافيا للجمود أمام الموت..!

مات "سعد" وهو بطل، وستحيا ذكراه كبطل. لم تكن هذه الكلمات التي قالها "عطا الله" في حفل تأبينه مجرد كلمات!

لكم بكى "عطا الله" واختنق صوت "عبد الرافع". حتى "شوكت المغربي" لم يستطع أن يرفع رأسه من ثقل الفاجعة!

"شوكت" دائما يحوم حولك في انكسار يريد أن يقول لك أشياء، ولكنه لا يجرؤ. وهو على أية حال يعاملك بحنان غريب، ويبحث عنك في فسحة الغداء ويلازمك. لم يعد كما كان من قبل يرمي نفسه في ملعب التنس مع أولاد الذوات!.

و "عطا الله" أيضا ينظر إليك وشيء كالدموع والدم في عينيه لم تك العلاقات طيبة دائما بينه وبين "سعد"، ولكنه حين يذكره لا يجرؤ على أن ينطق باسمه من فرط الإجلال. إنه يقول عنه "الشهيد" أو "الفقيد". "البطل الراحل".

عجبا.. أكان يجب أن يموت "سعد" ليظفر بكل هذا الاحترام.

حتى ناظر المدرسة الذي اضطهده دائما، وقف في حفل تأبينه ليتحدث عن الخسارة الفادحة. وكأن الموت يخلق من "سعد" كائنا جديدا يكتشفه فجأة كل الذين جهلوه.!

ولكنه أروع من كل هذا أيها الناس!

أروع من كلماتكم، ومن دموعكم. وأروع من هذه الحياة التي استمرت من بعده، كما كانت من قبل، كأنه لم يمت!

***

وعادت المدرسة ففتحت أبوابها، وأعيد الطلبة المبعدون، واتخذ كل مكانه إلا "سعد"!.. لم يعد منه غير نصب تذكاري في مدخل المدرسة يضع عليه التلاميذ أزهارا نضرة كل يوم.. ومن يدري ماذا سيحدث بعد عشرين أو ثلاثين عاما؟! أتظل تتألق عليه الزهور؟!

وأعيد أيضا الشيخ "علي" و "ميخائيل أفندي" من الصعيد. كل شيء يعود إلا "سعد" فما زال تحت التراب! وإلا "عبد المعبود"، فهو لم يعد بعد من سجنه.. وكان في عودته بعض العزاء!.. و "شكري عبد العال" يقول إنهم أفرجوا عن كل الطلبة المقبوض عليهم، ولكنهم لن يفرجوا الآن عن "عبد المعبود" فليس العمال كالطلبة.. إنهم يخافون العمال، ويعاملونهم بطريقة خاصة ... بوحشية خاصة!..

ولكن لماذا قتلوا "سعدا" وحده؟! لكم تذكر يا "شوقي" في هذه الأيام تلك الكلمات الحزينة التي أبكتك وأنت صغير حين قرأتها في كتاب مدرسي قديم كان عند "عبد اللطيف".. وكان

ذلك وأنت صغير جدا.. كلمات رجل يرثي "علي بن أبي طالب" فيبكي معاوية عدوه على كلمات الرثاء، ويسأل الرجل: "وكيف حزنك عليه يا ضرار" فيقول الرجل: "حزن من قتل وحيدها في حجرها"!!

وأنت أيضا يا "شوقي"!.. تشعر بمثل هذا الحزن على "سعد"!. ولا أحد غير "عبد الحي" يشعر بمأساتك.. و "عبد الحي" يعيد عليك ما يحفظه من المراثي، فهو يقرأ الكتب وينشغل بها، ويعود من مدرسة دار العلوم كل يوم فيشغل نفسه بما أخذ في المدرسة، ويقول دائما إن الطلبة أدوا واجبهم ونجحوا وإن عليهم أن يعوضوا الأيام الأربعين التي أغلقت خلالها قاعات الدرس!

كل إنسان في الشارع مشغول، له ما يشغله!.. لا أحد يقعد معك في هبوط المغرب يبكي.. أم "سعد" وحدها تبكي هناك و "عبده" أحيانا يعود من المطبعة فينظر إليك ويدعو لك بالصبر!.. ثم يبكي هو الآخر!.. ثم يتمتم بالآيات القرآنية التي حفظها عن "عبد الحي" تمجيدا للشهداء. ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾.

كلهم يدعون لك بالصبر!.

"رجاء صدقي" هي الأخرى كلما رأتك طلبت منك أن تتشجع ودعت لك بالصبر!.. وهي الآن تسترد صحتها وتتردد على "عبد الحي" لتأخذ عنده دروسا في اللغة العربية لتتقدم.. لم يعد "عبد الحي" يأنف منها. وهو بالعكس يرحب بزيارتها ويمنحها الكثير من وقته ويشرح لها الشعر القديم والنحو والصرف.. ومسرحيات شوقي والمسرحيات العالمية المترجمة..

وهي تأمل – بشيء كالثقة – أن يعينوها في الفرقة القومية. فهي تعرف الآن من اللغة أكثر مما تعرف ممثلات كبيرات! وهي تلح على العم "شكري" أن يسعى لها عند أحد معارفه.

وهو متحرج بعض الشيء، ولكنه يرق لها يوما بعد يوم!

وحتى "أمين أفندي" يدعو لك بالصبر.. هو الآن مطمئن للمستقبل منذ أعلنت عودة الدستور، واستقر في ذهنه كل ما ظل "عبد اللطيف" يقنعه به من قبل.. لن يجرؤ أحد على انتزاع ملكية بيته!!.. وهو؟.. لم يعد يشك في "عبد اللطيف".

كل الناس مشغولون في شارع عزيز.. وكل الناس لديهم أسرار! يجب ألا يموتوا بأسرارهم كما مات "سعد"!.. قولوا أسراركم لإخوانكم وأصدقائكم أيها الحمقى، فأنتم لا تعرفون متى تلفظون آخر أنفاسكم!.. لم يكن "سعد" يحسب أنه ذاهب إلى الموت.. كنا نحسب أننا سنعود ونحكي، ولكنه لم يعد، ولن يعود إلى آخر الزمان!

قولوا أسراركم على الأقل للرجل الذي يرعاكم جميعا.. للعم "شكري عبد العال"!..

ولكن العم "شكري عبد العال" هذا.. غريب!.. عندما حكيت له يا "شوقي" ما قاله "سعد" عن أبيه وأمه و "ألطاف" قبل موته بيوم واحد، طلب منك ألا تبحث عن سر "سعد".. وقال بثبات ورسوخ: إن سر "سعد" مات معه، فلا يجب أن يقلقه أحد في قبره بالبحث عن هذا السر!!..

لماذا غضب عليك ابنك "سعد" إلى هذا الحد يا "داود أفندي"!

إنك لا تعرف يا "شوقي" كيف يمكن أن تلقى "داود أفندي" بعد اليوم!!

انتهى كل شيء؟.. لن ترى "داود أفندي" ولا "عديلة هانم".. ولا أخت "سعد". أنت ترى "درية" أحيانا عائدة من بيت "داود أفندي" بصحبة "سعاد هانم" أو امرأة "عبد المعبود" أو أختها "سميرة" فتحس بلفح الدموع في الجفون!..

انتهى كل شيء.. لن تدخل هذا البيت مرة أخرى!

***

ولكن "شوقي" دخل بيت "سعد" وتعود بعد ذلك أن يدخله!؟ كان الأمر صعبا أول الأمر..

شعر وهو يخطو عتبة الشقة لأول مرة أن "سعد" يموت مرة أخرى!.. ولكنه تعود. وأضاعت العادة حدة الانفعالات الأولى.. ثم زايله الإحساس الرهيب مرة بعد مرة.

قابلته "ميرفت" أخت "سعد" في الشارع، فاستوقفته وطلبت منه أن يجيء لزيارتهم.. وكانت منكسرة، في ثوب أسود رهيب.. وتبدو مطيعة، مستعدة لأن تسمع أي كلام يقوله "شوقي"!

ولم يجرؤ "شوقي" على أن يرفع إليها عينيه، كان يقف في الشارع، وهي تمر أمامه بعد أسابيع طوال لاستشهاد "سعد"..

أسابيع طوال لم يجرؤ خلالها على مجرد المرور من أمـــام بيت "سعد".

وألحت عليه أخت "سعد" بجرأة يلهبها الحزن، وقالت لـــه إن أمها تسأل عليه باستمرار، وتريد أن تراه..!

وهكذا دخل البيت الأول مرة بعـــد "ســـعد". ثـــم أخـــذت "ألطاف" تتردد عليه فتناديه ليكلم الست، وكلما استقبلته "عديلة هانم".. كتمت دموعها وأخذته بين ذراعيها وبـــدأت تكلمـــه كأنما هو "سعد" نفسه!.. وطلبت منه مرة وهو ينصـــرف أن يأتي كل يوم، دون أن ترسل إليه.. لأنها تحس وهـــي تـــراه أنها ترى ابنها من جديد!.. وقبلته في شعره كما كانت تقبـــل "سعد" في ساعات الصفاء.!

وكانت تفتح له حجرة الصالون التي علقت فيها صـــورة كبيرة لـــ "سعد" مجللة بالسواد..

وفي أول أيام زيارته كانت "عديلة هانم" تقف فجأة لـــتكلم الصورة وتبكي.. فإذا انهار "شوقي" في البكاء. أخذت تسكنه بحنان بالغ!.

ولكن "عديلة هانم" لم تعد تفعل ذلـــك.. وأخـــذت تقبـــل "شوقي" في الصالة، وتجلسه إلى جوارها على الكنبة، وتنادي

كبرى بناتها "ميرفت" أن تأتي بالطعام لأخيها "شوقي". أو تأتي لتقعد معه!. وكانت أحيانا تناديها "ميرفت" وهو اسمها المألوف، ثم تعود فتستدرك وتناديها "صفية" والدموع تسطع في عينيها، وفمها مع ذلك يبتسم:

- الغالي كان في الآخر محكم رأيه يقول لها يا صفية.. وهو اسمها في شهادة الميلاد وفي المدرسة! كان يضحك ويقول أنا اسمي سعد زغلول، وهيه اسمها صفية زغلول.

وعرف "شوقي" لأول مرة أن أخت "سعد" الكبرى اسمها صفية.. وناداها باسمها لأول مرة.. ويوما بعد يوم أخذ يشعر بأن "صفية" هي أخته، وبأنه لم يكرهها أبدا.. آه.. إنه كان يكره "ميرفت".. يحتقرها ولا يطيقها، أما صفية هذه فلكم تبدو رقيقة طيبة طاهرة، ونبيلة أيضا!!

"سعد" و "صفية"؟!. كيف اخترت هذين الاسمين يا "داود أفندي"!!

***

وتمنى "شوقي" ذات يوم لو أن أمه هي "عديلة هانم"!..وبدأ يحكي لها عن المدرسة كما لم يحك لأمه من

قبل!.. وكانت هي تسأله عن المدرسة والذين أحبهم "سـعد". وروى لها مرة كيف اعترف له "شوكت المغربي" وهو يبكي بأنه اتصل بالبوليس.. وأنه هو الذي وشى بالشـيخ "علـي" و "ميخائيل أفندي".. وأنه تقاضي نظيـر هـذا كلـه ثلاثـة جنيهات، وأقسم له أنه لن يعود.. وحكى لها "شـوقي" عـن "شوكت" ما لم يستطع أن يقوله لـ "سعد". حكى عن تعرضه لـ "ميرفت"!.. فأمرت "عديلة هانم" ابنتها "صفية" أن تسـمع كلام "شوقي"، فهو أخوها الآن.. ووافقت "صـفية" بإذعـان حزين!..

وفي الحق أن "صفية" لم تعد منذ مات "سعد" تسـتطيع أن تبتسم لأحد في الطريق!!..

أتراها يا شوقي لم تعد تحب اسمها البيتي القديم "ميرفت" لأنها خانت عندما كانت تحمل هذا الاسم ثقة "سعد" فيها!

إنها لراحة غريبة هذه التي تشعر بها يا شوقي وأنت هنـا في بيت "عديلة هانم" حيث كان سعد يمـلأ الـدنيا بأحلامـه وضجيجه وضحكاته وغضبه وصراخه ومرحه ودموعه..!

ولكن ما بال "داود أفندي"!؟. هو دائما صامت لا يكاد يتكلم!.. وهو لا يقعد معك أبدا يا شوقي! إنه دائما يستقبلك بترحاب كبير، ثم ينصرف ليجلس وحيدا!...

ولم يكن "داود أفندي" يقعد مع أحد من أقارب "عديلة هانم" الذين كانوا يترددون عليها.. حتى الباشكاتب "أدهم" الذي ما كان "داود أفندي" من قبل يتركه وحده أبدا مع امرأته "عديلة هانم"!.. إنه الآن يستقبله بفتور، ثم يستأذن منه، ليخلو إلى نفسه!

***

وفي الحق أن "شوقي" لم يكن يضيق بشيء مثلما يضيق بهذا الباشكاتب "أدهم بك".

"سعد" أيضا كان يكره هذا الرجل. وكان كلما زارهم الباشكاتب استبدت الأزمة بنفس "سعد"!..

وأدرك "شوقي" لماذا كان "سعد" يتأزم. فالرجل يعامل "عديلة هانم" بلا حرج، وبجرأة سخيفة. وهو أحيانا يمد يده عليها ببساطة.. قطعت يده!..

وهو يضيق بوجودك يا "شوقي"!. أخوك "عبد العزيز" أيضا يضيق بوجودك يا "شوقي" في بيت "سعد" دائما

ولا يفهم له معنى!.. ولكنه لا يكلمك في هذا الأمر!.. مرة واحدة سمعته يكلم "عبد اللطيف" متخوفا على وقتك ومستقبلك وحتى صحتك من هذا الجو الحزين.. ولكن "عبد اللطيف" قال له إن لكل شيء نهاية. فلم يعلق على كلام "عبد اللطيف"، ولم يشأ أن يكلمك أنت!

أما هذا الباشكاتب "أدهم بك" فهو كلما رآك عند "عديلة هانم" تجاهلك، فإذا تكلمت أنت قاطعك ولم يترك لك فرصة لتقول شيئا!!.. وهو ينظر إليك كولد صغير متطفل!

وفي كل مرة يسأل عليك من أنت؟! من تكون؟

وهو يحاول أن يضحك "عديلة هانم" ويتظارف أيضا مع "صفية".. و "عديلة هانم" تداري ابتسامتها كلما تظارف، وتتنهد!

عجيبة!.. لماذا لا يأتي "داود أفندي" ليقعد معه؟!

ولماذا كان "سعد" يكره هذا الرجل إلى حد مخيف؟! كان يحمل له كراهية تملأ مائة قلب!.. أيكون هناك سر آخر مات معه؟

***

وذات مساء. أتى هذا الباشكاتب "أدهم بك".

كان هذا بعد ذكرى الأربعين.. وفبراير يزحف بدفء مبكر.. أتى لامع الشعر والشارب من الصبغة، وعلى ذقنه آثار البودرة والكريم، والخاتم الماس يلمع في إصبعه، ودبوس الياقة يسطع على رقبته، وفص لؤلؤ يلمع على رباط العنق ذي اللون الفاتح، والسلسلة الذهبية تشع على بطنه المتكرش..

وقعد في الصالون.. وبدأ يضحك ضحكات عالية بلا وقار وأمامه بالضبط على الحائط المقابل صورة "سعد" وهو يخطف إليها نظرات غريبة! كأنه استراح لموت "سعد" ...!!

وهكذا خيل لـ "شوقي"! كأنه سعيد لأن البيت خلا من "سعد"!

ونظراته إليك يا "شوقي" غريبة أيضا!. كأنها تأمرك بأن ترحل.. وبألا تدخل هذا البيت مرة أخرى!.

ماذا يريد منك هذا الرجل "يا شوقي"؟! وماذا يريد من السيدة المسكينة أم "سعد"..؟!

إنه يستل الضحكات منها بكلمات بلهاء، وهو ينظر إليها بطريقة مخيفة كأنه يراها أمامه عارية!. ونظراته لا ترحم حتى "صفية"!.. كلما دخلت أو خرجت تابع مشيتها بنظرة

خبيثة من تحت جفنيه المتكسرين.. أيها العجوز الأحمق.. إنها لم تعد "ميرفت".. إنها كائن جديد من نور وأنين ومأساة.. اسمها "صفية"!.. ولكنه يضحك دائما!! فمن يظن نفسه؟!. إنه ليس في حانة ليطلق هذه الضحكات العالية!.. ألا يحترم الصورة التي تقعد تحتها "عديلة هانم"؟ تكاد روحك يا شوقي تزهق من سخافة كلماته.. ونظراته نفسها تتجه إليك كأنها صفعات!. إنه يراك ثقيلا وتشعر أمامه أن الناس ليسوا في حاجة إليك، وأنك زائد على الحياة!.

متى يقوم؟. أكان هذا الرجل "أدهم بك" في شبابه رجلا حقا!؟ إنه مائع أكثر مما ينبغي لرجل!. متى ينصرف!. قم من هنا قم!.

ولكنه ينتظر منك أن تقوم أنت!. هذا اللعين الذي أوشكت "ميمي هانم" أن تصفعه منذ شهرين لولا أن "عبد اللطيف" طرده!. ماذا أعد في ذهنه؟. أيحلم بأن يأخذ "عديلة هانم" بين ذراعيه!. أم لعله يفكر في "صفية"!..

اثبت يا "شوقي" ولا تخفض عنه عينيك، فربما تحرج، وقام هو، ولكنه عاد مرة أخرى يشرع نظراته إلى "عديلة

هانم" ويطلق نكتة سخيفة، وهو يبرم شاربه القصير المصبوغ.

وفي ذلك المساء لم تكن "عديلة هانم" تزم شفتيها لتخفي ابتسامتها كما تعودت حين يحاول "أدهم بك" أن يضحكها، وإنما كانت تجاهد في حبس دموعها..

ولمح الباشكاتب انسكاب الدموع على خديها فقال بخفة:

- شوفي نفسك بقى يا ديدي!.. سعد ما بقى تراب بياكله الدود! استعوضيه عند ربنا وشوفي نفسك انتي!

ماذا يقول؟!. تراب وأمه الجليلة المجروحة أصبحت عندك "ديدي"، وهو بكل شبابه وانطلاقه وحلاوة أيامه أصبح ترابا.. ترابا يأكله الدود!؟..

نشجت "عديلة هانم" بعنف وانهيار.. واهتز كل بدنها.

واختلج "شوقي" وشعر بأن هذا الرجل شيء كريه يهين كل ما يقدسه "شوقي" ويسخر بدموعه وبالموت والبطولة، ويقتحم هذا المكان هذا المكان متحديا الذكرى العزيزة!.

كأنما هو شامت في موت "سعد"!..

وقام الباشكاتب وانحنى على "عديلة هانم"، وأخذ كتفيها بين يديه، وتسللت أصابعه تعبث على كتفيها وذراعيها وتهبطان إلى ما تحت كتفي السيدة المستغرقة في البكاء، وعيناه تتأملان نحرها وصدرها وجسمها المتهشم المنتفض تحت السواد، وهو واقف على رأسها!..

ورأى "شوقي" هذا كله.. وأحس بالاشمئزاز والإهانة والغثيان.

ودون أن يفكر وجد نفسه ينتزع يدي الباشكاتب من على ذراع "عديلة هانم" ويرميها بعيدا عن كتفها بعنف وضيق وازدراء.

وتأخر الباشكاتب مأخوذا من المفاجأة.. فتقدم "شوقي" إليه خطوة ودفعه بقوة وغيظ وهو يصرخ في وجهه:

- اطلع بره.. بره.. بره.

ولم يجب "أدهم بك".. ووقف حائرا يرتعد. ثم قال متلعثما:

- إيه ده يا ديدي ده؟! إيه الولد ده؟ مين الولد ده؟ حوشي يا ديدي!!

وتقدم منها كأنه يستنجد بها، وشوقي يدفعه في غضب هائل..

ولكن "عديلة هانم" انتفضت واقفة وكل بدنها يرتعش، وأشارت إليه أن يخرج وهي تنوح.

- بره!.. اخرس.. ما تقولش عليه ولد! ما تقوليش يا ديدي؟! أخرج بره!. كلب! كلاب! كلاب!

وخرج "أدهم بك" بلا كلمة ووجهه المحتقن تشع فيه صفرة باردة كالموت.. و "داود أفندي" يقبل من الداخل شاحبا.. وهو يهمهم:

- صحيح.. كلاب.. كلاب.!!

وكفت "عديلة هانم" عن البكاء.. وقعدت تنظر إلى "شوقي" بإكبار، بينما وقف "شوقي" يغلب دموعه!.

وعندما خرج "شوقي" إلى الشارع وجد "شكري عبد العال" مقبلا إلى منزل "داود أفندي"..

واستوقفه "شوقي" وروى له ما حدث في منزل "داود أفندي" فابتسم "شكري" وهز رأسه.. ثم قال وهو يترك "شوقي":

- على كل حال كويس. لكن خد بالك يا ابني شوية من عمك "داود أفندي" دا مسكين! مش طايق يكلم حد ولا يشوف

حد.. الوحدة حاتجننه.. اضرب له مثل بي أنا. أنا كمان فقدت ابني الوحيد! وأديني عايش عادي أهه!

وانصرف "شوقي". وهو يفكر في "داود أفندي" الذي يهرب من كل الناس.. ومن الكلام!.. وفي أعماقه زهو بما حدث مع "أدهم بك".. زهو غمر كل اشمئزاز من الرجل وكلماته والطريقة التي يداعب بها "عديلة هانم".. ولكن "شوقي" عاد يفكر في آخر ما قاله "سعد".. في الكلمات الغريبة التي قالها عن "ألطاف" وعن أبيه داود أفندي..

هذا السر الذي دفن مع سعد!.

ولكن.. لم يعد من حق أحد أن ينبش على هذا السر كما قال العم "شكري عبد العال" ذات يوم!

وعندما عاد شوقي إلى بيته وجد في البيت ضجة فرح يجهد الكل في كتمانها، وعبد العزيز مع بعض أصدقائه يضحكون بحذر.

- ماذا؟!

ظهرت نتيجة بكالوريوس الطب، ونجح عبد العزيز بتفوق! ما زالت الحياة قادرة على أن تقدم الأشياء السارة!

(٢٤)

أحس "شوقي" بكثير من الزهو وهو يتطلـع إلـى أخيـه الدكتور "عبد العزيز" يروح ويجيء بالبالطو الأبيض الناصع في الحجرة الفسيحة المليئة بالأدوات الطبيـة، ومـن حولـه فتيات في مرايل بيضاء يسألنه، وهو يصدر الأوامر ببساطة.

لكأنك يا "شوقي" تملك مستشفى قصر العيني.. هذا الـذي يعمل فيه أخوك!.. الكل تحت أمره هنا، وتحت أمرك أنـت طبعا.. والفتاة الطويلة الممتلئة المسترخية الأهداب، بشعرها الفاحم، تحت غطاء الرأس الأبيض الـذي يحـيط بوجههـا الهادئ الباسم، تنظر إليك كأنما أنت أخوها الصغير.. وهـي تقف إلى جانب أخيك تساعده وتصدر عنه بعض الأوامـر، والفتيات يرحن ويجئن يقلن لها "الست الحكيمة".. وهي تترك مكانها أحيانا لتشرف على نظام طابور طويل من الرجـال، وتعري هي صدر كل من يـدخل وتقدمـه إلـى الـدكتور "عبد العزيز" فيخبط على الصدر بأصابعه ويتحسس الظهـر

والصدر والقلب بالسماعة الطبية ثم يكتب كلمات على ورقة.. ويسلم الورقة للمريض.. قائلا بخفة "غيره!".

ما أروع هذا كله.. ليتها كانت هنا لتشاهد "عبد العزيز".. ليتك كنت هنا يا صفية!.

ليت "صفية داود" كانت معك الآن يا "شوقي" مكان "عبد الحي" الذي يجلس إلى جوارك محملقا في "عبد العزيز"! وتنبه "شوقي" على صوت يرتفع مرحبا به:

- ازيك يا شوقي أفندي.. سلامات كده!.. دا انت باسم الله ما شاء الله فحلت وبقيت فلق أهه!. جرم زي حضرة العمدة..!

وأقبل رجل يلم جلبابه ويرخيه على صدره العاري بعد أن فرغ من الكشف.. وسلم على "شوقي" وهز يده بشوق.. وبحث عن كرسي ليقعد فناداه "عبد العزيز":

- الله.. هيه مضيفة!؟ اطلع هات الدوا وانجر ع البلد على طول.. الله! مش كفاية مشغلين المستشفى لحساب أهل البلد.. حاتعملوه قهوة كمان!

ورنت ضحكة الحكيمة وقالت:

- دا الأسبوع ده حملته خفيفة!.. ما جاش من بلدكم غير عشرة بس يا دكتور!

وأسرع الرجل يسلم على "شوقي" و "عبد العزيز" وخرج وهو يقول متباطئا:

- الدوا حانصرفه منين بقى؟!.. وحاندفع فيه فلوس يعني؟!

فزعق فيه "عبد العزيز":

- التمرجي اللي ع الباب حايوريك تصرفه منين.. وحاتصرفه بلاش.. انبسطت؟ عاوز فلوس كمان!؟ قل بصراحه!

وتكسرت ضحكة الرجل وهو ينصرف:

- مستورة والحمد الله. برضه العشم فيك كده يا أبو خليفة!

وعندما خرج التفت "عبد العزيز" إلى "شوقي" ضاحكا:

- كل يوم والتاني ينط واحد من أهل البلد يقول لي حضرة العمدة باعتني.. أمال قبل ما اتخرج كانوا

بيعملوا ايه؟.. أبويا بس عمال يبعت. فاتحين القصر العيني لحساب بلدنا..!

وتنحنح "عبد الحي" الذي كان يجلس صامتا وقال بتأنق:

- ما هم أهل الريف كلهم مرضى وفي حاجة إلى رعاية طبية.. يجب يا دكتور بعد أن زالت حكومة الأقلية ونحن الآن في عهد حكومة الإصلاح.. يجب وأنت سيد العارفين توفير العلاج لكل مريض، والخبز لكل جائع، والعمل لكل عاطل، ويجب أن..

وقاطعه "عبد العزيز" ضاحكا:

- الله! انت في مظاهرة يا "عبد الحي"! وفر الخطب دي للانتخابات!.. حاتشبع فيها خطب!

وضحكت الحكيمة.. وعاد "عبد العزيز" يفحص صدر المريض الذي كان يقف أمامه ويتحسس ظهره بسماعته الطبية وهو يشخط:

- يا أخي كح.. كح بعزم ما فيك.. كح يا شيخ الغفر زي ما تكون ماشي في البلد وعاوز كحتك تصحي الغفر!!

وعندما فرغ طابور الرجال التفت "عبد العزيز" إلى أخيه "شوقي" قائلا:

- هه يا شوقي؟ تطلع دكتور بقى!؟. والا برضه عــاوز تخش الآداب..

فقالت الحكيمة وهي تنظر إلى "شوقي" وتفحصه:

- دا أصغركم بقى يا دكتور؟ دا شكلك بالضبط.. سبحان الخالق الناطق.. دا الدكتور عبد العزيز الصغير!.

وارتاح "شوقي" وهي تتأمله بنظراتهــا الحانيــة.. بينمــا استمر "عبد العزيز" يقول لــ" شوقي":

- والا تخش دار العلوم أحسن!؟

وانفلتت ضحكة من بــين شــفتي الحكيمــة، وتضــايق "عبد الحي" وهمهم:

- ومالها دار العلوم بقى؟.. هيه يعني بقت مهــزأة؟!.. حانرجع للهزل يا دكتور؟

وتقدم "عبد العزيز" إلى "عبد الحي" مسترضيا وهو يقــول للحكيمة:

- حضرته الأستاذ عبد الحي.. واحد من زعماء دار العلوم.. نار على علم.. والا علم على رأسه نار؟ جارنا واخونا ومن زعماء الشباب الوطني، وفيلسوف الغبرا زي ما هو باين.

وهزت الحكيمة رأسها مبتسمة، وخرجت خفيفة نشيطة كنسمة تمر! و "شوقي" مأخوذ بقامتها ونظراتها وجمال وجهها في الإطار الأبيض الذي تلبسه الحكيمات.. له حق من أسماهن ملائكة الرحمة!

وجلس "عبد العزيز" إلى المكتب الأبيض في أقصى الحجرة وأمامه "شوقي" و "عبد الحي".. وقال لـ "شوقي":

- الله! على فكرة. دي الساعة اتناشر ونص. انت مارحتش مدرستك النهارده ليه يا "شوقي" انت..

فقاطعه "عبد الحي":

- جرى إيه يا دكتور؟ انت ناسي ان النهارده أجازة للمدارس بقرار من لجنة الطلبة.. نسيت أن النهارده ١٥ مارس عيد الدستور؟

ورد "عبد العزيز" بشيء كالضيق:

- ياه.. والله الواحد من يوم ما اشتغل في القصر العيني ما هو حاسس بأجازات.. العيادة الخارجية في الصبح... ونبطشية السهر بالليل.! الواحد نفسه يشوف شارع عزيز! على كل حال آهي هانت.. كلها كام شهر، والواحد يا إما يشتغل نايب في القصر العيني ويشبك في بعثة.. يا إما بقى يرمونا في أي بلد في مستشفيات وزارة الصحة أو وحدات البلهارسيا!

وسكتوا جميعا.

وشرد "عبد العزيز" بعض الشيء.. وتشابكت يداه على المكتب، وهو يضغط على أصابعه ويتسمع ما تحدثه من طرقعة..

ثم عاد ينظر إلى "شوقي" بحنان ويفحصه بنظراته في صمت؟

وسأله:

- أمال فين أخوك عبد اللطيف؟ ما جاش معاك ليه ما دام النهاردة أجازة؟

وأكمل بابتسامة ماكرة:

- وازي أمين أفندي وازي أحواله؟ وازي عبد المعبود؟ والله الشارع واحشني خالص.. دا عم شكري كان عندي امبارح هو وكمال الصفطاوي.. أنا سمعت أن الواد عبده زعلان. خدو بالكم منه يا شوقي أحسن انتم عارفين أن زعله بيزعل أبوك.

وأجاب "شوقي":

- احنا بنعامله كويس جدا زي العادة..

فتدخل "عبد الحي" وجر كرسيه واقترب من عبد العزيز قائلا بخطورة:

- عبده مقهور ومهزوم من مسألة تانية. أنا أقول لك يا دكتور.. حاكم حكاية البنت ألطاف دي...

ولم يتركه "عبد العزيز" يكمل، وضحك، وخبط بيده على كتف عبد الحي قائلا:

- وانت يا عبد الحي حاسب على نفسك اليومين دول.. أحسن تستهوى تاني وترجع تبعت عبده لميمي..

فقاطعه "عبد الحي" ضاحكا:

- دا ميمي وأمين أفندي ما حدش طايقهم من الفرحة اليومين دو.. مش ممكن يتخانقوا مع حد أو يزعلوا من حاجة!. البيت قعد لهم، والدايرة انكتمت ومش قادرة تهوب ناحيتهم، وأمين كل يوم والتاني يقول أنا لو كنت فاهم ان عودة الدستور حاتحفظ لي بيتي وحقي كده كنت وزعت منشورات بنفسي ومشيت في المظاهرات إن شاء الله حتى انضرب بالسونكي.. تقولشي يعني النائب الجريء سينوت بك حنا..

وارتفعت الضحكات.. و "عبد الحي" يكمل:

- والا الواد يعني كان محطم السلاسل ويصا بك واصف!

وعندما هدأت الضحكات مال "عبد الحي" على "عبد العزيز" وهو ينظر إلى ساعة على حائط الحجرة في مواجهته، وهمس:

أنا كنت عاوزك في موضوع كده يا دكتور قبل ما تروح... لا أحب طبعا أني أتكلم فيه قدام شوقي لأنه محرج شوية!..

وعندما مال "عبد الحي" ليهمس لمح "عبد العزيز" منـديلا يلف رقبة "عبد الحي" تحت ياقة القميص.. فقاطعه!

- ايه ده.. رابط المنديل الوسخ ده ليه على رقبتك كده؟

فأجاب عبد الحي بسرعة ليعود إلى ما يريد أن يتحـدث فيه:

- لا لا.. دا طلوع بسيط كده في رقبتي.. الشـاهد أنـا عاوز أكلمك في موضوع هام وخطير وسري للغاية..

ولكن عبد العزيز استمهله حتى يرى ما في رقبته..

وفك "عبد العزيز" المنـديل عـن رقبـة "عبـد الحـي" و "عبد الحـي" يحـاول أن يمنعـه متضـررا.. وفحـص "عبد العزيز" الرقبة فشهق ورمـى المنـديل علـى الأرض صائحا:

- طلوع؟ دا خراج يطلع روحك! انت ماشي بالخراج ده ازاي؟ ده يوقع جمل!. إيه اللي انت مدهولة في نفسك ده؟. الله يخيبك! انت عاوز تتسمم.. انت حاطط قشرة بصلة!

وأسرع عبد العزيز إلى الباب ينادي ويصفق.. وعـادت الحكيمة فدفع اليها "عبد الحي" قائلا:

- خديه على قسم الجراحة بسرعة والله يا ست..

وقال "عبد الحي" وهو يخرج متباطئا:

- مش ده القصد! هو أنا فاضي؟ أنا عاوزك في موضوع آخر مش ده المعنى! أنا جاي أكلمك في مسألة خاصة بشخص آخر.

ولكن "عبد العزيز" دفعه فخرج مع الحكيمة وذهب "عبد العزيز" يغسل يديه بمطهر ثم عاد يجلس إلى مكتبه وأمامه "شوقي".

وشعر "شوقي" بفراغ في الحجرة.. وأحس بغتة بالحاجة إلى وجود أخيه "عبد اللطيف"!.. تعود على هذا الشعور دائما كلما وجد نفسه وحيدا مع "عبد العزيز" أو مع أخيهم الأكبر أحمد أو مع أبيهم!..

وجود "عبد اللطيف" هو الذي يزيل الحرج الذي يقوم فجأة بينه وبين أبيه، أو واحد من إخوته الكبار!.

وأدرك "عبد العزيز" حرج أخيه الأصغر "شوقي"، وإحساسه بالفراغ فقال في حنان:

- ازاي أحوالك؟ إيه رأيك بقى في حكاية دخولك الطب..!

ثم استطرد وهو يلاحظ تحرج "شوقي":

- انت عامل إيه في المذاكرة؟

فرد "شوقي":

- كويس.

وغمرهما صمت يفيض بالحنان الساكن.

ودس "عبد العزيز" يده في جيب البنطلون وأخرج قطعة فضية من ذات العشرين قرشا وقال لـ "شوقي":

- طب خد. نزه نفسك. اتفسح كويس أحسن دا انت وشك أصفر وحالتك عبرة!

وقال "شوقي" بحرج:

- ما أنا خدت منك في أول الشهر.

ولكن "عبد العزيز" ألح ضاحكا:

- خد بس.. يعني حالف عليهم يا أخي.. بس اوعى تدور بالفلوس دي كده والا كده!

وتناول "شوقي" الريال ضاحكا، ودسه في جيبه بارتياح ونظراته تلتقي بنظرات أخيه الساطعة.

وانفتح الباب ببطء، وأطل منه وجه نسائي ممتلئ أسمر يقول في همسة مداعبة:

- فاضي؟.. بونجور يا دكتور.. ازيك يا عبد العزيز..

ودخلت فتاة تملأ الحجرة بعطر هادئ.. وفوجئ شوقي بدخولها ولكنه تعرف عليها.

كانت هي رجاء صدقي، يتورد وجهها، وقوامها ممتلئ، وفي عينيها لعب لم يعرفه من قبل!.

لكم تغيرت!!. انه لم يرها منذ شهور! لماذا تدخل هكذا بكل هذا الدلال؟!.

وقالت "رجاء" وهي تلوح بورقة سوداء لامعة في يدها:

- الأشعة أهه يا عبد العزيز.. شوفها انت يا أخويا بقى؟.

واختلط الضيق بالحرج في صدر "شوقي".. لماذا لا تنادي أخاه كما يناديه الآخرون: "يا دكتور"؟!..

واحمر وجهه وأحس أنه يجب أن ينصرف، ولكنه لم يشأ.

واستمرت "رجاء" تقول بنفس الخفة:

- بيقولوا الأشعة هايلة خالص.

وتناول "عبد العزيز" منها صورة الأشعة وأخذ يعرضها على ضوء الشمس في فتحة شباك الحجرة، وهمهم:

- ما بتسلميش على شوقي ليه؟ انتم مخاصمين بعض؟

والتفتت هي إلى "شوقي" وهي تدق صدرها متلطفة بكلمات منغمة شائعة من منولوج فكاهي للمنولوجست سيد سليمان:

- أنا لا أتذكر! آسفة قوي يا شوقي.. دا أنا ما عرفتكش! انت خاسس قوي كده ليه؟! انت كفى الله الشر يا أخويا بتحب!؟

وضحكت ونظرت إلى "عبد العزيز" فوجدته مستغرقا في تأمل صورة الأشعة. ولم يضحك شوقي.

وقال بعناد وضيق:

- أنا برضه ما عرفتكيش أول ما دخلتي.

وضحكت بخفة.. ثم مطت صوتها:

- وماله؟.. طب ود.. ما.. له!

ولوحت بكلتا يديها ساخرة كأنها تحدد في الهواء مساحة جسم ضخم:

- ما انا عقبال أملتك عماله اتخن واتخن! أنـــا عارفـــة واحدة زيي تقدر ازاي تمثل غادة الكاميليا؟!.. دا أنـــا ناقص لي شوية وأمثل أم أحمد!..

ورنت ضحكتها:

- دا أنا حابقى أتخن شنب!

واتجهت إلى "عبد العزيز " قائلة:

- اسمع.. أنا لازم أعمل رجيم! مش معقول كده! شايف أنا تخنت قد إيه يا عبد العزيز؟

وصاح "عبد العزيز" بارتياح دون أن يلتفت إلى ما قالته:

- عال! كويس! الأشعة فعلا كويسة جدا. دا انت تقدري دلوقت تجري وترمحي وتخشي سبق كمـــان. مـــش تمثلي بس!

- وتقدمت تجلس على الكرسي الذي كان يجلس عليـــه "عبد الحي" ولاحظ عبد العزيز أنها تجلـــس بحـــذر.. الفستان يكاد ينفتق من على خصرها الذي امتلأ، ومن على صدرها الذي اكتنز بشكل لافت.

وعاد "عبد العزيز" يجلس على مكتبه ويضع أمامه صورة الأشعة قائلا:

- بس برضه أنا رأيي تسكني في بيت فيه شمس وهوا متجدد. شارع عزيز ما ينفعكيش.

وقالت بسخرية تخفي المرارة:

- لما ربنا يعدلها أبقى اسكن في شقة فيها شمس.. ان شاء الله حتى تكون في هليوبوليس! دي ماما لا يمكن تفرط في شقة بالأجرة اللي احنا بندفعها! الحقيقة انها لقطة!

وشردت نظراتها... وهب عبد العزيز كأنما تذكر شيئا هاما:

- على فكرة يا رجاء.. أنا عندي لك حتة مفاجأة. خبر سار جدا. تحذري إيه؟

ودق قلبها واتسعت عيناها وتطلعت بلهفة إلى وجه "عبد العزيز" الذي بان عليه الجد.. بينما اختلج "شوقي" وأحس بريقه يجف..

خبر سار!.. أممكن هذا؟.. أية مفاجأة أيضا؟. إننا في عصر المفاجآت الغريبة التي تهبط بلا منطق!.. هكذا مات

"سعد"! وهكذا يتحدث شارع عزيز عن خطبة غريبة تمت منذ أسبوع .... خطبة لم يكن يتوقعها أحد على الإطلاق ولا يدري أحد كيف تمت: الضابط "كمال الصفطاوي" و "سميرة" بنت عم "شكري عبد العال "!.. أيريد "عبد العزيز" أن يعلن أمامك الآن مثلا خطبته لـ "رجاء صدقي"!.. ولم تستطع "رجاء" أن تسيطر على أعصابها بعد!..

ووقفت في قلق.. وتقدمت من "عبد العزيز" وهو جالس على مكتبه الصاج الأبيض ينقر بأطراف أنامله، وانهارت فجأة:

- اتكلم يا عبد العزيز.. قول لي إيه المفاجأة السارة جدا دي.. ما فيش ألطف منك لما تقول جدا؟!

- خير لك أن تنسحب الآن يا شوقي!.. إن "رجاء" توشك أن تلقي رأسها على كتف "عبد العزيز"، وتقبله أمامك!. لا تشهد هذا أيضا! وارحمنا لأمك وأبيك في البلد؟ ليتك يا "عبد العزيز" فكرت في فتاة كـ "صفية".. أنا منذ لحظات تخيلت أن الحكيمة التي كانت تقف هنا معك، يمكن أن تصبح زوجة لك!..

ليتك تفكر فيها هي بدلا من "رجاء"!.. لو أن "رجـــاء" وقفت إلى جوارها لما شعر أحد بوجود رجاء!..

واندفع "شوقي" إلى باب الحجرة، فاستوقفه "عبد العزيــز" ثم قال لـــ "رجاء" بنفس الخطورة:

- أنا باقول لك حلمك تحقق! طيب اسمعي يا ســتي ... استعدي يا رجاء.. امسكي أعصابك كــويس.. انــت خلاص اتعينت ممثلة في الفرقة القومية! شكري بيــه قال لي النهاردة الصبح ان صديقه وكيل الحربية بلغه أن وزير المعــارف أمــر بتعيينــك فــي الفرقــة.. وحاتستلمي من أول أبريل.. دي مش كذبة أبريل؟

ووقف "عبد العزيز" يضحك بطلاقة، بينما انحطت "رجاء" على الكرسي، عاجزة عن مواجهة الموقف، وكل نبضة فيها تهتز وفي عينيها يختلط الغيظ بالراحة والدموع بالابتسامة.. ولم تعد تعرف أتشكر "عبد العزيز" وتقبله، أم تهجــم عليــه فتنشب أظافرها في عنقه وتنتزع لسانه من فمه!..

لماذا يلعب بأعصابها إلى هذا الحد!؟ الخبــر ســار حقــا ولكنه لم يكن هو الخبر السار الذي تنتظره من "عبد العزيز" بالذات! إنها حلمت دائما بأن تمثل وأن تعين فــي الفرقــة..

ولكن عندما يحدثها "عبد العزيز" بالذات عن الحلم الذي يتحقق.. فهذا شيء آخر!!

أكان يخدعك يا "رجاء".. أكانت خديعة كل هذه الساعات الطويلة من الحب، ولهفته عليك وأنت راقدة تبصقين الدم؟! ... ودموعه؟!.. واختلاط أنفاسه بأنفاسك يا "رجاء" وعرقك الذي امتزج بعرقه.. أكان كل هذا خديعة أيضا!؟..

أتسللت الخديعة إلى فراشك وأعماق بدنك وإلى الرعشة الحلوة في أعصابك، والى السخرية الدافئة اللذيذة التي منحك "عبد العزيز" من خلالها أجمل ساعات العمر!! ...

ربما كان يحسب أنك منحت هذا لرجال غيره!..

المجرم!.. الخادع!..

ولكن.. ولكنه لم يقل لك أبدا إنه يريد أن يتزوجك!. أنت التي أعطيته أكثر مما توقع. كان يحنو عليك وأنت مريضة، وهو الذي حمل الدواء وسهر إلى جوارك وأخذك إلى أساتذته في القصر العيني ليعالجوك! وكان يقبلك حين تتحدثين عن الموت ويتحدى العدوى ببهجة!.. ومع ذلك فلم يهمس لك في أذنك يوما بأنه يحبك!.. كنت ترين شبح القبر البارد عندما

تختنق أنفاسك في طوفان الدم، فيحدثك عن الحياة والمستقبل، ولم يحدثك عن الحب أبدا!..

أنت التي منحته فوق ما يريد وما يتوقع عندما توهمت ذات ليلة وأنت ترين "ميمي" تخرج معه بلا حرج، أن "ميمي" يمكن أن تسيطر عليه، وهي تملك من الفتنة واحترام الآخرين ما لا تملكين!.. هو لم يخدعك يا بنت!.. أنت تستأهلين!..

أنت وحدك حلمت بأن تعمري له بيته، وأن يكون لك منه أولاد وأن تقفي إلى جواره في ثوب أبيض وهو يجري العمليات!

وحلمت كثيرا يا "رجاء".

تفكرين في البيت والأطفال، وهو لا يفكر إلا في "رجاء" المرأة التي ينتفض جسدها بلهب الحب!.. الممثلة التي يحب صوتها وحركتها ويتمنى أن يراها في دور مرجريت غادة الكاميليا!!.. أما رجاء الزوجة التي تتخيل أن لها الحق أن تمتلك بيتا ومستقبلا وأطفالا، وأن لها الحق في أن تحظى باحترام الناس.. فهذا شيء لم يفكر فيه عبد العزيز أبدا!.

أنت كنت تحلمين بلا حدود...

على كل حال. من يدري؟ ربما كانت الأيام القادمة تحمل خفايا كثيرة..

أنت إذن عينت ممثلة في الفرقة؟.. ممثلة لا فتاة في الكمبارس.. هذا هو أملك فعلا.. المرتب الذي يسد حاجات البيت كلها ويبقى منه بعد ذلك ثمن فستان.. فستان جديد في كل شهر.. ويرتفع هذا المرتب بعد قليل، وتصبحين نجمة يا "رجاء". وتمثلين أدوار ليلى وكليوباترا ومارجريت وتوسكا وجان دارك وأندروماك وأوفيليا ودوناسول وتاييس، وكل الأدوار التي حلمت بها!..

أما "عبد العزيز"!. لماذا ينظر إلي هكذا؟!.. آه. عيناك الطيبتان يا "عبد العزيز" اللتان يلمع فيهما في بعض اللحظات شيء أقوى من الدمع، وأقوى من الحب، وأقوى من الألم!.. هكذا كنت تنظر إلي وأنا راقدة أبصق دما!.. كنت يا عبد العزيز أيامها تبدو مستعدا لأن تموت من أجل "رجاء"!.. تعودت على آلامك إذ ذاك وأحببتها من أجل "عبد العزيز"! ولكنه منذ اشتغل هنا وهو لا يستطيع أن يخرج من المستشفى للقياك!.. كلما اندفعت إلى صدره بكل شغفك إليه، ألقى عليك نظرة مؤنبة، وابتعد قليلا عنك وأوقفك

بإشارة حاسمة من يده، كأنك طفلة صغيرة ترتكب ذنبا كبيرا!.. حدث هذا عشرات المرات في هذه الغرفة بالذات، وأنتما وحيدان والباب مغلق ولا أحد في كل المستشفى يمكن أن يدخل!

أكان لا يريد أن يقبلك في مكان عمله كما كان يبدو عليه؟! أم تراه كان يتلقى شغفك وحنينك وهو يفكر في الأخرى!

إن "شكري بك" معجب بعبد العزيز، وأنت يا "رجاء" تعرفين.. وتعرفين النظرة المفعمة الحالمة التي تلقيها عليه "درية" بنت "شكري" أحيانا..

ربما لم تفكر أنت في "درية" من قبل يا "عبد العزيز" ولكن صديقك "كمال الصفطاوي" خطب أختها "سميرة" وربما جرك هو إليها.

اسحب نظراتك عني فأنا لست في حاجة إلى هذا الحنان بعد، ففي أعماق نظراتك تتحايل صورة الأخرى!!..

إنك فظيع كالمرأة التي عذبت الشاعر في ليلة أكتوبر.. لم ترني وأنا مثل إلهة الشعر يا "عبد العزيز" في العام الماضي في الحلقة التي أقامتها مدرسة التجارة العليا.

ايه.. "ميمي" هي التي جرت صديقك "كمال الصفطاوي" إلى "سميرة" ولكنك أنت.. من يدري؟!.. ربما كنت تقضي كل أوقات فراغك مع "درية".. فهي تلميذة تخرج من بيتها بحرية.. وأنا رأيتها عشرات المرات تخرج بعد العصر في زينتها الكاملة!.. تخرج لتلقاك؟!.. أكانت اللعينة تحمل حقيبة كتبها دائما وهي خارجة بعد العصر لتخدع أباها إذن؟. أما أنا.. فكما قالت كليوباترا: "الحرب فنك يا أوروس والسياسة فني!"! أنا لا يستطيع أحد أن يخدعني.. كلكم كلاب خادعون!

وأنت أيضا يا ولد يا "شوقي"!.. لا تفتح فمك الواسع الغليظ بالابتسامة الكبيرة.. ابعد عني بوجهك الطافح بالشماتة، وحب الشباب، وأنفك المحمر!..

أنا لن أخطف منك أخاك يا ولد! أنا احتملت من نظراتك أكثر مما أطيق، اسمع أنت يا ولد..

أنا لن أخطف منك "عبد العزيز.. " بله واشربه!..

لن أخطفه!. لن أخطفه!. فإن لم يجئ "عبد العزيز" إلى أمي ويخطبني منها فلن أقبله. إن لم يجئ أبوكم الحاج "خليفة" نفسه بكل هيبته ويحضر هو العقد ويقم فرحا كبيرا في الشارع، فلن أتزوج من "عبد العزيز" هذا!

أنا أحسن من أية واحدة في الشارع.. أنا " رجاء صدقي"، وغدا تعرفون!. عميد كلية الطب الذي لا يستطيع "عبد العزيز" أن ينطق أمامه، ينحني الآن ليقبل يد مطربة لا هي هنا ولا هناك وتنشر الجرائد صوره معها!.. غدا يصنع لي الرجال أكثر من هذا!.. ملعون أبوكم كلكم!.

وهبت "رجاء" بغتة وقالت بسخرية ملحوظة:

- حقيقي صاحبك ضابط المباحث اللي اسمه كمال خطب سميرة بت عم شكري؟..

وأجابها "عبد العزيز" ببساطة:

- أيوه.. بس هم عملوا الخطوبة في السر علشان ما يجرحوش شعور بيت داود أفندي.

ولوت شفتها وكتفها، ولمعت في عينيها سخرية تداري بها المرارة وهي تتحرك إلى الباب قائلة:

- وانت بسلامتك كده خاطب بسلامتها "درية" في السر برضه؟

وفوجئ.. فمشى وراءها وهي تخرج وأمسك بذراعها قائلا:

- يا ستي هو أنا بافكر في جواز دلوقت!؟ لسه لما نشوف حكاية البعثة.. يمكن الواحد يسافر انجلترا يبقى فيها على الأقل خمس سنين!.. وان الواحد راح الأرياف لسه بقى على ما..

ولكن رجاء لم تقف لتسمع بقية كلامه، بل سحبت ذراعها منه بجفاء وفتحت الباب وخرجت مندفعة..

وبقي هو ينظر إلى الفراغ في دهشة.. ولمح وجه أخيه "شوقي" يبتسم في طمأنينة وراحة، فسأله بضيق:

- فاشخ بقك كده على إيه يا وله؟

وضحك "شوقي"، ولم يقل شيئا..

وتحرك "عبد العزيز" في الحجرة حائرا بعض الشيء، وعيناه على الباب الذي تركته رجاء مفتوحا وراءها.. وامتعاض خفيف يلفح وجهه.

وقال "شوقي":

- هو عبد الحي لسه بيعمل العملية في رقبته!

واستدرك "عبد العزيز" نفسه.. وأسرع إلى الباب قائلا:

- تعال!.. تعال نشوف جرى له إيه!

وأسرع في ممر طويل بخطوات متلاحقة ممسكا بيد "شوقي" وعند تقاطع الممر الطويل بممر آخر هلت الحكيمة مع "عبد الحي".

وابتسم "عبد العزيز" والحكيمة تنظر إليه قائلة وهي تداري ضحكها:

- الحمد لله! ده ما كانش حتى عاوز البنج الموضعي!

وقال "عبد الحي" بخيلاء:

- بقى احنا كنا بنواجه الرصاص امبارح! أقوم أصبح أتوجع من مبضع جراح!. بنج ايه!

وعاودت "عبد العزيز" خفته، فقال وهو يستدير عائدا إلى حجرته:

- لا. مش لازم تتوجع!.. بس على الأقل كنت لازم تقول آه بمعنى أتوجع! ... الله يلعنك يا "عبد الحي". مبضع جراح ايه؟ يا عبد الحي دا انت لو انضربت بالفاس في رأسك مش حاتتوجع برضه!

- وتركتهم الحكيمة ضاحكة، وهي تخطف نظرة سريعة ساحرة.. اختلج لها "شوقي".

وعاد "عبد العزيز" يذرع الممر الطويل إلى حجرته، ووراءه "شوقي" و "عبد الحي" يتحسس الشاش الذي يلف رقبته. وزجره "عبد العزيز":

- إوعى إيدك خالص.. إوعى تحط إيدك.

فقال "عبد الحي" وهو يتقدم وراءه:

- الحقيقة انت عملت فيه حتة فصل – كانت العملية دي لزومها إيه؟! القصد! برضه فتحه كده أريح. اسمع بقى يا عبد العزيز.. أنا حاسس بدوخة كده ولازم أروح أرقد.. لكن أنا كنت جايلك في حكاية مهمة. اسمع بس. أنا مش قادر أجري وراك كده يا أخي..

وتوقف "عبد العزيز".. وهمس "عبد الحي" في أذنه و "شوقي" يتابع مشيه ببطء شديد في اتجاه الحجرة وعيناه تتدحرجان إلى الحكيمة التي تختفي الآن في الممر الطويل.. وأوشك أن يسأل أخاه "عبد العزيز" إن كان يحب هذه الحكيمة وهل ينوي الزواج بها!!. إنها تحرك النفس بطريقة غريبة!.. فيها ما يجذب إليها القلب!..

ولكن "عبد العزيز" كان يقول وهو يستأنف مشيه بخطوات ثقيلة:

- لا!.. مسألة متعلقة بشرف المهنة يا عبد الحي!.. دي جريمة!.. الله؟! ما هو كان عندي امبارح الصبح بدري جابها وجالي وأنا فهمته. الحكاية مؤسفة جدا. لكن إيه الحل؟.. البنت صعبانة عليه جدا. لكن ما فيش طريقة. شوفوا لها واحد من اللي بيعملوا الحاجات دي.. لكن يا عم لا تدخلوني أنا في مسألة زي دي!! فيه بعض دكاتره معروف عنهم انهم بيعملوا الحكاية دي وأنا أقدر أدلكم على واحد منهم.

وهز "عبد الحي" يده.. في أسف وإذعان.. وعاد يهمس:

- لكن من يا ترى اللي عمل فيها كده؟ المرحوم..

وكأنما لسع "شوقي" وتقدم يرمق "عبد الحي" من ظهره بنظرات كارهة مستنكرة.

"يا عبد الحي" لا تقل هذا!.. يا ناس حرام!.. لا تظلموا المرحوم "سعد"! لا تشوهوا ذكرى الشهيد "سعد داود".. لا تبحثوا عن الذي فعلها ولكن ابحثوا عن إنقاذ ألطاف! ومع ذلك فهل تريدون أن تعرفوا من الذي صنعها!؟.. المرحوم "سعد" أوشك أن يحكي لي كل التفاصيل قبل أن يموت بليلة واحدة.. قال كلمات لن أنساها، ووعدني أن يحكي كل شيء

بصراحة فيما بعد.. وفيما بعد.. كان رمادا في القبر!!. زواجها من "عبده" هو الحل!!.. إنه يبكي كلما حدثه أحد في الموضوع! وعندما ضغط عليه "عبد المعبود" ورجاه أن يتزوجها ليسترها بكى "عبده" وصرخ. وهو انا اللي فضحتها؟! أنا ذنبي إيه بس؟ ... يا ريت بإيدي! ...

استروها انتم قبل أن تنفضح بحملها وتعرف "عديلة هانم" وتفجع مرتين!.. استروها قبل أن تعرف "صفية داود"! فكيف يمكن أن تواجه "صفية" أمرا كهذا.. استروها يا ناس ولا تسألوا عن السبب. ولا تتهامسوا أمامي هكذا فأنا أعرف كل شيء. أنا لست صغيرا كما تتوهمون. فأنا أعرف أكثر مما تعرفون أيها الكبار! البنت بطنها تكبر أسبوعا بعد أسبوع وهي لا تعرف ما العمل و "عديلة هانم" تحسب أن ما بها هو انتفاخ في البطن!.. هكذا قالت لها البنت، ولكن المسألة كلها يمكن أن تنكشف تماما بعد شهر والتاني..

المسكينة لا تكاد ترفع عينيها في أحد، وهي تقف أمام وابور الجاز وتتمنى أن ينفجر فيها، وهي تحمل كل الأشياء الثقيلة على ظهرها بلا فائدة، وفي مرة فكرت أن ترمي نفسها من فوق السطح.. فكرت في الانتحار، فصعب عليها،

ولم تفعل! وهي تبكي على الدوام. هي نفسها حكت لي كـل شيء.. ليتني أستطيع أن أنقذها أنا ... لو كنت أملك نفسـي لتزوجتها!!. المسكينة تعيش ذاهلة كأنما فقدت رشدها!.. هي نفسها حكت لي عندما صارحتها بما كنت سمعته من "سـعد" ليلة استشهاده... وحسبتني أعرف، فانفجرت تبكي، وقالت لي إن "داود أفندي" جاءها ذات ليلة قبل موت "سعد" بشهر، وهو أيامها دائم الشجار مع زوجته "عديلة هانم" لم يقربهـا منـذ أربعين يوما.. ودخل المطبخ في الليل، وأحست به يقف أمام الحوض ويشرب، وشعرت بفخذها عارية، فسحبت الغطـاء خفية، ولمت نفسها تحته، وأحست بنظرات "داود أفندي" على فخذها وكل بدنها ولكنها رأته يطفئ نور المطبخ ويخـرج!.. وبعد لحظات شعرت على وجهها بأنفاسه ساخنة. وقاومتـه لبعض الوقت، ثم استسلمت له دون أن تدري!. ومر هذا كله كأنما هي في حلم غريب.. وفي اليوم التالي نامت في حجرة البنات، ولكن "صفية" لم تحتملها أكثر من ليلتين لأن شخيرها مزعج!!..

وعادت تنام في المطبخ وحدها، فهاجمها "داود أفندي" مرة أخرى، ولكنها لم تستسلم له أبـــدا.. بـــل انتفضـــت واقفـــة وخرجت من المطبخ، وهي تهدد بأن تصرخ..

وقبل أن يموت "سعد" بليلتين.. هاجمها في المطبخ.. وفي تلك الليلة دخل "سعد" المطبخ وفتح النور، فاســتكانت هـــي تماما إلى صدر "داود أفندي"..

ولكن "سعد" خرج فجأة وعلى وجهه رعب هائل..

وفي تلك الليلة شعرت أنها تحب "داود أفندي"!!.

وبعد أن مات "سعد" أحست " ألطاف" بندم كبير وبإشـــفاق على "داود أفندي" وعلى "عديلة هانم".. وكانت تبكي وحـــدها كل ليلة!.. وتعودت أن تسكت "عديلة هـــانم" وتبكـــي معهـــا وتصنع نفس الشيء مع "داود أفندي"!!

هل تريدون المزيد؟!.. ما أغباك يا "عبـــد الحـــي"! أنـــا أعرف أكثر مما تعرفون.. هي نفسها حكت لـــي! أتعـــرف يا "عبد الحي" أن داود أفندي" لم يعد يطيق أن ينام حيث كان ينام من قبل، أتعرف أنه اقتحم حجرة "سعد" التي ظل الجميع يشعرون بالوجل والتهيب لمجرد المـــرور مـــن أمامهـــا؟.. اقتحمه "داود أفندي" وأصبح ينام في فراش ابنـــه الميـــت!..

وهو لا يسمح لأحد بأن يدخل عليه، ويظل يتمرغ في فراش ابنه ويبكي بصوت مختنق حتى يفقد الوعي، فإذا شعرت بـه "ألطاف" دخلت تحمل إليه الماء والكولونيا ومن حولها بناتـه باكيات!!.. وذات يوم شعرت بأعراض غريبة وأحست يوما بعد يوم بحياة جديدة تتمدد داخل كيانها. ولم تعد تعرف إلـى من تبوح بسرها! على حين هجرت "عديلـة هـانم" زينتهـا تماما، وتغضن وجهها الجميل!.. امتص الحزن كل نضارتها وتألقها القديم، واعتصرت المحنة كل ما كانت تملكه الأنثـى فيها، ونبتت الشعرات في تجاويف خدودها وعلى شـفتها.. وعاد "داود أفندي" يزور ألطاف فـي المطـبخ.. ذات ليلـة سمعت "ألطاف" بكاءه في هدأة الليل، وذهبت إليه في حجرته كأنها معصوبة العينين، واعترفت لـه بالحمـل الـذي فـي أحشائها!. أتريدون أكثر ما هذا أيهـا النـاس؟!.. "ألطـاف" تحكي لي باستمرار وتسألني ما العمل. ليلة الأمـس بالـذات قال لها "داود أفندي" إنه يفكر فـي أن يمسـك حملهـا فـي بطنها.. فربما كان ولدا ذكرا يعوضه به الله!!.. وليلة الأمس بالذات قال لها إنه سيتزوجها.. ولكن "ألطاف" تذكرت "عديلة هانم" وفاجعتها فبكت.. وما زالت تشعر بالذعر مـن رنـين

كلمات "داود أفندي"!. إنها لا تصدق على الإطــلاق. وهــي لا تعرف أهذه هي الحياة حقا أم أنه كــابوس مخيــف دائــم تعيش فيه!..

كل هذا فظيع وغريب، ولكنه يحدث في شارع عزيز!.

أتصدق يا "عبد الحي"؟!. أنا أيضا لا أصدق، ولا أعرف إن كنت أبكي مع "داود أفندي" أم أبصق عليه؟!.

أنا لا أريد أن أحكي لكم كل شيء، فهذا سري أنا، وهــو سر لا يعرفه غيري!.. حتى الذين صنعوه لا يعرفون منــه كما أعرف! لا تتشــطروا علــي إذن أيهــا النــاس وأنــتم لا تعرفون!..

وضاق "شوقي" فجأة بهمسات "عبد العزيز" و "عبد الحي" وهو يقف وحده بعيدا في ركن من حجــرة "عبــد العزيــز" بالمستشفى.. والتقطت أذناه اسم "سعد" فانفجر:

- يا عبد الحي يا أخي.. أنا متأكد انه مش ســعد! الله.. سعد حكى لي ليلة ما استشهد! وألطاف حكت لي!.

وفوجئ عبد العزيز، وقطع همساته، ونظر إلى "شــوقي" متحرجا أن يعرف أخوه موضوعا كهذا ويشارك برأي فيه.. واستدار إلى مكتبه واستند إلى طرفه وأطرق!

ثم رفع رأسه ونظر إلى "عبد الحي" قائلا كأنه يحاول أن ينتزع أفكار "شوقي" من الموضوع كله:

- أخبار السياسة إيه! الواحد مش مالك يقرأ جرائد..

ونشط عبد الحي للإجابة:

- الوزارة الجديدة تعد جداول للانتخابات وستحدد موعدها حسب ما جاء في الدستور تمام.. وأهي ماشية في الإصلاح على قدم وساق نصرها الله يا سيدي.. والله إنها في شهر واحد أصلحت ما أفسده غيرها في سنوات.. ولسه.. ثم إن الجبهة الوطنية قررت الدخول في مفاوضات مع الإنجليز لتنظيم الجلاء ولإلغاء الامتيازات الأجنبية.. ومشروع المجلة بتاعتنا ماشي وستشرف عليها جبهة وطنية من الشباب وربما بعض النواب وسنصدرها في الصيف.

وتدخل "عبد العزيز" كأنه يريد أن يطيل موضوع المناقشة ليغير الجو تماما:

- شوف! الجبهة الوطنية اتألفت من غير مندوبين عن الطلبة والعمال..

فرد عبد الحي:

- زي بعضه يا سيدي! لسه لم يئن الأوان لكي يمثل فيها الطلبة والعمال.. الحمد لله على كده.. هو حد كان طايل!.

واستطرد عبد العزيز يسأل:

- والحزب الوطني كمان داخل في وفد المفاوضة!

وأكمل "عبد الحي".

- طبعا الحزب الوطني رأيه ألا مفاوضة إلا بعد الجلاء، لكن انسحاب الحزب الوطني لا يعتبر تصدعا في الجبهة أبدا.

وقال "شوقي":

- على كل حال وجود معارضة متشددة أحسن ويخلي الإنجليز يحاسبوا والمفاوضين يتشددوا أيضا في أخذ حقوقنا كاملة.

وابتسم عبد العزيز ناظرا إلى شوقي بإكبار وزهو:

- دانت يا واد بقيت تفهم في السياسة كويس أهه!.

وقطع كلامه ليداعبه:

- تناقشني في السياسة!

ثم استطرد وهو يكلم "عبد الحي" في رضى عن أخيه:

- كان زمان وهو في أولى ابتدائي أول ما يروح في وسط العيال ويقول لكل واحد فيهم: تناقشني في السياسة؟!

وضحكوا.. وقام "عبد الحي" يسلم على "عبد العزيز" مستأذنا في الانصراف، وأخذ شوقي من يده وسارا في صمت تحت شمس مارس وفي الجو غبار يملأ الحلق.. وحاول "عبد الحي" أن يعرف من "شوقي" سر "ألطاف" وألمح له بأنه معجب بوفائه لذكرى صديقه "سعد". ولكن "شوقي" قال في حنق:

- يا أخي إذا كان داود أفندي نفسه قال لها انه عاوز يتجوزها يمكن اللي في بطنها يطلع ولد يعوضه عن سعد.

وفوجئ "عبد الحي" بينما دوت في أعماق "شوقي" صيحة استنكار ورعب ومضض! كل شيء ممض، كالتراب في الحلق...

كل شيء ممض ومعذب ومثير! كيف يحدث هذا كله في الدنيا؟.. في عمر واحد!!..

وتابع سيره بلا كلمة!..

وبعد قليل همهم "عبد الحي" وهو يتنهد:

- بقى يا ناس بعد الدنيا ما راقت وجهادنا كلــه تــوج بالنجاح، والإنسان منا نفسه طابت، والبلــد تولاهــا رئيس حكومة مصلح، ووفد المفاوضات اتألف.. بعد ما امتلأنا بالتفاؤل والثقة في الله.. بعد هذا كله نفاجــأ بحاجة زي دي؟ ده شارعنا دا متعوس!.. المتعــوس متعوس!

وكانا وقتها يدخلان الشارع وشمس الظهيرة تلفــح كــل شيء بحرارة مبكرة، وتراب الخماسين يزهق الأنفاس..

وعلى باب البيت لقيا "عبده" قاعدا في ظل الجدار، يمــد رجله في فتحة الباب، وصوته يتهدج بموال من بلده:

ابكي علــى اللــي صــبح فــي الحــي وحــداني
وغلبـــه البـــين فـــي الأول وفـــي التـــاني
حتـــى جعلنـــي غريـــب والغربـــة كايـــداني
لا باقعد ارتـــاح ولا بـــانعس يجـــي لـــي النـــوم

وحاول عبد الحي أن يكلمه، ولكنه استمر يترنم بكلمــات الموال في نعم فاجع:

والقلب مليان جراح والدمع سايل عوم
امتى يجيني السماح والدهر يسمح يوم
وتعود ليالي الهنا والفرح من تاني...

ووقف أمامه "عبد الحي" و "شوقي". ورجله مازالت في فتحه الباب وهو يهز رأسه المنكس وزفراته تتصاعد..

- يا ولداه يا ألطاف! تعملي في روحك كده ليه بس؟..

وصرخ "شوقي":

- آه؟.. عملت ايه؟

ورفع "عبده" رأسه في يأس:

- هربت! ألطاف هربت النهارده؟ سابت هدومها وحالها وهجت من الشارع! يا ترى غرقت نفسها والا رمت روحها قدام ترماي؟ حاتروح فين بس يا اخواتي؟!. حاتروح بلدها بالمصيبة اللي جابتها!؟ دي حتى مالهاش حد خالص! يا ولداه.. الشارع كله شاع فيها.. مش طايقها! وحياة النبي دي امبارح كانت خايفة ترفع راسها في وش أصغر عيل في الشارع! تقولش هيه اللي عملت في روحها اللي انعمل! حتى شكري بيه رحت أترجاه يبلغ عنها الأقسام قام كرشني. بيقول

غور وأنا حاعمل لها ايه؟! والأسطى عبد المعبود بيقول أهي انزاحت وخلاص من الشارع!.. على ايه؟ يا خسارة ع الرجالة!.. يا ألطاف.. والأستاذ "عبد اللطيف" واخد الحكاية دحكة! يا ريتك قعدت يا ألطاف.. لو كنت عارف انك رايحة تتخفي من الدنيا كده كنت اتجوزتك وسترتك، والله حليم ستار! ما حدش باكي عليك في الشارع كله!!. ليه بس: هيه كانت عملت فيهم ايه! حاكم الفقير ريحته وحشه!!.. لا إله إلا الله!.

ووجم "شوقي" و "عبد الحي".. وتبادلا النظرات في صمت، بينما ارتفع أنين "عبده".

- كده يا "ألطاف"!! يا ولداه! ... حتى "داود أفندي" ما صدق انك انخفيت! ما حدش باكي عليك في الشارع كله غير "عديلة هانم"!!..

ولمعت في رأس "شوقي" فكرة.. ربما كان "داود" هو الذي هربها، ورتب لها مكانا بعيدا تقيم فيه ليتزوجها هناك!..

ولكن شوقي استبعد الفكرة سريعا.. وأخذ يتنفس بعمق.

وفجأة شد يد "عبد الحي" قائلا:

- تعال احنا نبلغ المحافظة.. تعال ندور عليها احنا يا أستاذ عبد الحي.

ولكن "عبد الحي" تباطأ قائلا:

- وحايلاقوها فين دلوقت؟!؟ اذا كان صاحب الشأن لم يبلغ يا أخي.. يمكن ربنا عاوز كده لحكمة لا يعلمها غيره!.

وانتفض "عبده" واقفا:

- حكمة إيه بس يا شيخ! إيه الحكمة في دي كمان؟!.

يا للا يا سي "شوقي". أنا وراك!..

وانطلق "شوقي" وحيدا.. و "عبده" يركض وراءه وهو يتنهد.. وفي نفسه سخط هائل على الحياة والشارع.. وكل من فيه!

(٢٥)

لماذا يحدث أحيانا عندما نفرح أن تثير الفرحة في أعماقنا كل الذكريات الحزينة؟ لماذا تنبع الدموع في بعض اللحظات من حيث ينفجر الضحك؟! كل ما تقرئين من كتب يا "درية" لا تفسر لك هذه اللوعة التي تتسرب إلى بهجتنا خفية حين تغمرنا المسرات، فإذا نحن نذكر الأعزاء من موتانا.. أيكون هذا لأننا نتمنى لهم أن يشاركونا الابتسام والخفقات المتطلعة والأمل ومتاع الحياة؟! أم لأننا نتذكر حرمانهم من هذا كله إذ هم حطام فاجع تحت شواهد صماء!؟

أم أن هذا يحدث لأننا نخشى في اللحظات الكبرى من حياتنا أن نحرم من كل الأشياء الحلوة التي تعطي لأيامنا مذاقها الخاص!..

لا تتفلسفي يا "درية".. لا تثقلي رأسك بكل هذه الأفكار، فمدرس التاريخ الذي تحترمينه ينظر إليك بطريقة غريبة كأنه يتهمك بالجنون حين تسألينه في أشياء كهذه.. وهو دائما يطلب منك ألا تفكري في هذا الآن فهذه أفكار لا تناسب

سنك؟!.. ما هي الأفكار التي تناسب فتاة في السابعة عشرة إذن؟!..

ما أسعد الذين يدرسون علم النفس ويفهمون ببساطة لماذا يتصرف الناس!! أنت يا "درية" في حاجة إلى كثير من مثل هذه الدراسة لتفهمي تصرفات أختك "سميرة".. إن سلوك "سميرة" هو الذي يفرض عليك مثل هذا التفكير!.. كل شيء مبتهج، والضحكات ترتفع، والقماش الجديد منثور على الأرض في كل مكان من حجرتك يا "درية" والبيت كله على رجل من أجل زفاف "سميرة".. ولكن.. "سميرة" نفسها لا تضحك، ولا يشغلها شيء، وفي عينيها تسطع دمعة أقوى من كل المشاغل والضحكات وثرثرة النساء!

شمس أبريل تملأ الدنيا بالدفء، وبرد متخلف من الشتاء يقتحم جو الخماسين ويكاد يدغدغ الهواء الساخن، والهواء نفسه مرطب بشذى الفل والياسمين الذي تعبق به الحديقة الصغيرة أمام شقة "عبد المعبود"، والقلب تدق فيه الحاجة إلى اجتناء السعادة فيتفتح، والدنيا تحلو.. ولكن "سميرة" تبكي.

هي دائما تذكر الغالية أمنا والغالي أخانا، وكلما رأت "ميمي" أمام ماكينة الخياطة التي حملتها معها من بيتها،

أو كلما تحسست "أنيسة" حرير قمصان ليلة الزفاف، سالت دموع "سميرة" في صمت!. أنت تنظرين يا "سميرة" إلى "سعاد هانم" التي تقص القماش، نظرات جامدة بلا حب ولا كراهية، ولا غيظ ولا اندفاع، وإنما بأسى غريب، وتمسكين شفتك السفلى بأسنانك يا "سميرة" ويتقلص وجهك وتهمهمين منادية من البعد أمنا، ثم تنهارين في نشيج!

كان للقماش الجديد فرحة خاصة، وكنت أود أن أتمرغ عليه وهو يملأ أرض غرفتنا.. وكنت أجد لذة في مناقشة أشكال التفصيل، ولكن القلب يمتلئ بالدموع منذ رأيناك تنسحبين وتقفين أمام صورة الأخ الذي رحل منذ عشرة أعوام وتنوحين عليه وعلى أمك كأنهما ماتا بالأمس فقط!.. أين تعلمت كل هذا الكلام الذي يستنزف الدمع من حبة القلب!؟

يا "سميرة" ارحمينا.. فأنا أيضا أبكي في كل يوم منذ بدأنا تفصيل قماش الزفاف لك! لا شيء يمكن أن ينقذنا من هذا البكاء إلا وجود أبيك!.. ليتك يا أبي لا تبرح البيت طيلة النهار والليل!.. ولكنك تسعى من أجل مستقبلك.. تسعى وراء الوعد بإعادتك إلى الخدمة في وظيفة بمصلحة الحدود

بعيدا عن وجع الدماغ ... ووزير الحربية صديق لك من أيام السودان!.. تعال يا أبي وانظر إلى سميرة كيف تقلب البيت إلى مأتم دائم!

لا يا "سميرة" أنا لم أعد أحب هذه الدموع. نحن لم نبك أبدا بمثل هذا الإحساس الفاجع عندما ماتت أمنا وأخونا.. ولا حتى عندما فصل أبونا بعد أن رفض أن يضرب جنازة الشهداء!!.

أبوك يا "سميرة" يستدين ليشتري لك كل هذا القماش من أجل أن يرى وجهك مضيئا بالضحك.. أنا أعرف يا "سميرة".. أنا بأذني سمعته يحدث نفسه في ضيق وهو يدير في حجرته حساب مصاريف الزفاف!..

وهو يسعى من أجل وظيفة.. أتعرفين؟. إنه هو يرجو ويتشفع لنفسه، يصنع هذا الشيء الذي لم يصنعه أبدا، من أجل إلقاء الفرحة في قلبك!..

ارحمي أباك وارحمينا يا شيخة وارحمي خطيبك أيضا!..

أتزفين إلى بيت المستقبل دامعة العين؟!..

ماذا يظن خطيبك؟..

"كمال" الطيب يشعر بانقباض كلما رآك باكية..

وأمه المقعدة أيضا سألتني عندما زرتها مع أبي..

سألتني عن شكلك، وهي تتعجل يوم الزفاف لتراك.. وهي تسألني كلما زرتها عن سر بكائك فابنها يحكي لها.. وهي تؤكد لي أنك ستجدين فيها أما أخرى.. أمًّا بحق!.. وهذا صحيح يا "سميرة".. إنها طيبة حانية كما لا تتخيلين، وهي تطلب مني كلما زرتها أن أنصحك ألا تحملي معك الغم إلى بيت العدل!!.. لا يا "سميرة".

ابتسمي في وجه خطيبك.. ما ذنبه هو يقضي فترة الخطوبة وهي أحلى أيام العمر في دموع وذكريات الموت!؟ "كمال الصفطاوي" الطيب الضاحك أبدا لا يستحق منك كل هذا، فهو يحبك كما لا يمكن أن يحبك أي شاب آخر!..

اذكري أنه كان يستطيع أن يتزوج ستك!.. كم من فتاة أجمل منك ألف مرة وأوفر غنى وأكثر مرحا تتمنى أن تتزوجه! ... وأنت أيضا عجفاء، في وجهك صفرة!..

احمدي الله وقبلي قدميه فأنت لا تستحقينه!.. إنه ينظر إلي في توسل متخيلا انك منقبضة. ويقسم لي إنك ستعيشين مكرمة، وتكون لك خادم خاصة ولأمه خادم أخرى، فقدمك عليه قدم خير إذ حصل على ترقية استثنائية قبل دوره بعد

أن خطبك بقليل!!... وهو يعرض يا "سميرة" أن يؤجر لـك شقة خاصة بجوار شقة أمه ليظل على مقربة من أمه وإخوته الصغار، فهو كبير الأسرة والمسئول عن حياتها، ولكن أباك هو الذي أقسم أن تعيشي معهم لتخدمي أمه بعد أن تزوجـت أخته وتركت أولادها! إنه يفكر أحيانا فـي أن يرمـي أولاد أخته لها إن كان هذا يسعدك! أترين؟.. إنك تشـغلين قلـب كمال الرائع الطيبة بأشياء سخيفة تفسد عليه بهجته. جففـي هذا النبع من الدموع الذي يتفجر من صدرك واحمدي الله فلم يكن من الممكن ولا في المنـام أن تحلمـي بمثـل "كمـال الصفطاوي"!.. واذكري أيضا أن "كمال" يظن أحيانـا أنـك ربما كنت تعيشين في خيبة أمل، وأنك ربما كنت تحبين أحد الجيران وتنتظرين أن يتقدم إليك!.. حاسـبي علـى نفسـك يا مجنونة! إنه يعني "عبد العزيز" بلا شك!..

"عبد العزيز"!؟.. تصوري!.. "عبد العزيز"؟! وهو يقـيم طول النهار والليل في مستشفى القصر العيني لا يشعر بأحد منا لا بك، ولا حتى بي أنا!.. لم يشعر بنا أحد يا سميرة! لم يشعر عبد العزيز طـوال السـنوات الماضـية بنظراتـي واضطراب أنفاسي كلما لاح من الشرفة.. ومنذ تخرج وأنـا

أنتظر كلمة منه يقولها لأبي!.. ولكنه مشغول! لماذا لا يخطبني ويأخذني معه الى آخر الدنيا وسأمضي وراءه سعيدة!؟.

لم يشغل قلبه إلا "رجاء صدقي".. شغلت حياته فترة ثم رماها ووسط أبي لتعيينها ممثلة في فرقة الحكومة!. ولكن ربما كان يفكر في أن يتزوجها!.. من يدري؟ أف!.. لكم تبدو هذه الشمس حارة خانقة! كان الجو بديعا لطيفا صافيا منذ لحظات، ولكن هذه الشرفة تمتلئ الآن بأنفاس اللهب مع أننا في ساعة العصر.. شيء جاف ساخن يقف في الحلق!..

أكاد أبكي..

ووضعت "درية" رأسها بين يديها، وأسندت مرفقيها إلى خشب الشرفة ومن تحتها... من الحديقة الصغيرة التابعة لشقة "عبد المعبود" يرتفع صوت "عبده":

- بقى ما فيش فاس؟. ما تستقضى لنا فاس كده من هنا والا من هنا يا أسطى "عبد المعبود" من نواحي الجيزة والا شبرا.. دي حتة الأرض دي لو انعزقت كويس وانزرعت خضار حاتعنيك وتعني الشارع كله عن شرا الخضار!. دي طينتها حلوة قوي.. متهملة دي

ليه يا أخويا؟!. طيب هات لي انت التقاوي وأنا أزرعها لك.

وأجابه صوت "عبد المعبود":

- زي بعضه بقى؟ يعني هيه العزبة يا خي؟. ما تطلع كده تشوف الست "سعاد" كانت بتنادي عليك ليه؟..

وتقدم "عبده" ليغسل يديه من الحنفية وهو يقول:

- والست عاوزه إيه بقى؟ الواد وطاهرناه لها، وهيه وعالجناها وشفيناها من جميع الأوجاع!.. من يوم الدكتور ما اشتغل في القصر والقصر شغال شوط على أهل البلد وشوط على أهل البلد وشوط على أهل الشارع!.. ما حد خاب فيهم غير ألطاف يا حول الله.. ربنا يسعدها ان كانت عايشة والا يرحمها بقى ان كانت ماتت يا سلام.

وزام "عبد المعبود":

- بقى كل سيرة عندك تقلبها على "ألطاف"؟! ما تفضنا من دي سيرة بقى.. اسمع.. اطلع شوف الست "سعاد" عاوزه إيه وخد معاك شوية فل وياسمين واعملهم صحبة حلوة وطلعهم للعروسة اللي فوق!!.. يا واد

اتعلم ان الموجود أبقى من اللي راح! الحي أبقى مــن الميت!

ورنت الضحكات في داخل شقة "شكري عبد العال" فهمهم "عبده":

- خد يا عم!.. أهو الدحك بيرن ولا حد على باله!! .... حتى الست رجاء لقيتها بتعيط افتكرتها بتعيط علــى ألطاف، أتاريها بتبكي على حالها!. هيه كانت فــاكرة ايه!.. ليلة امبارح سمعتها لك بتغني وتنوح (هو القمر في السما وايش نزله على الحيط. طالل عليه الحليوة من طاقات البيت). قلت لها ما القمر خــلاص بقــى يبات في المستشفى! ...

ورد عليه عبد المعبود:

- اطلع بقى بلا وجع قلب شوف عاوزينك ليه فوق!

وبانت ضحكة "سميرة" بوضوح مــن بــين الضــحكات، فتحركت "درية" من الشرفة مأخوذة بالضجة المرحــة التــي انفجرت من الداخل ولكن "عبده" استوقفها:

- أجيب لكيش صحبة فل يا ست "درية".

ودخلت "درية" مسرعة دون أن تجيب..

لا أريد شيئاً منكم يا أولاد الحاج "خليفة" لا منكم ولا مـــن ريحكم!..

ودخلت حجرتها و "أنيسة" زوجة عبد المعبود جالسة على الأرض وسط القماش المبعثر تضحك قائلة:

- والنبي لنفصل لك انتي وسميرة هدوم الفـــرح ســـوا يا سعاد هانم.. والنبي لنخليها ليلـــة دخلـــة واحـــدة! يا خبر.. يا أخي ما دام سميرة قلبها انفتح لـــك!؟ دي كلها يومين وسميرة ماشية و "دريـــة" مشـــغولة فـــي مدرستها ومين حا يخدمه يا عيني!؟ ربنا يـــا ختـــي يكملك بعقلك يا سميرة ويهنيكي ويمتعك بجوزك.

وكانت "ميمي" تكركع:

- يا جماله!.. الراجل وبنته ينزفوا سوا!..

ولم تفهم "درية" شيئا. وجدت "سعاد هانم" تبتسم في خجل: "سميرة" تنظر الى وجه "سعاد هانم" ووجهها يعكس انفعالات مختلطة غير واضحة.. ورفعت "سعاد هانم" رأسها فاستقلت نظراتها على "درية" الواقفة في مدخل الباب في حيرة تكـــاد تبكي..

وقامت "سعاد" تفتح ذراعيها لـ "درية" في حنان.. متسائلة في لهفة:

- ما لك يا بنتي؟.. ما لك يا درية؟

وشعرت "درية" بين ذراعي "سعاد هانم" براحة حزينة مباغتة واستعذاب للبكاء، فالتصقت بحضنها وأجهشت..

وقامت لها "سميرة" تطبطب على كتفها متماسكة:

- بس يا أختي بس.. بس يا درية.. درية من ريحة الغالية.. دي الغالية ما كانتش تعز حد قدك يا ست سعاد.

ورفعت "درية" رأسها، وابتعدت قائلة:

- أنا مش على كده.

وتدخلت "ميمي" بحسم:

- يا درية دي سعاد هانم لما تعاشرك أحسن من الغريبة.. دي زي مامتك تمام..

وعادت "درية" تعانق "سعاد هانم". وفاضت دموع "سعاد" وهي تحتضن "درية" وتقبلها.. ودرية تؤكد:

- أنا مش على كده!

وهبت "أنيسة" تقذف كومه القماش من على فخذها قائلة:

- يا أختي بلا كتره بقى! احنا حانقلبها محزنه! دلوقت والنبي لانزل لعبد المعبود أخليه يكلم سي شكري أفندي ان شا الله حتى يدور عليه في أيها قهوة.. ان كان على سي شكري أفندي ده منى عينه.. أبوكي كان لايد ع الجواز من زمان ما حد كان حايشه غيرك انتي يا سميرة.. هو اللي زي ده كان له قعدة من غير جواز!..

وضحكت "سميرة" في خجل قائلة:

- طب بس اقعدي.. كلها ساعتين تلاته وبابا ييجي من نفسه ويبقى الأسطى "عبد المعبود" يطلع له.

وقعدت "أنيسة" وانغرست "درية" إلى جوارها على أرض الحجرة، وسط أكوام القماش المقصوصة؟ وامتلأت رئتاها برائحة القماش الجديد..

"سعاد هانم" هي التي اشترت هذا القماش.. اختارته بذوقها هي نفسها، ولم تسمع كلام أحد.. لا "ميمي" ولا حتى "سميرة"!!..

و "سميرة" تسلم لسعاد هانم الآن في كل شيء، وحتى في اختيار شكل التفصيل، أصبحت "سميرة" تقتنع في الغالب بما تقترحه "سعاد هانم" وتقف في صفها ضد "ميمي" ومع ذلك فـ "سميرة" لم تتحدث إليك يا "درية" من قبل في مسألة زواج "سعاد هانم" بأبيك!. كانت سميرة هي التي تقلب الأمر إلى محزنة. ولكنها الآن ترحب بأن يتزوج أبوك من "سعاد" وتراها أولى من أية امرأة غريبة لا يعرفونها... هي لا تناقش الآن في مبدأ الزواج..!

وخبط الباب فقامت "سميرة" متباطئة تفتح.. وعادت باسمة تحمل باقة من الفل والياسمين.. وقف "عبده" في الصالة خارج الغرفة متحرجا. إنه لا يريد أن يدخل فتأمره "سميرة" ألا يدخل حجرة ست "درية" كما حدث مرة..!

ولمحته "أنيسة" يقف في الصالة مترددا فوضعت على رأسها العارية قطعة من القماش المقصوص ومالت برأسها تزعق فيه:

– ايه ده يا واد يا عبده عمالين ننادي عليك من الصبح؟!. روح كده شوف عديلة هانم رجعت من

القرافة والا بايتة هناك؟ النهارده الجمعة لازم نـــروح لها..

وأجاب "عبده" وهو واقف في مكانه:

- أنا ما بروحش.. أنا من يوم ما جرى اللـــي جـــرى لألطاف وأنا ما بروحش هناك! سيبوني فـــي حـــالي. كفاية البت هجت من الشارع ولا حد فـــي الشـــارع استعنى يدور عليها!. كفاية بقى.. يكفانا أنـــا وسـي شوقي نروح القسم لوحدنا، يدوروا يتمهـــزأوا علينـــا هناك، ويسألونا: انتم مين، وصفتكم ايه، وهيه تبقـــى لكم ايه.

وتقدم "عبده" من باب الحجرة وهو يتكلم.. ولمح "ميمـــي هانم" مكشوفة الذراعين والصدر فتمتم:

- يعني لو كانت ألطاف دي لبست زي الهوانم.. يعنـــي ألطاف..

وصرخت فيه "أنيسة":

- بس يا واد انت ما تجيبش السيرة الزفرة دي هنا..

ورفعت "ميمي" رأسها عن ماكينة الخياطة وقطعت الخيط بأسنانها قائلة لـــ "عبده" بحدة:

- إوعى تاني مرة تجيب سيرة زفته دي في وسط البنات.. دا انت كنت صعبان علي لما رجاء شتمتك.. لكن دا أنت تستاهل أكتر من اللي جرى لك.

وتضايق "عبده" وخرج محنقا وهو يهمهم لنفسه:

- بقى كده؟. طب داري لحمك انتي.. جاتكو شوطة كده.

حتى انت يا "ميمي"؟!. ومع ذلك فـ "ألطاف" لم تكن متزوجة ولم تخن أحدا، وإنما جنى عليها ابن الحرام!.. أما انت فأنت يا امرأة تقلبت من "عبد العزيز" لـ "عبد اللطيف" ... والله يعلم بالباقين!.. أعوذ بالله! لا يا عبده.. الظن إثم يا أخي كما يقول القرآن.. من يعرف!؟ متى يتوب عليك ربنا يا عبده من الشارع ومن فيه؟!. لا الدكتور "عبد العزيز" فتح عيادة، ولا الأسطى "عبد المعبود" فتح المجلة لتعمل فيها، ولا الباشمهندس طلبك لتعمل في هندسة الري!

"عبد الحي" هو الذي يمنيك خيرا عندما تفتح المجلة، ويطلب منك دائما أن تصبر للصيف، ثم يضحك قائلا: "الصيف ضيعت اللبن"!. أي لبن يا شيخ "عبد الحي"..

اضحك على راحتك، فكل شيء راق لك وحلا.. راقت الدنيا كلها ونال كل إنسان في الشارع ما طلبه. "عبد المعبود" رجع إلى مطبعته من زمن، وانزاحت الوزارة صنيعة السياسة الإنجليزية وجاءت وزارة لتصلح الأحوال، وبيت "أمين أفندي" أنقذ من الهدم وعينت "رجاء صدقي" ممثلة في فرقة الحكومة، ولم تجد ما تفعله غير أن تشتمني بعد طول الخدمة! وحتى "شكري عبد العال" يقولون إنه راجع إلى الجيش في وظيفة كبيرة بمصلحة الحدود بعيدا عن وجع الدماغ.. و "سميرة" تتزوج الآن، ربما تزوجت بعدها "سعاد هانم" أيضا!

لا أحد في الشارع نكبته الدنيا مثلك أنت "يا عبده"! أنت و "شوقي" وبيت "داود أفندي"!.. مات "سعد" واختفت "ألطاف".

ومن يوم ما مات "سعد" لم يعد أحد يستطيع أن يتكلم إلى "شوقي" هو دائما هناك في بيت "داود أفندي"! كان الله في عون الكل!..

للدنيا أحوال عجيبة يا عبده.. الليلة البارحة رجع "شوقي" من بيت "داود أفندي"، وقعد على مكتبه وحط رأسه على يده، ولم يذاكر..

وبعدها قام لينام والدموع في عينيه..

وقال لأخيه عبد اللطيف بصوت مخنوق: إيه رأيك أنا عاوز أدخل الحربية أقعد سنة ونص واتخرج واتجوز "صفية" أخت "سعد".

ساعتها ضحك "عبد اللطيف" ولكنك أنت يا عبده لم تضحك.

حكم! يفكر في الزواج من أخت "سعد" هو الذي كان يعض الأرض عندما مات!؟. كيف ينام في حضنها؟!. كيف تنام في حضنه وتعطيه نفسها؟ حكم..!.. أحوالها عجيبة وأمرها عجيب هذه الدنيا..

وفي الحق أن "شوقي" أصبح لا يطيق البعد عن بيت "داود أفندي". وعبثا نصحه أخوه "عبد اللطيف" أن يلتفت إلى المذاكرة، ولكن نفسه تضيق بأي كلام، وهو الآن يشعر براحة خفية لأن "عبد العزيز" ينام في مكان عمله، ويقيم هناك على الدوام.

حتى لحظات الحنين الخارق إلى "عبد العزيز" كانت لا تخلو عند "شوقي" من هذا الشعور بالراحة لأنه آمن من التأنيب.. فملاحظات "عبد اللطيف" مهما تكن، ليست مثل أوامر "عبد العزيز"، وكلمات الزاجرة.

و "شوقي" الآن متعود كلما رجع من المدرسة أن يرمي كتبه، ويغسل وجهه ويمشط شعره بعناية، ويذهب إلى بيت "داود أفندي" وهناك يتحدث مع "عديلة هانم"، و "صفية"..

ولكم كظم غيظه وهو ينظر إلى "داود أفندي" فإذا رآه يخرج من حجرة "سعد" بعينين عكرتين من البكاء، وامتلأ بالإشفاق، وأوشك أن يتقدم إليه بندم المغفرة على مشاعره ضده، ثم يعود مرة أخرى فيسخط عليه، وتختلط في نفسه الشفقة بالاشمئزاز..!

وتعود "شوقي" أن يرى نظرات "عديلة هانم" تشيع زوجها وهو يخرج بضراعة ودعاء: الله يصبرك ويقويك ويكون في عونك يا داود.

وهي منذ هربت ألطاف توصي ابنتها صفية أن ترعى أباها، فما تملك هي القوة بعد؟! نبرات صوتها تحمل أسفا لفراق ألطاف ورثاء لزوجها!..

وأوشك "شوقي" أن يحكي لجدة "سعد".. التي لم تعد تقوى على الحركة منذ مات.. ولكنه رآهـا أمامـه تتهشـم هـي الأخرى، وفي بياض وجهها يسري شحوب باهـت متحجـر كرخام القبور!

وذات مساء.. لا يعرف "شوقي" كيف حدث هذا.. في ذلك المساء وجد "صفية" وحيدة والصـغيرات مـع الجـدة فـي الداخل... وسألها عن أمها فدمعت عيناها.. وعرف منها أنها ذهبت لتزور القبر وحيدة بلا مناسبة للزيارة، ودمعت عينـا "صفية"..

وكان هو يشعر في أغوار قلبه بلاعج غريـب وبرغبـة حارة في أن يصرخ في وجه العالم ويقذف بأي شـيء فـي وجه الفضاء!..

كان يتحدى الخواء..

ولكنه تقدم إلى "صفية" يسكتها، وعندما مست يده ذراعها، وجد نفسه يمسك بكتفيها، والتفت يداه حولها، وإذا به يعانقها ويبكي؟ ... يبكي بعنف وبانهيار، وهي في أحضانه تماما..

وعندما رفع رأسه عن كتفها كانت هي تسكته..

والتفت نظراتهما لحظة.. نظرات تغوص إلى القلب وتحكم الإحساس بكل شيء آخر..

واندفعا معا في وقت واحد بلا كلمة يتعانقان.. وتماست الشفاه المنداة بالدمع، واختلج بدناهما بغتة فتعانقا أكثر فأكثر!..

وظللتهما سكينة رائعة وهما يحتضنان بعضهما بعضا..

وظلا يشربان الأنفاس المشتركة في صمت.. وشيئا فشيئا بدأ يشعر بنهديها منغرسين في صدره بكل ما تشعله الأنثى في أعصاب رجل من لذة خارقة... وأحس بغتة بالرجل في أعماقه يتمطى، فأوشك أن يعتصر بدنها اللدن البض وتسللت رائحة لحمها إلى النخاع منه، وارتعش..

وفجأة نحاها وتنحى بعيدا عنها.. وانحط على طرف كنبة في الصالون منكمشا يتصبب العرق منه ويكاد يغمر عينيه!..

واقتربت منه "صفية" في رقة بالغة، وأنفاسها تتابع بهدوء:

- مالك يا شوقي؟!

ولم يستطع أن يرفع رأسه ويضع عينيه في عينيها فتمتم:

- أنا آسف.. مكسوف منك ومن نفسي!.. أنا..!

واختنق صوته.

ولكنها قالت له في رقة حانية حزينة:

- احنا ما عملناش حاجة وحشة علشان تتكسف يا شوقي! أنا كنت شاعرة اني مع سعد أخويا! افتكرته رجع من سفر بعيدا!

وتهدج صوتها وغاض في البكاء..

وارتفع نشيجه هو الآخر، ومال برأسه على طرف الكنبة وكل جسده ينتفض من النحيب، وعلى صوت البكاء أقبلت جدة "سعد" تمشي بجهد مستندة إلى أخت "صفية" الصغيرة، وطبطبت بيدها على كتف "شوقي" ... رفع "شوقي " رأسه وجاشت نفسه، وقامت "صفية" تحمل كوب ماء لشوقي وجدة "سعد" تهمهم:

- ربنا يسوقك يا عديلة يا بنتي!.. لو كانت "ألطاف" قعدت.. أهي كانت بتبات معاكي في القرافة كل ما نفسك تروح على الزيارة يا حبيبتي!.

وأدرك "شوقي" أنه يجب أن يبحث لعديلة هانم في بلده عن فتاة تخدمها، ووعد بهذا ففرحت "صفية"..

وتمنى لو استطاع أن يجلب لها كل بنات البلد.

على أنه عندما بدأ يكتب خطابا مستعجلا لأبيه يطلب منه خادما لعديلة هانم اعترضه "عبد اللطيف" ونصحه بألا يفعل، فلن يجيبه وعدل "شوقي" عن إرسال الخطاب لأبيه، ولكن لم يستطع أبدا أن ينسى صورة "صفية" وهي بين يديه!.

لم يستطع أن ينسى أبدا طعم دموعها في حلقه ولا ملمس شفتيها على شفتيه.. ولا كلماتها.. إنها إنما تعانق فيه أخاها "سعد"!

وعندما عاد بعد أيام استقبلته "عديلة هانم" معاتبة لأنه انقطع عن الزيارة أياما، وانكب على يدها يقبلها، فسحبت يدها مبتسمة وقبلته في جبينه ورأسه.. وأنسام أبريل تتدفق من النافذة، و "صفية" أمامه تنظر إليه وأنفاسها تتابع في صمت وعمق..

ولما قامت "عديلة هانم" ترد على أمها في الداخل، وجد "شوقي" نفسه وحيدا مع "صفية". لأول مرة بعد انقطاعه، وصورة "سعد" مجللة بالسواد أمامه على الحائط وليل أبريل يلف كل شيء في الخارج بالسكينة والأحلام والرغبة في اقتحام الحياة!..

وأحس "شوقي" بالحاجة إلى أن يضع بدن "صفية" في صدره ويغرسها في أغوار ضلوعه: ونظر إليها في حنين ورقة ووجد.. وتلقت هي نظراته في تطلع حزين ولوعة! ولم تجرؤ على أن تتحرك.. كانت هي الأخرى تشعر بالحاجة الجارفة إلى أن تغرس "شوقي" في أعماقها.

وبقي هو مكانه تحتدم في صدره الانفعالات المختلطة.. فوقف وألح عليه الإحساس بنفسه.. وبجسمه ووجهه وأنفه ويديه.. وارتبك.. وبقي في مكانه.. وقامت "صفية" تسأله بصوت كالهمسات:

- ايه يا شوقي!؟. مالك!

ولم يجرؤ على أن يجيب، ولم تقل هي شيئا بعد.

ودخلت "عديلة هانم".. فوجدت "صفية" واقفة وتجاهها "شوقي"، وهما صامتان.. وسألت مبتسمة!

- إيه يا ولاد!؟ مالك يا شوقي؟

وقعدت على الكنبة الكبيرة و "شوقي" يقف تحت النجفة المضيئة منحينا باضطرام نفسه!.. وخجل مفاجئ يعذبه، ونسمات وانية من ليل أبريل تهف من الشباك المفتوح!..

وهز "شوقي" رأسه بعنف وعصبية كأنما ينفض عن نفسه شباكا علقت به، وقال لعديلة هانم.

- كان فيه عمال الصبح بيهدوا بيت الدايرة اللي قدامكم.. حضرتك شفتيهم؟. بيقولوا ان الشارع كله حاينهد!.. قال عاوزين يوسعوه، ويرصفوه.. صحيح!!؟

وامتعضت "عديلة هانم" لحظة ثم بان في وجهها ذعر يائس.. ولكنها عادت فأرخت أهدابها باستسلام قائلة بصوت مذعن فاجع:

- ما هي نينه كانت بتقولي جوه!!.. يااللا!.. يروح راخر.. هو البيت حايكون أغلى من اللي راح!..

بينما وقفت "صفية" مروعة:

- البيت حاينهد؟!. مش معقول.. ده مش معقول!..

ونظرت اليها أمها باستغراب وحدة ووجيعة. وترددت الزفرات في حجرة الصالون..

وخرج "شوقي" صامتا..

وعندما كان يدخل بيته سمع صوت "عبده" يزعق من شقة "عبد الحي":

- بقى بعد ما ألطاف تهج من الشارع علشان مش قادرة ترفع رأسها فيه يا ولداه.. بقى بعد ما خافت من الشارع وهربت، تقوم ييجي الشارع ينهد!!.. لا حول الله!..

لم تكن إذن مجرد كلمات قالها العمال الذين يهدون بيت الدايرة.. فهذا هو "أمين أفندي" يصرخ:

- الله!.. هو ده الدستور؟!

و "ميمي" تبكي.. و "عبد اللطيف" يقول إن الحكومة الإصلاحية ستتولى توسيع الشارع وتوسيع الحارة الخلفية لتمد الشارع عبر الحارة إلى درب الجماميز.. ثم ترصفه وتنيره.. وهذا كله سيرفع قيمة أرض الشارع.. وسيصبح شارعا أماميا هاما..!

ولكن ميمي تصرخ في جزع ودموعها تنحدر بلا توقف:

- ونعمل إيه؟!.. ونبني تاني منين.. ونسكن بإيه طول ما الشارع بيتهد!.. هيه فلوس التعويض حاتنفع بإيه في البناية يا عبد اللطيف؟!.. ما فيش حد يرحم!؟.

حتى شكري بيه نفسه مش سائل!.. من ساعة ما استلمنا الجواب النهارده الصبح واحنا بنترجاه يسعى لنا وهو يقول مافيش فايده.. فرحان يا سيدي بتوسيع الشارع!.. حايفضل له أرض يبني عليها!.. لكن احنا نعمل ايه؟!. نعمل إيه يا عبد اللطيف؟!.. نستلم الجواب النهارده ويبتهدوا الهد النهارده؟.. نعمل إيه بس؟

وفي الحق أن أحدا لم يكن يعرف ما العمل..

لم يفكر "عبد اللطيف" في هذا من قبل!.

إنه يعرف أن "شكري" يريد أن يبيع أرض بيته بعد أن يرتفع ثمنها نتيجة لتوسيع الشارع، ويشتري مكانها أرضا في العباسية بجوار مصلحة الحدود التي سيعمل بها..

ولكن "شوقي" أخاه ما له هو الآخر.. لكأنه يفقد في الشارع شيئا عزيزا يمتلكه!.. كان يبدو عليه أول الأمر أنه لا يصدق أن بيوت الشارع يمكن أن تنتزع ملكيتها، وتهدم، ولكنه الآن يحمل على وجهه هذا اليقين المستسلم، وخيبة الأمل!..

هزته صرخات "ميمي" ودموع أم "رجاء" التي تعول أسفا على بعثرة الأحبة.. وتتساءل أين يمكن أن تجد شقة رخيصة كالتي تسكنها الآن.. هل اهتز شوقي من احتجاج "أمين أفندي" في فزعه، وذهوله أمام هذه الأوامر الجديدة؟!..

إن ما يعني شوقي حقا هو: أين يذهب "داود أفندي" بأهله؟. أين تذهب "صفية"؟ أيؤجرون بيتا آخر، وتتطلع عليها عيون جيران آخرين؟!.. أم يستضيفهم أقاربهم من الذين كانوا يترددون عليهم من قبل؟! هؤلاء الذين كان يضيق بهم "سعد"!..

ومن يدري.. أيعودون إلى الشارع أم يبيعون أرضهم ويشترون أرضا ويبنون في مكان آخر كما قرر "شكري بك" أن يصنع!.. من قال لهذه الحكومة إن أهل الشارع ضاقوا بشارعهم الخلفي وإنهم يريدونه شارعا أماميا مضيئا؟!

مازال (أمين أفندي) يئن وامرأته (ميمي) تبكي وتطلق احتجاجها الرهيب!.. ما العمل؟.. كيف يدبرون المال للبناء!!.

ولكن "عبد المعبود" لا يبالي.. كيف تظنه سيبكي معك يا "شوقي" على الشارع ولكنه قال ببساطة:

- دايما اللي بينهد بينبني بداله أحسن منه!.. بس غيرشي العشرة ما تهونش والفرقة صعبة!.. لكن بكره برضه يتلم الشمل!

وحتى أخوك "عبد اللطيف" الذي أصبح لا يفارق "ميمي" أبدا. وأصبح يذهب إليها باستمرار و "أمين أفندي" في الخارج، حتى "عبد اللطيف" يبدو أنه مسرور.. ها هو ذا يقول يا "شوقي" وأنت بجانبه في البلكونة تحدثه عن حزنك على الشارع. ما احنا كنا حانسيب الشارع.. ونشوف لنا بقى شقة كبيرة مناسبة في الحلمية، يمكن "عبد العزيز" يفكر ياخد له فيها أودة يعملها عيادة.. وأنا كمان كلها سنتين وأتخرج.. عاوزين حاجة تناسب واحد دكتور وواحد محامي!!.. دلوقت على الأقل نعزل من الشارع ده من غير ما أبوك يعترض!؟

والذين ارتبطت بهم هنا عروقنا نفسها؟!.. والذين يعيشون بكل ذكرياتهم في حبات قلوبنا!!؟.. أليس لك قلب يا "عبد اللطيف"؟!.. ما الذي بينك وبين "ميمي" إذن؟!..

ألم يخفق قلبك لـ "درية" مثلا!!.. ألن تشعر بالوحشة لشيء هنا.. لأي شيء!!

واختنق صوت "شوقي" في دمعة، وظل صامتا أمام أخيه.. ولكزه "عبد اللطيف" متلطفا وهو يطل من الشرفة:

- شايف.. شايف عمك شكري وكمال الصفطاوي؟ عارف هم رايحين فين؟.. شايف "شكري بيه" ماشي فرحان هايص ازاي يا وله.. دول رايحين ياخدوا خاطر "داود أفندي" علشان كتب الكتاب.. كمال حايكتب على سميرة في نفس ليلة كتب كتاب شكري على سعاد، أفراح بالجملة زي الأفراح في آخر روايات روض الفرج!.. هيص يا عم شكري بالست سعاد..

ماذا؟!.. أتضحك يا عبد اللطيف" ألا يمتلئ سمعك بعويل "أمين أفندي" و "ميمي هانم"؟!.. لكم كان "أمين" سعيدا من قبل عندما أعيد الدستور، وحفظ له بيته، وخيل إليه أنه انتصر على دائرة البرنس عزيز!.. ولكنه اليوم لا يواجه الدائرة، وإنما يواجه ما تسميه يا "عبد اللطيف" إجراءات حكومة الإصلاح!.. كان قانعا بيته وبالشارع الخلفي الضيق.. تعود كل ما فيه، تعود رائحته، وترابه وكل ما فيه حتى المآسي!..

خفف عنه أنت يا "عبد اللطيف" بدلا من أن تمتلئ بهـذا الفرح لأننا أخيرا سنترك الشارع!..

ما الذي يضايقك في هذا الشارع؟ ألم تستمتع به دائما؟!.. وأنت أيضا يا "شكري".. ماذا دهاك يا "عم شكري"؟! الشارع نفسه ينهد، وأنت سعيد، تفكر في سكن آخـر، وتفكـر فـي الزواج؟..

إن الخبر وقع على "عديلة هانم" كخبطـة مفاجئـة علـى الرأس، ولكنها بائسة مفزعة لا تبالي بأي شيء بعد ما ضاع منها ابنها نفسه! ألا يوجد شيء يمكن عمله يا "عم شكري"؟..

وأنـت يـا "عبـد اللطيـف"، أنـت و "عبـد المعبـود" و "عبد الحي" ألا تكتب مقالا يا "عبد الحي" في المجلة التـي ستصدر؟! هيهات؟.. ألا يشعر أحدكم بفاجعـة مـن تفـرق الأحباء.. أيها الناس.. أليست لكم قلوب؟..

بلى يا "شوقي".. لي مثلك قلب!!

ولكن الحياة تمضي!..